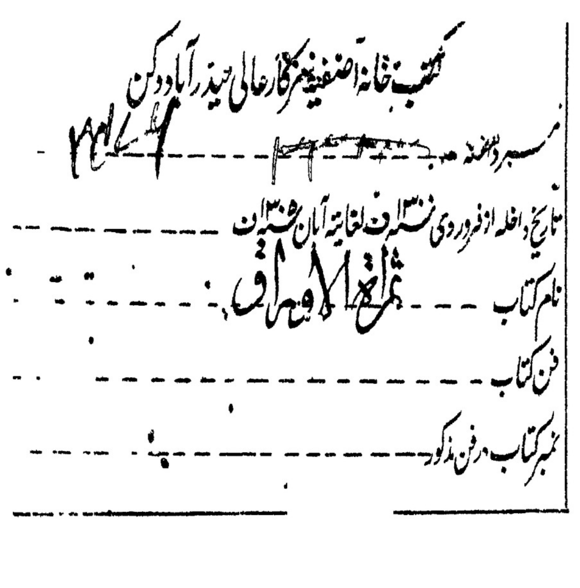
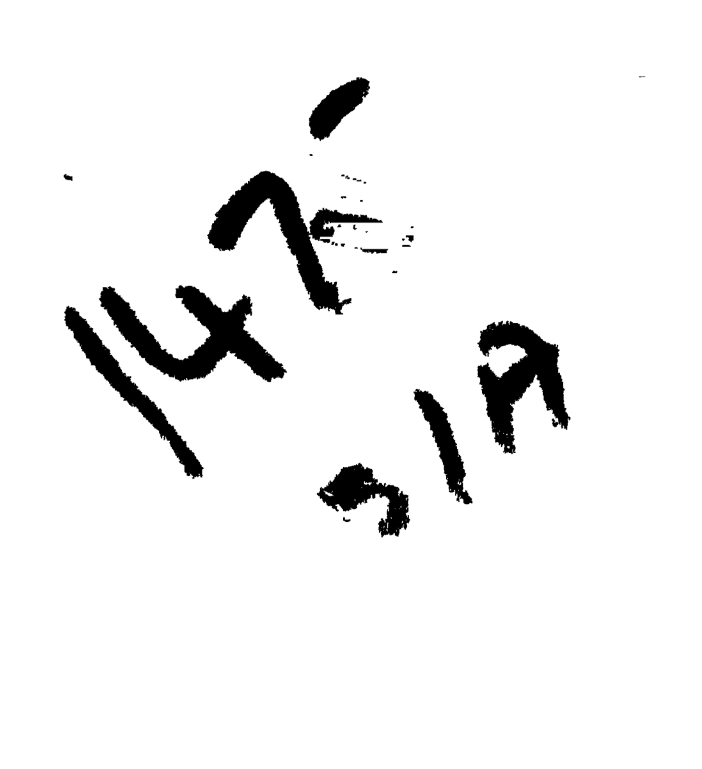




فهرست ثمرات الاوراق للشيخ تقي الدين بن حجة الحموي

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿تمت فهرست ثمرات الاوراق﴾

(فهرست الذيل الاول)

صحيفة

﴿تمت فهرست الذيل الاول﴾

(فهرست الذيل الثاني)

صحيفة

صحيفة

﴿تمت فهرست الذيل الثانى﴾

(فهرست تأهيل الغريب لابن حجة الحموى)

صحيفة

﴿تمت الفهرست﴾

كتاب ثمرات الاوراق فى المحاضرة
لحجة العرب وترجمان الادب رحلة الطالبين
ومفيد الراغبين الشيخ تقى الدين أبى بكر
ابن على المعروف بابن حجة الحموى
الحنفى تغمده الله برحمته
وأسكنه فراديس
جنته آمين

(الذيل الاول للثمرات)

وهو كتاب لا يستغنى الاديب عن لطائفه ويرتع فى رياض محاسنه وطرائفه

(الذيل الثانى للثمرات أيضا)

وهو كتاب تتزين به مجالس الادباء وتبتهج عند قراءته نفوس الالباء وتحلى المسامع بحلاه وتطريب وهو للفاضل الكامل الشيخ ابراهيم الأحدب

ثم فاح مسك الختام ولاح بدر التمام بكتاب تأهيل الغريب الآتى من كل فن عجيب الجامع لانواع غريبة من أشعار العرب والمولدين الكامل فى فصاحة الالفاظ وتمكن القوافى كمال العقد الثمين لقاضى قضاة البلاغة فيما جل وخفى تقى الدين أبى بكر بن حجة الحنفى سقى الله ثراه وجعل الجنة مأواه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام حجة العرب * وترجمان الادب * تقي الدين أبو بكر بن حجة الحنفي منشئ دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية تغمده الله برحمته (أما بعد) حمدا لله الذي فكهنا بثمار اوراق العلماء * والصلاة والسلام على نبيه شجرة العلم التي أصلها ثابت وفرعها في السماء * وعلى آله وصحبه الذين هم فروع هذه الشجرة * واغصانها التي دنت لهذه الامة قطوفها المثمرة * فاني وريت بتسمية هذا الكتاب بثمرات الاوراق * عالما ان قطوفه لم تدن لغير ذوي الاذواق * فمن ذلك ما نقلته من درة الغواص لابي محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات ان أبا العباس المبرد روى ان بعض أهل الذمة سأل أبا عثمان المازني في قراءة كتاب سيبويه عنه وبذل له مائة دينار في تدريسه اياه فامتنع أبو عثمان من ذلك فقال له المبرد جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فاقتك واحتياجك اليها فقال أبو عثمان هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة حديث وكذا وكذا آية من كتاب الله ولست أرى ان أمكن منها ذميا غيرة على كتاب الله تعالى وحمية له قال فاتفق ان غنت جارية بحضرة الواثق من شعر العرجي

اظلوم ان مصابكم رجلا * اهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من بالحضرة في اعراب رجلا فمنهم من نصبه وجعله اسم ان ومنهم من رفعه على انه خبرها والجارية مصرة على ان شيخها أبا عثمان المازني لقنها اياه بالنصب فامر الواثق باشخاصه قال أبو عثمان فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل قلت من مازن يا أمير المؤمنين قال أي الموازن قلت من مازن ربيعة فكلمني بكلام قومي وقال با اسمك لانهم يقلبون الميم باء والباء ميما اذا كانت في أول الاسماء فكرهت ان أجيبه على لغة قومي لئلا أواجهه بالمكر فقلت بكر يا أمير

المؤمنين ففطن لما قصدته واعجبه مني ذلك ثم قال فما تقول في قول الشاعر

أظلوم ان مصابكم رجلا * اهدى السلام تحية ظلم

أترفع رجلا ام تنصبه فقلت الوجه النصب يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك فقلت ان مصابكم مصدر بمعنى اصابتكم فاخذ اليزيدي في معارضتي فقلت هو بمنزلة قولك ان ضربك زيدا ظلم فالرجل مفعول مصابكم ومنصوب به والدليل عليه ان الكلام متعلق الى ان تقول ظلم فيتم فاستحسنه الواثق وأمر له بألف دينار قال أبو العباس المبرد فلما عاد أبو عثمان الى البصرة قال لي كيف رأيت رددنا لله مائة فعوضنا الفا (ونقلت من درة الغواص أيضا) ان حامد بن العباس سأل علي بن عيسى في ديوان الوزارة عن دواء الخمار وكان قد علق به فاعرض عن كلامه وقال ما انا وهذه المسئلة فخجل حامد منه والتفت الى قاضي القضاة ابي عمر فسأله عن ذلك فتنحنح لاصلاح صوته ثم قال قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها والاعشى هو المشهور بهذه الصناعة في الجاهلية حيث قال

وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها

ثم تلاه أبو نواس في الاسلام فقال

دع عنك لومي فان اللوم اغراء * وداوني بالتي كانت هي الداء

فاسفر حينئذ وجه حامد وقال لابن عيسى ما ضرك يا بارد ان تجيب ببعض ما أجاب به مولانا قاضي القضاة وقد استظهر في جواب المسئلة بقول الله تعالى أولا ثم بقول النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا وادى المعنى وخرج من العهدة فكان خجل ابن عيسى أكثر من خجل حامد لما ابتدأه بالمسئلة انتهى (ويضارع هذه الحكاية) في لبس بعض القضاة المتقشفين وادعائهم مع الزهد والتقشف للمستفتين ما نقلته من درة الغواص للحريري أيضا قال اجتمع قوم على شراب فتغنى مغنيهم بشعر حسان

ان التي ناولتني فرددتها * قتلت قتلت فهاتها لم تقتل
كلتاهما حلب العصير فعاطني * بزجاجة ارخاهما للمفصل

فقال بعضهم امرأتي طالق ان لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضي عن علة هذا الشعر كيف قال ان التي فوحد ثم قال كلتاهما فثنى فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا فيه ومضوا يتخبطون القبائل الى بني شقرة فوجدوا عبيد الله بن الحسن يصلي فلما فرغ من صلاته قالوا له قد جئناك في أمر دعتنا اليه الضرورة وشرحوا له الخبر وسألوه الجواب فقال مع زهده وتقشفه ان التي ناولتني فرددتها اعني بها الخمرة الممزوجة بالماء ثم قال كلتاهما حلب العصير يريد الخمرة المحلبة من العنب والماء المحلب من السحاب المكنى عنه بالمعصرات انتهى (قال الحريري) وقد بقي في الشعر ما يحتاج الى تفسيره اما قوله ان التي ناولتني فرددتها قتلت فانه خاطب به الساقي الذي ناوله كاسا ممزوجة لانه يقال قتلت الخمرة اذا مزجتها فاراد أن يعلمه انه فطن لما فعله ثم ما اقتنع بذلك منه حتى دعا عليه بالقتل في مقابلة المزج ثم انه عقب الدعاء عليه بان استعطى منه ما لم تقتل يعني الصرف التي لم تمزج وقوله ارخاهما للمفصل يعني به اللسان

وسمي مفصلا بالكسر لانه يفصل بين الحق والباطل قال الحريري وليس على ما اعتقده القاضي عبيدالله من الاستماح وخفض الجناح مايقدح في نزاهته ويغض من نبله ونباهته والله أعلم (ونقلت من درة الغواص) ان عروة بن اذينة الشاعر وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له ألست القائل

لقد علمت وما الاسراف من خلقي * ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
اسعى له فيعنيني تطلبه * ولو قعدت اتاني لا يعنيني

واراك قد جئت من الحجاز الى الشام في طلب الرزق فقال له يا أمير المؤمنين زادك الله بسطة في العلم والجسم ولارد وافدك خائبا والله لقد بالغت في الوعظ واذ كرتني ما انسانيه الدهر وخرج من فوره الى راحلته فركبها وتوجه راجعا الى الحجاز فلما كان في الليل ذكره هشام وهو في فراشه فقال رجل من قريش قال حكمة ووفد الي فجبهته ورددته عن حاجته وهو مع ذلك شاعر لا آمن مايقول فلما اصبح سأل عنه فأخبر بانصرافه فقال لاجرم ليعلم ان الرزق سيأتيه ثم دعا مولى له واعطاه الفي دينار وقال الحق بهذه ابن اذينة واعطه اياها قال فلم ادركه الا وقد دخل بيته فقرعت الباب عليه فخرج الي فاعطيته المال فقال ابلغ أمير المؤمنين قولي سعيت فاكديت ورجعت الى بيتي فاتاني رزقي (ويضارع هذه الحكاية) ماحكى عن هدبة بن خالد رحمه الله تعالى قال حضرت مائدة المأمون فلما رفعت المائدة جعلت التقط مافي الارض فنظر الي المأمون فقال أما شبعت ياشيخ قلت بلي يا أمير المؤمنين ولكن حدثني حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التقط ماتحت مائدته أمن من الفقر فنظر المأمون الى خادم واقف بين يديه فأشار اليه فما شعرت ان جاءني ومعه منديل فيه الف دينار فناولني اياه فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك انتهى (ومن لطائف ماجنيت من ثمرات الاوراق) ان رجلا من الحذاق كان يكتب كتابا والى جانبه آخر فانتهى في كتابه الى اسم عمرو فكتبه بغير واو فقال ياه ولا تازدها واو اللفرق بينها وبين عمر فقال له والله لقد تفضل مولانا بزيادة الواو بمعنى تفوضل (قلت) وبعضهم يرى ان الواو تزاد بعد لا النافية في الجواب اذا قيل هل فعلت كذا وكذا فيقول لا وعافاك الله قال أبو الفرج بن الجوزي روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال لرجل عربي اكان كذا وكذا فقال لا اطال الله بقاك فقال الامام عمر رضي الله عنه قد علمتم فلم تعلموا هلا قلت لا وعافاك الله (وحكى) عن الصاحب بن عباد انه قال هذه الواو وهنا أحسن من واوات الاصداغ في وجنات الملاح (قلت) وهذه الواو اعني واو عمرو نظم فيها الشعراء كثيرا منهم أبو نواس قال يهجو أشجع السلمي

قل لمن يدعي سليمى سفاها * لست منها ولا قلامة ظفر
انما أنت من سليمى كواو * الحقت في الهجاء ظلما بعمرو

(وقال أبو سعيد الرستمي واجاد)

افي الحق ان يعطى ثلاثون شاعرا * ويحرم مادون الرضا شاعر مثلي
كما سامحوا عمرا بواو مزيدة * وضويق بسم الله في الف الوصل

(ومن

(ومن لطائف المجتنى) ما نقل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قيل انه قال يوما للقاضي الفاضل لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب فلعله ضعيف امض اليه وتفقد أحواله فلما دخل الفاضل الى دار العماد وجد أشياء أنكرها في نفسه مثل آثار مجالس أنس ورائحة خمر وآلات طرب فانشد

ما ناصحتك خبايا الود من رجل * ما لم ينلك بمكروه من العذل
محبتي فيك تأبى عن مسامحتي * بان أراك على شئ من الزلل

فلما قام من عنده نزع العماد عما كان فيه وأقلع ولم يعد الى شئ من ذلك البتة (ومن اللطائف) ما نقل عن الملك الظاهر رحمه الله تعالى قيل انه لما استعرض الامير بدر الدين بيليك الخازندار ليشتريه قال له أنا حر يا مولانا السلطان وأحسن الكتابة فاحضرت له دواة فكتب يقول

لولا الضرورة ما فارقتكم أبدا * ولا تنقلت من ناس الى ناس

فاعجبه الاستشهاد بهذا البيت ورغبه ذلك في مشتراه (ويضارعه ما حكي عن الصاحب كمال الدين بن العديم) قيل ان انسانا رفع قصة الى الصاحب المشار اليه فاعجبه خطها فامسكها وقال لرافعها هذا خطك قال لا ولكن حضرت الى باب مولانا فوجدت بعض مماليكه فكتبها لي فقال علي به فلما حضر وجده مملوكه فقال هذا خطك قال نعم قال فهلا طريقتي من هو الذى أظهرك عليها فقال يا مولانا كنت اذا وقعت لاحد على قصة اخذتها منه وسألته المهلة حتى أكتب عليها سطرين أو ثلاثة فامره أن يكتب بين يديه ليراه فكتب

وما تنفع الآداب والعلم والحجى * وصاحبها عند الكمال يموت

فكان اعجاب الصاحب بالاستشهاد أكثر من الخط ورفع منزلته بعد ذلك (وأذكرني اتفاق التورية في الكمال هما) ما حكي عن القاضي فخر الدين لقمان والقاضي تاج الدين أحمد بن الاثير رحمهما الله انهما كانا صحبة السلطان على تل العجول ولفخر الدين مملوك اسمه الطنبا فاتفق أنه طلب مملوكه المذكور وناداه يا طنبا فقال له نعم ولم يأته وكانت ليلة ممطرة مظلمة فاخرج فخر الدين بن لقمان رأسه من الخيمة فقال تقول نعم ولم أرك فقال القاضي تاج الدين

في ليلة من جمادى ذات أندية * لا يبصر الكلب في ارجائها الطنبا

(ومن اتفاق التورية أيضا) ما كتبه الشيخ شرف الدين بن عبد العزيز الانصاري شيخ شيوخ حماة ملغزا في باب الى والده

ما واقف في المخرج * يذهب طورا ويجي
لست أخاف شره * ما لم يكن بمرتج

فكتب اليه والده في الجواب ذهاب واياب وخوف وشره هذا باب خصومه والسلام (قيل ان الصاحب جمال الدين بن مطروح) كتب لبعض الرؤساء رقعة الى صديق له يشفع فيها عنده فكتب ذلك الرئيس هذا الامر علي فيه مشقة فكتب ابن مطروح في جوابه لولا المشقة فلما وقف عليها فهم الاشارة الى قول المتنبي

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

وقضى الشغل على الفور انتهى (قيل ان يوسف الصديق عليه السلام) كتب على باب السجن لما خرج منه هذا قبر الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء وقال الشاعر

دعوى الاخاء على الرخاء كثيرة * بل في الشدائد تعرف الاخوان

(ولله در يزيد بن المهلب) من ذي مروءة وسخاء وتصديق أمل فانه كان في سجن الحجاج يعذب فدخل عليه يزيد بن الحكم وقد حل عليه نجم وكانت نجومه في كل أسبوع ستة عشر ألف درهم فقال له

أصبح في قيدك السماحة والـ * جود وفضل الصلاح والحسب
لا تصبرن ان تتابعت نعم * وصارف في البلاء محتسب
برزت سبق الجياد في مهل * وقصرت دون سعيك العرب

فالتفت يزيد الى مولى له وقال أعطه نجم هذا الاسبوع ونصبر على العذاب الى السبت الآخر (قال الاصمعي) حضرت مجلس الرشيد وفيه مسلم بن الوليد اذ دخل أبو نواس فقال له الرشيد ما أحدثت بعدنا يا أبا نواس فقال يا أمير المؤمنين ولو في الخمر فقال قاتلك الله ولو في الخمر فانشد

يا شقيق النفس من حكم * نمت عن ليلي ولم أنم

حتى انتهى الى آخرها فقال

فتمشت في مفاصلهم * كتمشي البرء في السقم

فقال أحسنت والله يا غلام اعطه عشرة آلاف درهم وعشر خلع فأخذها وخرج قال الاصمعي فلما خرجنا من عنده قال لي مسلم بن الوليد ألم تر الى الحسن بن هانئ كيف سرق شعري وأخذ به مالا وخلعا فقلت له وأي معنى سرق لك قال قوله فتمشت في مفاصلهم البيت فقلت وأي شئ قلت فقال

كأنها وشاحاها اذا خطرت * وقلبها قلبها في الصمت والخرس
تجري محبتها في قلب وامقها * جري السلافة في أعضاء منتكس

(ترجمة المعتزلة) المعتزلة طائفة من المسلمين يرون ان أفعال الخير من الله وافعال الشر من الانسان وان القرآن مخلوق محدث ليس بقديم وان الله تعالى غير مرئي يوم القيامة وان المؤمن اذا ارتكب الذنب مثل الزنا وشرب الخمر كان في منزلة بين منزلتين يعنون بذلك انه ليس بمؤمن ولا كافر وان اعجاز القرآن في الصرفة لا أنه في نفسه معجز ولو لم يصرف الله العرب عن معارضته لاتوا بما يعارضه وان من دخل النار لم يخرج منها وانما سموا معتزلة لان واصل بن عطاء كان يجلس الى الحسن البصري رضي الله عنه فلما ظهر الخلاف وقالت الخوارج بكفر مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بانهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر خرج واصل عن الفريقين وقال ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين منزلتين فطرده الحسن رضي الله عنه عن مجلسه فاعتزل عنه فقيل لاتباعه معتزلة ولم يزل مذهب الاعتزال ينمو الى أيام الرشيد فظهر بشر المريسي واحضر الشافعي مكبلا في الحديد فسأله بشر والسؤال ما تقول يا قرشي في القرآن فقال اياي تعني قال نعم قال مخلوق فخلى عنه وأحس الشافعي رضي الله عنه بالشر وان

الفتنة تشتد فى اظهارالقول بخلق القرآن فهرب من بغداد الى مصر ولم يقل الرشيد رحمه الله بخلق القرآن فكان الامر بين أخذ وترك الى أن ولى المأمون فقال بخلق القرآن وبقى يقدم رجلا ويؤخر أخرى فى الدعوة الى ذلك الى ان قوى عزمه فى السنة التى مات فيها وطلب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فأخبر فى الطريق انه توفى فبقى الامام محبوسا بالرقة حتى بويع المعتصم فاحضر الى بغداد وعقد له مجلس المناظرة وفيه عبد الرحمن بن اسحاق والقاضى أحمد ابن أبى دواد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام فلم ينقطع فى بحث وسفه أقوال الجميع فامر به فضرب بالسياط الى أن أغمى عليه ورمى على باريه وهو مغشى عليه ثم حمل وصار الى منزله ولم يقل بخلق القرآن ومكث فى السجن ثمانية وعشرين شهرا ولم يزل يحضر الجمعة ويفتى ويحدث حتى مات المعتصم وولى الواثق فاظهر ما اظهر من المحنة وقال للامام أحمد لا تجمعن اليك أحدا ولا تساكنى فى بلد انا فيه فاختفى الامام أحمد لا يخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل فاحضره وأكرمه واطلق له مالا فلم يقبله وفرقه وأجرى على أهله وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم ولم تزل جارية الى أن مات المتوكل وفى أيامه ظهرت السنة وكتب الى الآفاق برفع ما وقع من المحنة واظهار السنة وتكلم فى مجلسه بالسنة ولم يزالوا أعنى المعتزلة فى قوة الى أيام المتوكل ولم يكن فى هذه الامة الاسلامية أهل بدعة أكثر منهم ومن مشاهيرهم على ماذكروا من الفضلاء الاعيان الجاحظ وواصل بن عطاء والقاضى عبد الجبار والرمانى النحوى وأبو على الفارسى واقضى القضاة الماوردى الشافعى وهذا غريب ومن المعتزلة أيضا الصاحب بن عباد وصاحب الكشاف والفراء النحوى والسيرافى وابن جنى والله أعلم (ومما جنيته من ثمرات الاوارق) ان الرشيد سأل جعفرا عن جواريه فقال يا أمير المؤمنين كنت فى الليلة الماضية مضطجعا وعندى جاريتان وهما يكبسانى فتناومت عنهما لانظر صنيعهما واحداهما مكية والاخرى مدنية فمدت المدنية يديها الى ذلك الشئ فلعبت به فانتصب قائما فوثبت المكية وقعدت عليه فقالت المدنية انا أحق به لاننى حدثت عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من أحيا أرضا ميتة فهى له فقالت المكية وانا حدثت عن معمر عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ليس الصيد لمن أثاره انما الصيد لمن اخذه فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه وقال هل من سلوة عنهما فقال جعفر هما ومولاهما بحكم أمير المؤمنين وحملهما اليه (ومن ذلك ما حكى عن بعض المطربين انه غنى فى جماعة عند بعض الامراء

اذا أنت أعطيت السعادة لم تبل * ولو نظرت شزرا اليك القبائل

وان فوق الاعداء نحوك أسهما * ثنتها على أعقابهن المناصل

فطرب الامير الى الغاية ولما زاد طربه قال لبعض غلمانه هات خلعة لهذا المغنى ولم يفهم المغنى ما يقوله الامير فقام لقلة حظه الى بيت الخلاء وفى غيبته جاء المملوك بالخلعة فوجد المغنى غائبا وقد حصل فى المجلس عربدة وأمر الامير باخراج الجميع فقيل للمغنى بعد ما خرج ان الامير كان قد أمر لك بخلعة فلما كان بعد أيام حضر المغنى عند ذلك الامير وغنى فقال

اذا أنت أعطيت السعادة لم تنل * ولو نظرت شزرا اليك القبائل

بفتح التاء وضم الباء فانكروا عليه ذلك فقال نعم لانى لما بلت فى ذلك اليوم فاتتنى السعادة من الامير فاوضحوا له القصة فضحك واعجبه ذلك وأمر له بخلعة (ومن المنقول) ان عبد الله ابن المعتز من خلفاء بنى العباس مع كماله وغزارة فضله كان لم يزل منغصا فى مدة حياته بويع له بالخلافة وظن ان الحظ قد تنبه له فلم يتم الامر له الا يوما واحدا ثم قبض عليه وقتل رحمه الله تعالى على انه ما وافق على ولاية الامر حتى اشترط عليهم ان لا يسفكوا فى واقعته دما ومحله من الادب لا يخفى وشمعة فضله كالصبح لا تقط ولا تطفا وقد قيل

قد درك من ملك بمضيعة * ناهيك فى العلم والعلياء والحسب

ما فيه لو ولا ليت تنقصه * وانما ادركته حرفة الادب

وقال ابن الساعاتى

عفت القريض فلا اسمو له أبدا * حتى لقد عفت ان أرويه فى الكتب

هجرت نظمى له لا من مهانته * لكنها خيفة من حرفة الادب

قلت ومابرح الزمان مولعا بخمول أهل الادب وخمود نارهم كان الملك الافضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف من كبار أهل الادب وكان حسن السيرة متد ينا قل ان عاقب على ذنب وله المناقب الجميلة وكان أكبر اخوته ومع كمال صفاته وآدابه التى سارت بها الركبان ما صفا له الدهر ولا هنا بالملك بعد أبيه السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى الا مدة يسيرة بدمشق المحروسة ثم حضر اليه عمه أبو بكر العادل وأخوه الملك العزيز عثمان فاخرجاه من ملكه بدمشق الى صرخد ثم جوزاه الى سميساط وفى ذلك كتب الى الامام الناصر ببغداد

مولاى ان أبا بكر وصاحبه * عثمان قد منعا بالسيف حق على

فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقى * من الاواخر ما لاقى من الاول

فكتب الناصر الجواب ولكن الفرق مثل الصبح

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا * بالصدق يخبر ان أصلك طاهر

غصبوا عليا حقه اذ لم يكن * بعد النبى له بيثرب ناثر

فاصبر فان غدا عليه حسابهم * وابشر فناصرك الامام الناصر

ولم ينصره الامام الناصر بل توفى بغتة بسميساط رحمه الله تعالى ومن شعره ما ذكره ابن واصل فى مفرج الكروب

يا من يسود شعره بخضابه * فعساه من أهل الشبيبة يحصل

ها فاختضب بسواد حظى مرة * ولك الامان بانه لا ينصل

(قلت) ومثله الملك الناصر داود ابن الملك المعظم وكان داود صاحب الكرك ما برح مع كمال فضله منكدا مشتتا فى البلاد توجه الى بغداد ومعه نفر الفضلاء بن بصاقة والشيخ شمس الدين الخرشاهى وقد استصحب جواهر نفيسة والتجأ الى الامام الناصر وطلب الحضور بين يديه ليشاهده فى الملا فما قدر له ذلك ولا وافق الخليفة عليه حتى امتدحه بقصيدته البائية التى مطلعها

ودان الم بالكثيب ذوائبه * وجنح الدجى وحف تجول غياهبه

تفهقه فى تلك الربوع رعوده * وتبكى على تلك الطلول سحائبه

وقال منها فى حكاية حاله مع الخليفة

أيحسن فى شرع المعالى ودينها * وأنت الذى تعزى اليه مذاهبه
بانى أخوض الدو والدو مقفر * سباريته مقفرة وسباسبه
ويأتيك غيرى من بلاد قريبة * له الامن فيها صاحب لا يجانبه
فيلقى دنوا منك لم ألق مثله * ويحظى ولا احظى بما انا طالبه
وينظر فى لألاء قدسك نظرة * فيرجع والنور الامامى صاحبه
ولو كان يعلونى بنفس ورتبة * وصدق ولاء لست فيه أصاقبه
لكنت أسلى النفس عما ترومه * وكنت اذود العين عما تراقبه
ولكنه مثلى ولو قلت اننى * أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه

الناصر يشير الى مظفر الدين كوكبورى ابن كوجك فانه قدم الى الديوان فطلب الحضور فاذن له وبرز له الخليفة وشاهد وجهه ولما وقف الخليفة على هذه القصيدة أعجبته غاية الاعجاب وهى من النظم البديع فى غاية لا تدرك فاستدعاه بعد شطر من الليل واجتمع به خلوة وما تم له ما ظفر به مظفر الدين المذكور وسبب ذلك ان الخليفة راعى عمه المذكور والذى ثبت عند أهل التاريخ ان عمه العادل ما فعل ذلك الاحسدا له على كمال أدواته وبلاغة آدابه وقيل انه كتب خطا منسوبا ازرى بالحدائق المدبجة (وحكى صاحب الريحان والريعان) قال حضر شاب ذكى بعض مجالس الادب فقال بعضهم ما تصحيف نصحت فخنتنى قال تصحيف حسن فاستغرب اسراعه وكان بالمجلس شاعر من أهل بلنسية فاتهم الشاب وقال مختبرا له ما تصحيف بلنسية فاطرق ساعة ثم قال أربعة أشهر فجعل البلنسى يقول صدق ظنى انك تدعى وتنتحل ما تقول والفتى يضحك ثم قال له أشعرت أنت يا شاعر فقال له وأى نسبة بين أربعة أشهر وبين بلنسية فقال له ان لم يكن فى اللفظ فهو فى المعنى ثم قام وهو يقول ذلك فتنبه بعض الحاضرين ونظر فاذا أربعة أشهر ثلث سنة وهو تصحيف بلنسية فخجل الشاعر المنازع ومضى الى الشاب معترفا ومعتذرا انتهى وهذا المعنى فى بلنسية نظمه الشيخ بدر الدين الدماميني أحجية فقال

يا واحد العصر ما بلدة * محاسنها فى الورى تذكر
حجى ما يرادف تصحيفها * وخفك أربعة أشهر

ومن الغريب ما نقل عن الفقيه عمارة اليمنى الشاعر انه مر بمصلوب فقال

ومد على صليب الصلب منه * يمينا لا تطول الى الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب * دعاه الى الغواية والضلال

فلم يمض ثلاثة أيام حتى صلب بين القصرين مع الجماعة الغرماء وكان الفقيه نجم الدين عمارة أديبا ماهرا فقيها شافعى المذهب من أهل السنة قدم فى دولة الفاطميين الى الديار المصرية وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر ووزيره الصالح بن رزيك فكان عنده فى اكرم محل واعز جانب والتحديه على ما كان بينهما من الاختلاف فى العقيدة ثم رحل الى اليمن وعاد الى مصر وأقام بها

الى أن زالت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورثى أهل القصر بقصيدته التى أولها

زميت يا دهر كف المجد بالشلل * ورعته بعد حسن الحلى بالعطل

ومنها

قدمت مصر فأولتنى خلائفها * من المكارم ما اربى على الامل
قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن * تمامها انها جاءت ولم أسل
بالائمى فى هوى ابناء فاطمة * لك الملامة ان قصرت فى عذل
بالله زر ساحة القصرين وابك معى * عليهما لا على صفين والجمل
ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة * بنسل آل أمير المؤمنين على

وهى طويلة فى غاية الحسن فلما بلغت السلطان صلاح الدين تغير عليه (وقيل) انه استفتى عليه فى قوله من قصيدته الميمية

وكان مبدأ هذا الامر من رجل * سعى فاصبح يدعى سيد الامم

فافتى الفقهاء بقتله وقالوا ان هذا الكلام رأى الفلاسفة فى النبوات وانها بالتكسب وهى احدى المسائل التى كفروا بها والصحيح انه يجتبى من رسله من يشاء ولم يكن أحد من الانبياء عنده شعور بانه يكون فيما بعد نبيا والذى يظهر ان هذا مفتعل على الفقيه عمارة نظمه بعض أعدائه على لسانه ودسه فى تلك القصيدة وما يبعد ان القاضى الفاضل رحمه الله كان له ميل الى هلاكه لانه لما استشاره السلطان صلاح الدين فى ضربه قال الكاتب يسكت ثم ينبح قال فيسجن قال يرجى له الخلاص قال فيقتل قال كذا الملوك اذا أرادوا شيأ فعلوه ونهض فامر بصلبه مع الغرماء فلما أمسكوه مروا به على باب الفاضل فلما رآه مقبلا قام ودخل الى بيته واغلق الباب فقال الفقيه عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص من العجب

(نكتة أدبية) قال ابن سناء الملك من ابيات

صلبنى وهذا الحسن باق فربما * يعزل بيت الحسن منه ويكنس

فوقف القاضى الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة وكتب الى ابن سناء الملك من جملة فصل وماقلت هذه الغايه الا وتعلق انها البدايه ولا قلت هذا البيت آية القصيدة الا وتلا ما بعده وما نريهم من آية أفسحر هذا أم انتم لا تبصرون ولا عيب فى هذه المحاسن الا قصور الافهام وتقصير الانام والا فقد ابهج الناس بما نحتها ودونوا ما دونها والقصيدة فائقة فى حسنها بديعة فى فنها ولكن بيت يعزل ويكنس اردت ان اكنسه من القصيدة فان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها انتهى فاجاب ابن سناء الملك قائلا قد علم المملوك ما نبه عليه مولانا من أمر البيت الذى أراد ان يكنسه من القصيدة وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت مستحليا له معجبا به معتقدا ان قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه وما وقعه فى الكنس الا ابن المعتز حيث يقول

وقواصى مثل القناة من الخط وخدى من لحيتى مكنوس

والمولى يعلم ان المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل و يتعثر و يطلب مطالبه فتتعسر عليه

وتعذر وما مال المملوك الا الى طريق من ميله اليه طبعه ولا سار الا الى من دله عليه سمعه ورأى المملوك اباعبادة قد قال

ويا عاذلي في عبرة قد سفحتها * لبين واخرى قبلها للتجنب
تحاول مني شيمة غير شيمتي * وتطلب مني مذهبا غير مذهبي

وقال وما زارني الا ولهت صبابة * اليه والا قلت أهلا ومرحبا

فعلم المملوك ان هذه طريقة لا تسلك وعقيلة لا تملك وغاية لا تدرك ووجد المملوك اباتمام قد قال

* سلم على الربع من سلمى بذى سلم * ووجدته أيضا قد قال

* خشنت عليه اخت بني خشين * فاشمأز من هذا اللفظ طبعه واقشعر منه فهمه ونبا عنه ذوقه وكان سمعه يتجرعه ولا يكاد يسيغه ووجد هذا المبدع السيد عبد الله بن المعتز قد قال

وقفت بالربع أشكو فقد مشبهه * حتى بكت بدموعي اعين الزهر
لو لم اعرها دموع العين تسفحها * لرحمتي لاستعارتها من المطر

وقد قال

قدك غصن لا شك فيه كما * وجهك شمس نهاره جسدك

فوجد المملوك طبعه الى هذا الامر مائلا وخاطره في بعض الاحيان عليه سائلا فنسج على هذا الاسلوب وغلب على خاطره مع علمه انه المغلوب وحبك الشئ يعمي ويصم فقد أعماه حبه وأصمه الى ان نظم تلك اللفظة في تلك الابيات تقليدا لابن المعتز قائلها وحمل أثقالها وهي زلة تغتفر في جنب حسناته وأما المملوك فهي عورة ظهرت من ابياته (فأجابه الفاضل بقوله) ولا حجة فيما احتج به بابن المعتز عن المكنس في بيته فانه غير معصوم من الغلط ولا يقلد الا في الصواب فقط وقد علم مما ذكره ابن رشيق في العمدة من تهافت طبعه وتباين صنعه ومخالفة وضعه فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كاب ومن بارده وغثه ما لا تلبس عليه الثياب وقد تعصب القاضي السعيد على أبي تمام فنقصه حظه وأما البحتري فأعطاه اكثر من حقه وقال

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى * فؤادي ولكن للعتاب مواضع

(قال الشيخ صلاح الدين الصفدي) لما وقف على هذا الفصل رأيت ابن سناء الملك استعمل هذه اللفظة في غير هذا الموضع ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى فقال

وخلصني من يدي عشقه * ظلام على خده حندسة
كنست فؤادي من حبه * ولحيته كانت المكنسه

(قلت) ما برح الشيخ صلاح الدين غفر الله له يذوق تقليدا كقوله عن ابن سناء الملك لما استعمل في هذه الصيغة المشتملة على الهجو بشاعة المكنسة ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى (أما نقد الفاضل) على ابن سناء الملك بوضع المكنسة على وجنة معشوقته التي ليس للعذار بوجنتها شعور فنقد صحيح (وأما) وضع مكنسة اللحية على وجنة من طلعت لحيته وكان جائرا على عاشقه وسبكها هنا في قالب الهجو فهو نوع من المرقص

والمطرب ولو وقف الفاضل على هذه المكنسة لاعدها الا بياته انتهى (ومن لطائف المنقول) ماحكى عن الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد والد قاضى القضاة تقى الدين تغمدهما الله برحمته ورضوانه وهو ان الشيخ مجد الدين المشار اليه كان كثير الاحسان الى اصحابه يسعى لهم على قدر استحقاقهم فيمن يصلح للحكم وفيمن يصلح للعدالة فجاءه بعض طلبته وشكا اليه رقة الحال وكثرة الضرورة فقال له اكتب قصتك وانا اتحدث مع الولد فكتب ذلك الطالب المملوك فلان يقبل الارض وينهى انه فقير ومظرور بالظاء القائمة وقليل الحض بالضاد ونا ولها للشيخ فلما قرأها تبسم وقال يافقير سبحان الله ضرك قائم وحظك ساقط انتهى (ومن لطائف المنقول عن قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان رحمه الله) انه كان يهوى بعض أولاد الملوك وله فيه الاشعار الرائقة يقال ان أول يوم زاره بسط له الطرحة وقال ماعندى اعز من هذه طأعليها ولما فشا امرهما وعلم به اهله منعوه من الركوب فكتب اليه

يا سادتى انى قنعت وحقكم * فى حبكم منكم بأيسر مطلب
ان لم تجودوا بالوصال تعطفا * ورأيتم هجرى وفرط تجنبى
لا تمنعوا عينى القريحة ان ترى * يوم الخميس جمالكم فى الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبى ما الذى * ألقاه من كمد اذا لم تركب
لرحمتنى ورثيت لى من حالة * لولاك لم يك حملها من مذهبى
قسما بوجهك وهو بدر طالع * وبليل طرتك التى كالغيهب
وبقامة لك كالقضيب ركبت من * أخطارها فى الحب أصعب مركب
لولم اكن فى رتبة ارعى لها الـ * عهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت سترى فى هواك ولذلى * خلع العذار ولج فيك مؤنبى
لكن خشيت بان تقول عواذلى * قد جن هذا الشيخ فى هذا الصبى
فارحم فديتك حرقة قد قاربت * كشف القناع بحق ذيالك النبى

قال الشيخ جمال الدين بن عبد القادر التبريزى الذى يهواه القاضى شمس الدين بن خلكان رحمه الله الملك المسعود بن الملك الظاهر وكان قد تيمه حبه وكنت أنام عنده بالعادلية فتحدثنا فى بعض الليالى الى ان ذهب الناس فقال لى نم أنت ههنا وألقى على فروة قرظ وقام يدور حول بركة العادلية ويقول فى دوارته

أنا والله هالك * آيس من سلامتى
أو أرى القامة التى * قد أقامت قيامتى

(وقيل) ان قاضى القضاة شمس الدين المشار اليه رحمه الله سأل بعض أهل دمشق المحروسة وكان المسؤل من خواص أصحابه عن ترجمته عند أهل دمشق واستعفاه من ذلك فألح عليه (فقال) أما العلم والفضل فهم مجمعون عليه وأما النسب فيدعون فيه الادعاء ويقولون ان مولانا يأكل الحشيش ويحب الغلمان (فقال) أما النسب والكذب فيه فهذا نوع من الهذيان ولو أردت ان انتسب الى العباس أو الى على بن طالب أو الى أحد من الصحابة لاجازوا ذلك وأما

النسب الى قوم لم يبق منهم بقية وأصلهم فرس مجوس فما فيه فائدة وأما الحشيشة فالكل ارتكاب محرم واذا كان ولا بد فكنت أشرب الخمر فانه الذ وأما محبة الغلمان فالى غد أجيبك عن المسئلة انتهى (ومما يناسب لطيفة قاضي القضاة شمس الدين ما نقلته من روض الجليس ونزهة الانيس) حكى عن سليمان بن محمد المهدى الصقلى (قال) كان بافريقية رجل نبيه شاعر وكان يهوى غلاما جميلا من غلمانها فاشتد كلفه به وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه كثيرا فبينما هو ذات ليلة وقد انفرد بنفسه ليشرب الخمر اذ ذكر محبوبه فجرى بخاطره ما يفعله به من التجنى فزاد سكره وقام من الفور وقد غلب عليه سكر الغرام وسكر المدام فأخذ قبس نار وجعله عند باب الغلام ليحرق عليه داره فلما دارت النار بالباب بادر الناس باطفائها واعتقلوه فلما أصبحوا انهضوا به الى القاضى فاعلموه بفعله فقال له القاضى لاى شئ أحرقت باب هذا الغلام فأنشد على الفور

لما تمادى على بعادى * وأضرم النار فى فؤادى

ولم أجد من هواه بدا * ولا معينا على السهاد

حملت نفسى على وقوفى * ببابه وقفة الجواد

فطار من بعض نار قلبى * أقل فى الوصف من زناد

فاحرق الباب دون علمى * ولم يكن ذا الذى مرادى

(قال) فاستظرف القاضى واقعته واستملح شعره ورق لحكايته حاله وتحمل عنه ما أفسده من باب الغلام وأطلقه (ومما يناسب هذه اللطائف) قيل انه رفع الى المأمون ان خائكا يعمل السنة كلها لا يتعطل فى عيد ولا جمعة فاذا ظهر الورد طوى عمله وغرد بصوت عال

طاب الزمان وجاء الورد فاصطبحوا * مادام للورد ازهار ونوار

فاذا شرب مع ندمائه على الورد غنى

اشرب على الورد من حمراء صافية * شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا

ولا يزالون فى صبوح وغبوق ما بقيت وردة فاذا انقضى الورد عاد الى عمله وغرد بصوت عال

فان يبقنى ربى الى الورد أصطبح * وان مت وا لهفى على الورد والخمر

سألت اله العرش جل جلاله * بواصل قلبى فى غبوق الى الحشر

(فقال) المأمون لقد نظر هذا الرجل الى الورد بعين جليلة فينبغى ان نعينه على هذه المروءة فامر ان يدفع له فى كل سنة عشرة آلاف درهم فى زمن الورد (ومن اللطائف ما حكى عن مجير الدين الخياط الدمشقى) قيل انه كان يهوى غلاما من أولاد الجند فشرب مجير الدين فى بعض الليالى وسكر فوقع فى الطريق فمر الغلام عليه بشمعة وهو راكب فرآه فى الليل مطروحا على الطريق فوقع عليه بالشمعة ونزل فاقعده ومسح وجهه فسقط من الشمعة نقطة على وجهه ففتح عينيه فرأى محبوبه على رأسه فاستيقظ وأنشد

يا محرقا بالنار وجه محبه * مهلا فان مدامعى تطفيه

أحرق بها جسدى وكل جوارحى * واحذر على قلبى فانك فيه

(ومن اللطائف ماحكاه الاصمعي) قال مررت بكناس يكنس كنيفا وهو يغني ويقول

أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر

فقلت له اما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه وأما سداد الكنيف فمعلوم قال الاصمعي وكنت حديث السن فاردت العبث به فأعرض عني مليا ثم أقبل علي وأنشد

واكرم نفسي انني ان أهنتها * وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقلت وأي كرامة حصلت لها منك وما يكون من الهوان أكثر مما أهنتها به فقال بل لا والله من الهوان ماهو أكثر وأعظم مما أنا فيه فقلت له وماهو فقال الحاجة اليك والى أمثالك فقال فانصرفت وأنا أخزى الناس ذكرت بقول الكناس غريم الإصمعي مايضارع ذلك أعني قوله

أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر

(قيل) انه كان لابي حنيفة رضي الله عنه جار اسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع فاذا جنه الليل رجع الى منزله بلحم وسمك فيطبخ اللحم ويشوي السمك فاذا دب فيه السكر أنشد

أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد البيت الى أن يغلبه السكر وينام وكان الامام أبو حنيفة يصلي الليل كله ويسمع حديثه وانشاده ففقد صوته بعض الليالي فسأل عنه فقيل أخذه العسس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس فصلى الامام الفجر وركب بغلته ومشى واستأذن على الامير فقال ائذنوا له واقبلوا به راكبا حتى يطأ البساط فلما دخل على الامير أجلسه مكانه وقال ماحاجة الامام فقال لي جار اسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام فتأمر بتخليته فقال نعم وكل من أخذ تلك الليلة الى يومنا هذا ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين فركب الامام وتبعه جاره الاسكاف فلما وصل الى داره قال له الامام أبو حنيفة أترانا أضعناك قال لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا عن صحبة الجوار ورعايته ولله علي أن لا أشرب بعدها خمرا فتاب من يومه ولم يعد الى ما كان عليه انتهى

(ومما يناسب هذه اللطائف) ماذكره الحريري في كتابه الموسوم بتوشيح البيان نقل أن أحمد ابن المعدل كان يجد باخيه عبد الصمد وجدا عظيما على تباين طريقيهما لان أحمد كان صواما قواما وكان عبد الصمد سكيرا خموريا وكانا يسكنان دارا واحدة ينزل أحمد في غرفة أعلاها وعبد الصمد في أسفلها فدعا عبد الصمد ليلة جماعة من ندمائه وأخذ في القصف والعزف حتى منعوا أحمد الورد ونغصوا عليه التهجد فاطلع عليهم وقال أفأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الارض فرفع عبد الصمد رأسه وقال وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (وذكرت) بهذا الاقتباس الذي خلب القلوب هنا بحسن موقعه اقتباسا خلب قلوب الناس لعظم موقعه وماذاك الا أن الحاكم الفاطمي على ماذكر لما بنى المسجد الجامع بالقاهرة المعزية المجاور لباب الفتوح قيل انه فسد حاله في آخر أمره وادعى الالهية وكتب بسم الحاكم الرحمن الرحيم وجمع الناس الى الايمان به وبذل لهم نفائس وكان ذلك في فصل الصيف والذباب يتراكم على الحاكم والخدام تدفعه ولا يندفع فقرأ في ذلك الوقت بعض القراء وكان حسن الصوت يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان

يسلبهم

يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ماقدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز فاضطربت الامة لعظم وقوع هذه الآية الشريفة فى حكاية الحال حتى كان الله أنزلها تكذيبا للحاكم فيما ادعاه وسقط الحاكم من فوق سريره خوفا من أن يقتل وولى هاربا وأخذ فى استجلاب ذلك الرجل الى أن اطمأن اليه فجهزه رسولا الى بعض الجزائر وأمر باغراقه ورؤى بعد ذلك فى المنام فقيل له ماوجدت فقال ماقصر معى صاحب السفينة أرسى بى على باب الجنة (ومن الاقتباسات التى وقعت للمتأخرين فى أحسن المواقع المتعلقة بحكاية الحال) ماسمعت وشهدت حكاية حاله بالجامع الاموى وماذاك الا أن قاضى القضاة علاء الدين أبى البقاء الشافعى رحمه الله تعالى كان قد عزل من وظيفته قضاء القضاة بدمشق المحروسة فعاد الى وظيفته وألبس التشريف من قلعة دمشق وحضر الى الجامع على العادة ومعه أخوه قاضى القضاة بدر الدين الشافعى بالديار المصرية فاستفتح الشيخ معين الدين الضرير المقرى وقرأ قالوا ياأبانا مانبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا الى آخر الآية فحصل بالجامع الاموى ترنم صفق له النسر بجناحيه (وروى المرزبان) باسناده أن المجنون خرج مع أصحاب له يمتارون من وادى القرى فمر بجبلى نعمان فقالوا ان هذين جبلا نعمان وقد كانت ليلى تنزلهما قال فاى ريح تهب من نحو ارضها الى هذا المكان فقالوا الصبا فقال والله لا أبرح حتى تهب الصبا فأقام فى ناحية من الجبل ومضوا فامتاروا وعادوا لهم ثم أتوا فحبسهم حتى هبت الصبا ورحل معهم وفى ذلك يقول

أيا جبلى نعمان بالله خليا * نسيم الصبا يخلص الى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة * على كبد لم يبق الا صميمها
فان الصبا ريح اذا ماتنسمت * على نفس مهموم تجلت همومها

وضمن البيت الاول الشيخ صفى الدين الحلى فى مليح اسمه نعمان

أقول وقد عانقت نعمان ليلة * بنور محياه انا رأديمها
وقد أرسلت الباه نحوى فسوة * بروح كرب المستهام شميمها
أيا جبلى نعمان بالله خليا * نسيم الصبا يخلص الى نسيمها

وكان لابن الجوزى رحمه الله تعالى زوجة اسمها نسيم الصبا فاتفق انه طلقها فحصل له عند ذلك ندم وهيام أشرف منه على التلف فحضرت فى بعض الايام مجلس وعظه فبن رآها عرفها فاتفق انه جاء امرأتان وجلستا امامه فحجبتاها عنه فانشد فى الحال

أيا جبلى نعمان بالله خليا * نسيم الصبا يخلص الى نسيمها

قلت وعلى ذكر نعمان والكناية عنه فما ألطف ماذكره الشيخ بدر الدين حسن بن زفر الطبيب الاربلى فى كتابه روضة الجليس ونزهة الانيس وهو أن بعض الرؤساء قال أخبرنى بعض الاصحاب قال كنت يوما جالسا عند صديق لى بالموصل اذ جاءه كتاب من بغداد من صديق له وفيه تشوق وفيه عتاب بهذا البيت

تناسيتم العهد القديم كاننا * على جبلى نعمان لن نتجمعا

فأحذ يستحسن هذا البيت ويهتز له فقلت بالله عليك أسألك شيأ لا تخفه قال سل قلت هذه معشوقتك صاحبة هذا الكتاب هل كنت تأتيهما من وراء الدار فقال اى والله ومن أين علمت ذلك فقلت من البيت لانه اذكرت لك فيه بجبلي نعمان وهما كناية عند الظرفاء من أهل الادب عن جانبي الكفل للمايح والمليحة فقال والله ما أدركت ما أدركت (ونقلت من اللطائف المسبوكة في قالب التورية) ان بعض الكتاب دخل يسلم على بعض فضلاء النحاة وكان من أصحابه فوجده قائما يلوط بأحد الغلمان الملاح من طلبته في قراءة النحو ولم يره الغلام فجلس النحوي في مكانه وبقي الغلام واقفا مبهوتا فقال الكاتب للنحوي مالى أرى هذا الغلام واقفا فقال النحوي وقع عليه الفعل فانتصب (ومثل ذلك قصة ابن عنين مع الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل) لما كتب اليه في مرضه

انظر الى بعين مولى لم يزل * يولى الندى وتلاف قبل تلافى
أنا كالذى احتاج ما تحتاجه * فاغنم دعائى والثناء الوافى

فحضر اليه المعظم بنفسه ومعه ثلثمائة دينار وقال له أنت الذى وأنا العائد وهذه الصلة وظرف من قال

وذى أدب بارع نكته * وأولجت فيه قد اعنف
فقلت فديتك أعصر عليه * ففيه اللذاذة لو تعترف
فقال أحدت ولكن لحنت * لقولك أعصر بفتح الالف
فقلت لك الويل من أحمق * فقال وأحمق لا ينصرف

(وأظرف منه قول الحسين بن الريان)

أتيت حانة خمار وصاحبها * ممن تفنن للنحو ولسن
وحوله كل هيفاء منعمة * وكل علق رشيق أهيف حسن
فقال لى اذرأى عينى قد انصرفت * الى النساء كلام الحاذق الفطن
أنث وركب وصف واعدل بمعرفة * واجمع وزد واسترح من عجمة وزن

(ومثله) ما حكى أن بعض الفقراء وقف على باب نحوى فقرعه فقال النحوي من بالباب فقال سائل فقال ينصرف فقال اسمى أحمد فقال النحوي لغلامه اعط سيبويه كسرة (ومثله قول ابن عنين)

شكا ابن المؤيد من عزله * وذم الزمان وأبدى السفه
فقلت له لا تذم الزمان * فتظلم أيامه المنصفه
ولا تعجبن اذا ما صرفت * فلا عدل فيك ولا معرفه

(وألطف منه قول القائل)

ورقيع أراد أن يعرف النحو بزى العيار لا المستفتى
قال لى لست تعرف النحو مثلى * قلت سلني عنه أجب فى الوقت
قال ما المبتدا وما الخبر المجرور أوجز فقلت دقنك فى استى

(وأحسن منه وأبدع قول الشيخ زين الدين بن الوردى)

وشادن يسألنى * ما المبتدا والخبر

مثلهما لي مسرعا * فقلت أنت القمر

(ومن النكت المسبوكة في قالب التورية أيضا) ما قيل ان شهاب الدين القوصي حضر عند الملك الأشرف وقد دخل اليه سعد الدين الحكيم فقال الملك الاشرف لشهاب الدين ما تقول في سعد الدين الحكيم فقال يا مولانا السلطان اذا كان بين يديك فهو سعد الدين وعلى السماط سعد بلع وفي الخباء عن الضيوف سعد الاخبية وعند مرض المسلمين سعد الذابح قال فضحك الملك الاشرف واستحسن اتفاقه البديعي (وأبدع منه في هذا الباب ما نقل عن الشيخ نظام الدين قيس) قيل انه التقى الصاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور فسأله الصاحب عن حاله فقال

حال متى علم ابن منصور بها * جاء الزمان الي منها تائبا

(قلت) ان نظام الدين أحق من أبي الطيب بهذا البيت (ومن النكت بالتورية أيضا) قيل ان بعض الماجنات أرادت السفر فلقيها بعض المجان فقال لها خذي معك هذا الكتاب وأشار الى ذكره فقالت له على الفور ان لم أتى أملك أعطه أختك (ومثل ذلك) ان الشيخ بدر الدين بن الصاحب لقي شخصا ومعه صاحبان فقال ما اسمك فقال عبد الواحد فقال اخرج منهما فأنا ما بدالاثنين (ومثله) ان ابن نقيلة المغني مرض وأشرف على الموت فجاء اليه ابن الصاحب يعوده فقال له كيف حال النقيلية فقال ما أخوفني أن تصير مدفونة (ومثله) ان بعض المجان رأى امرأة حاملة سرموجة فقال لها متى زوجك حملك تركاشه فقالت له رح لا أرميك منه بفردة (ومثله) ان بعضهم رأى امرأة حاملة فردة سقمان لتخيطه فقال لها اعتقي هذا الغراب فقالت له رح لا أسيبه يقرك (ومثله) ان الشيخ بدر الدين المذكور أولا حضر الى مجلس قاضي القضاة ناصر الدين المالكي فذكروا محاسن القاضي محب الدين ناظر الجيشين وحسن اخلاقه ثم ذكروا محاسن الشعر فانشد قاضي القضاة

فكم اب قد علا بابن ذرى شرف * كما علت برسول الله عدنان

فكل من الجماعة أثنى على هذا البيت فقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب والقاضي محب الدين يحب هذا البيت نظر بواله (ومما وقع له بذلك المجلس) انه لما قدم المشروب على العادة كان قد تولى السقيا مملوك له اسمه بكتمر فلما شرب الشيخ بدر الدين قال له قاضي القضاة ما تقول يا شيخ قال رأيت ملك العلماء بكتمر الساقي (ومثله) ان الصاحب بن سكر اراد قارئا يقرأ بالمدرسة التي انشأها بالقاهرة فاختاروا له رجلين أحدهما اسمه زيادة والآخر مرتضى فوقع في ظهر القصة مرتضى زيادة وزيادة مرتضى (ومثله) ان ابا الحسن الجزار جاء الى باب الصاحب زين الدين بن الزبير فاذن للناس في الدخول ولم يؤذن له فكتب في ورقة

الناس كلهم كالابر قد دخلوا * والعبد مثل الخصي باقي على الباب

فلما قرأها ابن الزبير قال لحاجبه اخرج الى الباب وقل يا خصي ادخل فدخل ابو الحسين وهو يقول هذا دليل على السعة (ومن التنكيت والحشمة بالتورية) ان الشيخ صلاح الدين الصفدي قال أخبرني الشيخ فتح الدين بن سيد الناس بالقاهرة قال قلت للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ان بهاء الدين بن النحاس يرجح ابا تمام على المتنبي لما رأيك انت فسكت فقلت ثانيا فقال

كنت كذا فى الاول قال الشيخ صلاح الدين ولما حكيت للشيخ جمال الدين بن نباتة قال انا على رأى ابن دقيق العيد قال الشيخ صلاح الدين وممن رأيته يعظم ابا تمام شيخنا اثير الدين ويرجحه على المتنبى فعذلناه فى ذلك فقال أنا ما أسمع عذلا فى حبيب اه (ونقلت) من خط الصاحب فخر الدين بن مكانس رحمه الله قال سافرت سنة احدى وستين وسبعمائة مع الصاحب فخر الدين ابن قزوينة الى دمشق المحروسة وقد ولى نظر مملكتها ووالدى رحمه الله اقناءها وكان له دوادار يسمى صبيحا وهو من عتقاء جده الوزير أمين الدين بن الغنام وكان لطيفا كثير النوادر فاتفق ان جمال الدين بن الرهاوى موقع دست الوزارة ركب يوما فتقنطر به الفرس وداس على رأس احليله فحمل الى داره وأقام أياما الى ان عوفى وحضر مجلس الوزارة وهو غاص بالناس فقال الصاحب ما سبب تأخرك فقال تقنطر بى الفرس وداس رأس احليلى فكدت أموت والآن فقد لطف الله تعالى وحصل البرء والشفاء فقال له صبيح الحمد لله على سلامة الخصى فانقلب المجلس ضحكا وخجل ابن الرهاوى وانصرف (وحكى) ان بعض الرؤساء كان له خادم وعبد فدخل يوما فوجد العبد فوق الخادم فضربه وخرج فرأى بعض أصدقائه فسأله عن غيظه فقال هذا العبد النحس فعل بالخويدم الصغير فقال بل مولانا السيد الكبير فخجل منه وابرزها فى قالب المجون (وأنشد ابن الجوزى فى بعض مجالس وعظه)

أصبحت ألطف من مر النسيم على * زهر الرياض يكاد الوهم يؤلمنى

من كل معنى لطيف احتلى قدحا * وكل ناطقة فى الكون تطربنى

فقام اليه انسان فقال ياسيدى الشيخ فان كان الناطق حمارا فقال أقول له ياحمار اسكت (ويعجبنى قول برهان الدين القيراطى)

صاح هذى قباب طيبة لاحت * وفؤادى على اللقاء حريص

وتبدت نخيلها للمطايا * فعيون المطى للنخل خوص

(ويطربنى ما حكاه أبو الفوارس بن اسرائيل الدمشقى) قال كنت يوما عند السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فحضر رسول صاحب المدينة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ومعه قود وهدايا فلما جلس اخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران بالسعف الاحمر وقال الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول هذه المروحة ما رأى مولانا السلطان ولا أحد من بنى أيوب مثلها فاستشاط السلطان صلاح الدين غضبا فقال الرسول يامولانا السلطان لا تعجل قبل تأملها وكان السلطان صلاح الدين ملكا حليما فتأملها فاذا عليها مكتوب

انا من نخلة تجاور قبرا * ساد من فيه سائر الناس طرا

شملتنى عناية القبر حتى * صرت فى راحة ابن أيوب أقرى

واذا هى من خوص النخل الذى فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقبلها السلطان صلاح الدين ووضعها على رأسه وقال لرسول صاحب المدينة النبوية صدقت فيما قلته من تعظيم هذه المروحة (وأحسن ما سمع فيها) قول عرقلة الدمشقى

ومحبوبة فى القيظ لم تخل من يد * وفى القرتسلوها اكف الحبائب

اذا ما الهوى المقصور هيج عاشقا * انتيا الهوى الممدود من كل جانب

وقال غيره وأجاد

ومروحة أهدت الى النفس روحها * لدى القيظ مبثوثا باهداء ريحها

روينا عن الريح الشمال حديثها * على ضعفه مستخرجا من صحيحها

(نقل الحافظ اليعمرى) ان أبا نصر المنازى واسمه أحمد بن يوسف دخل على أبى العلاء المعرى فى جماعة من أهل الادب فانشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر فانشده أبو نصر

وقانا لفحة الرمضاء واد * سقاه مضاعف الغيث العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا * حنو الوالدات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالا * ألذ من المدامة للنديم

يصد الشمس انى واجهتنا * فيحجبها و يأذن للنسيم

تروع حصاه حالية العذارى * فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء أنت أشعر من بالشأم ثم رحل أبو العلاء الى بغداد فدخل المنازى عليه فى جماعة من أهل الادب ببغداد وأبو العلاء لا يعرف منهم أحدا فانشد كل واحد ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنازى فأنشد

لقد عرض الحمام لنا بسجع * اذا أصغى له ركب تلاحى

شجى قلب الخلى فقيل غنى * وبرح بالشجى فقيل ناحا

وكم للشوق فى أحشاء صب * اذا اندملت أجدلها جراحا

ضعيف الصبر عنك وان تقاوى * وسكران الفؤاد وان تصاحى

بذاك بنو الهوى سكرى صحاة * كاحداق المها مرضى صحاحا

(فقال أبو العلاء) ومن بالعراق عطفا على قوله ومن بالشأم انتهى (نادرة) مشى البيدق اليزيدى مع شاب موسوم بالجمال فقال له شمس الدين بن المنجم الشاعر أراك يا بيدق تفرزنت حول هذه النفس فقال واذا كان فقال أخشى عليك من ذلك الرخ لا يقطعك من الحاشية و يرميك عن الفرس و يقطع عليك الرقعة ولو كان فى كفك الفيل (ومثله فى الظرف) ان بعض الاجناد كان كثير اللعب بالشطرنج وكان الجندى حليعا ظريفا فاعطاه الامير فى بعض الايام فرسا وقال له لا تفرط فيها فقال نعم و بعد ذلك التقاه الامير وهو لابس جوخة فقال و يلك أين الفرس فقال يا خوند ضربنى الشتاء شاه مات فتسترت بالفرس (و يعجبنى قول الشيخ بدر الدين ابن الصاحب)

تأمل ترى الشطرنج كالدهر دولة * نهارا وليلا ثم بؤسا وأنعما

محركها باق وتفنى جميعها * وبعد الفنا تحيي وتبعث أعظما

قلت ويشبه هذا قول الفاضل وقد أخرج له السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القصر من معانى الخيال أعنى خيال الظل ليفرجه عليه فقام الفاضل عند الشروع فى عمله فقال له الناصر ان كان حراما فما نحضره وكان حديث العهد بخدمته قبل ان يلى السلطنة فما أراد أن

يكدر عليه فقعد الى آخره فلما انقضى ذلك قال له الملك الناصر كيف رأيت ذلك قال رأيت موعظة عظيمة رأيت دولا تمضي ودولا تاتي ولما طوى الازار اذا المحرك واحد فاخرج به لا غنه هذا الجد في هذا الهزل انتهى (وللشيخ بدر الدين بن الصاحب مضمنا في الشطرنج)

أميل لشطرنج أهل النهى * وأسلوه من ناقل الباطل
وكم رمت تهذيب لعابها * وتأبى الطباع على الناقل

(ويعجبني قول الشيخ عز الدين الموصلي حيث قال)

جاهل شطرنج ينادي وقد * أمات نفس اللعب من عكسه
ما تفعل الافعال في جاهل * ما يفعل الجاهل في نفسه

(وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة)

أفديه لاعب شطرنج قد اجتمعت * في شكله من معاني الحسن أشتات
عيناه منصوبة للقلب غالبة * والخد فيه لقتل النفس شامات

﴿نادرة لطيفة﴾

حكي ان السراج الوراق جهز غلامه يوما ليبتاع له زيتا طيبا ليأكل به لفتا فاحضره وقلبه على اللفت فوجده زيتا حارا فانكر على الغلام ذلك وأخذه وجاء الى البياع وقال له لم تفعل مثل هذا فقال له والله يا سيدي مالي ذنب لانه قال أعطني زيتا للسراج انتهى (ومثله) ما حكاه الصاحب فخر الدين بن مكانس عن صاحبه سراج الدين القوصي انه كان حصل له طلوع في جسده فتردد اليه المزين وصنع له فتائل على العادة فقلت له يوما كيف الحال يا سراج الدين فقال كيف حال سراج فيه سبع فتائل (ورأيت له في ديوانه يداعب سراج الدين المذكور بقوله)

يا ذا السراج اشترى ابري فاتت به * أولى وذلك للأمر الذي وجبا
سكندري وتدعي بالسراج وذا * مثل المنار اذا ما قام وانتصبا

﴿نادرة لطيفة﴾

اجتمع محدث ونصراني في سفينة فصب النصراني من ركوة كانت معه في مشربة وشرب وصب وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة فقال النصراني جعلت فداك هذا خمر فقال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلامي من خمار يهودي وحلف انها خمر عتيق فشربها بالعجلة وقال للنصراني أنت أحمق نحن أصحاب الحديث نروي عن الصحابة والتابعين افنصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودي والله ما شربتها الا لضعف الاسناد

﴿نادرة لطيفة﴾

نظر طفيلي الى قوم ذاهبين فلم يشك انهم في دعوة ذاهبون الى وليمة فقام وتبعهم فاذا هم شعراء قد قصدوا السلطان بمدائح لهم فلما أنشد كل واحد شعره وأخذ جائزته لم يبق الا الطفيلي وهو جالس ساكت فقال له انشد شعرك فقال لست بشاعر فقيل له فمن أنت قال من الغاوين الذين قال الله تعالى في حقهم والشعراء يتبعهم الغاوون فضحك السلطان وأمر له بجائزة الشعراء

﴿حكى الهيثم بن عدى﴾

قال ماشيت الامام أبا حنيفة رضى الله عنه فى نفر من أصحابه الى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض بخيلا وتواصينا على أن نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال بعضنا آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال فتمطى المريض وقال ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال قوموا فما لكم هنا من فرج انتهى

﴿ومن غرائب المنقول﴾

ان يحيي بن اسحق كان طبيبا حاذقا صانعا بيده وكان فى صدر دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزره (نقل عنه) من حذقه انه أتى اليه بدوى على حمار وهو يصيح على باب داره أدركونى وكلموا الوزير بخبرى فلما دخل عليه قال ما بالك قال ورم باحليلى منعنى النوم منذ أيام وأنا فى الموت فقال له اكشف عنه فاذا هو وارم فقال لرجل جاء معه احضر لى حجرا أملس فطلبه فوجده فقال له ضع عليه الاحليل فلما تمكن احليل الرجل على الحجر جمع الوزير يده وضرب الاحليل ضربة غشى على الرجل منها ثم اندفع الصديد يجرى فلما انقطع جريان الصديد فتح الرجل عينيه ثم بال فى أثر ذلك فقال له اذهب فقد برأت علتك وأنت رجل عابث واقعت بهيمة فى دبرها فصادفت شعيرة من علفها لحجت فى عين الاحليل فورم لها وقد خرجت فى الصديد فقال له الرجل قد فعلت ذلك وهذا يدل على الحذق المفرط (ومثله) ان ابن جميع الاسرائيلى كان من الاطباء المشهورين والعلماء المذكورين بن خدم سلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وحظى فى أيامه وكان رفيع المنزلة نافذ الامر (ومما نقل) عنه من حذقه انه كان جالسا فى دكان وقد مرت عليه جنازة فلما نظر اليها صاح يا أهل الميت ان صاحبكم لم يمت ولا يحل ان تدفنوه حيا فقال بعضهم لبعض هذا الذى يقوله لا يضرنا و يتعين أن نمتحنه فان كان حيا فهو المراد وان لم يكن حيا لما يتغير علينا شئ فاستدعوه اليهم وقالوا بين لنا ما قلت فأمرهم بالعود الى البيت وان ينزعوا أكفانه فلما فرغوا من ذلك أدخله الحمام وسكب عليه الماء الحار وأحمى بدنه ونطله فظهر فيه أدنى حس وتحرك حركة خفيفة فقال ابشروا بعافيته ثم تمم علاجه الى أن أفاق وصاح فكان ذلك مبدأ اشتهاره بشدة الحذق والعلم ثم انه سئل بعد ذلك ومن أين علمت ان فى ذلك الميت بقية روح وهو فى الاكفان محمول فقال نظرت الى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الموتى منبسطة فحدست انه حى وكان حدسى صائبا

﴿نادرة لطيفة﴾

قيل ان المنصور بن أبى عامر الاندلسى كان اذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة ولم يسر الى الغزاة الا من الجامع فاتفق انه فى بعض حركاته للغزاة توجه الى الجامع لعقد اللواء فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة فرفع حامل اللواء اللواء فصادف ثريا من قناديل الجامع فانكسرت على اللواء وتبدد عليه الزيت فتطير الحاضرون من ذلك وتغير وجه المنصور فقال رجل ابشر يا أمير المؤمنين بغزاة هينة وغنيمة سارة فقد بلغت اعلامك الثريا وسقاها الله من

شجرة مباركة فاستحسن المنصور ذلك واستبشر به وكانت الغزوة من أبرك الغزوات (ومثل هذا) لما خرج المنصور العباسي الى قتال أبي يزيد الخارجي في جماعة من الاولياء وواجه الحصن سقط الرمح من يده فاخذه بعض الاولياء فمسحه وقال

فالقت عصاها واستقر بها النوى * كما قر عينا بالاياب المسافر

قال فضحك المنصور وقال لم لا قلت فألقى موسى عصاه فقال يا أمير المؤمنين العبد تكلم بما عنده من اشارات المتأدبين وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل على النبي من كلام رب العالمين فكان الامر على ما ذكره وأخذ الحصن وحصل الظفر بأبي يزيد (حكى أن الشيخ شهاب الدين بن محمود) قال عدت قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في دمشق بالمدرسة النجيبية سنة احدى وثمانين وستمائة فأنشدني لبعض أهل الادب في نقيب الاشراف بالمدائن رثاء خلب قلبي وهو يقول

قد قلت للرجل المولى غسله * هلا أطاع وكنت من نصحائه

جنبه ماءك ثم غسله بما * اذرت عيون المجد عند بكائه

وأزل أناوية الحنوط ونحها * عنه وحنطه بطيب ثنائه

ومر الملائكة الكرام بنقله * شرفا ألست تراهم بازائه

لا توه اعناق الرجال بحمله * يكفي الذي حملوه من نعمائه

قال الشيخ شهاب الدين فوقع في نفسي انه أحق الناس بهذا الرثاء وانه نعى نفسه فمات في ذلك الاسبوع برد الله مضجعه (نكتة لطيفة) قيل انه لما رجع الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمه الله من الشام الى بغداد وجلس على عادته أخذ يذم أحوال الناس ويهضم جانب الرجال ويقول انه ما بقي من يجاري وقد خلت الدنيا وأنشد

ما في الصحاب أخو وجد نطارحه * حديث نجد ولا خل نجاريه

فصاح من أطراف المجلس رجل عليه قباء وكلوتة فقال يا شيخ كم تتنقص بالقوم والله ان فيهم من لم يرض أن يجاريك وقصاراك أن تفهم ما يقول هلا قلت

ما في الصحاب وقد سارت حمولهم * الا محب له في الركب محبوب

كأنما يوسف في كل راحلة * والحي في كل بيت منه يعقوب

فصاح السهروردي ونزل عن الكرسي وطلب الشاب فلم يجده (حكى) عن ابن المطرزي الشاعر انه مر وفي رجله نعل بالية بالشريف الرضي فأمر باحضاره وقال انشدني أبياتك التي تقول فيها

اذا لم تبلغني اليك ركائبي * فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فانشده اياها فلما انتهى الى هذا البيت أشار الى نعله البالية وقال هذه كانت ركائبك فاطرق ابن المطرزي ساعة ثم قال لما عادت هبات مولانا الشريف الى مثل قوله

وخذ النوم من جفوني فاني * قد خلعت الكرى على العشاق

عادت ركائبي الى مثل ما ترى لانك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل فخجل الشريف وقابله بما

يليق من الاكرام (قلت) وأما الاجوبة الهاشمية وبلاغتها فهي في المحل الارفع (فمن ذلك) انه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعقبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة فقالوا يا أمير المؤمنين ابعث لنا الى الحسن بن علي فقال لهم فيم فقالوا كي نوبخه ونعرفه ان أباه قتل عثمان فقال لهم انكم لا تنتصفون منه ولا تقولون شيأ الا كذبكم الناس ولا يقول لكم شيأ يبلاغته الاصدقه الناس فقالوا أرسل اليه فانا سنكفيك أمره فارسل اليه معاوية فلما حضر قال يا حسن اني لم أرسل اليك ولكن هؤلاء ارسلوا اليك فاسمع مقالتهم واجب ولا تحترمني فقال الحسن عليه السلام فليتكلموا ونسمع فقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال هل تعلم يا حسن ان اباك أول من أثار الفتنة وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله به ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا بني هاشم كنتم أصهار عثمان ابن عفان فنعم الصهر كان يفضلكم ويقربكم ثم بغيتم عليه فقتلتموه ولقد أردنا يا حسن قتل أبيك فانقذنا الله منه ولو قتلناه بعثمان ما كان علينا من الله ذنب ثم قام عقبة فقال تعلم يا حسن ان أباك بغى على عثمان فقتله حسدا على الملك والدنيا فسلبهما ولقد أردنا قتل أبيك حتى قتله الله تعالى ثم قام المغيرة بن شعبة فكان كلامه كله سبا لعلي وتعظيما لعثمان (فقام الحسن عليه السلام) فحمد الله وأثنى عليه وقال بك ابدأ يا معاوية لم يشتمني هؤلاء ولكن أنت تشتمني بغضا وعداوة وخلافا لجدي صلى الله عليه وسلم ثم التفت الى الناس وقال أنشدكم الله أتعلمون ان الرجل الذي شتمه هؤلاء كان أول من آمن بالله وصلى للقبلتين وأنت يا معاوية يومئذ كافر تشرك بالله وكان معه لواء النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ومع معاوية وأبيه لواء المشركين ثم قال أنشدكم الله والاسلام أتعلمون ان معاوية كان يكتب الرسائل لجدي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه يوما فرجع الرسول وقال هو يأكل فرد الرسول اليه ثلاث مرات كل ذلك وهو يقول هو يأكل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا اشبع الله بطنه اما تعرف ذلك في بطنك يا معاوية ثم قال وأنشدكم الله أتعلمون ان معاوية كان يقود بأبيه على جمل وأخوه هذا يسوقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الجمل وقائده وراكبه وسائقه هذا كله لك يا معاوية وأما أنت يا عمرو فتنازع فيك خمسة من قريش فغلب عليك شبه ألأمهم حسبا وشرهم منصبا ثم قمت وسط قريش فقلت اني شانئ محمدا فأنزل الله على نبيه ان شانئك هو الابتر ثم هجوت محمدا صلى الله عليه وسلم بثلاثين بيتا من الشعر فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اني لا أحسن الشعر ولكن العن عمرو بن العاص بكل بيت لعنة ثم انطلقت الى النجاشي بما علمت وعملت فاكذبك الله وردك خائبا فانت عدو بني هاشم في الجاهلية والاسلام فلم نلمك على بغضك وأما أنت يا ابن أبي معيط فكيف الومك على سبك لعلي وقد جلد ظهرك في الخمر ثمانين سوطا وقتل أباك صبرا بامر جدي وقتله جدي بامر ربي ولما قدمه للقتل قال من للصبية يا محمد فقال لهم النار فلم يكن لكم عند النبي الا النار ولم يكن لكم عند علي غير السيف والسوط وأما أنت يا عتبة فكيف تعد أحدا بالقتل لم لا قتلت الذي وجدته في فراشك مضاجعا لزوجتك ثم امسكتها بعد أن بغت وأما أنت يا أعور ثقيف ففي أي ثلاث تسب عليا أفي بعده من

رسول الله صلى الله عليه وسلم أم فى حكم جائر أم فى رغبة فى الدنيا فان قلت شيأ من ذلك فقد كذبت وأكذبك الناس وان زعمت ان عليا قتل عثمان فقد كذبت وأكذبك الناس وأما وعيدك فانما مثلك كمثل بعوضة وقفت على نخلة فقالت لها استمسكى فانى أريد أن أطير فقالت لها النخلة ما علمت بوقوفك فكيف يشق على طيرانك وأنت فما شعرنا بعد او تلك فكيف يشق علينا سبك ثم نفض ثيابه وقام فقال لهم معاوية ألم أقل لكم انكم لا تنتصفون منه فوالله لقد أظلم على البيت حتى قام فليس فيكم بعد اليوم خير انتهى

(ومن غريب النقل)

ان شريك بن الاعور دخل على معاوية وهو يختال فى مشيته فقال له معاوية والله انك لشريك وليس لله من شريك وانك ابن الاعور والصحيح خير من الاعور وانك لدميم والوسيم خير من الدميم فبم سودك قومك فقال له شريك والله انك لمعاوية وما معاوية الا كلبة عوت فاستعوت فسميت معاوية وانك ابن حرب والسلم خير من الحرب وانك ابن صخر والسهل خير من الصخر وانك ابن أمية وما أمية الا امة صغرت فسميت أمية فكيف صرت أمير المؤمنين فقال له معاوية أقسمت عليك الا ماخرجت عنى (نكتة لطيفة) اتفق ان الملك المعظم عزم على الصيد فقال له بعض جماعته يامولانا ان القمر فى العقرب والسفر فيه مذموم والمصلحة أن تصبر الى أن ينزل القمر القوس فعزم على الصبر فبينما هو مفكر اذ دخل عليه مملوك له من أحسن الناس وجها فوقف أمامه وقد توشح بقوس فقال له بعض الحاضرين بالله يامولانا اركب فى هذه الساعة فهذا القمر قد حل فى القوس حقيقة فقام لوقته وركب استبشارا بالقول فلم ير أطيب من تلك السفرة ولا أكثر من صيدها (ومن غرائب المنقول) ما حكى اسحق النديم عن أبيه قال استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من الجمعة لابعث فيه بجوارى واخوانى فاذن لى فى يوم السبت وقال هو يوم استثقله فالهو فيه بما شئت قال فاقمت يوم السبت بمنزلى وتقدمت لاصلاح طعامى وشرابى وأمرت بوابى باغلاق الباب وأن لا ياذن لاحد من الناس فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حففن بى اذا أنا بشيخ عليه هيبة وجمال وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بالفضة وروائح الطيب تفوح منه فداخلنى لدخوله على مع ماقدمت من الوصية غيظ عظيم وهممت بطرد بوابى ومن يحجبنى لاجله فسلم على احسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ فى حديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن مابى فظننت أن غلمانى قصدوا مسرتى بادخاله على لظرفه وأدبه فقلت له هل لك فى الطعام فقال لا حاجة لى به فقلت هل لك فى الشراب فقال ذاك اليك قال فشربت رطلا وسقيته مثله فقال يا أبا اسحق هل لك فى ان تغنى ونسمع منك مافقت به على العام والخاص قال فغاظنى منه ذلك ثم سهلت الامر على نفسى وأخذت العود وضربت وغنيت فقال أحسنت يا ابراهيم فازددت غيظا وقلت مارضى بما فعله حتى سمانى باسمى ولم يحسن مخاطبتى ثم قال هل لك فى ان تزيدنا ونكافئك قال فتذممت وأخذت العود فغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته فيما مانا ما نطرب وقال أحسنت ياسيدى ثم قال أتأذن لعبدك فى الغناء فقلت شانك واستضعفت عقله كيف سولت له

نفسه ان يغني بحضرتي بعد ما سمعه مني فأخذ العود وجسه فوالله لقد خلته ينطق بلسان عربي واندفع يغني ولي كبد مقروحة من يبيعني * بها كبدا ليست بذات قروح

أباها على الناس لا يشترونها * ومن يشتري ذا علة بصحيح

قال ابراهيم فوالله لقد ظننت أن الحيطان والابواب وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبي ثم غنى الا يا حمامات اللوى الابيات فكاد يذهب عقلي طربا ثم قال يا ابراهيم خذ هذا الغناء وانح نحوه في غنائك وعلمه جواريك فسألته أن يعيد ما غناه فقال لم تحتج الى شيء من ذلك ثم غاب من بين عيني فارتعت وقمت الى السيف فجردته ثم غدوت نحو الابواب وقلت للجواري أي شيء سمعتن فقلن سمعنا أحسن غناء فخرجت متحيرا الى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ فقال أي شيخ والله ما دخل اليك اليوم أحد من الناس فرجعت لا تأمل أمري فاذا به قد هتف من بعض جوانب الدار فقال لا بأس عليك يا أبا اسحق أنا ابليس وقد اخترت منادمتك في هذا اليوم فلا ترتاع فركبت على الفور الى الرشيد واتحفته بهذه الطرفة فقال ويحك اعتبر الاصوات التي أخذتها عنه فأخذت العود فاذا هي راسخة في صدري فطرب الرشيد وأمر لي بصلة وقال ليته امتعنا يوما واحدا كما أمتعك قال أبو الفرج الاصفهاني هكذا احدثنا ابن أبي الازهر وما أدري ما أقول فيه (ويضارع هذا ما أورده ابن خلكان في ترجمة ابن دريد) قال أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد سقطت من منزلي فانكسر بعض اعضائي فسهرت ليلتي فلما كان آخر الليل غمضت عيني فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا دخل علي واخذ بعضادتي الباب وقال انشدني احسن ما قلت في الخمر فقلت ما ترك أبو نواس لاحد شيئا في هذا الباب فقال أنا اشعر منه فقلت ومن انت قال أبو ناجية من أهل الشأم وانشدني

وحمراء قبل المزج صفراء بعده * بدت بين ثوبي نرجس وشقائق

حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا * عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له اسأت قال ولم قلت لانك قلت وحمراء فقدمت الحمرة ثم قلت نرجس وشقائق فقدمت الصفرة فقال ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض وأبو ناجية من كنى ابليس قال قاضي القضاة شمس الدين محمد بن خلكان في تاريخه وفي رواية اخرى ان الشيخ أبا علي الفارسي قال انشدني ابن دريد هذين البيتين وقال جاءني ابليس في المنام ثم ذكر بقية الكلام الخ (ونقل ابن خلكان وغيره) ان ابا بكر بن فريعة قاضي السندية وغيرها من اعمال بغداد كان من عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالاجوبة عن جميع ما يسئل عنه في أفصح لفظ واملح سجع وكان مختصا بحضرة الوزير ابي محمد المهلبي ومنقطعا اليه وله مسائل واجوبة مدونة في ايدي الناس وكان رؤساء ذلك العصر والعلماء والفضلاء يداعبونه ويكتبون له المسائل الغريبة المضحكة فيكتب الاجوبة من غير توقف ولا يكتب الا مطابقا لما سألوه وكان الوزير المذكور يغري به جماعة يصنعون له المسائل الهزلية من معان شتى من النوادر (فمن ذلك) ما كتب اليه بعض الفضلاء على سبيل الامتحان ما يقول القاضي أيده الله تعالى في رجل سمى ولده مدامًا وكناه أبا الندامى

وسمى ابنته الراح وكناها ام الافراح وسمى عبده الشراب وكناه أبا الاطراب وسمى وليدته القهوة وكناها أم النشوة أينهى عن بطالته أم يؤدب على خلاعته (فكتب تحت السؤال) لو نعت هذا لابى حنيفه لا قعده خليفه وعقد له رايه وقاتل تحتها من خالف رايه ولو علمنا مكانه لقبلنا اركانه فان اتبع هذه الاسماء افعالا وهذه الكنى استعمالا علمنا انه احيا دولة المجون واقام لواء ابنة الزرجون فبايعناه وشايعناه وان تكن اسماء سماها ماله بها من سلطان خلعنا طاعته وفرقنا جماعته فنحن الى امام فعال احوج منا الى امام قوال (وكتب اليه العباس الكاتب) مايقول القاضي وفقه الله تعالى فى يهودى زنى بنصرانية فولدت له ولدا جسمه للبشر ووجهه للبقر وقد قبض عليهما فما يرى القاضي فيهما (فكتب تحت سؤاله بديها) هذا من اكبر الشهود على الملاعين اليهود فانهم أشربوا حب العجل فى صدورهم حتى خرج من أيورهم وأرى ان يناط رأس اليهودى برأس العجل ويصلب على عنق النصرانية الساق مع الرجل ويسحبان على الارض وينادى عليهما ظلمات بعضها فوق بعض والسلام (نادرة لطيفة) لما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس قال لعيسى بن موسى الهادى أنت تعلم ان الخلافة صائرة اليك واريد ان أسلم لك عمى وعمك عبد الله بن على فخذه واقتله واياك أن تجبن فى أمره ثم مضى المنصور الى الحج وكتب اليه من الطريق يستحثه على ذلك فكتب اليه قد أنفذت أمر أمير المؤمنين وكان الامر بخلاف ذلك فلم يشك أبو جعفر انه قتله ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس فقال له ان المنصور دفع الى عمه وأمرنى بقتله فقال له يريد ان يقتلك به فانه أمرك بذلك سرا ويدعى به عليك علانية والرأى ان تستره فى منزلك ولا تطلع عليه أحدا فان طلبه منك علانية دفعته اليه علانية ولا تدفعه اليه سرا ابدا ففعل ذلك وقدم المنصور فدس على عمومته من يحركهم ان يسألوا المنصور أن يهب لهم أخاهم عبد الله ففعلوا ذلك وكلموه فأجاب وقال نعم على بعيسى بن موسى فأتاه فقال يا عيسى كنت دفعت اليك عمى وعمك عبد الله قبل خروجى الى الحج وأمرتك ان يكون فى منزلك مكرما قال قد فعلت ذلك قال قد كلمنى فيه عمومتك فرأيت الصفح عنه فأتنى به قال يا امير المؤمنين ألم تأمرنى بقتله قال لا بل أمرتك بحبسه عندك ثم قال المنصور لعمومته ان هذا قد اقر لكم بقتل أخيكم وادعى انى أمرته بذلك وقد كذب قالوا فادفعه الينا نقتله قال شأنكم فاخرجوه الى صحن الدار واجتمع الناس واشتهر الامر فقام احدهم وشهر سيفه وتقدم الى عيسى ليضربه فقال عيسى لا تعجلوا فان عمى حى ردونى الى أمير المؤمنين فردوه اليه فقال يا أمير المؤمنين انما أردت بقتله قتلى هذا عمك حى ان أمرتنى بدفعه اليهم دفعته قال ائتنا به فأتى به فجعله فى بيت فسقط عليه فمات وكان المنصور قد وضع فى اساس البيت ملحا لما شرع فى عمارته واعده لهذا المعنى ولما جلس فيه عمه اجرى الماء فى اساس البيت سرا بحيث لا يشعر به أحد فذاب الملح وسقط البيت وركب المنصور بعد موت عمه وفى خدمته عباس بن المتوفى وكان يباسطه فى كل وقت فقال له المنصور وهو يحادثه هل تعرف ثلاثة فى أول أسمائهم عين قتلوا ثلاثة فى أول أسمائهم عين قال لا اعرف الا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين ان عليا قتل عثمان وكذبوا والله وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير وسقط البيت على عم أمير المؤمنين قال فضحك المنصور وقال اذا

سقط البيت على عمى فما ذنبي قال قلت مالك ذنب يا أمير المؤمنين وقتل عبد الله كان بسبب البيعة التي تقدمت له مع السفاح وشرحها يطول انتهى (ونقلت من خط قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان ما صورته) نقلت من خط القاضي كمال الدين بن العديم من مسودة تاريخه ان ابن الدقاق البلنسي الشاعر المشهور كان يسهر الليل ويشتغل بالادب وكان أبوه حدادا فقيرا فلامه وقال يا ولدي نحن فقراء ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه فاتفق انه برع في العلم والادب وقال الشعر وعمل في أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية قصيدة مطربة أولها

ياشمس خدر مالها مغرب * وبدر تم قط لا يحجب

وقال منها

ناشدتك الله نسيم الصبا * أين استقرت بعد نا زينب
لم تسر الا بشذا عرفها * اولا فما ذا النفس الطيب

فأطلق له ثلثمائة دينار فجاء الى أبيه وهو جالس في حانوته منكب على صنعته فوضعها في حجره وقال خذ هذه وابتع بها زيتا انتهى (حكى عن عبد العزيز بن الفضل) قال خرج القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن شريح وأبو بكر بن داود وأبو عبد الله نفطويه الى وليمة فافضى بهم الطريق الى مكان ضيق فأراد كل منهم تقديم صاحبه عليه فقال ابن شريح ضيق الطريق يورث سوء الادب فقال ابن داود لكنه تعرف به مقادير الرجال فقال نفطويه اذا استحكمت المودة بطلت التكاليف (وحكى عن شريح جد أبي العباس المشهور بالصلاح الوافر) انه كان أعجميا لا يعرف بلسان العرب شيئا فاتفق له انه رأى البارئ عز وجل في النوم فخاطبه وقال يا شريح طلبكن فقال يا خدای سار بسار وهذا اللفظ اعجمي معناه بالعربي يا شريح اطلب فقال يارب رأسا برأس كما يقال رضيت ان أخلص رأسا برأس (ومن لطائف المنقول) انه كان بالعقبة ظاهر دمشق المحروسة خان تجمع فيه اسباب الملاذ ويتفق فيه من الفسوق والفجور مالا يحد ولا يوصف فرفع ذلك الى أبي الفتح موسى بن أبي بكر العادل بن أيوب الملقب بالاشرف فهدمه وعمره جامعا وسماه الناس جامع التوبة كأنه تاب الى الله وأناب عما كان فيه (وجرت في خطابته نكتة لطيفة) وهي انه كان بمدرسة الشام التي خارج البلد امام يعرف بالجمال قيل انه كان في زمان صباه يلعب بشئ من الملاهي وهي التي تعمى الجغانة ولما كبر حسنت طريقته وعاشر العلماء وأهل الصلاح حتى صار معدودا في الاخيار فلما احتاج الجامع المذكور الى خطيب رشح جانبه للخطابة لكثرة الثناء عليه فتولاها فلما توفي تولى بعده العماد الواسطي الواعظ وكان متهما باستعمال الشراب وكان صاحب دمشق يومئذ الملك الصالح عماد الدين اسمعيل بن العادل أيوب فكتب اليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن رواحة أبياتا وهي هذه

يامليكا أوضح الحق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد حملني منه امانه
قال قل للملك الصا * لح أعلى الله شانه
يا عماد الدين يامن * حمد الناس زمانه

كم الى كم أنا في بؤ * س وضر واهانه
لي خطيب واسطي * يعشق الشرب ديانه
والذي قد كان من قبـ * ـل يغني بجفانه
فبكا نحسن ومارك * ناولا أبرح حانه
ردني للنمط الاول واستبق زمانه

(ومن اللطائف المنقول) أن بثينة وعزة دخلتا على عبد الملك بن مروان فانحرف الى عزة وقال أنت عزة كثير قالت لست لكثير بعزة لكنني أم بكر قال أتروين قول كثير

وقد زعمت أني تغيرت بعدها * ومن ذا الذي يا عز لا يتغير

قالت لست أروي هذا ولكنني أروي قوله

كأني أنادي أو أكلم صخرة * من الصم لو تمشي بها العصم زلت

ثم انحرف الى بثينة فقال أنت بثينة جميل قالت نعم يا أمير المؤمنين قال ما الذي رأى فيك جميل حتى لهج بذكرك من بين نساء العالمين قالت الذي رأى الناس فيك فجعلوك خليفتهم قال فضحك حتى بدا له ضرس أسود ولم ير قبل ذلك وفضل بثينة على عزة في الجائزة ثم أمرهما ان يدخلا على عاتكة فدخلتا عليها فقالت لعزة أخبريني عن قول كثير

قضى كل ذي دين فوفى غريمه * وعزة ممطول معنى غريمها

ما كان دينه وما كنت وعدتيه قالت كنت وعدته قبلة ثم تأثمت منها قالت عاتكة وددت انك فعلت وأنا كنت تحملت اثمها عنك ثم ندمت عاتكة واستغفرت الله تعالى وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة انتهى * (ويعجبني قول اسامة بن منقذ في ابن طليب المصري وقد احترقت داره) *

انظر الى الايام كيف تسوقنا * قسرا الى الاقرار بالاقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره * نارا وكان حريقها بالنار

(قلت ومما يناسب هذه الواقعة) ان الوجيه بن صورة المصري دلال الكتب بمصر كان له دار موصوفة بالحسن فاحترقت فعمل فيها انشوا الملك المعروف بابن المنجم

أقول وقد عاينت دار ابن صورة * وللنار فيها مارج يتضرم
كذا كل مال أصله من نهاوش * فعما قليل في نهابر يعدم
وما هو الا كافر طال عمره * فجاءته لما استبطأته جهنم

(قلت) وهذه اللطائف تضارع قصة أبي الحسين الجزار مع بعض أهل الادب بمصر وكان شيخا قد ظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت فلما سمع أبو الحسين الجزار بذلك كتب اليه

أيها السيد الاديب دعاء * من محب خال عن التنكيت
أنت شيخ وقد قربت من النا * ر فكيف ادهنت بالكبريت

(قيل) ان أبا القاسم الزعفراني مدح الصاحب بن عباد بقصيدة نونية وانتهى الى قوله منها

وحاشية الدار يمشون في * صنوف من الخز الا أنا

فقال الصاحب قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني ان رجلا قال له احملني أيها الامير فامر له بناقة وفرس و بغل وحمار وجارية ثم قال لو علمت ان الله سبحانه وتعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك عليه وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وعمامة ودراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس ولو علمنا لباسا من الخز لاعطيناكه (و بلغ) حديث معن المذكور للعلاء بن أيوب فقال رحم الله ابن زائدة لو كان يعلم ان الغلام يركب لامر له به ولكنه كان عربيا خالصا لم يدنس بقاذورات الاعاجم انتهى (قيل) ان بيوت الشعر أربعة فخر ومديح وهجاء ونسيب وكان جرير اخل شعراء الاسلام في الاربعة فالفخر قوله

اذا غضبت عليك بنو تميم * حسبت الناس كلهم غضابا

والمديح قوله

ألستم خير من ركب المطايا * واندى العالمين بطون راح

والهجاء قوله

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

والنسيب قوله

ان العيون التي في طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به * وهن أضعف خلق الله انسانا

(وقال أبو عبيدة) التقى جرير والفرزدق بمنى وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير

فانك لاق بالمنازل من منى * فخارا فاخبرني بما أنت فاخر

فقال له جرير بلبيك اللهم لبيك قال أبو عبيدة أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويعجبون منه (قيل) لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفد الشعراء اليه وأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم فبينما هم كذلك اذ مر بهم رجاء بن حياة وكان جليس عمر فلما رآه جرير داخلا قام اليه وأنشده

يا أيها الرجل المرخي عمامته * هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل عليه ولم يذكر له شيئا من أمرهم ثم مر بهم عدي بن ارطاة فقال جرير ابياتا آخرها قوله

لا تنس حاجتنا لقيت مغفرة * قد طال مكثي عن أهلي وأوطاني

قال فدخل عدي على عمر فقال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة قال ويحك يا عدي مالي وللشعراء قال أعز الله أمير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح وأعطى ولك في رسول الله عليه الصلاة والسلام اسوة حسنة قال كيف قال امتدحه العباس بن مرداس السلمي فاعطاه حلة فقطع بها لسانه قال أوتروي من قوله شيئا قال نعم قوله

رأيتك يا خير البرية كلها * نشرت كتابا جاء بالحق معلما

شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا * عن الحق لما أصبح الحق مظلما

ونورت بالبرهان أمرا مدلسا * واطفأت بالاسلام نارا تضرما
فمن مبلغ عني النبي محمدا * وكل امرئ يجزى بما كان قدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه * وكان قديما ركنه قد تهدما

فقال عمر ويلك يا عدي من بالباب منهم قال عمر بن أبي ربيعة قال أليس هو الذي يقول

ثم نبهتها فمدت كعابا * طفلة ما تبين رجع الكلام
ساعة ثم انها بعد قالت * ويلتا قد عجلت يا ابن الكرام

فلو كان عدو الله اذ فجر كتم على نفسه لكان استر له لا يدخل والله على أبدا فمن بالباب سواه قال الفرزدق قال أوليس الذي يقول

هما دلياني من ثمانين قامة * كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي في الارض قالتا * أحي فيرجى أم قتيل نحاذره

لا يدخل على والله فمن بالباب سواه قال الاخطل قال يا عدي هو الذي يقول

ولست بصائم رمضان طوعا * ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عيسا بكورا * الى بطحاء مكة للنجاح
ولست بزائر بيتا عتيقا * بمكة أبتغي فيه صلاحي
ولست بقائم بالليل أدعو * قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا * وأسجد عند منبلج الصباح

والله لا يدخل على وهو كافر أبدا فمن بالباب سوى من ذكرت قال الاخوص قال أليس الذي يقول

الله بيني وبين سيدها * يفر مني بها واتبعه

فما هو بدون من ذكرت فمن هنا أيضا قال جميل بن معمر قال أليس هو الذي يقول

الا ليتنا نحيا جميعا وان أمت * يوافق في الموتى ضريحي ضريحها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحا لكان أصلح والله لا يدخل على أبدا فهل سوى من ذكرت أحد قال جرير قال أما هو الذي يقول

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعي بسلام

فان كان ولا بد فهو الذي يدخل فلما مثل بين يديه قال يا جرير اتق الله ولا تقل الا حقا فانشده قصيدته الرائية المشهورة التي منها

وانا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا * من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر
هذه الارامل قد قضيت حاجتها * فمن لحاجة هذا الارمل الذكر
الخير ما دمت حيا لا يفارقنا * بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال يا جرير ما أرى لك فيما ههنا حقا قال بلى يا أمير المؤمنين اني ابن سبيل ومنقطع فقال له ويحك يا جرير لقد ولينا هذا الامر ولا نملك الا ثلثمائة درهم فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم

عبد الله يا غلام اعطه المائة الباقية قال فأخذها جرير وقال والله لهي أحب الى مما اكتسبته ثم خرج فقال له الشعراء ماوراءك فقال ما يسوءكم خرجت من عند خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وانى عليه لراض وأنشد

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه * وقد كان شيطاني من الجن راقيا

(ومن لطائف الظرف) ما حدث ابراهيم بن المهدى قال قال لى جعفر يوما انى استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غدا فهل أنت مساعدى فقلت جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمحادثتك قال فبكر الى بكور الغراب قال فأتيته عند الفجر فوجدت الشمعة بين يديه وهو ينتظرني للميعاد فصلينا ثم افضينا الى الحديث وقدم الطعام فأكلنا فلما غسلنا أيدينا خلعت علينا ثياب المنادمة ثم ضمخنا بالخلوق ومدت الستائر ثم انه ذكر حاجة فدعا الحاجب فقال اذا أتى عبد الملك فائذن له يعني قهرمانه فاتفق ان جاء عبد الملك بن صالح الهاشمى شيخ الرشيد وهو من جلالة القدر والورع والامتناع من منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل وكان الرشيد قد اجتهد أن يشرب معه قدحا واحدا فلم يقدر عليه ترفعا لنفسه فلما رفع الستر وطلع علينا سقط فى أيدينا وعلمنا أن الحاجب قد غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان فأعظم جعفر ذلك وارتاع له ثم قام اجلالا له فلما نظر الى تلك الحال دعا غلامه فدفع اليه سيفه وعمامته ثم قال اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال فجاء اليه الغلمان فطرحوا عليه الثياب الحرير وضمخوه ودعى بالطعام فطعم وشرب ثلاثا ثم قال ليخفف عنى فانه شئ ماشربته والله فتهلل وجه جعفر وفرح ثم التفت اليه فقال جعلت فداءك بالغت فى الخير والفضل فهل من حاجة تبلغ اليها قدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها مكافأة لما صنعت قال بلى ان فى قلب أمير المؤمنين على غضبا فتسأله الرضا عنى فقال له جعفر قد رضى أمير المؤمنين عنك ثم قال وعلى عشرة آلاف دينار فقال هى لك حاضرة من مالى ومن مال أمير المؤمنين مثلها ثم قال وابنى ابراهيم أحب ان أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين قال قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية قال وأحب ان تخفق على رأسه الالوية قال قد ولاه أمير المؤمنين مصر فانصرف عبد الملك بن صالح قال ابراهيم بن المهدى فبقيت متحيرا متعجبا من اقدام جعفر على أمير المؤمنين من غير استئذان وقلت عسى أن أن يجيبه فيما سأل من الرضا والمال والولاية ولكن من المطلق لجعفر أو لغيره تزويج بنات الرشيد فلما كان من الغد بكرت الى باب الرشيد لارى ما يكون فدخل جعفر فلم يلبث حتى دعا بأبى يوسف القاضى وابراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج ابراهيم وقد عقد نكاحه بالعالية بنت الرشيد وعقد له على مصر والرايات والالوية بين يديه وحملت البدر الى منزل عبد الملك وخرج جعفر فأشار الينا فقال تعلقت قلوبكم بحديث عبد الملك فأحببتم علم آخره لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال كيف كان يومك يا جعفر فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك وكان متكئا فاستوى جالسا وقال ابه ولله أبوك فقلت سألني فى رضا أمير المؤمنين قال فبم أجبت قلت قد رضى أمير المؤمنين عنك قال قد رضيت ثم ماذا قلت وذكر ان عليه عشرة آلاف دينار قال فبم أجبته قلت قد قضاها أمير المؤمنين عنك قال قد قضيت قلت وذكر

أنه راغب فى أن يشد ظهر ولده ابراهيم بصهر منك قال نعم أجبته قلت قد زوجه أمير المؤمنين
ابنته العالية قال قد أمضيت ذلك ثم ماذا الله أبوك قلت وذكر انه يشتهى أن تخفق على رأس
ولده ابراهيم الالوية قال فنعم أجبته قلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر قال قد وليته فأحضر ابراهيم
والقضاة والفقهاء وأتم له جميع ذلك من ساعته قال ابراهيم بن المهدى فوالله ما أدرى أيهم
أكرم وأعجب ما ابتداه عبد الملك من الموافقة وشرب الخمر ولم يكن شربها قط ولباسه ما لبس من
لبسه من ثياب المنادمة أم اقدام جعفر على الرشيد بما أقدم أم امضاء الرشيد جميع ما حكم به
جعفر عليه (ومن لطائف المنقول) ما حكى عن أبى معشر البلخى المنجم الامام المصنف صاحب
التصانيف المفيدة فى علم النجوم قيل انه كان متصلا بخدمة بعض الملوك وان ذلك الملك طلب
رجلا من أتباعه وأكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه فاستخفى وعلم أن أبا معشر يدل
عليه بالطريقة التى يستخرج بها الخبايا والاشياء الكامنة فاراد أن يعمل شيأ حتى لا يهتدى
اليه ويبعد عنه حدسه فأخذ طستا وجعل فيه دما وجعل فى الدم هاونا من ذهب وقعد
على الهاون أياما وتطلبه الملك وبالغ فى الطلب فلما عجز عنه أحضر أبا معشر وطلب اظهاره فعمل
المسئلة التى يستخرج بها وسكت زمانا حائرا فقال له الملك ما سبب سكوتك وحيرتك فقال أرى
شيأ عجيبا فقال وما هو قال أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل فى بحر من دم ولا
أعلم فى العالم موضعا على هذه الصفة فقال له اعد نظرك ففعل ثم قال ما أرى الا ما ذكرت وهذا
شئ ما وقع لى مثله فلما أيس الملك من تحصيله نادى فى البلد بالامان للرجل ولمن أخفاه فلما
أمن الرجل ظهر وحضر بين يدى الملك فسأله عن الموضع الذى كان فيه فأخبره بما اعتمده عليه
فأعجبه حسن احتياله فى اخفاء نفسه ولطافة أبى معشر المنجم فى استخراجه وله غير ذلك من
الاصابات (قال قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان) ومما يناسب هذا من فطن المتطببين
ما رواه الحسن بن ادريس الحلوانى قال سمعت الامام محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه
يقول ما أفلح سمين قط الا أن يكون محمد بن الحسن قيل له ولم ذلك قال لانه لا يعدو العاقل احدى
خلتين اما ان يهتم لآخرته ومعاده أو لدنياه ومعاشه والشحم مع الهم لا ينعقد ثم قال وكان بعض
ملوك الارض قديما كثير الشحم لا ينتفع بنفسه فجمع الحكماء وقال احتالوا لى بحيلة يخف عنى
لحمى هذا قليلا قال فما قدروا له على شئ فجاء رجل عاقل لبيب متطبب فقال عالجنى ولك الغنى
قال اصلح الله الملك انا طبيب منجم دعنى حتى انظر الليلة فى طالعك لارى أى دواء يوافقه فلما
أصبح قال أيها الملك الامان فلما امنه قال رأيت طالعك يدل على أنه لم يبق من عمرك غير شهر
واحد فان اخترت عالجتك وان أردت بيان ذلك فاحبسنى عندك فان كان لقولى حقيقة فخل عنى
والا فاقتص منى قال فحبسه ثم رفع الملك الملاهى واحتجب عن الناس وخلا وحده مغتما فكلما
انسلخ يوم ازداد هما وغما حتى هزل وخف لحمه ومضى لذلك ثمان وعشرون يوما فبعث اليه
واخرجه فقال ما ترى فقال أعز الله الملك أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب والله انى لم أعلم
عمرى فكيف اعلم عمرك ولكن لم يكن عندى دواء الا الغم فلم أقدر أجلب اليك الغم الا
بهذه الحيلة فان الغم يذيب الشحم فاجازه على ذلك واحسن اليه غاية الاحسان وذاق حلاوة

الفرج بعد مرارة الغم (قلت و يعجبني قول جعفر بن شمس الخلافة في هذا المعنى)

هي شدة يأتي الرخاء عقيبها * وأسى يبشر بالسرور العاجل
واذا نظرت فان بؤسا عاجلا * للمرء خير من نعيم زائل

(و يعجبني قوله وان كان في غير ما نحن فيه)

مدحتك ألسنة الانام مخافة * وتشاهدت لك بالثناء الاحسن
أترى الزمان مؤخرا في مدتي * حتى أعيش الى انطلاق الالسن

(نادرة لطيفة) نقل عن قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في تاريخه ان الجنيد قال ما انتفعت بشئ كانتفاعي بأبيات سمعتها قيل له وما هي قال مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تتغني من دار وتقول هذه الابيات

اذا قلت أهدى الهجر لي حلل الاسى * تقولين لولا الهجر لم يطب الحب
وان قلت ما أذنبت قالت مجيبة * حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

فصعقت وصحت فبينما انا كذلك اذ خرج صاحب الدار فقال ما هذا يا سيدي فقلت له مما سمعت فقال انها هبة مني اليك فقلت قد قبلت وهي حرة لوجه الله تعالى ثم دفعها لبعض أصحابنا بالرباط فولدت منه ولدا نبيلا حج على قدميه ثلاثين حجة (وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في ترجمة أبي علي الفارسي) أنه كان يوما يساير عضد الدولة بن بويه في ميدان شيراز فقال له لم انتصب المستثنى في قولنا قام القوم الا زيدا فقال الشيخ بفعل مقدر تقديره استثنى زيدا فقال له عضد الدولة هلا رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد فانقطع وقال هذا الجواب ميداني ثم انه لما رجع الى منزله وضع في ذلك كلاما حسنا وحمله اليه فاستحسنه (وحكى أبو القاسم أحمد الاندلسي) قال جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي وأنا حاضر فقال اني لاغبطكم على قول الشعر فان خاطري لا يوافقني الى ذلك مع تحقيق العلوم التي هي من مواده فقال له رجل فما قلت قط شيأ منه قال ما أعلم ان لي شعرا غير ثلاثة أبيات في الشيب وهي قولي

خضبت الشيب لما كان عيبا * وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خلي * ولا عيبا خشيت ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميما * فصيرت الخضاب له عقابا

(ومن لطائف المنقول ان أبا محمد الوزير المهلبي) كان في غاية من الادب والمحبة لاهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة بن بويه في شدة عظيمة من الضرورة والمضايقة وسافر وهو على تلك الحالة ولقي في سفره شدة عظيمة فاشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال ارتجالا

ألا موت يباع فاشتريه * فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي * يخلصني من العيش الكريه
اذا أبصرت قبرا من بعيد * وددت لو انني فيما يليه
الا رحم المهيمن نفس حر * تصدق بالوفاة على أخيه

وكان له رفيق يقال له أبو عبد الله الصوفي وقيل أبو الحسن العسقلاني فلما سمع الابيات اشترى له

لحما بدرهم وطبخه وأطعمه وتفارقا وتنقلت الاحوال وولى الوزارة ببغداد لمعز الدولة المذكور وضاق الحال برفيقه الذى اشترى له اللحم فى السفر وبلغه وزارة المهلبى فقصده وكتب اليه

ألا قل للوزير فدته نفسى * مقال مذكر ما قد نسيه
أتذكر اذ تقول لضيق عيش * ألا موت يباع فاشتريه

(فلما) وقف عليها تذكر الحال وهزته أريحية الكرم فامر له بسبعمائة درهم ووقع له فى رقعته مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملا يرتفق منه انتهى (وذكر الحريرى صاحب المقامات فى كتابه المسمى بدرة الغواص) ما مثاله قال حماد الراوية كان انقطاعى الى يزيد بن عبد الملك بن مروان فى خلافته وكان أخوه هشام يجفونى لذلك فلما مات يزيد وافضت الخلافة الى هشام خفته ومكثت فى بيتى سنة لا أخرج الا لمن اثق به من اخوانى سرا فلما لم أسمع أحدا ذكرنى فى السنة أمنت وخرجت وصليت الجمعة فى الرصافة فاذا شرطيان قد وقفا على وقالا يا حماد اجب الامير يوسف بن عمر الثقفى وكان واليا على العراق فقلت فى نفسى من هذا كنت أخاف ثم قلت لهما تدعانى حتى آتى أهلى وأودعهم ثم أسير معكما فقالا ما الى ذلك من سبيل فاستسلمت فى أيديهما ثم صرت الى يوسف بن عمر وهو فى الايوان الاحمر فسلمت عليه فرد على السلام ورمى الى بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين الى يوسف بن عمر اما بعد فاذا قرأت كتابى هذا فابعث الى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع وادفع له خمسمائة دينار وجملا مهريا يسير عليه ثنتى عشرة ليلة الى دمشق فاخذت الدنانير ونظرت فاذا جمل مرحول فركبت وسرت حتى وافيت دمشق فى ثنتى عشرة ليلة فنزلت على باب هشام واستأذنت فأذن لى فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر وقد ضمخ بالمسك فسلمت عليه فرد على السلام واستدنانى فدنوت منه حتى قبلت رجله فاذا جاريتان لم أر أحسن منهما قط فقال كيف أنت وكيف حالك فقلت بخير يا أمير المؤمنين فقال أتدرى فيم بعثت اليك فقلت لا قال بعثت اليك بسبب بيت خطر ببالى لا أعرف قائله قلت وما هو يا أمير المؤمنين قال

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت * قينة فى يمينها ابريق

فقلت يقوله عدى بن زيد العبادى فى قصيدة قال انشدنيها فانشدته

بكر العاذلون فى وضح الصبح يقولون لى اما تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موثوق
لست أدرى اذا كثر العذل فيها * أعدو يلومنى أم صديق

(قال حماد فانتهيت فيها الى قوله)

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت * قينة فى يمينها ابريق
قدمته على عقار كعين الديك صفى سلافها الراووق
مرة قبل مزجها فاذا ما * مزجت لذ طعمها من يذوق

قال فطرب هشام ثم قال أحسنت يا حماد سل حاجتك قلت احدى الجاريتين قال هما جميعا

للتعبا عليهما ومالهما فأقام عنده مدة ثم وصله بمائة ألف درهم قلت انظر أيها المتأمل الى نفاق رخيص الادب فى ذلك العصر وكساده غالبه فى هذا العصر وبشهادة الله ان البيت الذى طلب حماد الراوية بسببه من بغداد الى دمشق فى اثنى عشرة ليلة وأجيز عليه بالجارتين والمائة ألف درهم تأنف نفسى ان أضعه فى قصيدة من قصائدى لرخصه وسفالته وهو

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت * قينة فى يمينها ابريق

(وكنت أود) أن أكون فى ذلك العصر ويسمع هشام بن عبد الملك قولى فى هذا الباب من قصيدة قلتها

فى ليلة رقم البدر المنير لها * طرازه لعصا الجوزاء نقرات
وبات لى من لماه اذ تبسم لى * تحت الضفائر صبحات وغبقات
والراح دق على فهمى تصورها * لكن لها شاع فى الكاسات نفحات
كانت علامة تحقيق وقال فى * هى المنازل لى فيها علامات
مذ انشأتنا سجعا فى مجالسها * مغردين وللانشاء سجعات
هذا وأفواه كاساتى قد ابتسمت * ومزجتها ثغور لؤلؤيات
ومن يقل حركات الهم ما سكنت * فللحباب على التسكين جزمات

(قال ثعلب) ما أحد من الشعراء تكلم فى الليل الطويل الا قارب ولكن خالد الكاتب أبدع فيه فقال

رقدت فلم ترث للساهر * وليل المحب بلا آخر
ولم تدر بعد ذهاب الرقا * د ما صنع الدمع بالناظر

وقال بعض من كان يحضر مجلس المبرد كنا نختلف اليه فاذا كان آخر المجلس املى علينا من طرف الاخبار وملح الاشعار ما نرتاح الى حفظه فأنشدنا يوما مرثية زياد الاعجم فى المغيرة ابن المهلب التى منها

فاذا مررت بقبره فاعقر له * كوم الهجان وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دم وذبائح

قال فخرجت من عنده وأنا أديرها فى لسانى لاحفظها فاذا بشيخ قد خرج من خربة وفى يده حجر فهم أن يرمينى به فتترست بالمحبرة والدفتر فقال ماذا تقول اتشتمنى فقلت اللهم لا ولكنى كنت عند استاذنا أبى العباس المبرد فأنشدنا مرثية زياد الاعجم فى المغيرة بن المهلب فقال ابيابه أنشدنى ما أنشد كم بارد كم لا مبرد كم فأنشدته فقال والله ما جود الراثى ولا انصف المرثى ولا أحسن الراوى قلت فما عساه أن يقول قال كان يقول

احملانى ان لم يكن لكما عقـ * ـر الى جنب قبره فاعقرانى
وانضحا من دمى عليه فقد كا * ن دمى من نداه لو تعلمان

(قال) فقلت هل رأيت أحدا واسى أحدا بنفسه قال نعم هذا الفتى الفتح بن خاقان طرح نفسه على المتوكل حتى خلط لحمه بلحمه ودمه بدمه ثم تركنى وتولى فلما عدت الى المبرد قصصت عليه

القصة فقال أتعرفه قلت لا قال ذلك خالد الكاتب تأخذه السوداء أيام الباذنجان انتهى
قيل كبر خالد الكاتب حتى دق عظمه ورق جلده وقوى به الوسواس ورؤى ببغداد والصبيان
يتبعونه فأسند ظهره الى قصر المعتصم والصبيان يصيحون به يا بارد فقال كيف أكون
باردا وأنا الذى أقول

بكى عاذلى من رحمتى فرحمته * وكم مثله من مسعد ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها * دموع دموعى لا دموع جفونى

(وحدث أبو الحسن على بن مقلة) قال حدثنى أبى عن عمه قال اجتاز بى خالد الكاتب وأنا على
باب دارى بسر من رأى والصبيان حوله يلعبون به فجاء فى المارآ فى وسألنى صرفهم عنه
فصرفتهم وأدخلته دارى وقلت له ما تشتهى تأكل قال الهريسة فتقدمت باصلاحها له فلما
أكل قلت أى شئ تحب بعد هذا قال رطب فامرت باحضاره فأكل فلما فرغ من أكله قلت
له أنشدنى من شعرك فانشدنى

تناسيت ما أوعيت سمعك يا سمعى * كأنك بعد الضر خال من النفع
فان كنت مطبوعا على الصد والجفا * فمن أين لى صبر فأجعله طبعى
لئن كان أضحى فوق خديك روضة * فان على خدى غديرا من الدمع

فقلت زدنى فقال لا يساوى تهريسك ورطبك غير هذا (ومن المروى عنه) قال بعض طلبة
المبرد خرجت من مجلس المبرد فلقيت خالدا الكاتب فقال من أين قلت من مجلس المبرد قال بل
البارد ثم قال ما الذى أنشدكم اليوم قلت انشدنى

أعار الغيث نائله * اذا ما ماؤه نفدا
وان اسد شكا جبنا * أعار فؤاده الاسدا

(فقال) اخطأ قائل هذا الشعر قلت كيف قال ألا تعلم انه اذا أعار الغيث نائله يبقى بلا نائل واذا
أعار الاسد فؤاده يبقى بلا فؤاد قلت فكيف كان يقول فانشد

علم الغيث الندى من يده * مذ دعاه علم البأس الاسد
فاذا الغيث مقر بالندى * واذا الليث مقر بالجلد

قال فكتبتهما وانصرفت (نادرة لطيفة) دخل أبو دلامة على المهدى فانشده قصيدة فقال
سل حاجتك فقال يا أمير المؤمنين هب لى كلبا قال فغضب وقال أقول لك سل حاجتك تقول
هب لى كلبا فقال يا أمير المؤمنين الحاجة لى أولك فقال بل لك فقال انى أسألك أن تهب لى
كلب صيد فامر له بكلب فقال يا أمير المؤمنين هبنى خرجت للصيد أأعدو على رجلى فامر له
بدابة فقال يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها فامر له بغلام فقال يا أمير المؤمنين هبنى صدت
صيدا وأتيت به المنزل فمن يطبخه فامر له بجارية فقال يا أمير المؤمنين فهؤلاء اين يبيتون فامر له
بدار فقال يا أمير المؤمنين قد صيرت فى عنقى عيالا فمن أين لى ما يقوت هؤلاء قال المهدى أعطوه
جريب نخل ثم قال هل بقيت لك حاجة قال نعم تأذن لى ان أقبل يدك انتهى (وحكى) ان هشام
ابن عبد الملك قدم حاجا الى بيت الله الحرام فلما دخل الحرم قال ائتونى برجل من الصحابة فقيل

يا أمير المؤمنين قد تقانوا فقال فمن التابعين فأتي بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بأمير المؤمنين ولم يكنه وجلس الى جانبه بغير اذنه وقال كيف أنت يا هشام فغضب من ذلك غضبا شديدا حتى هم بقتله فقيل له أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون ذلك فقال يا طاوس ما حملك على ما صنعت قال وما صنعت قال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تسلم يا أمير المؤمنين ولم تكنني وجلست بازائي بغير اذني وقلت يا هشام كيف أنت فقال له طاوس اما خلع نعلي بحاشية بساطك فاني أخلعهما بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات ولا يعاتبني ولا يغضب علي وأما قولك لم تسلم علي بامرة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضيا بامرتك فخفت أن أكون كاذبا وأما قولك لم تكنني فان الله عز وجل سمى أنبياءه فقال يا داود يا يحيى يا عيسى وكنى اعداءه فقال تبت يدا أبي لهب وأما قولك جلست بازائي فاني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول اذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام فقال له عظني فقال له اني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ان في جهنم حيات وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام فخرج انتهى (نادرة لطيفة) مروية عن أبي عمر عامر الشعبي ولكن يتعين ان نبدأ بشئ من ترجمته أولا قال الزهري العلماء أربعة ابن المسيب بالمدينة والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام والشعبي بالكوفة ويقال انه أدرك خمسمائة من الصحابة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (والنادرة الموعود بذكرها) هي ما حكى الشعبي قال أنفذني عبد الملك بن مروان الى ملك الروم فلما وصلت اليه جعل لا يسألني عن شئ الا أجبته وكانت الرسل لا تطيل الاقامة فحبسني عنده أياما كثيرة فلما أردت الانصراف قال أمن بيت المملكة أنت فقلت لا ولكني من العرب فدفع الى رقعة وقال اذا أديت الرسائل الى صاحبك أوصل اليه هذه الرقعة قال فأديت الرسائل عند وصولي الى عبد الملك وأنسيت الرقعة فلما وصلت الباب أريد الخروج تذكرت الرقعة فرجعت فأوصلتها اليه فقال لي هل قال لك شيأ قبل أن يدفعها اليك قلت نعم قال لي أنت من أهل بيت المملكة قلت لا ولكني رجل من العرب في الجملة ثم خرجت من عند عبد الملك فلما بلغت الباب طلبني فرددت فلما مثلت بين يديه قال أتدري ما في الرقعة قلت لا قال اقرأها فقرأتها فاذا فيها عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره فقلت يا أمير المؤمنين لو علمت ما فيها ما حملتها وانما قال هذا لانه لم يرك قال أتدري لم كتبها قلت لا قال حسدني عليك فاراد ان يغريني بقتلك انتهى (وقيل) كان الشعبي ضئيلا نحيلا فقيل له في ذلك فقال زوحمت في الرحم وكان قد ولد هو وأخ آخر وأقام في البطن سنتين ذكره صاحب كتاب المعارف (ويقال) ان الحجاج قال له يوما كم عطاءك في السنة فقال ألفين فقال له ويحك كم عطاؤك قال ألفان فقال ويحك كيف لحنت أولا فقال لحن الامير فلحنت فلما أعرب أعربت وما يحسن أن يلحن الامير وأعرب فاستحسن ذلك منه وأجازه (نادرة بديعة غريبة) منقولة عن سديد الملك

أبي الحسن علي بن منقذ صاحب قلعة شيزر وكان سديد الملك مقصودا من البلاد ممدوحا مدحه جماعة من الشعراء كابن الخياط الخفاجي وغيرهما وله شعر جيد أيضا ومنه قوله وقد غضب على مملوك فضربه

اسطو عليه وقلبي لو تمكن من * كفي غلهما غيظا الى عنقي
واستعيد اذا عاقبته حنقا * وأين ذل الهوى من عزة الحنق

(وكان موصوفا بقوة الفطنة) ويحكى عنه في ذلك حكاية عجيبة وهي انه كان يتردد على حلب قبل تملكه قلعة شيزر وصاحب حلب يومئذ تاج الملوك محمود بن صالح بن مرداس فجرى أمر خاف سديد الملك منه على نفسه فخرج من حلب الى طرابلس الشام وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده فتقدم محمود صاحب حلب الى كاتبه أبي نصر محمد بن الحسين بن علي النحاس الحلبي ان يكتب الى سديد الملك كتابا يتشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه الى حلب ففهم الكاتب انه يقصد له شرا اذا جاء اليه وكان الكاتب صديقا الى سديد الملك فكتب الكاتب كما أمره مخدومه الى أن بلغ الى آخره وهو ان شاء الله فشدد النون وفتحها فلما وصل الكتاب الى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن بمجلسه من خواصه استحسنوا عبارة الكتاب واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه وايثاره لقربه فقال سديد الملك اني أرى ما لا ترون في الكتاب ثم أجاب عن الكتاب بما اقتضاه الحال وكتب في جملة فصول الكتاب أنا الخادم المقر بالانعام وكسر الهمزة من أنا وشدد النون فلما وصل الكتاب الى محمود ووقف عليه سر بما فيه وقال لاصدقائه قد علمت ان الذي كتبته لا يخفى على مثله وقد أجاب بما طيب قلبي عليه وكان الكاتب قد قصد قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاجاب سديد الملك بقوله انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها وكانت هذه الحكاية معدودة من شدة تيقظه وفهمه انتهى (وحكى الصابئ في كتاب الاعيان والامثال) ان رجلا اتصلت عطلته وانقطعت مادته فزور كتابا من الوزير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي الى ابن زيتون المارداني عامل مصر يتضمن المبالغة في الوصايا وزيادة الاكرام وعمل المصالح فلما دخل مصر اجتمع بابن زيتون ودفع اليه الكتاب فلما قرأ ابن زيتون الكتاب ارتاب في أمره لتغير لفظ الخطاب عما جرت به العادة وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله فراعاه مراعاة قريبة ووصله صلة قليلة وحبسه عنده على وعد وعده به ثم كتب الى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الذي ورد عليه وأنفذه بعينه فلما وقف عليه ابن الفرات عرف الرجل وذكر ما كان عليه من الحرمة وماله من الحقوق القديمة عليه فعرضه على كتابه وعرفهم الصورة وعجب اليهم منها وقال لهم ما الرأي في مثل هذا الرجل فقال بعضهم تأديبه وقال بعضهم قطع ابهامه وقال أجلهم محضرا يكشف لابن زيتون أمره ويرسم له بطرده وحرمانه فقال ابن الفرات ما أبعدكم من الخير رجل توسل بنا وحمل المشقة الى مصر وأمل الخير بجاهنا والانتساب الينا يكون حاله عند أحسنكم نظرا تكذيب ظنه وتخييب سعيه والله لا كان هذا أبدا ثم أخذ القلم ووقع على الكتاب المزور هذا كتابي ولست أعلم لم

أنكرت أمره واعترضتك فيه شبهة وليس كل من يخدمنا نعرفه وهذا رجل خدمني أيام نكبتي فأحسن تفقده ورفده وصرفه فيما يعود نفعه عليه ثم رد الكتاب الى ابن زيتون من يومه ومضت على ذلك مدة طويلة اذ دخل على ابن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبزة جميلة فاقبل يدعو له ويثني عليه ويبكي ويقبل يديه والارض فقال له ابن الفرات من أنت بارك الله فيك قال صاحب الكتاب المزور الى ابن زيتون الذي صححه كرم الوزير بفضله فضحك ابن الفرات وقال كم وصل اليك منه قال اوصل الي من ماله ومن قسط قسطه على عماله عشرين ألف دينار فقال الحمد لله على صلاح حالك ثم اختبره فوجده كاتبا سديدا فاستخدمه انتهى والحمد لله على ذلك

(ذكر الحصري في كتابه المسمى بالدر المصون في سر الهوى المكنون) ان الجاحظ ذكر للواثق لتأديب بعض أولاده فلما رآه استبشع منظره فامر له بعشرة آلاف درهم وصرفه قال الجاحظ فخرجت من عنده فرأيت محمد بن ابراهيم وهو يريد الانحدار الى مدينة السلام فعرض علي الانحدار معه فانحدرت ونصبت ستارة وأمر بالغناء واندفعت عوادة تغني

كل يوم قطيعة وعتاب * ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري أنا خصصت بهذا * دون ذا الخلق ام كذا الاحباب

ثم سكتت فامر طنبورية فغنت

وارحمتا للعاشقينا * ما ان أرى لهم معينا
كم يهجرون ويصرمو * ن ويقطعون فيصبرونا

فقالت لها العوادة فيصنعون ماذا فقالت يصنعون هكذا وضربت بيدها على الستارة وبدت كأنها فلقة بدر ثم رمت بنفسها في الماء قال وكان على رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وفي يده مذبة فالقى المذبة من يده لما رأى ما صنعت الجارية ثم أتى الى الموضع ونظر اليها وأنشد

أنت التي غرقتني * بعد القضا لو تعلمينا

ورمى بنفسه في أثرها فادار الملاح الحراقة فاذا بهما متعانقين ثم غاصا فهال ذلك محمدا واستعظمه وقال يا عمرو ان لم تحدثني حديثا يسليني عنهما ألحقتك بهما قال الجاحظ فحضرني خبر سليمان بن عبد الملك وقد قعد يوما للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت قصة فيها مكتوب ان رأى أمير المؤمنين أعزه الله ان يخرج الي جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة اصوات فعل ان شاء الله تعالى فاغتاظ سليمان لذلك وأمر من يأتيه برأسه ثم أردفه رسولا آخر ان يدخل به اليه فلما دخل قال ما حملك على ما صنعت قال الثقة بحلمك والاتكال على عفوك فامره بالقعود حتى لم يبق أحد من بني امية الا خرج ثم أمر بالجارية فاخرجت ومعها عود فقال لها غني ما يقول لك فقال الفتى غني

تألق البرق نجديا فقلت له * يا أيها البرق اني عنك مشغول

فغنته فقال لسليمان أتأمر لي برطل فاتي به فشرب به ثم قال لها غني

حبذا رجعها اليها يداها * في يدي درعها تحل الازارا

فغنته فقال لسليمان أتأمر لي برطل فاتي به فشرب به ثم قال غني

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل * وان كنت قد أزمعت صرمي فاجملي

فغنته فقال لسليمان تأمر لي برطل فما استتم شربه حتى صعد على القور على قبة لسليمان فرمى بنفسه على دماغه فمات فقال سليمان انا لله وانا اليه راجعون أتراه الاحمق ظن اني أخرج اليه جاريتي وأردها الى ملكي يا غلمان خذوا بيد هذه الجارية وانطلقوا بها الى أهله ان كان له أهل والا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عليه فلما انطلقوا بها نظرت الى حفيرة في دار سليمان اتخذت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم ثم قالت

من مات عشقا فليمت هكذا * لا خير في عشق بلا موت

فزجت بنفسها في الحفيرة فماتت فسرى عن محمد واحسن صلتي انتهى (وكتب) أبو منصور أفتكين التركي متولي دمشق الى عضد الدولة بن بويه كتابا مضمونه ان الشأم قد صفا وصار في يدي وزال عنه حكم صاحب مصر وان قويتني بالاموال والرجال والعدد حاربت القوم في مستقرهم فكتب اليه عضد الدولة في جوابه هذه الكلمات وهي متشابهة في الخط لا تعرف الا بعد النقط والضبط وهي غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك تهدا بهذا قال القاضي شمس الدين بن خلكان تغمده الله برحمته لقد أبدع غاية الابداع (قلت) وأبدع منه قول السلامي فيه من قصيدته التي منها

اليك طوى عرض البسيطة جاعل * قصار المطايا ان يلوح لها القصر

فكنت وعزمي في الظلام وصارمي * ثلاثة أشياء كما اجتمع النسر

وبشرت آمالي بملك هو الورى * ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

قال ابن خلكان هذا على الحقيقة هو السحر الحلال كما يقال وقد أخذ هذا المعنى القاضي أبو بكر الارجاني فقال

يا سائلي عنه لما جئت امدحه * هذا هو الرجل العاري من العار

لقيته فرأيت الناس في رجل * والدهر في ساعة والارض في دار

ولكن أين الثرى يا من الثريا والم أبو الطيب المتنبي أيضا بهذا المعنى لكنه ما استوفى بقوله

هو الغرض الاقصى ورؤيتك المنى * ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

ولكن ليس لاحد منهم حلاوة بيت السلامي انتهى *(نادرة لطيفة)* كان أبو بكر المحلي يتولى نفقات أبي المسك كافور الاخشيدي وكان له في كل عيد اضحى عادة وهو ان يسلم الى أبي بكر المذكور بغلا محملا ذهبا وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة الى الجبانة وما بينهما قال أبو بكر المذكور وكان يمشي معي صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل وأطوف من بعد العشاء الاخيرة الى آخر الليل حتى أسلم ذلك الى من تضمنت اسمها الجريدة فاطرق منزل كل انسان ما بين رجل وامرأة وأقول الاستاذ أبو المسك كافور الاخشيدي يهنئك بالعيد ويقول لك اصرف هذا في منفعتك فادفع اليه ما جعل له وفي آخر وقت زاد في الجريدة الشيخ أبا عبد الله بن جابار وجعل له في ذلك العيد مائة دينار فطفت في تلك الليلة وأنفقت المال في أربابه ولم يبق الا الصرة فجعلتها في كمي وسرت مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة فطرقت

الباب فنزل الينا الشيخ وعليه أثر السهر فسلمت عليه فلم يرد علي وقال ما جاءك قلت الاستاذ
أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام فقال والى بلدنا قلت نعم قال حفظه الله الله يعلم اني
أدعو له في الخلوات وادبار الصلوات بما الله سامعه ومستجيبه قلت وقد أنفذ معي نفقة وهي هذه
الصرة ويسألك قبولها لتصرف في مؤنة هذا العيد المبارك فقال نحن رعيته ونحبه في الله تعالى
وما نفسد هذه المحبة بعلة فراجعته القول فتبين لي الضجر في وجهه والقلق واستحييت من الله أن
أقطعه عما هو عليه فتركته وانصرفت قال فجئت فوجدت الامير قد تهيأ للركوب وهو ينتظرني
فلما رآني قال ايه يا أبا بكر قلت أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت لك في هذه الليلة
وفي هذا اليوم الشريف فقال الحمد لله الذي جعلني لا يصال الراحة الى عباده ثم اخبرته بامتناع
ابن جابار فقال نعم هو جدير لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم ثم قال لي عد اليه واركب
دابة من دواب النوبة والطرق بابه فاذا نزل اليك فانه سيقول لك ألم تكن عندنا فلا ترد عليه
جوابا ثم استفتح واقرأ بسم الله الرحمن الرحيم طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن
يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما
في الارض وما بينهما وما تحت الثرى يا ابن جابار الاستاذ كافور يقول لك ومن كافور العبد
الاسود ومن هو ومولاه ومن الخلق ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة تلاشى الناس كلهم ههنا
أتدري من هو معطيك وعلى من رددت أنت ما سألت وانما هو أرسل لك يا ابن جابار أنت
ما تفرق بين السبب والمسبب (قال أبو بكر) فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل الي فقال لي
مثل لفظ كافور فاضربت عن الجواب وقرأت طه ثم قلت له ما قال لي كافور فبكى وقال لي أين
ما حملت فأخرجت الصرة فاخذها وقال علمنا الاستاذ كيف التصوف قلت له احسن الله
جزاءك ثم عدت اليه فاخبرته بذلك فسر وسجد شكرا لله تعالى وقال الحمد لله على ذلك (ونقل
ابن خلكان في تاريخه) أن أبا عبد الله محمد بن الاعرابي كان يزعم ان الاصمعي وأبا عبيدة
لا يحسنان شيأ وكان يقول جائز في كلام العرب أن يعاقب بين الضاد والظاء فلا يخطئ من يجعل
هذا في موضع هذا وينشد

الى الله أشكو من خليل أوده * ثلاث خصال كلها لي غائض

ويقول هكذا سمعته بالضاد (ومن النوادر اللطيفة) ورد أبو نصر الفارابي الى دمشق على سيف
الدولة بن حمدان وهو اذ ذاك سلطانها فقيل انه لما دخل عليه وهو بزي الاتراك وكان ذلك زيه
دائما وقف فقال له سيف الدولة اجلس فقال حيث أنا أو حيث أنت فقال حيث أنت فتخطى
رقاب الناس حتى انتهى الى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه وكان على رأس
سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارهم به فقال لهم بذلك اللسان ان هذا الشيخ
قد أساء الأدب واني سائله عن اشياء ان لم يعرفها اخرجوا به فقال له أبو نصر بذلك اللسان أيها
الامير اصبر فان الامور بعواقبها فعجب سيف الدولة منه وعظم عنده ثم أخذ يتكلم مع العلماء
الحاضرين في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده
ثم أخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في ان تأكل قال لا قال

فهل لك أن تشرب قال لا فقال هل تسمع قال نعم فامر سيف الدولة باحضار القيان فحضر كل ماهر في الصنعة بانواع الملاهي فخطأ الجميع فقال له سيف الدولة هل تحسن هذه الصنعة قال نعم ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها فاخرج منها عيدانا وركبها ثم لعب بها فاضحك كل من في المجلس ثم فكها وركبها تركيبا آخر فبكى كل من في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وحركها فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياما وخرج وهو الذي وضع القانون وكان منفرد بنفسه لا يجالس الناس وكان مدة اقامته بدمشق لا يكون غالبا الا عند مجتمع المياه أو مشتبك الرياض وهناك يؤلف كتبه وكان ازهد الناس في الدنيا لا يحتفل بامر مسكن ولا مكسب وسأله سيف الدولة في مرتب من بيت المال فقال يكفيني أربعة دراهم ولم يزل على ذلك الى ان توفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق وصلى عليه سيف الدولة وأربعة من خواصه وقد ناهز ثمانين سنة ودفن ظاهر دمشق خارج الباب الصغير (ومن المنقول من خط القاضي الفاضل) ان نور الدين الشهيد كتب الى راشد الدين سنان صاحب القلاع الاسماعلية كتابا يهدده فيه فشق ذلك على سنان فكتب اليه بما هو فوق الوصف بحكاية الحال وهو

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا * لا قام مصرع قلب كنت تصرعه
قام الحمام الى البازي يهدده * واستصرخت باسود الغاب أضبعه
أضحى يسد فم الافعي باصبعه * يكفيه ماذا تلاقي منه أصبعه

وقفنا على تفصيله وجمله وعلمنا ماهددنا به من قوله وعمله فيالله العجب من ذبابة تطن في أذن الفيل وبعوضة تعد في التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم فما كان لهم من ناصرين أو للحق تدحضون وللباطل تنصرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون واما ما صدر من قولك فتلك أماني كاذبه وخيالات غير صائبه فان الجواهر لا تزول بالاعراض كما أن الارواح لا تضمحل بالامراض فان عدنا الى الظواهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ما اوذي نبي ما اوذيت ولقد علمتم ماجرى على عترته وأهل بيته وشيعته والحال ماحال والامر مازال ولله الحمد في الآخرة والاولى اذ نحن مظلومون لا ظالمون ومغصوبون لا غاصبون وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا ومايتمنونه من الفوت ويستقربون به الى حياض الموت قل فتمنوا الموت ان كنتم صادقين وفي أمثال العامة أو للبط تهددون بالشط فهيئ للبلاء جلبابا وتدرع للرزايا أثوابا وانك لكالباحث على حتفه بظلفه أو الجادع انفه بكفه وما ذلك على الله بعزيز (ومن غرائب الظرف ماحكاه ابن خلكان في تاريخه) قال حدثني من اثق به ان شخصا قال له رأيت في تاليف أبي العلاء المعري ماصورته أصلحك الله وابقاك لقد كان من الواجب أن تاتينا اليوم الى منزلنا الخالي لكي نحدث لي انسا يازين الاخلاء فما مثلك من غير عهدا أو غفل وسأله من أي الابحر وهل هو بيت واحد أم أكثر فان كان أكثر فهل ابياته على روي واحد او مختلفة الروي قال فافكر فيه ثم أجابه بجواب حسن قال ابن خلكان فقلت للقائل اصبر حتى انظر فيه ولا تقل ماقاله فاجاب القاضي شمس الدين

خلكان بعد حسن النظر بما أجاب به عنه الرجل وهذه الكلمات تخرج من بحر الرجز وتشتمل على أربعة أبيات في روي اللام وهي على صورة يسوغ استعمالها عند العروضيين ومن لا يكون له بهذا الفن معرفة ينكرها لاجل قطع الموصول منها ولابد من الاتيان بها لتظهر صورة ذلك وهي

أصلحك الله وأبـ * قاك لقد كان من الـ

واجب أن تأتينا الـ * يوم إلى منزلنا الـ

خالي لكي نحدث لي * أنسك يا زين الاخلـ

لاء فما مثلك من * غير عهدا أو غفل

قلت وعلى ذكر أبي العلاء الضرير يعجبني قول مظفر بن جماعة الضرير

قالوا عشقت وأنت أعمى * ظبيا كحيل الطرف ألمى

وحلاه ما عاينتها * وتقول قد شغفتك وهما

وخياله بك في المنا * م فما أطاف ولا ألما

من أين أرسل للفؤا * د وأنت لم تنظره سهما

ومتى رأيت جماله * حتى كساك هواه سقما

وبأي جارحة وصلـ * ـت لوصفه نثرا ونظما

فأجبت اني موسوي العشـ * ـق إنصاتا وفهما

أهوى بجارحة السما * ع ولا أرى ذات المسمى

(ويعجبني أيضا قول ضرير آخر)

وغادة قالت لأترابها * يا قوم ما أعجب هذا الضرير

أيعشق الانسان ما لا يرى * فقلت والدمع بعيني غزير

ان لم تكن عيني رأت شخصها * فانها قد مثلت في الضمير

ومثل هذا قول المهذب عمر بن الشحنة

واني امرؤ أحببتكم لمحاسن * سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وتقدمه بشار بقوله

يا قوم أذني لبعض القوم عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة في كتابه المسمى بشرح العيون في شرح رسالة بن زيدون عن علي ابن أبي طالب أنه قال سبحان الله ما أزهد كثيرا من الناس في الخير عجبا لرجل يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه أهلا للخير ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ولو كان ينبغي له أن يسارع الى مكارم الاخلاق فانها تدل على سبل النجاح فقام اليه رجل فقال يا أمير المؤمنين أسمعته من النبي صلى الله عليه وسلم قال نعم لما أتي بسبايا طيئ وقعت جارية حمياء حسناء فلما رأيتها أعجبت بها فلما تكلمت نسيت جمالها بفصاحتها فقالت يا محمد ان رأيت أن تخلي سبيلي ولا تشمت بي أحياء العرب فاني ابنة سيد قومي وان أبي كان يفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويفشي

السلام ولا يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائي فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذه صفات المؤمنين خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الاخلاق والمنقول عن حاتم في زيادة الكرم كثير (من ذلك) ما حكاه المدائني قال أقبل ركب من بني أسد و بني قيس يريدون النعمان فلقوا حاتما فقالوا اتر كناقومنا يثنون عليك وقد أرسلوا اليك رسالة قال وماهي فانشده الاسديون شعر النابغة فيه فلما انشدوه قالوا انا نستحي ان نسألك شيئا وان لنا حاجة قال وماهي قالوا صاحب لنا قد ارجل يعني فقدت راحلته فقال حاتم خذوا فرسي هذه فاحملوه عليها فاخذوها وربطت الجارية فلوها بثوبها فافلت يتبع امه وتبعته الجارية لترده فصاح حاتم ماتبعكم فهو لكم فذهبوا بالفرس والفلو والجارية وقيل أجود العرب في الجاهلية ثلاثة حاتم الطائي وهرم ابن سنان وكعب بن مامة وحاتم كان اشهرهم بالكرم ذكر انه ادرك مولد النبي صلى الله عليه وسلم وحكى الهيثم بن عدي قال تمارى ثلاثة في اجواد الاسلام فقال رجل اسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وقال آخر اسخى الناس عرابة الاوسي وقال آخر بل هو قيس بن سعد بن عبادة وأكثروا الجدال في ذلك وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة فقال لهم رجل قد أكثرتم الجدال في ذلك فما عليكم أن يمضي كل واحد منكم الى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان فقام صاحب عبد الله اليه فصادفه قد وضع رجله في غرز ناقته يريد ضيعة له فقال يا ابن عم رسول الله قال قل ماتشاء قال ابن سبيل ومنقطع به قال فاخرج رجله من غرز الناقة وقال له ضع رجلك واستوعلى الراحلة وخذ مافي الحقيبة واحتفظ بسيفك فانه من سيوف علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال فجاء بالناقة والحقيبة فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار وأعظمها وأجلها السيف ومضى صاحب قيس بن عبادة فصادفه نائما فقالت الجارية هو نائم فما حاجتك اليه قال ابن سبيل ومنقطع به قالت حاجتك اهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار والله يعلم ان مافي دار قيس غيره خذه وامض الى معاطن الابل الى أموال لنا بعلامتنا فخذ راحلة من رواحله ومايصلحها وعبدا وامض لشانك فقيل ان قيسا لما انتبه من رقدته اخبرته بما صنعت فاعتقها ومضى صاحب عرابة الاوسي اليه فالفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يمشي على عبدين وقد كف بصره فقال ياعرابة ابن سبيل ومنقطع به قال فخلى العبدين وصفق بيمناه على يسراه وقال أواه أواه ماتركت الحقوق لعرابة مالا ولكن خذهما يعني العبدين قال ما كنت الذي اقص جناحيك قال ان لم تاخذهما فهما حران فان شئت تاخذ وان شئت تعتق واقبل يلتمس الحائط بيده راجعا الى منزله قال فاخذهما وجاء بهما فثبت انهم اجود عصرهم الا أنهم حكموا للعرابة لانه أعطى جهده

❋ نادرة غريبة ❋ حضر يعقوب بن اسحق الكندي المسمى بوقته فيلسوف الاسلام مجلس أحمد بن المعتصم وقد دخل عليه أبو تمام فانشد قصيدته السينية المشهورة فلما بلغ الى قوله

اقدام عمرو في سماحة حاتم ❋ في حلم احنف في ذكاء اياس

قال له الكندي ماصنعت شيئا فقال كيف قال مازدت على ان شبهت ابن أمير المؤمنين بصعاليك العرب وأيضا فان شعراء دهرنا تجاوزوا بالممدوح من كان قبله ألا ترى الى قول العكوك في

أبي دلف

رجل أبر على شجاعة عامر * بأساو غبر في محيا حاتم

فاطرق أبو تمام ثم أنشأ يقول

لا تنكروا ضربي له من دونه * مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

ولم يكن هذا في القصيدة فتزايد العجب منه ثم طلب ان تكون الجائزة ولاية عمل فاستصغر عن ذلك فقال الكندي ولوه لانه قصير العمر لان ذهنه ينحت من قلبه فكان كما قال وقد تكون ظهرت له دلائل من شخصه في ذلك الوقت على قرب أجله انتهى وسمع الكندي انسانا ينشد

وفي أربع مني حلت منك أربع * فما انا ادري ايها هاج لي كربي

خيالك في عيني أم الذكر في فمي * أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي

فقال لقد قسمها تقسيما فلسفيا انتهى ونقل الشيخ جلال الدين بن نباتة في كتابه المسمى بسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ان واضع العود بعض حكماء الفرس ولما فرغ منه سماه البربط وتفسيره باب النجاة ومعناه انه مأخوذ من صرير باب الجنة وجعلت اوتاره أربعة بازاء الطبائع الاربع فالزير بازاء السوداء والبم بازاء الصفراء والمثنى بازاء الدم والمثلث بازاء البلغم فاذا اعتدلت أوتاره المرتبة على ما يجب جانست الطبائع وأنتجت الطرب وهو رجوع النفس الى الحالة الطبيعية دفعة واحدة وبدئ هذا العلم بيطليموس وختم باسحق بن ابراهيم الموصلي وحكى ابن حمدون في تذكرته ان الحسن بن حماد قال كنت بالمدينة فخلا لي الطريق نصف النهار فجعلت أتغنى بشعر ذي يزن وهو

ما بال قومك يا رباب * خزرا كأنهم غضاب

فاذا كوة قد فتحت واذا وجه قد بدا منها تتبعه لحية حمراء فقال يا فاسق أسأت التادية ومنعت القائلة وأذعت الفاحشة ثم اندفع يغني فغنى الصوت غناء لم أسمع مثله فقلت أصلحك الله من اين لك هذا الغناء قال نشأت وأنا غلام يعجبني الاخذ عن المغنين فقالت أمي يا بني ان المغني اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه فدع الغناء واطلب الفقه فتركته وتبعت الفقهاء فبلغ بي الى ما ترى فقلت أعد لي الصوت جعلت فداك فقال لا ولا كرامة أتريد ان تقول أخذته عن مالك ابن أنس ❊ فائدة غريبة ❊ روى عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا رواه ابن ماجه ❊ نادرة لطيفة ❊ قال عبد الله بن أبي يزيد مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فاذا رجل رث الهيئة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يتغن بالقرآن قال فقلت لابن أبي مليكة يا أبا محمد ارأيت ان لم يكن حسن الصوت قال يحسنه ما استطاع رواه أبو داود ❊ نادرة لطيفة ❊ تتضمن المثل السائر في قولهم عن الخائب (رجع بخفي حنين) المنقول عن حنين انه كان اسكافا من أهل الحيرة ساومه اعرابي بخفين ولم يشتر منه شيئا وغاظه ذلك فخرج الى الطريق التي لابد للاعرابي من

المرور منها فعلق الفردة الواحدة منهما في شجرة على طريقه وتقدم قليلا فطرح الفردة الثانية واختفى فجاء الاعرابي فرأى احد الخفين فوق الشجرة فقال ما أشبهه بخف حنين لو كان معه آخر لتكلفت اخذه وتقدم فرأى الخف الآخر مطروحا فنزل وعقل بعيره وأخذه ورجع ليأخذ الاول فخرج حنين من الكمين فاخذ بعيره وذهب ورجع الاعرابي الى ناحية بعيره فلم يجده فرجع بخفي حنين فصارت مثلا ﴿نادرة لطيفة﴾ قيل ان بعض وفود العرب قدموا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وكان فيهم شاب فقام وتقدم وقال يا أمير المؤمنين اصابتنا سنون سنة اذابت الشحم وسنة اكلت اللحم وسنة أذابت العظم وفي أيديكم فضول اموال فان كانت لنا فعلام تمنعونها عنا وان كانت لله ففرقوها على عباد الله وان كانت لكم فتصدقوا بها علينا ان الله يجزي المتصدقين فقال عمر بن عبد العزيز ما ترك الاعرابي لنا عذرا في واحدة (ووقف اعرابي على حلقة الحسن البصري) فقال رحم الله من تصدق من فضل أو واسى من كفاف أو آثر من قوت فقال الحسن البصري ما ترك الاعرابي أحدا منكم حتى عمه بالسؤال قلت هذا النوع سماه البديعيون بالتقسيم ﴿نادرة أدبية بديعة﴾ حكى ضياء الدين بن الاثير في المثل السائر بعد ما أورد لغزا في الخلخال

ومضروب بلا جرم * مليح اللون معشوق
له شكل الهلال على * رشيق القد ممشوق
واكثر ما يرى أبدا * على الامشاط في السوق

قال بلغني ان بعض الناس سمع هذه الابيات فقال دخلت السوق فلم أر على الامشاط شيئا (ومن نوادر الادب أيضا) اشارة الحاجب الى قول ابن نباتة السعدي في فرس أغر محجل

غضبت صباح وقد رأتني قابضا * ابري فقلت لها مقالة فاجر
بالله الا ما لطمت جبينه * حتى يحقق فيك قول الشاعر

يريد بذلك قوله

وكانما لطم الصباح جبينه * فاقتص منه فخاض في أحشائه

(ومن المنقول المشهور) ان الادب واهله كانا عند اصحاب حماة في الذروة العالية ولكن قصة زكي الدين بن عبد الرحمن المعوفي مع الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك تقي الدين عمر بن شهنشاه كانت على غير المعهود منه ومن سلفه الطاهر وما ذاك الا ان زكي الدين المذكور أنشد الملك المظفر محمودا قبل ان يتملك حماة

متى أراك ومن تهوى وأنت كما * تهوى على رغمهم روحين في بدن
هناك أنشد والآمال حاضرة * هنئت بالملك والاحباب والوطن

فوعده ان تملك حماة ان يعطيه ألف دينار فلما ملكها أنشده

مولاي هذا الملك قد نلته * برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته * فداوان الوعد الصادق

فدفع له ألف دينار وأقام معه مدة ولزمته اسفار أنفق فيها المال الذي اعطاه ولم يحصل بيده

زيادة عليه فقال

ان الذى اعطوه لى جملة * قد استردوه وقلبى الا قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا * وحسبنا الله ونعم الوكيل

فبلغ ذلك الملك المظفر فاخرجه من دار كان قد انزله بها فقال

أخرجني من كسر بيت مهدم * ولى فيك من حسن الثناء بيوت
فان عشت لم أعدم مكانا يضمنى * وأنت فتدرى ذكر من سيموت

فحبسه المظفر فقال ماذنبى اليك فقال حسبنا الله ونعم الوكيل وامر بخنقه فلما احس بذلك قال

أعطيتنى الالف تعظيما وتكرمة * ياليت شعرى أم اعطيتنى ديتى

قلت كان والد الملك المظفر أليق بهذا المقام الذى لم يقصد به زكى الدين العوفى غير ترويج الادب فى اختلاف المعانى والداعبة به والتوصل بذلك الى بسط الملك المظفر ولكن حال الزكى كقول الشاعر

وكنت كالمتمنى ان يرى فلقا * من الصباح فلما ان رآه عمى

(قلت) وكان والد السلطان الملك المظفر المنصور من كبار أهل الادب وكان أحب الناس لاهله وله كتاب طبقات الشعراء عشر مجلدات وسمع الحديث من الحافظ السلفى بالاسكندرية وكان مغرما بحب الادباء والعلماء وجمع تاريخا على السنين فى عشر مجلدات ومن مصنفاته كتابه المسمى بمضمار الحقائق وسر الخلائق وهو كبير نفيس يدل على فضله وجمع عنده من الكتب مالامزيد عليه وكان فى خدمته ما يناهز مائتى متعمم من الفقهاء والادباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب وأقامت دولته ثلاثين سنة وتوفى سنة عشر وستمائة ومن شعره

أربى راح وريحا * ن ومحبوب وشادى
والذى ساق لى الملك * لئلا دفع الاعادى

قلت وقد تقدم القول وتقرر ان جميع ملوك حماة المحروسة من بنى أيوب وكان لهم المام بالادب وأهله وقد تعين ان نذكر هنا ترجمة مؤيدهم فانه كان بدر كمالهم ومسك ختامهم وهو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن الملك الافضل ابن الملك المظفر ابن الملك المنصور ابن الملك المظفر صاحب حماة المحروسة كان أميرا بدمشق المحروسة فخدم الملك الناصر لما كان بالكرك وبالغ فى خدمته فوعده بحماة ووفى له بذلك وجعله بها سلطانا يفعل فيها ما يشاء من اقطاع وغيره ليس لاحد من الدولة المصرية معه حديث واركبه فى القاهرة بشعار المملكة وأبهة السلطنة ومشى الامراء فى خدمته حتى الامير سيف الدين بن أرغون النائب وقام له القاضى كريم الدين بكل ما يحتاج اليه فى ذلك المهم من التشاريف والانعامات على وجوه الدولة ولقبوه بالملك الصالح ثم بعد ذلك بقليل لقب بالمؤيد وتقدم أمر السلطان الملك الناصر الى نوابه ان يكتبوا اليه يقبل الارض والمقام الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى المؤيدى العمادى وفى العنوان صاحب حماة وكان الملك الناصر يكتب اليه أخوه محمد بن قلاوون أعز الله المقام الشريف العالى السلطانى الملكى المؤيدى العمادى المولوى (وكان) الملك المؤيد

من علماء الفقه والادب والطب والحكمة والهيئة ونظم الحاوى وله تاريخ بديع وكتاب الكناش وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله وأجاد فيه ماشاء وله كتاب الموازين (وكان) قد رتب للشيخ جمال الدين بن نباتة فى كل شهر ألف درهم غير مايتحفه به وهو مقيم بدمشق وتوجه الملك المؤيد فى بعض السنين الى الديار المصرية ومعه ابنه الملك الافضل محمد فمرض ولده فجهز اليه السلطان الحكيم جمال الدين ابن المغربى رئيس الاطباء فكان يجىء اليه بكرة وعشيا فيراه و يبحث معه فى مرضه ويقدر له الادوية ويطبخ له الشراب بيده فى دست فضة فقال له ابن المغربى يامولانا السلطان أنت والله ماتحتاج الى الملوك وماجىء الا امتثالا للاوامر الشريفة ولما عوفى أعطاه بغلة بسرج ذهب ولجام وكنبوش مزركش وعشرة آلاف درهم والدست الفضة وقال يارئيس اعذرنى فانى لما خرجت من حماة ماحسبت مرض هذا الولد ومدحه شعراء زمانه وأجازهم و بنى بظاهر حماة المحروسة جامعا حسنا وسماه جامع الدهيشة ووقف عليه كتبا قيل انها ما اجتمعت لغيره من سائر الفنون فانه اجتهد فى جمعها من سائر البلاد شرقا وغربا وتوفى رحمه الله سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة ومن شعره

كم من دم حللت وماندمت * تفعل ماتشتهى فلاعدمت
لو أن أيامنا التى سلفت * تعود يوماً اليك ماندمت

سمت فلوتبلغ الشموس الى * لثم موالى أقدامها لثمت

(والمنقول عن القاسم المكنى بابى دلف) انه جمع بين طرفى الكرم والشجاعة وولى دمشق فى خلافة المعتصم فاما شجاعته فانه لحق قوما من الاكراد قطعوا الطريق فطعن فارسا طعنة فنفذت الطعنة الى فارس آخر رديفه فقتلهما فقال بكر بن النطاح

قالوا و ينظم فارسين بطعنة * يوم الهياج ولا تراه كليلا
لاتعجبوا فلوان طول قناته * ميل اذا نظم الفوارس ميلا

وفيه يقول ابن عنين

تمشى المنايا الى غيرى فاكرهها * فكيف امشى اليها بارز الكتف
ظننت ان نزال القرن من خلقى * وان قلبى من جنبى أبى دلف

وأما شهرته فى الكرم فهو الذى قال فيه أبو تمام

ياطالبا الكيمياء وعلمها * مدح ابن عيسى الكيمياء الاعظم
لولم يكن فى الارض الادرهم * ومدحته لأتاك ذاك الدرهم

ودخل عليه بعض الشعراء فانشده

أبو دلف ان المكارم لم تزل * مغلغلة تشكو الى الله حالها
فبشرها منه بميلاد قاسم * فارسل جبريلا اليها فحالها

فامر له بمال فقال الخازن لم يكن هذا القدر بيت المال فامر له بضعفه فقال هذا غير ممكن فامر له بضعفه فلما حمل اليه المال قال أبو دلف

أتعجب ان رأيت على دينا * وان ذهب الطريف مع التلاد
وماوجبت على زكاة مال * وهل تجب الزكاة على جواد

وقال آخر

ان سار سار المجد أو حل وقف * انظر بعينيك الى اسنى الشرف

هل ناله بقدرة أو بكاف * خلق من الناس سوى أبى دلف

فاعطاه خمسين ألف درهم وفيه يقول العكوك بن على بن أبى جبلة

انما الدنيا أبو دلف * بين باديه ومحتضره

فاذا ولى أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

كل من فى الارض من عرب * بين باديه الى حضره

مستعير منك مكرمة * يكتسيها يوم مفتخره

فاعطاه أبو دلف مائة ألف درهم ولما بلغت المأمون غضب غضبا شديدا على العكوك فطلب فهرب فاجتهد والى أن جاؤا به مقيدا فلما صار بين يديه قال له يا ابن اللخناء أنت القائل فى مدحك لابى دلف كل من فى الارض من عرب البيتين جعلتنا ممن يستعير المكارم منه و يفتخر بها فقال يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يقاس بكم لان الله تعالى اختصكم لنفسه على عباده وآتاكم الكتاب والحكم وانما ذهبت فى شعرى لا قران واشكال أبى دلف فقال والله ما أبقيت من أحد ولقد أدخلتنا فى الكل وما أستحل دمك بهذا ولكن بكفرك حيث قلت فى عبد ذليل مهين

أنت الذى تنزل الآيات منزلها * وتنقل الدهر من حال الى حال

وما نظرت مدى طرف الى أحد * الا قضيت بارزاق وآجال

ذاك هو الله يا كافر أخرجوا لسانه من قفاه ففعلوا به ذلك فمات ومن مصنفاته كتاب البزاة والصيد وكتاب السلاح وكتاب النزه وكتاب سياسة الملوك وكانت له اليد الطولى فى الغناء وهو مترجم بذلك فى كتاب الاغانى وذكر أبو عبيدة فى كتاب مثالب أهل البصرة ان النضر بن شميل النحوى البصرى كان عالما بفنون من العلم صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بايام العرب ورواية الحديث وهو من أصحاب الخليل بن أحمد فاتفق ان ضاقت به المعيشة ورق حاله فخرج يريد خراسان فشيعه من أهل البصرة ثلاثة آلاف رجل ما فيهم الا محدث أو نحوى أو عروضى أو لغوى أو اخبارى أو فقيه فلما بعدوا عن المدينة جلس فقال يا أهل البصرة يعز على فراقكم والله لو وجدت كل يوم أكلة باقلاء ما فارقتكم قال فلم يكن أحد فيهم يتكلف له ذلك القدر اليسير وسار حتى وصل الى خراسان فاستفاد بها مالا عظيما من ذلك انه أخذ على حرف ثمانين ألف درهم وهذه القصة نقلها الحريرى صاحب المقامات فى كتابه المسمى بدرة الغواص فى أوهام الخواص قال حكى عن محمد بن ناصح الاهوازى قال حدثنى النضر بن شميل المازنى قال كنت أدخل على المأمون فى سمره فدخلت ذات ليلة وعلى قميص مرقوع فقال يا نضر ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين فى هذه الخلقان قلت يا أمير المؤمنين انا رجل كبير وضعيف وحر مرو شديد فاتبرد بهذه الخلقان قال لا ولكنك قشف ثم اجرينا الحديث فاجرى ذكر النساء فقال حدثنى هشام عن مجاهد عن الشعبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تزوج الرجل المرأة لجمالها ودينها كانت سدادا من عوز بفتح

السين من سداد فقلت صدق يا أمير المؤمنين هشام حدثنا عوف عن ابن أبي جميلة عن الحسن
عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تزوج الرجل المرأة
لدينها وجمالها كانت سدادا من عوز بكسر السين قال وكان أمير المؤمنين متكئا فاستوى جالسا
وقال يا نضر كيف قلت سدادا قلت نعم يا أمير المؤمنين لان سدادا بالفتح هنا لحن قال أوتلحنني
قلت انما لحن هشام وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه قال فما الفرق بينهما قلت السداد
بالفتح القصد في الدين والسبيل والسداد بالكسر البلغة وكل ما سددت به شيأ فهو سداد قال
أوتعرف العرب بذلك قلت نعم هذا العرجي يقول

أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر

فقال المأمون قبح الله من لا أدب له واطرق مليا ثم قال ما مالك يا نضر قلت أريضة لي بمرو قال أفلا
نفيدك معها مالا قلت اني الى ذلك لمحتاج قال فاخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب ثم قال كيف
تقول اذا أمرت ان يترب قلت أتربه قال فهو ماذا قلت مترب قال فمن الطين قلت أطمه قال فهو ماذا
قلت مطين قال هذه أحسن من الاولى ثم قال يا غلام اتربه ثم صلى بنا العشاء ثم قال لغلامه تبلغ
النضر الى الفضل بن سهل قال فلما قرأ الفضل الكتاب قال يا نضر ان أمير المؤمنين قد أمر لك
بخمسين ألف درهم فما كان السبب فاخبرته ولم أكذبه شيأ فقال ألحنت أمير المؤمنين قلت كلا
انما لحن هشام وكان لحانة فتبع أمير المؤمنين لفظه وقد تتبع ألفاظ الفقهاء ورواة الآثار ثم
أمر لي الفضل بثلاثين ألف درهم فاخذت ثمانين ألف درهم بحرف واحد انتهى ويحكى ان
النضر بن شميل مرض فدخل عليه قوم يعودونه فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح مسح الله ما بك
فقال لا تقل مسح بالسين ولكن قل مصح الله بالصاد أي اذهبه وفرقه أوما سمعت قول الاعشى

واذا ما الخمر فيها أزبدت * أفل الازباد فيها ومصح

فقال له الرجل ان السين قد تبدل بالصاد كما يقال الصراط والسراط وصقر وسقر فقال له
النضر فانت اذا أبو صالح (قلت ويشبه هذه النادرة) ما حكي ان بعض الادباء جوز بحضرة
الوزير ابي الحسن بن الفرات ان تقام السين مقام الصاد في كل موضع فقال الوزير أتقول جنات
عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم أم سلح فخجل الرجل وانقطع والذي ذكره أرباب اللغة
في جواز ابدال الصاد من السين انه في كل كلمة كان فيها سين وجاء بعدها أحد الحروف الاربعة
وهي الطاء والخاء والغين والقاف فتقول الصراط والسراط وفي سخر لكم صخر لكم وفي
مسغبة مصغبة وفي سيقل صيقل وقس على هذا (ونقل قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان
في تاريخه) ان أبا جعفر احمد بن عيسى البلاذري المؤرخ قال كنت من جلساء المستعين
فقصده الشعراء فقال لست اقبل الا من يقول مثل قول البحتري في المتوكل

فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما * في وسعه لسعى اليك المنبر

(قال البلاذري) فرجعت الى داري وأتيته وقلت قد قلت فيك أحسن مما قاله البحتري قال
هاته (فانشدته)

ولو ان برد المصطفى اذ لبسته * يظن لظن البرد انك صاحبه

وقال وقدا عطيته وابسته * نعم هـذه اعطافه ومنا كبـه

فقال ارجع الى منزلك وافعـل ما آمرك به فرجعت فبعث الى سبعة آلاف دينار وقال ادخر هذه للحوادث من بعـدى ولك الجراية والكفاية مادمت حيا (ويعجبني من المدائح الرائقة في حال الحشمة) قول عبد الله الاسطرلابي

أهـدى لمجلسه الكريم وانما * أهـدى له ماحزت من نعمائه

كالبحر يمطره السحاب وماله * فضـل عليـه لانه من مائه

ومثله قول القاضي الفاضل وقد كتب به الى وزير بغداد

ياأيها المولى الوزير ومن له * مـنن حلان من الزمان وثاقى

من شاكر عنى ندالد فاننى * من عظم ماأوليت ضاق نطاقى

مـنن تخف على يديك وانما * ثقلت مؤنتها عـلى الاعناق

قلت كان نظم القاضي الفاضـل رحمه الله ونثره كفرسي رهان ولـكن نثره أكثر مما نظم واجمع الناس انه اتى مع الاكثار بالعجائب (وذكر قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى تاريخه) ان مسودات رسائله اذا جمعت ماتقصر عن مائة مجلد وهو مجيد فى أكثرها ولعمرى ان الانشاء الذى صدر فى الايام الاموية والايام العباسية نسى والغى بانشاء الفاضـل وما اخترعه من النكت الادبية والمعانى المخترعة والانواع البديعة والذى يؤيد قولى قول العماد الكاتب فى الخريدة انه فى صناعة الانشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع (ومن غرر نثره) هذه الرسالة التى أنشأها فى حمائم الرسائل وسحب فيها ذيل البلاغة والفصاحة على سحبان وائل (وهى) سرحة لاتحمل تحمل من البطائق أجنحة وتجهز جيوش المقاصـد والاقلام اسلحه وتحمل من الاخبار ماتحمله الضمائر وتطوى الارض اذا نشرت الجناح الطائر وتزوى لها الارض حتى ترى ماسيبلغه ملك هذه الامه وتقرب منها السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همه وتكون مراكب الاغراض والاجنحة قلوعا وتركب الجو بحرا يصفق فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا وتعلق الحاجات عـلى اعجازها ولا تعوق الارادات عن انجازها ومن بلاغات البطائق استفادت ماهى مشهورة به من السجع ومن رياض كتبها الفت الرياض فهى اليها دائمة الرجع وقد سكنت النجوم فهى انجم واعـدت فى كنائنها فهى للحاجات اسهم وكادت تـكون ملائكة لانها رسل واذا أنيطت بالرقاع صارت أولى اجنحة مثنى وثلاث ورباع وقد باعـد الله بين اسـفارها وقربها وجعلها طيف خيال اليقظة الذى صـدق العين وما كذبها وقد أخذت عهود أداء الامانة فى رقابها اطواقا وأدنت من اذنابها اوراقا وصارت خوافى من وراء الخوافى واعطت سرها المودع بكتمـان سحبت عليـه ذيول ريشها الضوافى ترغم أنف النوى بتقريب العهود وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود وهى انبياء الطيور لكثرة ماتأتى به من الانبـاء وخطباؤها لانها تقوم على منابر الاغصان مقام الخطباء (ومن غريب المنقول) اننى حضرت فى بعض الليالى على جانب النيل المبارك فى خـدمة مولانا المقر الاشرف المرحومى القاضوى الناصرى محمـد بن البارزى الجهنى الشافعى صاحب دواوين

الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية المحروسة كان تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان وبيده الكريمة جزء من تذكرة الشيخ صلاح الدين الصفدى بخطه وهذه الرسالة أول الجزء فشرع فى قراءتها وكرر مرارا وهو يترنم فى بديعها وغريبها ورسم فى اثناء ذلك لى بمعارضتها فلم أجد بدا من الشروع لالتزام الواجب واوترت قوس العزم مطمئنا بهذا الرأى الصائب وقد أوصلت هنا شمل القطعتين ليتأمل المتأمل فى جنى الجنتين ويتنزه نظره فى حدائق الروضتين ويطرب لسجع حمائم الدوحتين (قلت) شرح لها سرح العيون الادون رسالته المقبوله وطلب السبق فلم يرض معرق البرق سرجا ولا استطلى صفحته المصقوله وهمز جواد التسليم فقصر وأمست اذياله بعرق السحب مبلوله وأرسل فاقر الناس برسالته وكأنه المصدق وانقطع كوكب الصبح خلفه فقال عند التقصير كنت نجابا وعلى يدى مخلق يؤدى ما جاء على يده من الترسل فيهيج الاشواق ومابرحت الحمائم تحسن الاداء فى الاوراق وصحبناه على الهدى فقال ماضل صاحبكم وماغوى ومن روى عنه حديث الفضل المسند فعن عكرمة قد روى يطير مع الهواء لفرط صلاحه ولم يبق على السر المصون جناح اذا دخل تحت جناحه ان برز من مقفصه لم يبق للبرد قيمه بل تتغزل بتدبيج أوراقه وتعلق عليه من العين التميمه ماسجن الاصير على السجن وضيق الاطواق ولهذا احمدت عواقبه على الاطلاق ولا غنى على عود الا اسال دموع الندى من حدائق الرياض ولا أطلق من كبد الجو الا كان سهما مريشا تبلغ به الاغراض كم علا فصار بريش القوادم كالاهداب لعين الشمس وأمسى عند الهبوط لعين الهلال كالطمس فهو الطائر الميمون والغاية السباقه والامير الذى اذا أودع أسرار الملوك حملها بطاقه فهو من الطيور الذى خلا لها الجو فنقرت ماشاءت من حبات النجوم والحماء التى من أخذ عنها شرح المعلقات فقد أعرب عن دقائق الفهوم والمقدمة والنتيجة لكتاب الجلى فى منطق الطير وهى من جملة الكتاب الذى اذا وصل القارئ منه الى الفتح تهلل بفاتحة الخير وان تصدر البارزى بغير علم فكم جمعت بين طرفى كاتب وان سألت العقبان عن بديع السجع احجمت عن رد الجواب شعر

رعت النجوم بقوة جيف الفلا * ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

ماقدمت الا وأورثتنا من شمائلها اللطيفة نعم القادمه وأظهرت لما من خوافيها ما كانت له خير كاتمه كم اهدت من مخلفها وهى غادية رائحة وكم حنت اليها الجوارح وهى أدام الله الطلاقها غير جارحه وكم أدارت من كؤس السجع ماهو أرق من قهوة الانشا وابهج على زهر المنثور من صبيح الاعشا وكم عامت بحور الفضا ولم تحفل بموج الجبال وكم جاءت ببشارة وخضبت الكف ورمت من تلك الانملة قلامة الهلال وكم زاحمت النجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف الخضيب وانحدرت كانها دمعة سقطت على خد الشفق لامر مريب وكم لمع فى أصيل الشمس خضاب كفها الوضاح فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح والله تعالى يديم بافنان أبوابه العالية الحان السواجع ولا برح تغريدها مطربا بين البادى والراجع انتهى (وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الاثير

الجزري في كتابه المسمى بالوشي المرقوم في حل المنظوم) قال حدثني الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني بمدينة دمشق (سنة ٥٨٨) ثمان وثمانين وخمسمائة وكان اذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية ان فن الانشاء لا تخلو منه رأس مكانا أوسانا وكل من أنشأ أقام لسلطانه بانشائه سلطانا (وكان) من العادة ان كلا من ارباب البيوت اذا نشأ له ولد أحضره الى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويسمع فارسلني والدي وكان اذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان الى الديار المصرية في أيام الحافظ العبيدي وهو أحد خلفائها فدخلت ديوان المكاتبات وكان الذي يرأس به في تلك الايام وهو صاحب الانشاء بمصر موفق الدين أبا الحجاج يوسف المعروف بابن الخلال فلما مثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبي رحب بي ثم قال ما الذي أعددت لفن الانشاء وكتابته فقلت ليس عندي سوى اني احفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال في هذا بلاغ ثم أمرني بملازمته فلما ترددت اليه وتدربت عليه وطال تدربي بين يديه أمرني ان أحل عليه ديوان الحماسة فحللته من أوله الى آخره ثم أمرني أن أحله مرة أخرى فحللته انتهى ما ذكره ابن الاثير قلت وقال عماد الدين الكاتب في كتاب الخريدة في حق موفق الدين بن الخلال كان فن الترسل والانشاء آل اليه وكان في ذلك ناظر مصر وانسان ناظره وقبلة جامع مفاخره (قلت) الذي ثبت عند المؤرخين وعلماء هذا الفن ان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الانشاء وحكمه عن موفق الدين بن الخلال منشئ الخليفة الحافظ العلوي ورتبته في الانشاء معلومة ولكن جنحت الى الوقوف على شيء من نظمه لانظر في الرتبتين كما قررت ذلك في نظم القاضي الفاضل ونثره فوجدت قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان رحمه الله قد أورد له في تاريخه نظما ونثرا دل لي على ان نظمه ونثره رضيعا لبان وفرسا رهان (فمن ذلك قوله في الشمعة ولله دره حيث اجاد)

وصحيحة بيضاء تطلع في الدجا * صبحا وتشفي الناظرين بدائها
شابت ذوائبها اوان شبابها * واسود مفرقها اوان فنائها
كالعين في طبقاتها ودموعها * وسوادها وبياضها وضيائها

وله

وأغن سيف لحاظه * يغري الحسام بجده
عجب الورى لما جنت * وقد فتنت بعده
وبقاء جسمي ناحلا * يصلى بوقدة صده

(نادرة) كتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن ارطاة ان اجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فول القضاء افقههما فجمع بينهما فقال له اياس أيها الرجل سل عني وعنه فقيهي المصر الحسن وابن سيرين وكان القاسم يأتيهما واياس لا يأتيهما ففهم القاسم ان سألهما عنه أشارا به فقال له لا تسل عني ولا عنه فوالله الذي لا اله الا هو ان اياس بن معاوية افقه مني واعلم مني بالقضاء فان كنت كاذبا فما عليك ان توليني وأنا كاذب وان كنت صادقا فينبغي ان تقبل قولي فقال له اياس انك جئت برجل وقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله تعالى منها وينجو مما يخاف فقال له عدي اما اذ فهمتها فانت لها أهل فاستقضاه (نادرة لطيفة)

نقل ابن عبد ربه فى العقد ان أباسفيان زار معاوية فى الشام فلما رجع من عنده دخل على الامام عمر رضى الله عنه فقال له الامام اجزنا قال ما أصبنا شيأ فنجيزك فأخذ الامام عمر خاتمه فبعث به الى هند وقال للرسول قل لها يقول لك أبوسفيان انظرى الخرجين اللذين جئت بهما من عند معاوية فاحضريهما فلم يلبث عمر ان اتى بالخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فالقاها عمر فى بيت المال فلما ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه أرادردها اليه قال ما كنت لآخذ مالا عابه عمر على والله ان لنا اليه حاجة ولكن لا ترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك

(استنجاز المواعيد) قالت وما ظنك بشئ قد جعله الله فى كتابه العزيز مدحة وفخرا لانبيائه فقال واذكر فى الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد ولو لم يكن فى خلف الوعد الا قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون لكفى قال عمر بن الحارث كانوا يقولون ويفعلون فصاروا يقولون ولا يفعلون ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون فهم ضنوا بالكذب فضلا عن الصدق (ويعجبنى قول العباس بن الاحنف)

ماضر من شغل الفؤاد بحبله * لو كان عللنى بوعد كاذب
صبرا عليك فما أرى لى حيلة * الا التمسك بالرجاء الخائب
سأموت من مطل وتبقى حاجتى * فيما لديك ومالها من طالب

(وذكر حيان بن سليمان عامر بن الطفيل فقال) والله كان اذا وعد الخير وفى واذا وعد الشر أخلف وهو القائل

ولا يرهب ابن العم ماعشت صولتى * ويأمن منى صولة المتهدد
وانى وان أوعدته أووعدته * لمخلف ايعادى ومنجز وعدى

(وقال ابن حازم)

اذا قلت عن شئ نعم فأتمه * فان نعم دين على الحر واجب
والا فقل لا تسترح وترح بها * لئلا يظن الناس انك كاذب

(ويعجبنى قول عبد الصمد الرقاشى فى خالد بن ديسم عامل الرى وقد ابطأ عليه بوعد)

أخالد ان الرى قد اجحفت بنا * وضاق علينا رحبها ومعاشها
وقد اطمعتنا منك يوما سحابة * اضاءت لنا برقا وابطا رشاشها
فلا غيمها يصحو فيرجع طامعا * ولا ودقها يهمى فتروى عطاشها

(قلت) ومن البلاغة المرقصة فى هذا الباب خطاب كوثر بن زفر وقد وعده يزيد بن المهلب وأبطأ بوعده وهو* أصلح الله الامير أنت أعظم من أن يستعان بك أو يستعان عليك ولست تفعل من الخير شيأ الا وهو يصغر عنك وانت تكبر عنه وليس العجب ان تفعل ولكن العجب ان لا تفعل (قيل) ان يزيد بن المهلب لما سمع هذا الخطاب البليغ مال سكرا وطربا وقال له سل حاجتك قال حملت من عشيرة عشر ديات قال قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها (ويعجبنى قول بعضهم) أما بعد فان شجرة وعدك قد أورقت فليكن وعدها سالما من جوائح المطل والسلام

(لطيف الاستمناح) قال الحكماء لطيف الاستمناح سبب النجاح والنفس ربما انطلقت

واتشرحت للطيف السؤال وامتنعت وانقبضت بجفاء السائل (ولله در القائل)

ان الكريم أخا المودة والنهى * من ليس في حاجاته بمثقل

(دخل عبد الملك بن صالح على الرشيد) فقال له اسأل بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة فقال بالخلافة والعامة فقال يا أمير المؤمنين يدالله بالعطية أطلق من لساني فاجزل عطيته (وقفت امرأة) على قيس بن سعد بن عبادة فقالت أشكو اليك قلة الجرذان فقال ما احسن هذه الكناية املؤا لها بيتها لحما وخبزا وسمنا (نادرة لطيفة) كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية اذا دخل البصرة دخل متكتما وكان يجلس في حلقة ازهر السمان المحدث فلما افضت اليه الخلافة قدم ازهر عليه فرحب به وقربه وقال ما حاجتك يا أزهر فقال يا أمير المؤمنين داري متهدمة وعلى اربعة آلاف درهم وأريد ازوج ابني محمدا فوصله باثني عشر ألف درهم وقال قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا بعد هذا طالبا فاخذها وارتحل فلما كان بعد سنة أتاه فقال له ابو جعفر ما حاجتك يا أزهر قال جئت مسلما فقال لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثني عشر الفا فلا تأتنا طالبا ولا مسلما فاخذها ومضى فلما كان بعد سنة أتاه فقال ما حاجتك يا أزهر قال أتيت عائدا فقال لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثني عشر الفا فاذهب ولا تأتنا بعد طالبا ولا مسلما ولا عائدا فاخذها وانصرف فلما مضت السنة أقبل فقال له ما حاجتك يا أزهر قال يا أمير المؤمنين دعاء كنت اسمعك تدعو به جئت لاكتبه فضحك أبو جعفر وقال الدعاء الذي تطلبه غير مستجاب فاني دعوت الله به ان لا اراك فلم يستجب لي وقد أمرنا لك باثني عشر الفا وتعال اذا شئت فقد اعيتنا الحيلة فيك ودخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد بن برمك فانشده

سألت الندى هل أنت حر فقال لا * ولكنني عبد ليحيى بن خالد

فقلت شراء قال لا بل وراثة * توارثني من والد بعد والد

فامر له بعشرة آلاف درهم (اجواد الجاهلية الذي انتهى اليهم الجود ثلاثة نفر) حاتم بن عدى الطائي وهرم بن سنان المزني وكعب بن مامة الايادي ولكن المضروب به المثل حاتم وحده وكان اذا اشتد البرد وكلب الشتاء اوقد نارا في بقاع الارض لينظر اليها المار ليلا فيبادر اليها وهو القائل لغلامه يسار

أوقد فان الليل ليل قر * والريح يا موقد ريح صر

حتى يرى نارك من يمر * ان جلبت ضيفا فانت حر

(وأما) هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه

تراه اذا ما جئته متهللا * كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وأما كعب بن مامة الايادي فلم يات له الا ما ذكر عنه من ايثاره رفيقه السعدي بالماء حتى مات عطشا ونجا السعدي وناهيك بهذا الكرم الذي ما سبق اليه (وأما اجواد الحجاز) فثلاثة في عصر واحد وهم عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص (واجواد أهل البصرة خمسة في عصر واحد) وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن أبي بكرة مولى رسول الله صلى

الله عليه وسلم وسالم بن زياد وعبد الله بن معمر القرشي التيمي وطلحة الطلحات وهو طلحة بن خالد الخزاعي (واجواد اهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد) وهم عتاب بن ورقاء الرياحي واسماء بن خارجة وعكرمة الفياض (فمن جود عبيد الله) انه أول من فطر جيرانه وأول من وضع الموائد على الطريق ومن جوده ان أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال يا ابن عباس ان لي عندك يدا وقد احتجت اليها فصعد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه فقال له ما يدك عندنا قال له رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يملأ من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بطرف كسائي حتى شربت فقال أجل اني لاذكر ذلك ثم قال لغلامه ما عندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم قال ادفعها اليه وما أراها تفي بحق يده عندنا فقال له الرجل والله لو لم يكن لاسماعيل ولد غيرك لكان فيك كفاية فكيف وقد ولد سيد المرسلين ثم شفع بك وبابيك (ومن جوده أيضا) ان معاوية حبس عن الحسين بن علي رضي الله عنه صلاته حتى ضاقت عليه الحال فقيل له لو وجهت الى عمك عبيد الله بن العباس لكفاك وقد قدم بالف ألف قال الحسين فما مقدارها عنده والله انه لاجود من الريح اذا عصفت واسخى من البحر اذا زخر ثم وجه اليه رسوله بكتاب ذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وانه يحتاج الى مائة ألف فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان ارق الناس قلبا والينهم عطفا انهملت عيناه ثم قال ويلك يا معاوية تكون لين المهاد رفيع العماد والحسين يشكو ضعف الحال وكثرة العيال ثم قال لقهرمانه احمل الى الحسين نصف ما نملكه من ذهب وفضة ودابة واخبره اني شاطرته فان اقنعه ذلك والا فارجع واحمل اليه النصف الآخر قال فلما وصل الرسول الى الحسين قال انا لله ثقلت والله على عمي وما ظننت انه يتسع بهذا كله فاخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل هذا في الاسلام (ومن جوده أيضا) ان معاوية أهدى اليه وهو عنده في شهر من هدايا النوروز وحللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها اليه مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر الى الحاجب وهو يطيل النظر فيها فقال هل في نفسك منها شئ قال نعم والله ان في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف فضحك عبيد الله فقال فشانك بها فهي لك قال جعلت فداءك أنا أخاف ان يبلغ ذلك معاوية فيغضب لذلك قال فاختمها بخاتمك وادفعها الى الخازن وهو يحملها اليك ليلا فقال الحاجب والله ان هذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم ولوددت أن لا أموت حتى أراك مكانه يعني معاوية فظن عبيد الله انها مكيدة منه فقال دع هذا الكلام انا من قوم نفي بما عقدنا ولا ننقض ما أكدنا وقال له رجل من الانصار جعلت فداءك والله لو سبقت حاتما يوم ماذكرته العرب وأنا أشهد ان عفو جودك أكثر من مجهوده وطل صوبك أكثر من وابله (ومن جود عبد الله بن جعفر) ان عبد الله بن أبي عمارة دخل على نخاس يعرض قيانا للبيع فشغفه حب واحدة منهن ولم يكن له جدة يتوصل بها الى المشتري فشبب بذكرها حتى مشى اليه عطاء وطاوس ومجاهد يعذلونه في ذلك فكان جوابه ان قال

يلومني فيك أقوام أجالسهم * فما أبالي أطار اللوم أم وقعا

فانتهى خبره الى عبد الله بن جعفر فلم يكن له هم غيره فحج وبعث الى مولى الجارية فاشتراها منه

بأربعين ألف درهم وأمر قيمة جواريه ان تزينها وتحليها ففعلت وبلغ الناس قدومه فدخلوا عليه فقال مالي لا أرى ابن عمارة زائرا فأخبر بذلك فأتى مسلما فلما أراد أن ينهض استجلسه ثم قال ما فعل بك حب فلانة قال حبها في اللحم والدم والمخ والعصب قال أتعرفها ان رأيتها قال لو ادخلت الجنة لم أنكرها فأمرها عبد الله ان تخرج اليه وقال له انما اشتريتها لك ووالله ما دنوت منها فشأنك بها بارك الله لك فيها فلما ولى قال يا غلام احمل اليه مائة ألف درهم قال فبكى عبد الله وقال يا أهل البيت لقد خصكم الله بشرف ماخص به أحدا من صلب آدم فهنأكم الله بهذه النعمة وبارك لكم فيها (ولقد تقرر) ان أجواد الاسلام احد عشر جوادا اذكرت من جود بعضهم ما تيسر وقال صاحب العقد انه جاء بعدهم طبقة أخرى وهي الطبقة الثانية (فمنهم) الحكم ابن أحطب قيل سأله اعرابي فأعطاه خمسمائة دينار فبكى الاعرابي فقال له لعلك استقللت ما اعطيناك فقال لا والله ولكني ابكي لما تأكل الارض منك ثم أنشد

فكأن آدم حين حان وفاته * اوصاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه ان ترعاهم فرعيتهم * وكفيت آدم عيلة الابناء

(وحكى) عن العتبي انه قال حدثني رجل قال قدم علينا الحكم بن احطب وهو مملق فأغنانا فقلت وكيف اغناكم وهو مملق فقال علمنا المكارم فعاد غنينا على فقيرنا (ومنهم) معن بن زائدة يقال فيه حدث عن البحر ولا حرج وحدث عن معن ولا حرج وأتاه رجل يستحمله فقال يا غلام اعطه فرسا وبرذونا وبغلا وعيرا وبعيرا وجارية ولو عرفت مركوبا غير هذا لاعطيتك (ومنهم) يزيد بن المهلب قيل كان هشام بن حسان اذا ذكره قال كانت السفن تجري في بحر جوده (حكى) الاصمعي انه قدم على يزيد قوم من قضاعة فقال رجل منهم

والله ماندري اذا مافاتنا * طلب اليك من الذي نتطلب
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد * أحدا سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التي عودتنا * أولا فارشدنا الى من نذهب

فأمر له بألف دينار (ومنهم) يزيد بن حاتم قيل ان ربيعة الرأي قدم مصر فأتى يزيد السلمي فلم يعطه شيأ ثم عطف على يزيد بن حاتم فشغل عنه لأمر ضروري فخرج وهو يقول

أراني ولا كفران لله راجعا * بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فلما فرغ يزيد من ضرورته سأل عنه فأخبر عنه أنه خرج وهو يقول كذا وأنشد البيت فارسل من يجد في طلبه فأتى به فقال كيف قلت فأنشد البيت فقال شغلنا عنك وعجلت علينا ثم أمر بخفيه فخلعا من رجليه وملئا مالا وقال ارجع بهما بدلا من خفي حنين (ومنهم) أبو دلف واسمه القاسم وفيه يقول ابن أبي جبلة

انما الدنيا أبو دلف * بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

وقال

ان سار سار المجد أو حل وقف * انظر بعينيك الى أعلى الشرف
هل ناله بقدرة أو بكلف * خلق من الناس سوى أبي دلف

فاعطاه خمسين ألف درهم (ومنهم) خالد بن عبد الله القسري قيل انه كان جالسا في مظلة اذ نظر الى اعرابي يخب على بعيره مقبلا نحوه فقال لحاجبه اذا قدم لا تحجبه فلما قدم ادخله فسلم فقال

اصلحك الله قل ما بيدي * فما أطيق العيال اذ كثروا

اناخ دهر رمى بكلكله * فارسلوني اليك وانتظروا

(فقال) خالد اذا أرسلوك الي وانتظروا والله لتعودن اليهم بما يسرهم فامر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة (ومنهم) عدي بن حاتم حكى صاحب العقد قال دخل أبو دارة على عدي بن حاتم فقال اني مدحتك قال امسك حتى آتيك بمالي فاني اكره ان اعطيك ثمن ما تقول هذه ألف شاة وألف درهم وثلاثة اعبد وثلاث اماء وفرسي هذا حبس في سبيل الله فامدحني على حسب ما اجزتك (قيل) ان أروى بنت الحرث بن عبد المطلب كانت أغلظ الوافدات على معاوية خطابا وكان حلم معاوية أعظم من خطابها دخلت عليه وهي عجوز كبيرة فلما رآها معاوية قال مرحبا بك يا خالة كيف كنت بعدنا قالت بخير يا أمير المؤمنين لقد كفرت النعمة واسأت بابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك واخذت غير حقك من غير دين كان منك ولا من آبائك ولا سابقة في الاسلام بعد ان كفرتم برسول الله فاتعس الله منكم الجدود وأضرع منكم الخدود ورد الحق الى أهله ولو كره المشركون وكانت كلمتنا هي العليا ونبينا هو المنصور فوليتم علينا بعده فاصبحتم تحتجون على سائر العرب بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أقرب اليه منكم وأولى بهذا الأمر منكم فكنا فيكم بمنزلة بني اسرائيل في آل فرعون وكان علي رضي الله عنه عند نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة هارون من موسى فغايتنا الجنة وغايتكم النار فقال لها عمرو بن العاص كفي ايتها العجوز الضالة واقصري عن قولك مع ذهاب عقلك اذ لا تجوز شهادتك وحدك فقالت له وأنت يا ابن الباغية تتكلم وأمك كانت أشهر بغي بمكة وأرخصهن اجرة وادعاك خمسة نفر كلهم يزعم انك ابنه فسئلت أمك عن ذلك فقالت كلهم أتاني فانظروا أشبههم به فالحقوه به فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به فقال مروان كفي ايتها العجوز واقصدي ما جئت له فقالت وأنت أيضا يا ابن الزرقاء تتكلم ثم التفتت الى معاوية فقالت والله ما جرأ هؤلاء غيرك وأمك القائلة في قتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم

نحن جزيناكم بيوم بدر * والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان لي عن عتبة من صبر * ولا أخي وعمه وبكر

سكنت وحشيا غليل صدري * فشكر وحشي على دهري

* حتى ترم اعظمي في قبري *

فاجابتها ابنة عمي بقولها

خزيت في بدر وغير بدر * يا بنت جبار عظيم الكفر

فقال معاوية عفا الله عما سلف يا خالة هات حاجتك فقالت ما لي اليك حاجة وخرجت عنه وهذه العبارة بنصها منقولة من العقد لابن عبد ربه رحمه الله تعالى (وحكى صاحب العقد أيضا) قال قدم عقيل بن أبي طالب على معاوية فاكرمه وقربه وقضى عنه دينه ثم قال له في بعض

الايام

الايام ياعقيل أنا خير لك من أخيك علي قال صدقت أخي آثر دينه على دنياه وأنت آثرت دنياك على دينك فانت خير لي من أخي وأخي خير لنفسه منك لنفسك (ودخل عقيل أيضا) على معاوية وقد كف بصره فاقعد على سريره معه ثم قال له أنتم معاشر بني هاشم تصابون في ابصاركم فقال عقيل وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم (ودخل عليه يوما) فقال معاوية لاصحابه هذا عقيل عمه أبو لهب فقال عقيل وهذا معاوية عمته حمالة الحطب ثم قال يامعاوية اذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار فانك ستجد عمي أبا لهب مفترشا عمتك حمالة الحطب فانظر ايهما خير الفاعل أم المفعول به (وقال له يوما) ما أبين الشبق في رجالكم يابني هاشم قال لكنه في نسائكم ابين يابني أمية (وقال الجاحظ) اجتمعت يوما بنو هاشم عند معاوية فاقبل عليهم فقال يابني هاشم والله ان خيري لممنوح وان بابي لكم لمفتوح وقد نظرت في أمري وأمركم فرأيت أمرا مختلفا انكم ترون انكم أحق مني بما في يدي فاذا اعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم اعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له هذا مع انصاف قائلكم واسعاف سائلكم فاقبل عليه ابن عباس رضي الله عنه وكان جريئا عليه فقال والله ما منحتنا شيأ حتى سألناه ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه وأما هذا المال فما لك منه الا ما لرجل واحد من المسلمين ولولا حقك في هذا المال لم يأتك منا اثر تحمله خف ولا حافر وأما حربنا اياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل أكفاك أم أزيدك قال كفاني (وقال الشعبي) قال ابن الزبير يوما لابن عباس قاتلت أم المؤمنين وحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما أم المؤمنين فانت اخرجتها أنت وأبوك وخالك وبنا سميت أم المؤمنين وكنا لها خير بنين وقاتلت أنت وأبوك عليا فان كان مؤمنا فضللتم بقتال المؤمنين وان كان على كافر افقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف (وذكر صاحب العقد) ان عبد الله بن الزبير تزوج امرأة من فزارة يقال لها أم عمرو فلما دخل بها قال هل تدرين من معك قالت نعم عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد قال ليس هذا قالت فاي شئ تريد قال معك من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من الرأس قالت اما والله لو ان بعض الهاشميين حضرك قال حلالا فالقول لك قال فالطعام والشراب علي حرام حتى احضر الهاشميين وغيرهم ولا يستطيعون لذلك انكارا قالت ان اطعتني لم تفعل فانت اعلم بشأنك فخرج من المجلس فاذا بحلقة فيها جماعة من قريش وفيها من بني هاشم عبد الله بن عباس رضي الله عنه وعبد الله بن الحارث بن عبد المطلب فقال لهم ابن الزبير اني أحب ان تنطلقوا معي الى منزلي فقام القوم باجمعهم حتى وقفوا على باب بيته فقال ابن الزبير ياهذه اطرحي عليك سترك ثم أذن للقوم فلما أخذوا مجالسهم دعا ابن الزبير بالمائدة فتغدى القوم فلما فرغوا قال ابن الزبير انما جمعتكم لحديث ردته علي صاحبة هذا الستر وزعمت ان لو كان بعض بني هاشم حاضرا ما اقر لي بما قلت وقد حضرتم جميعا والحديث الذي ردته علي قلت لها الليلة الدخول بها وأنا معها في خدرها ان معك من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من الرأس فردت علي مقالي فقال ابن عباس ان شئت أقول وان شئت اكفف قال لا بل قل وما عسيت ان تقول ألست تعلم ان الزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وان أمي أسماء بنت أبي بكر

الصديق ذات النطاقين وان خديجة سيدة نساء أهل الجنة عمتي وان صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي وان عائشة أم المؤمنين خالتي فهل تستطيع لهذا انكارا يا ابن عباس قال ابن عباس لا ولكن ذكرت شرفا شريفا وفخرا عظيما غير انك نلت ذلك كله وأنت تفاخر من بفخره فخرت وتسامى من بفضله سموت قال ابن الزبير وكيف ذلك قال لم تذكر مفخرا الا برسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أهل بيته وأقرب اليه وأولى بالفخر به قال ابن الزبير فانا أفاخرك بما كان قبل النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس لقد انصفت اسائلكم أيها الحضور أعبد المطلب كان اشرف في قريش ام خويلد قالوا عبد المطلب قال اسائلكم أهاشم كان اشرف في قريش ام أمية قالوا بل هاشم قال فاسألكم بالله أعبد مناف كان أشرف أم عبد العزى قالوا اللهم عبد مناف فأنشد ابن عباس يقول

تفاخرني يا ابن الزبير وقد مضى * عليك رسول الله لا قول هازل
فلو غيرنا يا ابن الزبير فخرته * ولكن بنا ساميت شمس الاصائل

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما افترقت فرقتان الا وكنت في خيرهما فقد فارقتك من لدن قصي بن كلاب فنحن في فرقة الخير أولا ونحن في فرقة الخير آخرا ان قلت نعم خصمت وان قلت لا كفرت قال فضحك بعض القوم وقالت المرأة من خلف الستر أما والله لقد نهيته عن هذا المجلس فأبى الا ماترى فقال ابن عباس مه ايتها المرأة اقنعي ببعلك وأخذ القوم بيد ابن عباس فقالوا انهض أيها الرجل فقد أفحمته في منزله غير مرة فنهض ابن عباس وهو يقول

الا يا قوم منا ارتحلوا وسيروا * فلو ترك القطا ليلا لناما

(وحكى) صاحب العقد قال بينما معاوية جالس وعنده وجوه الناس اذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا وقال لعن الله عليا فاطرق الناس وفيهم الاحنف فقال الاحنف يا أمير المؤمنين ان هذا القائل لو علم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم فاتق الله ودع عنك عليا فقد لقي ربه وأفرد بقبره وخلا بعمله وكان والله مبرزا في سبقه طاهر الثوب ميمون النقيبة عظيم المصيبة فقال له معاوية يا احنف لقد أغضيت العين على القذى أما والله لتصعدن المنبر وتلعن عليا طوعا أو كرها فقال له ان تعفني خير لك وان تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبدا قال وما أنت قائل يا أحنف قال أحمد الله وأصلي على نبيه ثم أقول ان أمير المؤمنين أمرني ان ألعن عليا ومعاوية وعلى اقتتلا واختلفا وادعى كل واحد منهما انه مبغي عليه فاذا دعوت فأمنوا رحمكم الله اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية أمنوا رحمكم الله يا معاوية لا أزيد على ذلك ولا أنقص ولو كان فيه ذهاب نفسي فقال معاوية اذا نعفيك انتهى (وقال معاوية لعقيل) ان عليا قطعك ووصلتك ولا يرضيني منك الا أن تلعنه على المنبر قال أفعل فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان أمير المؤمنين أمرني ان ألعن عليا فالعنوه عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ثم نزل فقال له معاوية يا عقيل انك لم تبين من المراد منا قال والله لا زدت حرفا والكلام راجع الى نية المتكلم (ومن غريب المنقول) ما ذكر عن المنصور وهو أنه وعد الهذلي بجائزة ونسي فحجا معا ومرا في

المدينة النبوية ببيت عاتكة فقال الهذلي يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الاحوص * يا دار عاتكة التي اتغزل * فانكر عليه أمير المؤمنين المنصور ذلك لانه تكلم من غير أن يسئل فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة الى آخرها ليعلم ما أراد الهذلي بانشاد ذلك البيت من غير استدعاء واذا فيها

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم * مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فعلم المنصور أنه أشار الى هذا البيت فتذكر ما وعده به وانجزه له واعتذر اليه من النسيان (ومثله) ما حكى ان أبا العلاء المعرى كان يتعصب لابي الطيب المتنبي فحضر يوما مجلس المرتضى فجرى ذكر أبي الطيب فهضم من جانبه المرتضى فقال أبو العلاء لو لم يكن لابي الطيب من الشعر الا قوله * لك يا منازل في القلوب منازل * لكفاه فغضب المرتضى وأمر به فسحب وأخرج وبعد اخراجه قال المرتضى هل تعلمون ما أراد بذكر البيت قالوا لا قال عنى به قول أبي الطيب في القصيدة

واذا أتتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي باني كامل

(ومثله) قصة السرى الرفاء مع سيف الدولة بسبب المتنبي أيضا فان السرى الرفاء كان من مداح سيف الدولة وجرى في مجلسه يوما ذكر أبي الطيب فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه فقال له السرى اشتهى ان الامير ينتخب لي قصيدة من غرر قصائده لاعارضها ويتحقق الامير بذلك انه أركب المتنبي في غير سرجه فقال له سيف الدولة على الفور عارض لنا قصيدته التي مطلعها

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى * وللحب ما لم يبق مني وما بقي

(قال) السرى فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة فلم أجدها من مختارات أبي الطيب لكن رأيته يقول في آخرها عن ممدوحه

اذا شاء ان يلهو بلحية أحمق * أراه غباري ثم قال له الحق

(فقلت) والله ما أشار سيف الدولة الا الى هذا البيت (ومثله) ما حكاه ابن الجوزي في كتاب الاذكياء وهو من الغرائب في هذا الباب ان رجلا من طلبة العلم قعد على جسر بغداد يتنزه فاقبلت امرأة بارعة في الجمال من جهة الرصافة الى الجانب الغربي فاستقبلها شاب فقال لها رحم الله علي بن الجهم فقالت المرأة رحم الله أبا العلاء المعرى وما وقفا بل سارا مشرقا ومغربا قال الرجل فتبعت المرأة وقلت والله ان لم تقولي لي ما أراد بابن الجهم فضحكت قالت أراد به قوله

عيون المها بين الرصافة والجسر * جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وعنيت أنا بأبي العلاء قوله

فيادارها بالخيف ان مزارها * قريب ولكن دون ذلك أهوال

(ومثله) ما هو منقول عن الامام الحافظ فتح الدين أبي الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري ان الشيخ بهاء الدين بن النحاس رحمه الله دخل الى الجامع الازهر فوجد أبا الحسين الجزار جالسا والى جانبه مليح ففرق بينهما وصلى ركعتين ولما فرغ قال لابي الحسين ما أردت الا قول ابن سناء الملك فقال أبو الحسين الجزار وأنا تفاءلت بقول صاحبنا السراج

الوراق أما مراد الشيخ بهاء الدين فهو اشارة الى قول ابن سناء الملك

أنا في مقعد صدق * بين قواد وعلق

وأما مراد أبي الحسين من تنزيل المراح الورنش فهو

ومهفهف رشق الابي * فقاده سلس القياد

لما توسط بيننا * جرت الامور على السداد

فبلغ كل منهما ما أراده من صاحبه ولم يشعر أحد بمراد الاثنين غيرهما قلت وبالنسبة الى هذا الذكاء المفرط الصادر من هؤلاء القوم يتعين أن نورد هنا نبذة من كتاب الاذكياء لابن الجوزي (فمن ذلك) ماروي عن منصور بني العباس وهو انه جلس يوما في أحد قباب المدينة فرأى رجلا ملهوفا يجول في الطرقات فارسل اليه من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره انه خرج في تجارة فأفاد فيها مالا كثيرا وانه رجع بها الى زوجته ودفع المال اليها فذكرت المرأة ان المال سرق من المنزل ولم ير نقبا ولا مسلقا فقال له المنصور منذ كم تزوجتها قال منذ سنة قال تزوجتها بكرا أم ثيبا قال ثيبا قال شابة أم مسنة قال شابة فدعا المنصور بقارورة طيب وقال تطيب بهذا فانه يذهب همك فاخذها وانقلب الى أهله فقال المنصور لجماعة من نقبائه اقعدوا على أبواب المدينة فمن مر بكم وشممتم فيه روائح الطيب فأتوني به ومضى الرجل بالطيب الى بيته فدفعه الى المرأة وقال هذا من طيب أمير المؤمنين فلما شمته اعجبها الى الغاية فبعثت به الى رجل كانت تحبه وهو الذي دفعت المال اليه فقالت له تطيب بهذا الطيب فتطيب به ومر مجتازا ببعض الابواب ففاحت منه روائح الطيب فاخذ واتي به الى المنصور فقال له من أين استفدت هذا الطيب فتلجلج في كلامه فسلمه الى صاحب شرطته وقال له ان احضر كذا وكذا من الدنانير فخذ منه والافاضربه ألف سوط فما هو الا ان جرد وهدد حتى اذعن برد الدنانير وأحضرها كهيئتها ثم اعلم المنصور بذلك فدعا صاحب الدنانير وقال له أرأيتك ان رددت اليك الدنانير اتحكمني في امرأتك قال نعم يا أمير المؤمنين قال هاهي دنانيرك وقد طلقت امرأتك وقص عليه الخبر (ومن ذلك) ماروي عن المهدي وهو ان شريك بن عبد الله القاضي دخل عليه يوما فاراد المهدي أن يخبره فقال للخادم احضر للقاضي عودا فذهب الخادم فجاء بالعود الذي يلهى به فوضعه في حجر شريك فاضطرب شريك من ذلك وقال ماهذا يا أمير المؤمنين قال عود أخذه صاحب العسس البارحة فاحببنا ان يكون كسره على يد القاضي فقال شريك جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين ثم أفاضوا في الحديث حتى نسي الامر فقال المهدي لشريك ما تقول في رجل امر وكيلا له أن يأتي بشيء بعينه فجاء بغيره فتلف ذلك الشيء فقال يضمن يا أمير المؤمنين فقال للخادم اضمن ما تلف (ومن ذلك) انه حكي انه قدم رجل الى بغداد ومعه عقد يساوي ألف دينار فاراد بيعه فلم يتفق فجاء الى عطار موصوف بالخير والديانة فاودع العقد عنده وحج وأتى بهدية للعطار وسلم عليه فقال من أنت ومن يعرفك فقال أنا صاحب العقد فلما كلمه رفسه والقاه عن دكانه فاجتمع الناس وقالوا ويلك هذا رجل صالح فما وجدت من تكذب عليه الا هذا فتحير الحاج وتردد اليه فما زاده الا شتما وضربا فقيل له لو ذهبت الى عضد الدولة لحصل لك من فراسته

خبر فكتب قصته وجعلها على قصبة وعرضها عليه فقال ما شأنك فقص عليه القصة فقال اذهب غدا واجلس في دكان العطار ثلاثة أيام حتى أمر عليك في اليوم الرابع فاقف وأسلم عليك فلا ترد على الا السلام فاذا انصرفت أعد عليه ذكر العقد ثم أعلمني بما يقول لك ففعل الحاج ذلك فلما كان في اليوم الرابع جاء عضد الدولة في موكبه العظيم فلما رأى الحاج وقف وقال سلام عليكم فقال الحاج وعليكم السلام ولم يتحرك فقال يا أخي تقدم من العراق ولا تأتينا ولا تعرض علينا حوائجك فقال له ما اتفق هذا ولم يزده على ذلك شيئا هذا والعسكر واقف بكماله فاندهل العطار وأيقن بالموت فلما انصرف عضد الدولة التفت العطار الى الحاج وقال له يا أخي متى أودعتني هذا العقد وفي أي شئ هو ملفوف فذكرني لعلي اتذكر فقال من صفته كذا وكذا فقام وفتش ثم فتح جرابا وأخرج منه العقد وقال الله أعلم انني كنت ناسيا ولو لم تذكرني ما تذكرت فأخذ الحاج العقد ومضى الى عضد الدولة فاعلمه فعلقه في عنق العطار وصلبه على باب دكانه ونودي عليه هذا جزاء من استودع ثم جحد ثم أخذ الحاج العقد ومضى الى بلاده (ومثله) ما نقل عن ذكاء اياس الذي سارت به الركبان (قيل) ان رجلا استودع أمين اياس مالا وخرج المودع الى الحجاز فلما رجع طلبه فجحده فأتى اياسا فاخبره فقال له اياس أعلمه أنك اتيتني قال لا قال أفنازعته عند غيري قال لا قال فانصرف واكتم سرك ثم عد الى بعد يومين فمضى الرجل ودعا اياس امينه فقال قد حضر عندنا مال كثير أريد أن اسلمه اليك أفحصين منزلك قال نعم قال فاعد موضعا للمال وقوما يحملونه وعاد الرجل الى اياس فقال انطلق الى صاحبك فان اعطاك المال فذاك وان جحد فقل له اني أخبر القاضي بالقصة فأتى الرجل صاحبه فقال تعطيني الوديعة أو اشكوك الى القاضي واخبره بالحال فدفع اليه المال فرجع الرجل وأخبر اياسا وقال اعطاني الوديعة وجاء الامين الى اياس ليأخذ المال الموعود به فزجره وقال له لا تقربني بعد هذا يا خائن (ومثله) انه ولي القضاء بواسط رجل مشهور بالدين والذكاء المفرط فجاءه رجل استودع بعض الشهود كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف دينار فلما حصل الكيس عند الشاهد وطالت غيبة المودع ظن أنه قد مات فهم بانفاق المال وخشي من مجئ صاحبه ففتق الكيس من أسفله وأخذ الدنانير وجعل مكانها دراهم وأعاد الخياطة كما كانت فقدر ان الرجل حضر الى واسط وطلب الشاهد بوديعته فاعطاه الكيس بختمه فلما حصل في منزله نض ختمه فاذا في الكيس دراهم فرجع الى الشاهد وقال له اردد على مالي فاني أودعتك دنانير والذي وجدت دراهم فانكر فاستدعى عليه الى القاضي المتقدم ذكره فلما حضرا بين يديه قال الحاكم للمستودع منذ كم أودعك الكيس قال منذ خمس عشرة سنة فقال القاضي لصاحب الكيس أحضر لي الدراهم فاحضرها فقال القاضي للشهود اعتبروا تواريخ الدراهم فقرؤا سككها فاذا منها ماله سنتان وثلاث سنين ونحو ذلك فامره أن يدفع له الدنانير فدفعها وعزله القاضي وأطاف به البلد واسقطه (ومثله بل اغرب منه) ان رجلا استودع رجلا مالا ثم طلبه فجحده فخاصمه الى اياس وقال المدعي اني اطالبه بمال أودعته اياه وقدره كذا وكذا فقال له اياس ومن حضرك قال كان رب العزة ثم قال دفعته اليه في أي مكان قال في موضع كذا قال

فأي شئ تعهده من ذلك الموضع قال شجرة عظيمة قال فانطلق الى الموضع وانظر الى الشجرة لعل
الله يظهر لك علامة يتبين بها حقك أو لعلك دفنت مالك تحت الشجرة فنسيت فتذكره اذا
رأيت الشجرة فمضى الرجل مسرعا فقال اياس للرجل المدعى عليه اقعد حتى يرجع خصمك
فجلس واياس يقضي بين الناس وينظر اليه بعد ذلك ثم قال له ياهذا أترى صاحبك بلغ موضع
الشجرة التي ذكرها قال لا فقال له والله يا عدو الله انك لخائن فقال أقلني أقالك الله يا أمير
المؤمنين فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال اياس قد اقر بحقك فخذه (ومن لطائف
المنقول من كتاب الاذكياء) ان يحيى بن اكثم القاضي ولي القضاء بالبصرة وسنه عشرون سنة
فاستصغره أهل البصرة فقال أحدهم كم سن القاضي فعلم يحيى انه استصغره فقال انا اكبر
من عتاب بن أسيد حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على اهل مكة يوم الفتح وأنا
اكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن وأنا اكبر
من كعب بن سور حين ولاه عمر بن الخطاب قاضيا على أهل البصرة قال فعظم في أعين أهل
البصرة وهابوه (ومن المنقول من كتاب الاذكياء) ان بعض اللصوص دخل بيتا ومعه جماعة
تحت أمره ونهيه في القتل والسرقة فظفروا بصاحب البيت وأوقفوه للقتل فدخل عليهم في
ابقاء مهجته وأخذ ما في البيت بكماله فقال كبيرهم حلفوه بالطلاق الثلاث وعلى المصحف انه
لا يعلم بهم أحدا فأصبح الرجل يرى اللصوص يبيعون متاعه ولا يقدر أن يتكلم لاجل اليمين فجاء
الى أبي حنيفة واعلمه بحاله فقال له احضر أكابر حيك وأذين جيرانك وامام جماعتك فلما
حضروا قال لهم أبو حنيفة هل تحبون أن يرد الله على هذا الرجل متاعه قالوا نعم فقال اجمعوا
داعريكم فادخلوهم الجامع ثم اخرجوهم واحدا واحدا وكلما خرج منهم واحد قولوا هذا لصك
فان كان ليس بلصه قال لا وان كان لصه فليسكت فاذا سكت فاقبضوا عليه ففعلوا ذلك فرد الله
عليه ما سرق له (ومنه) ان الربيع صاحب المنصور كان يعادي أبا حنيفة فحضر يوما عند أمير
المؤمنين فقال الربيع يا أمير المؤمنين ان أبا حنيفة يخالف جدك ابن عباس وكان جدك
يقول اذا حلف الرجل على شئ ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين كان ذلك جائزا وأبو حنيفة
لا يجوز ذلك الا متصلا باليمين فقال أبو حنيفة يا أمير المؤمنين ان الربيع يزعم ان ليس لك في رقاب
جندك عهد قال كيف ذلك قال يحلفون لك ثم يرجعون الى منازلهم فيستثنون فتبطل ايمانهم
فضحك المنصور وقال ياربيع لا تتعرض لابي حنيفة (ومنه) ان الامام أبا حنيفة رضي الله
عنه قال دخلت البادية فاحتجت الى الماء فجاءني اعرابي ومعه قربة ملآنة فأبى أن يبيعها
الا بخمسة دراهم فدفعتها له ثم أخذت القربة فقلت ما رأيك يا اعرابي في السويق فقال هات
فأعطيته سويقا ملتوتا بزيت فجعل يأكل حتى امتلأ ثم عطش فقال علي بشربة فقلت بخمسة
دراهم على قدح من ماء فاسترددت الخمسة وبقي الماء (ومنه) انه استودع رجل بالكوفة رجلا
مالا وحج ورجع فطلبه فجحده وجعل يحلف له فانطلق الرجل الى أبي حنيفة فخلا به وأخبره
بذلك فقال له الامام لا تكلم أحدا بجحوده وكان الرجل يجالس أبا حنيفة فقال له وقد خلا لهم
المكان ان هؤلاء بعثوا يستشيرونني في رجل يصلح للقضاء وقد اخترتك فانصرف من عند الامام

فجاء

فجاء صاحب الوديعة فقال له الامام ارجع الى صاحبك لتذكره لاحتمال ان يكون ناسيا فذهب اليه وسأله فلم يحتج معه الى علامة بل دفع اليه متاعه وتوجه بعد ذلك الى أبي حنيفة فقال له أبو حنيفة انى نظرت فى أمرك فاردت أن ارفع قدرك ولا اسميك حتى يحضر ماهو انفس من هذا (ومنه) انه كان بجوار أبي حنيفة شاب يغشى مجلسه فقال له يوما من الايام ياامام أريد التزويج الى فلانة من أهل الكوفة وقد خطبتها من وليها فطلب مني من المهر فوق وسعي وطاقتي فقال أبو حنيفة فاستخر الله تعالى وأعطهم ماطلبوه فلما عقدوا النكاح جاء الى أبي حنيفة فقال انى سألتهم أن يأخذوا مني البعض ويدعوا البعض عند الدخول فابوا فماترى قال احتل واقترض حتى تدخل باهلك فان الامر يكون أسهل عليك من تعقيدهم ففعل ذلك فلما زفت اليه ودخل بها قال له أبو حنيفة ماعليك أن تظهر الخروج باهلك عن هذا البلد الى موضع بعيد فاكترى الرجل جملين واحضر آلة السفر ومايحتاج اليه واظهر أنه يريد الخروج من البلد فى طلب المعاش وان يصحب أهله معه فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤا الى أبي حنيفة يستشيرونه فقال لهم أبو حنيفة له أن يخرجها الى حيث شاء فقالوا لم نصبر على ذلك فقال ارضوه بان تردوا عليه ما أخذتم منه فاجابوه الى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى ان القوم قد سمعوا وأجابوا الى أن يردوا عليك ماأخذوا منك من المهر ويبروك فقال الفتى لابد من زيادة آخذها منهم فقال أبو حنيفة ايما أحب اليك أن ترضى بما بذلوا لك والا أقرت المرأة لرجل بدين عليها ولا يمكنك حملها ولا السفر بها حتى يقضي ماعليها من الدين قال فقال الفتى الله الله ياامام لا يسمع أحد منهم بذلك ثم أجاب وأخذ مابذلوه من المهر (ومنه) ان رجلا جاء الى أبي حنيفة وقال يا امام دفنت مالا من مدة طويلة ونسيت الموضع الذى دفنته فيه فقال الامام ليس فى هذا فقه فاحتال لك ولكن اذهب فصل الليلة الى الغداة فانك ستذكره ان شاء الله تعالى ففعل فلم يمض الا أقل من ربع الليل حتى ذكر الموضع الذى دفن فيه فجاء الى أبي حنيفة فاخبره فقال قد علمت أن الشيطان لايدعك تصلى الليل كله فهلا اتممت ليلتك كلها شكرا لله تعالى (ومنه) أن بعضهم كانت له زوجة جميلة وكان يحبها حبا شديدا وتبغضه بغضا شديدا ولم تزل المنافرة بينهما البتة فاضجره ذلك وطالت مدة تجريها عليه فى الكلام فقال لها يوما أنت طالق ثلاثا بتاتا ان خاطبتني بشئ ولم أخاطبك بشئ مثله فقالت له فى الحال أنت طالق ثلاثا بتاتا فابلس الرجل ولم يدر مايجيب وخاف فى جوابها من وقوع الطلاق وارشد الى أبي جعفر الطبري فاخبره بما جرى فقال له اذا طالبتك بالجواب فقل لها انت طالق ثلاثا بتاتا ان انا طلقتك فتكون قد خاطبتها ووفيت بيمينك (ومنه) قيل ان ذا النون المصري كان يعرف الاسم الاعظم قال يوسف بن الحسن لما تحققت منه ذلك قصدت مصر وخدمته سنة ثم قلت له يرحمك الله انى قد خدمتك ووجب حقي عليك واشتهي ان تعلمني اسم الله الاعظم فلا تجد له موضعا مثلي قال فسكت ولم يجبني ستة أشهر واومأ الى انه يعلمني ثم أخرج من بيته طبقا ومكبة وقد شدا بمنديل وكان ذو النون يسكن الجيزة فقال تعرف فلانا صديقنا من الفسطاط قلت نعم قال فاحب ان تؤدى هذا اليه قال فاخذت الطبق وهو مشدود وجعلت أمشي طول الطريق واقول مثل ذى

النون يوجه الى فلان بهدية ترى اى شئ هى فلم أصبر ان بلغت الجسر فحللت المنديل ورفعت المكبة فاذا فأرة نفرت من الطبق وفرت فاغتظت غيظا شديدا وقلت ذو النون المصرى يسخر بى ويوجه مع مثلى فأرة فرجعت على ذلك الغيظ فلما رآنى علم مافى وجهى فقال يا أحمق ائتمنتك على فأرة فخنتنى فكيف أئتمنك على اسم الله الاعظم مرعنى فلا أراك بعدها (ومن ذلك ماهو منقول عن الافراط فى ذكاء العرب) قيل سار مضر وربيعة واياد وانمار اولاد نزار بن معد الى أرض نجران فبينما هم يسيرون اذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال البعير الذى رعى هذا أعور فقال ربيعة وهو أزور وقال اياد وهو أبتر وقال انمار وهو شرود فلم يسيروا الا قليلا حتى لقيهم رجل على راحلة فسألهم عن البعير فقال مضر اهو أعور قال نعم قال ربيعة اهو ازور قال نعم قال اياد اهو أبتر قال نعم قال انمار أهو شرود قال نعم والله هذه صفات بعيرى دلونى عليه فحلفوا انهم مارأوه فلزمهم وقال كيف أصدقكم وانتم تصفون بعيرى بصفته فساروا حتى قربوا نجران فنزلوا بالافعى الجرهمى فنادى صاحب البعير هؤلاء القوم وصفوا الى بعيرى بصفته ثم أنكروه فقال الجرهمى كيف وصفتموه ولم تروه فقال مضر رأيته يرعى جانبا و يترك جانبا فعلمت انه أعور وقال ربيعة رأيت احدى يديه ثابتة الاثر والاخرى فاسدة الاثر فعلمت انه أفسدها بشدة وطئه لازوراره وقال اياد عرفت بتره باجتماع بعره ولو كان ذيالا لتفرق وقال انمار انما عرفت انه شرود لانه كان يرعى فى المكان الملتف نبته ثم يجوزه الى مكان ارق منه وأخبث فقال الافعى ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ثم سألهم من هم فاخبروه فرحب بهم واضافهم و بالغ فى اكرامهم (ومنه) ان عقبة الازدى كان مشهورا بمعالجة الجن وصدق العزائم فاتوه بجارية قد جنت فى ليلة عرسها فعزم عليها فاذا هى قد سقطت فقال لاهلها اخلونى بها فاجابوه فلما خلا بها قال لها اصدقينى عن نفسك وعلى خلاصك فقالت انه كان لى صديق وأتانى بيت أهلى وانهم أرادوا أن يدخلونى على زوجى ولست ببكر فخفت الفضيحة فهل عندك حيلة فى أمرى فقال نعم ثم خرج الى أهلها فقال ان الجنى قد اجابنى الى الخروج منها فاختاروا من أى عضو واعلموا أن العضو الذى يخرج منه الجنى لابد أن يهلك ويفسد فان خرج من عينها عميت وان خرج من اذنها صمت وان خرج من يدها شلت وان خرج من رجلها زمنت وان خرج من فرجها ذهبت بكارتها فقال أهلها انا لم نجد شيأ أهون من ذهاب عذرتها فاخرج الشيطان منه فأوهمهم أنه فعل ذلك وأدخلت المرأة على زوجها (ومن ذلك) ان الامام عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل رجلا على عمل فبلغه عنه أنه قال

اسقنى شربة الذعليها * واسق بالله مثلها ابن هشام

قال فاشخصه وعلم الرجل بالحال فضم اليه بيتا آخر فلما قدم على الامام قال ألست القائل

اسقنى شربة الذعليها * واسق بالله مثلها ابن هشام

قال نعم يا أمير المؤمنين ان لهذا البيت ثانيا وهو

عسلا باردا بماء سحاب * اننى لا أحب شرب المدام

فقال الامام الله الله ارجع الى عملك (ومن لطائف هزليات الاذكياء) ان الرشيد خرج متنزها

فانفرد عن العسكر ومعه الفضل بن الربيع فاذا هو بشيخ قد ركب حمارا ضعيفا وهو رطب العينين فغمز الفضل عليه فقال له الفضل اين تريد ياشيخ فقال حائطا لى قال هل أدلك على شئ تداوى به عينيك فتذهب هذه الرطوبة فقال ما أحوجنى الى ذلك قال تأخذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكماة فصيرا الجميع فى قشر جوزة واكتحل من القشر فانه يذهب رطوبة عينيك فاتكأ الشيخ على ظهر حماره وضرط ضرطة طويلة ثم قال خذ هذه الضرطة أجرة وصفتك فان نفعتنا زدناك فضحك الرشيد حتى كاد يسقط عن ظهر دابته (ومن الجد المفحم) ان رجلا من اليهود قال للامام على رضى الله عنه ما دفنتم نبيكم حتى قالت الانصار منا أمير ومنكم أمير فقال له الامام أنتم ما جفت اقدامكم من ماء البحر حتى قلتم ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة (ومنه) ان المتوكل قال يوما لجلسائه نعم المسلمون لوم على عثمان أشياء منها ان الامام أبا بكر رضى الله عنه لما تسنم المنبر هبط عن مقام النبى صلى الله عليه وسلم بمرقاة ثم قام عمر دون مقام أبى بكر وصعد عثمان ذروة المنبر فقال عبادة ما أحد أعظم منة عليك من عثمان يا أمير المؤمنين قال وكيف ويلك قال لانه صعد ذروة المنبر ولو أنه كلما قام خليفة نزل مرقاة ونزل عثمان لمن تقدمه كنت أنت تخطبنا من بئر فضحك المتوكل ومن حوله (ومن المنقول عن اذكياء الاطباء) ان جارية من جوارى الرشيد تمطت فلما أرادت ان تمد يدها لم تطق وحصل فيها الورم فصاحت وآلمها فشق على الرشيد وعجز الاطباء عن علاجها فقال له طبيب حاذق يا أمير المؤمنين لادواء لها الا أن يدخل اليها رجل أجنبى غريب فيخلو بها ويمرخها بدهن يعرفه فأجابه الخليفة الى ذلك رغبة فى عافيتها فاحضر الطبيب الرجل والدهن وقال أريد ان أمير المؤمنين يأمر بتعريتها حتى يمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن فشق ذلك على الخليفة وأمره أن يفعل وأضمر فى نفسه قتل الرجل وقال للخادم خذه وأدخله عليها بعد أن تعريها فعريت الجارية وأقيمت فلما دخل عليها وقرب منها وسعى اليها وأومأ بيده الى فرجها لمسه غطت الجارية فرجها بيدها التى قد كانت عطلت حركتها واشتد ما داخلها من الحياء والجزع حتى جسمها بانتشار الحرارة الغريزية فأعانها على ما أرادت من تغطية فرجها واستعمال يدها فى فرجها فلما غطت فرجها قال لها الرجل الحمد لله على العافية فأخذه الخادم وجاء به الى الرشيد واعلمه بالحال وما اتفق فقال الرشيد للرجل فكيف نعمل فى رجل نظر الى حرمنا فمد الطبيب يده الى لحية الرجل فانتزعها فاذا هى ملصقة واذا الشخص جارية وقال يا أمير المؤمنين ما كنت لابذل حرمك للرجال ولكن خشيت ان اكشف لك الخبر فيتصل بالجارية فتبطل الحيلة ولا يفيد العلاج لانى أردت أن ادخل على قلبها فزعا شديدا يحمى طبعها ويقودها الى تحريك يدها وتمشى الحرارة الغريزية فى سائر أعضائها بهذه الواسطة فسرى عن الرشيد ما كان وقر فى صدره من الرجل وأجزل عطيته (ومن المنقول عن أذكياء المتطفلين) قال أبو عمرو الجهضمى كان لى جار طفيلى وكان من أحسن الناس منظرا وأعذبهم منطقا وأطيبهم رائحة فكان من شأنه اذا دعيت الى وليمة يتبعنى فيكرمه الناس من أجلى ويظنون صحبتى له (فاتفق) ان جعفر بن القاسم الهاشمى أمير البصرة أراد أن يختن أولاده فقلت فى نفسى كانى برسول الامير قد جاءنى وكانى

يا الطفيلي قد تبعني والله لئن فعل لا فضحنه فانا على ذلك اذجاءني رسول الامير يدعوني فمازدت على أن لبست ثيابي وخرجت فاذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره وقد سبقني بالتأهب فتقدمت وتبعني فلما حضرت الموائد كان معي على المائدة فلما مد يده ليأكل قلت حدثني درستة بن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار قوم بغير أذنهم فأكل طعامهم دخل سارقا وخرج مغيرا فلما سمع الطفيلي ذلك قال أنفت لك والله يا أبا عمرو من هذا الكلام على مائدة سيد من أطعم الطعام فانه ما من أحد من الجماعة الا وهو يظن أنك تعرض به دون صاحبه وقد بخلت بطعام غيرك على من سواك ثم ما استحييت حتى حدثت عن درستة بن زياد وهو ضعيف وعن أبان بن طارق وهو متروك الحديث والمسلمون على خلاف ما ذكرت فان حكم السارق القطع وحكم المغير ان يعزر على ما يراه الامام (وأين أنت) من حديث حدثناه أبو عاصم عن ابن جريج عن الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الاربعة وطعام الاربعة يكفي الثمانية وهو اسناد صحيح ومتن صحيح متفق عليه قال أبو عمرو والله لقد أفحمني ولم يحضرني جواب فلما خرجنا فارقني من جانب الطريق الى الجانب الآخر بعد ان كان يمشي ورائي وسمعته يقول

ومن ظن ممن يلاقي الحروب * بان لا يصاب فقد ظن عجزا

(ومن المنقول عن أذكياء المتلصصين) أن بعض التجار قال احتال علي رجل بحوالة فكان يأتيني كل يوم و يأخذ قدر نفقته الى أن نفدت وصار بيننا معرفة وألف الجلوس عندي وكان يراني اخرج من صندوق لي فاعطيه منه فقال لي يوما ان قفل الرجل صاحبه في سفره وأمينه في عصره وخليفته على حفظ ماله وان لم يكن وثيقا تطرقت الحيل اليه وأرى قفلك هذا وثيقا فقل لي ممن ابتعته لابتاع مثله لنفسي فقلت من فلان الاقفالي قال فما شعرت يوما وقد جئت الى دكاني وتقدمت الى الصندوق لاخرج منه شيأ من الدراهم ففتحته فاذا ليس فيه شئ فقلت لغلامي وهو عندي أمين غير متهم هل انكرت شيأ من أحوال الدكان قال لا قلت ففتش هل ترى نقبا أم في السقف حيلة قال لا قلت فاعلم ان الذي كان في الصندوق قد ذهب وقلق الغلام فامسكته وبقيت متحيرا وتأخر الرجل عني فتيقظت له وذكرت سؤاله عن القفل وقلت للغلام اخبرني كيف تفتح دكاني وتقفله فقال احمل الدرابيب دفعتين وثلاثة حتى أضعها في محلها وهكذا أصنع في غلقها قلت فمن تدع عند الدكان اذا نقلت الدرابيب قال اتركه خاليا قلت فمن ههنا ذهبت فمضيت الى الصانع الذي ابتعت منه القفل فقلت جاءك انسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل فقال نعم رجل من صفته كذا وكذا واعطاني صفة صاحبي فعلمت انه احتال على الغلام وقت المساء ودخل الدكان واختبأ فيها ومعه مفتاح القفل وأخذ المال ومكث طول الليل الى الصباح فلما فتح الغلام وحمل الدرابيب ليضعها في محلها خرج وانه ما فعل ذلك الا وقد خرج من المدينة فخرجت من البصرة ومعي قفلي ومفتاحي فقلت ابتدئ بواسط فلما صعدت طلبت خانا أنزله فلما دخلت الخان وجدت قفلا مثل قفلي على باب بيت فقلت

لقيم الخان هذا البيت من ينزله قال رجل قدم امس من البصرة فقلت ماصفته فوصف لى صاحبي فما شككت انه هو وان الدراهم فى بيته فاكتريت بيتا الى جانبه ورصدته حتى انصرف قيم الخان ففتحت القفل ودخلت البيت فوجدت كيسي بعينه فاخذته وخرجت ووضعت قفله على بابه ونزلت على الفور فى السفينة وانحدرت الى البصرة ولم أقم بواسط غير ساعة من نهار فرجعت الى منزلى بمالى كله (ومن المنقول عن أذكاء الصبيان) انه وقف اياس بن معاوية وهو صبي على قاضى دمشق ومعه شيخ فقال اصلح الله القاضى هذا الشيخ ظلمنى وأكل مالى فقال القاضى ارفق بالشيخ ولا تستقبله بمثل هذا الكلام فقال اياس ان الحق أكبر منى ومنه ومنك قال اسكت قال ان سكت فمن يقوم بحجتى قال فتكلم فوالله لا تتكلم بخير فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له فبلغ ذلك الخليفة فعزل القاضى وولى اياسا مكانه (ومن المنقول عن أذكاء النساء) حكى المدائنى قال خرج ابن زياد فى فوارس فلقوا رجلا ومعه جارية لم ير مثلها فى الحسن فصاحوا به خل عنها وكان معه قوس فرمى أحدهم فهابوا الاقدام عليه فعاد ليرمى فانقطع الوتر فهجموا عليه وأخذوا الجارية فهرب واشتغلوا عنه بالجارية ومد بعضهم يده الى اذنها وفيها قرط وفى القرط درة يتيمة لها قيمة عظيمة فقالت وماقدر هذه الدرة انكم لو رأيتم مافى قلنسوته من الدر لاستحقرتم هذه فتركوها واتبعوه وقالوا الق مافى قلنسوتك وكان فيها وتر قد أعده فنسيه من الدهش فلما ذكره ركبه فى القوس ورجع الى القوم فولى القوم هاربين وخلوا الجارية (وحكى ابن الجوزى فى كتاب الاذكياء) نبذة عن الحيوان الذى كان بدكائه يشبه ذكاء الآدميين فمن ذلك ان بعض الكتاب مر بمقبرة فاذا قبر عليه قبة مكتوب عليها هذا قبر الكلب فمن أحب ان يعلم خبره فليمض الى قرية كذا وكذا فان فيها من يخبره فسأل الرجل عن القرية فدلوه عليها فقصدها فقيل له مايعلم ذلك الا شيخ هنا قد جاوز المائة فسأله فقال كان هنا ملك عظيم الشأن وكان يحب التنزه والصيد وكان له كلب قد رباه لا يفارقه فخرج يوما الى بعض منتزهاته وقال لبعض غلمانه قل للطباخ يصلح لنا ثريدة بلبن فجاؤا باللبن الى الطباخ ونسى ان يغطيه بشئ واشتغل بالطبخ فخرجت من بعض الشقوق افعى فكرعت فى ذلك اللبن ومجته فى الثريدة والكلب رابض يرى ذلك ولم يجد له حيلة يصل بها الى الافعى وكان هناك جارية زمنة خرساء قد رأت ماصنعت الافعى ووافى الملك من الصيد فى آخر النهار فقال ياغلمان ادركونى بالثريدة فلما وضعت بين يديه اومأت الخرساء فلم يفهم ماتقول ونبح الكلب وصاح فلم يلتفت اليه ولج فى الصياح فلم يعلم مراده فقال للغلمان نحوه عنى ومد يده الى اللبن بعد مارمى الى الكلب ما كان يرمى اليه فلم يلتفت الكلب الى شئ من ذلك ولم يلتفت الى غير الملك فلما رآه يريد أن يضع اللقمة من اللبن فى فيه وثب الى وسط المائدة وأدخل فمه وكرع فى اللبن فسقط ميتا وتناثر لحمه وبقى الملك متعجبا من الكلب وفعله فاومأت الخرساء اليهم فعرفوا مرادها وما صنع الكلب فقال الملك لحاشيته هذا الكلب فدانى بنفسه وقد وجب ان اكافئه ومايحمله ويدفنه غيرى فدفنه وبنى عليه القبة التى رأيتها قلت قد أوردنا نبذة لطيفة من كتاب الاذكياء لابن الجوزى مختلفة الانواع وقد تعين ان نورد له هنا نبذة لطيفة من كتاب الحمقى والمغفلين لانه قال فى كتاب

الحمق ماوضعت ذلك الالان النفس قد تمل من ملازمة الجد وترتاح الى بعض المباح من اللهو كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لحنظلة ساعة وساعة (وعن على) رضى الله عنه انه قال روّحوا القلوب بطرائف الحكم فانها تمل كما تمل الابدان (وكان) رجل يجالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثهم فاذا أكثروا وثقل عليهم الحديث قال ان الاذن مجاجة وان القلوب حمضة هاتوا من أشعاركم وحديثكم (وقال) أبو الدرداء رضى الله عنه انى لاستجم نفسى بشئ من الباطل كراهة ان أحملها من الحق مايملها وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان يحدث أصحابه ساعة ثم يقول حمضونا فيأخذ فى أحاديث العرب وأشعارهم ومثله عن الزهرى ومالك بن دينار (وكان) شعبة يحدث فاذا رأى أبا زيد قال له ايه أبا زيد

استعجمت دار نعم ماتكلمنا * والدار لو كلمتنا ذات أخبار

(ووصف) رجل عند ابن عائشة ثقيل هو جد كله فقال ابن عائشة لقد اعان على نفسه وقصر لها طول المدى ولو فككها بالانتقال من حال الى حال نفس عنها ضيق العقد ورجع الى الجد بنشاط (وقال الرشيد) النوادر تشحذ الاذهان وتفتق الآذان (وقال آخر) لايحب الملح الا ذكران الرجال ولايكرهها الا مؤنثوهم وقال الشاعر

أروّح القلب ببعض الهزل * تجاهلا منى بغير جهل

أمزح فيه مزح أهل الفضل * والمزح احيانا جلاء العقل

(قال ابن الجوزى فى كتاب الحمق) ان الاحنف بن قيس قال اذا رأيتم الرجل طويل القامة عظيم اللحية فاحكموا عليه بالحمق وقال معاوية لرجل كفى ان تشهد عليك بالحمق ماتراه من طول لحيتك (وقال آخر) ونلطف ماشاء من طالت لحيته تكوسج عقله وقال أصحاب الفراسة من طالت قامته وطالت لحيته وجبت تعزيته فى عقله وقالوا اذا كان الرجل طويلا طويل اللحية وأضيف الى ذلك ان يكون صغير الرأس فاحكم عليه بالحمق (وقال زياد) مازادت لحية الرجل على قبضة الا كان ذلك نقصانا من عقله وقال الشاعر

اذا عرضت للفتى لحية * وطالت وصارت الى سرته

فقد ضاق عقل الفتى عندنا * بمقدار مازاد من لحيته

وقال ابن الرومى

ان تطل لحية عليك وتعرض * فالمخالى مخلوقة للحمير

علق الله فى عذاريك مخلا * ة ولكنها بغير شعير

وقال بعضهم صارم الاحمق فليس له خير من الهجران وقيل مكتوب فى التوراة من اصطنع الى أحمق معروفا فهى خطيئة مكتوبة عليه (وقال) سفيان الثورى هجران الاحمق قربة الى الله تعالى (ممن ضرب المثل بحمقه وتغفله) هبنقة واسمه يزيد وكان قد جعل فى عنقه قلادة من عظام وودع وقال اخشى ان اضيع من نفسى ففعلت ذلك لاعرفها فحولت أمه القلادة الى عنق أخيه فلما اصبح ورآها قال يا أخى انا أنت وأنت أنا وضل له بعير فجعل يقول من وجده فهو له فقيل له فلم تنشده قال فحلاوة الظفر واختصمت بنو طفاوة وبنو راسب فى رجل ادعى كل

من الفريقين انه منهم فقال هبنقة حكمه ان يلقى في الماء فان طفا فهو من طفاوة وان رسب فهو من راسب فقال الرجل ان كان الحكم هكذا فقد زهدت في الطائفتين (ومنهم أبو غبشان) رجل من خزاعة كان يلي سدانة البيت فاجتمع مع قصي بن كلاب بالطائف على الشراب فلما سكر اشترى منه قصي ولاية سدانة البيت بزق من خمر وأخذ منه مفاتيحه وسار بها الى مكة وقال يا قريش هذه مفاتيح أبيكم ابراهيم ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم وافاق أبو غبشان فندم غاية الندم فقيل أحمق من أبي غبشان (وقال شاعرهم)

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت * بزق خمر فبئست صفقة البادي

باعت سدانتها بالخمر وانقرضت * عن المقام وظل البيت والنادي

(ومنهم ربيعة البكاء) سمي البكاء لانه دخل على أمه وهي تحت زوجها فبكى وصاح أتقتل أمي فقالوا أهون مقتول ام تحت زوج فذهبت مثلا (ومنهم حمزة بن بيض) قال يوما لغلامه أي يوم صلينا الجمعة بالرصافة فافتكر الغلام ساعة ثم قال يوم الثلاثاء (ومنهم جحى) قال بعضهم كان من أذكياء الناس وانما كان بينه وبين قوم عداوة فوضعوا عليه حكايات سارت بها الركبان وقيل كان من كبار الحمق والمغفلين (قيل) انه دخل الحمام وخرج منه فضربته ريح باردة فمس خصيتيه فاذا احداهما قد تقلصت فرجع الى الحمام وجعل يفتش الناس فقالوا له مالك فقال سرقت احدى بيضتي ثم انه دخل في الحمام وحمي فرجعت البيضة فلما وجدها سجد شكرا لله وقال كل شيء لا تسرقه اليد لا يفقد (واشترى يوما) دقيقا وحمله على حمال فلما دخل الحمال في الزحام هرب فرآه جحى بعد أيام فاستتر منه لئلا يطالبه بالاجرة وكان لهم جارية تسمى عميرة فضربتها ذات يوم أمه فصاحت الجارية فاجتمع الناس على الباب فخرج اليهم فقال مالكم عافاكم الله انما هي أمي تجلد عميرة (ومنهم ابن الجصاص) قيل انه كان يقصد التباله خيفة من الوزير ابن الفرات (لكن المنقول من حمقه) انه كان يوما مع الوزير في مركب ومعه بطيخة فاراد أن يعطيها للوزير ويبصق في البحر فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في البحر هذا من المنقول عن ما ظهر عنه من التباله (والانقد) روى عنه أنه قال لما ولي ابن الفرات الوزارة قصدني قصدا قبيحا وانفذ العمال الى ضياعي وبسط لسانه بثلبي وتنقصي في مجلسه فدخلت يوما داره فسمعت حاجبه وقد وليت يقول هذا بيت مال يمشي على وجه الارض ليس له من يأخذه فقلت هذا من كلام صاحبه وقد كان عندي في ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار عينا سوى الجواهر والذخائر وغير ذلك فسهرت في ليلتي افكر في أمري معه فوقع في نفسي الثلث الاخير من الليل ان ركبت الى داره على الفور فوجدت الابواب مغلقة فطرقتها فقال البواب من هذا قلت ابن الجصاص فقال ليس هذا وقت وصول والوزير نائم فقلت عرف الحجاب اني حضرت في مهم فعرفهم فخرج الى احدهم وقال انه في هذا الوقت لا ينتبه فقلت الامر أهم من ذلك فايقظه وعرفه عني ما قلت لك فدخل وابطأ ساعة ثم خرج وأدخلني فارتاع لدخولي وظن اني جئته برسالة من الخليفة أو حدثت حادثة وهو متوقع لما أورده عليه فنظر الي وقال ما الذي جاء بك في هذا الوقت قلت خير ما حدثت حادثة ولا معي رسالة ولا جئت الا في أمر يخصني ويخص الوزير

فقالوا الا فافضيت الى الخدم فسألتهم فقالوا مثل مقالة الحجاب فصرت الى الموضع الذي هو فيه فقال لي ادخل ليس عندي احد فدخلت فوجدته على فراشه فقال اعلم اني سهرت الليلة مفكرا في أمر الى ساعتي هذه فقلت وما هو الامر أصلح الله الامير قال اشتهيت ان يصير في الله حورية في الجنة ويجعل زوجي يوسف الصديق فطال لذلك فكري فقلت له هلا اشتهيت محمدا صلى الله عليه وسلم ان يكون زوجك فانه سيد الانبياء عليهم السلام فقال لا تظن اني لم أفكر في هذا قد فكرت فيه ولكني كرهت أن اغيظ عائشة رضي الله عنها (ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الاعراب) قيل صلى اعرابي خلف بعض الائمة في الصف الاول وكان اسم الاعرابي مجرما فقرأ الامام والمرسلات عرفا فلما بلغ الى قوله تعالى ألم نهلك الاولين تاخر الاعرابي الى الصف الاخير فقال ثم نتبعهم الآخرين فرجع الى الصف الاوسط فقال كذلك نفعل بالمجرمين فولى هاربا وهو يقول والله ما المطلوب غيري (ومثله) صلى اعرابي خلف امام صلاة الصبح فقرأ الامام سورة البقرة وكان الاعرابي مستعجلا ففاته مقصوده فلما كان من الغد بكر الى المسجد فابتدأ الامام فقرأ سورة الفيل فقطع الاعرابي الصلاة وولى هاربا وهو يقول أمس قرأت سورة البقرة فلم تفرغ منها الى نصف النهار واليوم تقرأ سورة الفيل ما اظنك تفرغ منها الى الليل (ومنه) كان اعرابي قائما يصلي فأخذ قوم يصفونه بالصلاح وهو يسمع فقطع الصلاة وقال وأنا مع هذا صائم (ومنه) دخل خالد بن صفوان الحمام وفي الحمام رجل ومعه ابنه فأراد الرجل أن يعرف خالدا ما عنده من البيان والنحو فقال يا بني ابدأ بيداك ورجلاك ثم التفت الى خالد فقال له يا أبي صفوان هذا كلام قد ذهب أهله فقال خالد هذا كلام ما خلق الله له أهلا (ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الشعراء) ان بعضهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة وقد نما خبر المهدي انه مات وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك فقال رافعا صوته * مات الخليفة أيها الثقلان * فقالوا هذا أشعر الناس فانه نعي الخليفة الى الانس والجن في نصف بيت ومدت الناس أبصارهم وأسماعهم اليه فقال

* فكأنني افطرت في رمضان * قال فضحك الناس وصار شهرة في الحمق (ومثله) ان سيف الدولة بن حمدان انصرف من حرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فانشدوه فدخل معهم رجل شامي فانشده •

وكانوا كفأر وسوسوا خلف حائط * وكنت كسنور عليهم تسقفا

فأمر باخراجه فقام على الباب يبكي فأخبر سيف الدولة بمكانه فرق له وأمر برده وقال له مالك تبكي قال قصدت مولانا بكل ما قدر عليه الطلب منه بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملي بكيت فقال له سيف الدولة ويلك فمن يكون له مثل هذا النثر يكون له ذلك النظم وكم كنت أملت قال خمسمائة درهم فامر له بالف درهم فاخذها وانصرف (ومن المنقول عن المغفلين على الاطلاق) قال بعضهم دخلت مسجد دمشق فاذا أنا بجماعة عليهم سمة العلم فجلست اليهم وهم ينقصون من علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقمت من عندهم مغضبا فرأيت شيخا جميلا يصلي فظننت به الخير فجلست اليه فقلت له يا عبد الله أما ترى هؤلاء القوم يشتمون علي بن أبي طالب

و يقصونه وهو زوج فاطمة الزهراء وابن عم محمد صلى الله عليه وسلم فقال لي يا عبد الله لو نجا
أحد من الناس لنجا منهم أبو محمد رحمه الله تعالى قال فقلت ومن أبو محمد قال الحجاج بن يوسف
وجعل يبكي فقمت من عنده وحلفت لا اقيم بها (ومن ذلك) ان رجلا سأل بعضهم وكان من
الحمق على جانب عظيم فقال ايما افضل عندك معاوية أو عيسى بن مريم فقال ما رأيت سائلا
اجهل منك ولا سمعت بمن قاس كاتب الوحي الى نبي النصارى (ومن ذلك) ان لصا تسور روزنة
بيت وكان اللص مغفلا فنظر من خلال الروزنة فوجد رجلا وزوجته وهي تقول له يا رجل من
اين اكتسبت هذا المال العظيم فقال لها كنت لصا وكنت اذا تسورت روزنة بيت صبرت الى
أن يطلع القمر فاذا طلع اعتنقت الضوء الذي في الروزنة وتدليت بلا حبل وقلت شولم شولم
ونزلت فآخذ جميع ما في البيت ولا تبقى ذخيرة من ذخائر البيت الا ظهرت لي ثم أقول شولم شولم
وأصعد في الضوء ولا ينتبه أحد من أهل البيت واذهب بلا تعب ولا كلفة فسمع اللص ذلك فصبر
الى أن طلع القمر ونام أهل البيت فتعلق في ضوء الروزنة فوقع وتكسرت أضلاعه فقام اليه
صاحب البيت وقبض عليه وأسلمه الى صاحب الشرطة (ومنهم) من كان يسوق عشرة حمير
فركب واحدا منها وعدها فاذا هي تسعة حمير فنزل وعدها فاذا هي عشرة فقال امشي واربح
حمارا لخير من ان اركب واخسر حمارا فمشى حتى كاد يتلف الى ان بلغ قريته (ومنهم) من مات
بعض اقاربه فقيل له لم لا تبعت جنازته فقال هذا الكلام ما يقوله عاقل أكون منفسي لمخاد كر
بنفسي (ومن ذلك) ان بعض المغفلين سمع رجلا ينشد

وكان بنو عمي يقولون مرحبا * فلما رأوني معدما مات مرحب

فقال كذب الشاعر مرحب قتله علي بن أبي طالب ولم يمت الا قتيلا (ومنهم) من باع دارا وكان
يؤذن بباب مسجد بالقرب منها فنسي انه باعها فصلى ورجع اليها ودخل من الباب فصاحت
النسوة وقلن له يا رجل اتق الله فينا فقال اعذروني فاني ولدت في هذه الدار ولم أذكر البيع
(ومنهم) من رأى جاريته تحت رجل يجامعها فقال لها يا جارية ما حملك على هذا فقالت
له يا مولاي حلفني بحياة رأسك وأنت تعلم صدق محبتي لك فسكت (ومنهم) من سمع ان صوم
يوم عرفة يعدل صوم سنة فصام الى الظهر وقال يكفيني ستة أشهر (ومنهم) من جاء الى الجب
ونظر فيه فرأى خيال وجهه فذهب الى أمه وقال يا أمي في الجب لص فجاءت الام فتطلعت
فيه فرأت خيال وجهها فقالت صدقت ومعه قحبة (ومنهم) من دعا فقال اللهم اغفر لي ولامي
ولاختي ولامرأتي فقيل لم تركت ذكر أبيك قال لانه مات وأنا صبي لم أدركه (وقال رجل لرجل)
كم في هذا الشهر يوم فنظر وقال والله لست من أهل هذه المدينة (ومن ذلك) ان هشام بن عبد
الملك عرض الجند فتقدم رجل حمصي بفرس كلما قدمه يتأخر فقال له هشام ما هذا قال يا سيدي
فاره ولكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر (ومنهم) من قيل له عندك مال جزيل وليس
لك الا والدة عجوز وان مت ورثتك فافسدت مالك فقال انها لا ترثني قيل وكيف قال لان أبي
طلقها قبل ان يموت (ومنهم) من جاء اليه جماعة يسألونه في كفن لجار له مات فقال ما عندي
الآن شئ ولكن عاودوني في وقت آخر قالوا افنملحه الى ان يتيسر عندك شئ (ومنهم) من

تقدم يصلي المغرب بجماعة فأطال القيام فلما فرغ من الصلاة سجد سجدتي السهو ولم يكن سها فقيل نحن أنكرنا عليك طول القراءة فما الجواب عن سجدتي السهو ولم تكن سهوت فقال ذكرت اني صليت بكم على غير وضوء فسجدت للسهو (ومن ذلك) ان عبدا كان بين اثنين في الشر كة فجعل أحدهما يضربه فلامه شريكه فقال انما اضرب بحصتي (ومنهم) من قيل له كيف صنعتم في رمضان فقال اجتمعنا ثلاثين فانفذناه في يوم واحد واسترحنا منه (قال الاصمعي) خرج جماعة من بني غفار ومعهم رجل مغفل فاصابتهم ريح في البحر ايسوا معها من الحياة فاعتق كل واحد منهم مملوكا أو مملوكة فقال ذلك الرجل اللهم انك تعلم اني ليس لي مملوك ولا مملوكة ولكن امرأتي طالق طلقة واحدة لوجهك الكريم (قال ابن الجوزي) في آخر كتاب الحمقى والمغفلين ان المعلمين للصبيان صناعتهم تكاد أن تكون اكثر القلة العقل وابراز الحماقة (وقال) عدل عقل امرأة سبعين حائكا وعدل عقل حائك سبعين معلما وسبب قلة عقل المعلم انه مع الصبيان بالنهار ومع النساء بالليل وكان يحيى بن اكثم لا يقبل شهادة المعلم (وقيل) لصبي مالك تنازل كثير الحمق فقال لولم أكن كذلك لكنت ولد رنا وقيل لمعلم مالك تضرب هذا الصبي ولم يذنب قال انما اضربه قبل أن يذنب لئلا يذنب (وقال) الجاحظ مررت بمعلم وهو يقرئ صبيا واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا الك كيدا او أكيد كيدا فقلت له ويحك قد أدخلت سورة في سورة فقال نعم عافاك الله اذا كان أبوه يدخل شهرا في شهر فانا أيضا أدخل سورة في سورة ولا آخذ شيئا ولا ابنه يتعلم شيئا انتهى ما اخترته من كتاب الاذكياء والحمقى والمغفلين (ومما اخترته من سلوان المطاع لابن ظفر) ان الوليد بن يزيد لما بلغه ان ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد شرد عنه القلوب واستجاش عليه أهل اليمن ونازعه في ملكه احتجب عن سماره ودعا في بعض الليالي خادما فقال له انطلق متنكرا حتى تقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس فاذا رأيت كهلا رث الهيئة يمشي مشيا هونا ومطرقا فسلم عليه وقل له في أذنه أمير المؤمنين يدعوك فان أسرع في الاجابة فائتني به وان استراب فدعه واطلب غيره حتى تجد رجلا على الشرط الذي ذكرت لك فانطلق الخادم فاتاه برجل على الشرط فلما دخل الرجل على الوليد حياه بتحية الخلافة فامره الوليد بالجلوس والدنو منه وصبر الى ان ذهب روعه وسكن جاشه ثم أقبل عليه فقال له أتحسن المسامرة للخلفاء فقال نعم يا أمير المؤمنين فقال الوليد ان كنت تحسنها فاخبرنا ماهي فقال يا أمير المؤمنين المسامرة احبار لمنصت وانصات لمخبر ومفاوضة فيما يحب و يليق فقال له الوليد أحسنت لا أزيدك امتحانا فقل اسمع لقولك فقال الكهل نعم يا أمير المؤمنين ولكن المسامرة صنفان لا ثالث لهما أحدهما الاخبار بما يوافق خبرا مسموعا والثاني الاحبار بما يوافق غرضا من اغراض صاحب المجلس واني لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين طريقتها فنحو نحوها والزم أسلوبها فقال الوليد صدقت وها نحن نقترح لك ما تقتفيه قد بلغنا ان رجلا من رعيتنا سعى في ضرر ملكنا فاثر سعيه وشق ذلك علينا فهل سمعت بذلك فقال الكهل نعم يا أمير المؤمنين فقال له الوليد قل الآن على حسب ما سمعت

وعلى

وعلى ماترى من التدبير فقال يا أمير المؤمنين بلغني عن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان انه لما ندب الناس لقتال ابن الزبير وخرج بهم متوجها الى مكة حرسها الله تعالى استصحب عمرو بن سعيد بن العاص وكان عمرو قد انطوى على فساد نية وخبث طوية وطماعية في نيل الخلافة وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد فطن لذلك الا انه كان يحترمه ولما أبعد أمير المؤمنين عن دمشق تمارض عمرو بن سعيد فاستأذن أمير المؤمنين في العود الى دمشق فاذن له فلما دخل عمرو دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة واستولى على دمشق ودعا الناس الى خلع عبد الملك فاجابوه الى ذلك وبايعوه وحصن بعد ذلك سور دمشق وحمى حوزتها فبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه الى ابن الزبير وبلغه مع ذلك ان والي حمص قد نزع يده من الطاعة وان أهل الثغور قد تشوفوا الخلاف فاحضر وزراءه فاطلعهم على ما بلغه وقال لهم دمشق ملككما قد استولى عليها عمرو بن سعيد وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن ومصر وخرسان وهذا النعمان بن بشير أمير حمص وزفر بن الحرث أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة وبايعا الناس لابن الزبير وهذه المضربة بسيوفها اقطابنا بقتلى المرج فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم فقال لهم عبد الملك مالكم لا تنطقون هذا وقت الحاجة اليكم فقال أفضلهم وددت أن أكون طيرا على عود من أعواد تهامة حتى تنقضي هذه الفتن فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام وأمرهم بلزوم مواضعهم وركب منفردا وأمر جماعة من شجعانه أن يتبعوه متباعدين ففعلوا وسار عبد الملك حتى انتهى الى شيخ ضعيف البدن سيئ الحال وهو يجمع سماقا فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديثه ثم قال له أيها الشيخ الك علم بنزول هذا العسكر فقال الشيخ وما سؤالك عنه فقال عبد الملك اني أردت الانتظام في سلكه فقال له اني أرى عليك سمة الرياسة فينبغي لك ان تصرف نفسك عن هذا الرأي فان الامير الذي أنت قاصده قد انحلت عرا ملكه والسلطان في اضطراب أموره كالبحر اذا هاج فقال عبد الملك أيها الشيخ قد قوي على جذب نفسي الى صحبة هذا الامير فهل لك ان ترشدني الى رأي اتقي به عنده فلعله يكون سبب قربي منه فقال الشيخ ان هذه النازلة التي نزلت بهذا الامير من النوازل التي لا تنفذ فيها العقول واني لاكره ان اردمس شملك بالخيبة فقال له عبد الملك قل جزاك الله خيرا فقال الشيخ ان هذا الخليفة خرج الى قتال عدوه والارادة غير قابلة لمراده والدليل على ذلك ان الله تعالى لم يرد ما قصده من محاربة ابن الزبير ووثوب عمرو بن سعيد على منبره واستيلائه على بيوت أمواله وسريرخلافته فاذا قصدت هذا الامير وانتظمت في سلكه انظر في أمره فان رأيته قد أصر على قصده ابن الزبير فاعلم انه مخذول فاجتنبه وان رأيته قد رجع من حيث جاء وترك قصده الاول فارج له النصر والسلامة فقال عبد الملك يا شيخ وهل رجوعه الى دمشق الا كمسيره الى ابن الزبير فقال الشيخ ان الذي اشكل عليك لواضح وها أنا أزيل عنك اللبس وهو ان عبد الملك اذا قصد ابن الزبير كان في صورة ظالم لان ابن الزبير لم يعطه طاعة قط ولا وثب له على مملكة فاذا قصد ابن سعيد كان في صورة مظلوم لانه نكث بيعته وخان أمانته ووثب على دار ملك لم يكن له ولا لابيه من قبله بل كانت لعبد الملك

ولابيه من قبله وعمرو عليهما متعدّ ومن الامثال سمين الغصب مهزول ووالى الغدر معزول وسأضرب لك مثلا يشفي النفس ويزيل اللبس زعموا ان ثعلبا كان يسمى ظالما وكان له جحر يأوي اليه وكان معتبطا به فخرج يوما يبتغي ما يأكل ثم رجع فوجد فيه حية فانتظر خروجها فلم تخرج فعلم انها استوطنته وذلك ان الحية لا تتخذ جحرا بل اذا أعجبها جحر اغتصبته وطردت من به من الحيوان ولهذا قيل فلان أظلم من حية فهذا ظلمها ولما رأى ظالم ان الحية قد استوطنت جحره ولم يمكنه السكون معها ذهب يطلب لنفسه مأوى فانتهى به السير الى جحر حسن الظاهر حصين في أرض منيعة ذات أشجار ملتفة وماء معين فاعجبه وسأل عنه فقالوا هذا الجحر يملكه ثعلب اسمه مفوض وابه ورثه عن أبيه فناداه ظالم فخرج اليه ورحب به وادخله الى جحره وسأله عن حاله فقص عليه خبره مع الحية فرق له مفوض وقال له الموت في طلب الثار خير من الحياة في العار والرأي عندي ان تنطلق معي الى مأواك الذي أخذ منك غصبا حتى انظر اليه فلعلي اهتدي الى مكيدة تخلص بها مأواك فانطلقا معا الى ذلك الجحر فتأمله مفوض وقال لظالم ادهب معي وبت الليلة عندي لانظر ليلتي هذه فيما يصح من الرأي والمكيدة ففعلا ذلك وبات مفوض مفكرا وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض فراى من سعته وطيب هوائه وحصانته ما شتد به حرصه عليه وطفق يدبر الحيلة في اغتصابه ونفي مفوض عنه فلما أصبحا قال مفوض لظالم اني رأيت ذلك الجحر بعيدا من الشجر والماء فاصرف نفسك عنه وهلم اعينك على احتفار جحر في هذا المكان المشتهى فقال ظالم هذا غير ممكن لان لي نفسا تهلك لبعد الوطن حنينا فلما سمع مفوض مقالة ظالم وما تظاهر به من الرغبة في وطنه قال له اني أرى أن نذهب يومنا هذا فنحتطب حطبا ونربط منه حزمتين فاذا جاء الليل انطلقنا الى بعض هذه الخيام فأخذنا قبس نار واحتملنا الحطب والقبس الى مسكنك فنجعل الحزمتين في بابه ونضرم النار فان خرجت الحية احترقت وان لزمت الجحر قتلها الدخان فقال له ظالم هذا نعم الرأي فذهبا واحتطبا حزمتين ولما جاء الليل انطلق مفوض الى ظاهر تلك الخيام فأخذ قبسا فعمد ظالم الى احدى الحزمتين فأزالها الى موضع غيبها فيه ثم جر الحزمة الاخرى الى باب مسكن مفوض فسده بها سدا محكما وقدر في نفسه ان مفوضا اذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول اليه لحصانته فاذا يئس منه ذهب فنظر لنفسه مأوى وكان ظالم قد رأى في منزل مفوض طعاما ادّخره لنفسه فعول ظالم على أنه يقتات به ان حاصره مفوض وهو من داخل وأذهله الشره والحرص عن فساد هذا الرأي ثم ان مفوضا جاء بالقبس فلم يجد ظالما ولا وجد الحطب فظن ان ظالما قد حمل الحزمتين تخفيفا عنه وانه سبقه الى مسكنه الذي فيه الحية اشفاقا على مفوض فشق ذلك عليه وظهر له من الرأي ان يبادر اليه ويلحقه ليحمل معه الحطب فوضع القبس بالقرب من الحطب ولم يشعر ان الباب مسدود به لشدة الظلمة فما أبعد عن الباب الا وضوء النار وشدة الدخان قد لحقا به فعاد وتأمل الباب فرأى الحطب قد صار نارا فعلم مكيدة ظالم ورآه قد احترق من داخل الجحر وحاق به مكره فقال هذا الباحث على حتفه بظلفه ثم ان مفوضا صبر حتى انطفأت النار فدخل جحره فأخرج جثة ظالم فألقاها واستوطن جحره آمنا فهذا المثل ضربته لك لانه ملائم لفعل عمرو بن سعيد في بغيه ومخادعته عبد الملك وحيلته في أخذ ارملكه

وتخفيفها منه وهذا فعل لما ألم مع مفوض والله أعلم فلما سمع عبد الملك حكمة الشيخ في ضرب
أمثاله سر بذلك سرورا عظيما ثم أقبل عليه فقال جزيت عني خيرا واني أريد أن تجعل بيني
وبينك موعدا وتعرفني مكانك لالقاك به بعد يومي هذا فقال الشيخ وما تريد بذلك فقال له
عبد الملك اني أريد مكافأتك على ما كان منك فقال له الشيخ اني أعطيت الله عهدا أن
لا أقبل منة لبخيل فقال عبد الملك ومن أين علمت اني بخيل فقال لانك اخرت صلتي مع القدرة
لما عليك لو وصلتني ببعض ما عليك فقال عبد الملك أقسم بالله لقد ذهلت ثم نزع سيفه وقال له
اقبل مني هذا واحترص عليه فقيمته عشرون ألف درهم فقال الشيخ اني لا اقبل صلة ذاهل
فدعني وربي الذي لا يذهل ولا يبخل فهو حسبي فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عظم في عينه
وعلم فضله في دينه فقال له انا عبد الملك فارفع حوائجك الي فقال الشيخ وأنا أيضا عبد الملك
فهلم نرفع حوائجنا الى من أنا وانت له عبدان فانطلق عبد الملك وعمل برأي الشيخ فانجح الله
قصده وانتصر على اعدائه فلما سمع الوليد ما اخبره به الكهل استرجح عقله واستظرف
أدبه واستحسن محاضرته وسأله عن نفسه فتسمى له وانتسب فلم يعرفه الوليد فاستحى منه وقال له
من جهل مثلك في رعيته ضاع فقال له الكهل يا أمير المؤمنين ان الملوك لا تعرف الا من
تعرف اليها ولزم أبوابها فقال له الوليد صدقت ثم أمر له بصدقة معجلة وعهد اليه في
ملازمته فكان يتمتع بأدبه وحكمته الى ان كان من أمر الوليد ما هو مشهور والله أعلم (ومما
تخبر به من عجائب سلوان المطاع) قيل لما عزم سابور بن هرمز على الدخول الى بلاد الروم
متنكرا نهاه نصحاؤه وعقلاء وزرائه وحذروه من ذلك فعصاهم وكان يقال اوزر الناس
وزراء الاحداث من الملوك وعشاق القينات من المشايخ فان سابور توجه نحو بلاد الروم
واستصحب وزيرا كان له ولابيه من قبله وكان من ادهى الناس في الحزم وسداد الرأي
واختلاف الاديان ولغاتها وكان من المتبحرين في العلوم والمبرزين بالمكائد فسلم اليه سابور
جميع ما يحتاج اليه في سفره وأمره أن لا يتجاوز في السير ولا يبعد عنه بحيث يراعي جميع
أحواله في ليله ونهاره فتوجها نحو الشام ولبس ذلك الوزير زي الرهبان وتكلم بلسانهم وتحرف
بصناعة الطب الجرائحي وكان معه الدهن الصيني الذي اذا دهنت به الجراحات ختمت بسرعة
واندملت فكان ذلك الوزير في مسيره نحو بلاد الروم يداوي الجراحات بادوية يضيف اليها يسيرا
من ذلك الدهن فتبرأ بسرعة واذا عني باحد من ذوي الاقدار داواه بذلك الدهن صرفا فيبرأ على
الفور ولا يأخذ على ذلك أجرة فانتشر ذكره في بلاد الروم وعقدت عليه الخناصر واقبل عليه
الناس وكان مع انفراده مع سابور يراعي جميع أحواله فلم يزالا كذلك حتى طافا جميع الشام
وقصدا القسطنطينية فقصداها فذهب الوزير الى البطرك وتفسير هذا الاسم أبو الآباء
فاستأذن عليه فاذن له وسأله عن قصده فاخبره انه هاجر اليه ليتشرف بخدمته ويدخل
في اتباعه ثم اهدى اليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك فقربه واكرمه واحسن نزله
وألحقه بطانته واختبره فوجده عالما بدينهم بل مبرزا فاعجب به غاية الاعجاب وجعل الوزير
يتأمل أحوال البطرك ليعجبه بما يلائمه ويتفق عنده ويسده ما تلائم الفكاهات معجبا بنوادر
الاخبار وكان الوزير في ذلك غاية فاخذ يتحفه بكل نادرة غريبة وتحفة عجيبة فصار البطرك

لم يعط عن الوزير صبر الا انه حلا اعينه وحل بقلبه وجعل الوزير مع ذلك يعالج الجراحات ولا يأخذ
على ذلك عوضا فعظم قدره في الناس هذا وهو يتعاهد احوال سابور في كل وقت الى ان صنع
قيصر وليمة وحضر الناس اليها على طبقاتهم فاراد سابور حضورها ليطلع على أحوال قيصر
وعلى رتبته في قصره وعظم وليمته فنهاه وزيره عن ذلك فعصاه وتزيا بزي ظن انه يستتر به ودخل
دار قيصر مع من حضر الوليمة وكان قيصر من شدة احتراسه من سابور وخيفته من ان يطرق
بلاده وتحسن له همته العالية وحدة الشبيبة ذلك صور سابور في مجلسه وعلى ستور بيته وعلى
فرشه وفي آلاته كله وشربه ولما دخل سابور يوم الوليمة واستقر في مجلسه وا كل مع من حضر
أتوا بالشراب في كوس البلور والذهب والفضة والزجاج المحكم وكان في المجلس رجل من
حكماء الروم ودهاتهم فلما وقعت عينه على سابور أنكره وجعل يتأمل شخصه فرأى عليه
مخايل الرياسة ولما زاد في تأمله وصل اليه دور الكاس فتأمل الصورة التي على الكاس وراجع
النظر في سابور فما شك ان الصورة التي على الكاس وضعت على مثاله وغلب على ظنه انه
سابور فامسك الكاس في يده امساكا طويلا ثم قال رافعا صوته ان هذه الصورة التي على هذا
الكاس تخبرني اخبارا عجيبا فقيل له وما الذي تخبرك فقال تخبرني ان الذي هي مثال له معنا
في مجلسنا هذا ثم نظر الى سابور وقد تغير لونه حين سمع مقالته فحقق ظنه فبلغ ذلك قيصر فادناه
وقربه وسأله فاخبره ان سابور معه في مجلسه واشار اليه فامر قيصر بالقبض عليه وقرب من قيصر
فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلل لم تقبل فقال ذلك المتفرس أيها الملك لا تقبل قوله
فانه سابور لا محالة فهدده قيصر بالقتل فاعترف انه سابور فحبسه قيصر مكرما وأمر ان يعمل له
من جلود البقر صورة بقرة وتطبق عليها الجلود سبع طبقات ويتخذ لها باب وتجعل لها كوة
لاجل المال ويستقر سابور بها وتجمع يداه الى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة تمكنه
معها تناول ما يعمل له من طعام وشراب وغير ذلك فلما دخل سابور جوف تلك الصورة جمع
قيصر جنوده واستعد الغزو لاد فارس ووكل بسابور وهو داخل البقرة مائة رجل من ذوي
الباس والشدة يحملونها وصرف أمره الى المطران وهو خليفة البطرك فكانت تلك الصورة
تحمل بين يديه فاذا نزل العسكر نزلت الصورة التي فيها سابور وسط العسكر وضربت عليها قبة
وتضرب للمطران قبة مجاورة لقبة سابور وسار قيصر محتفلا بجنوده وعساكره وقد عزم على
خراب بلاد فارس ولما جد السير قال وزير سابور للبطرك أيها الاب انما استفدت بخدمتك الرغبة
في مصالح الاعمال ولا عمل أصلح من تنفيس كربة عن مجهود وجر منفعة الى مضطر وقد علمت
اجتهادي في مداواة الجرحى وان نفسي تنازعني الى صحبة الملك قيصر في سفره هذا الاغر فلعل
الله تعالى يستنقذ بي نفسا صالحة أو يسوقني الى مداواة جريح من العسكر ليتقدس قلبي بهذه
المثوبات فكره البطرك ذلك وقال له قد علمت انني لا استطيع فراقك فكيف تطالبني بالسفر
البعيد قال فلم يزل وزير سابور يتضرع الى البطرك الى ان استحى منه وسمح له بذلك وزوده
وكتب معه الى المطران يخبره برتبته عنده وانه يحله في أعلى المراتب ويستضيء برأيه اذا أشكل
عليه أمر فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله في قبته وجعل زمام أمره ونهيه
بيده وصار الوزير يستميله بما يميل اليه ويطرفه في كل ليلة بطرف الاخبار رافعا صوته ليسمع

سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس فى أحاديثه ما يريد أن يعلمه به ويبطنه من الاسرار فكان
سابور يجد بذلك راحة عظيمة وكان الوزير قد أعد لخلاص سابور أنواعا من المكايد رتبها عند
ما قدم على المطران منها انه امتنع عن مؤاكلة المطران وأخبره انه لا يخالط بطعام البطرك
غيره لاجل بركته فكان اذا احضر طعام المطران أخرج هو ذلك الزاد الذى معه وانفرد بالاكل
وحده فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ أرض فارس فاكثر فيها القتل والسبى وتغوير المياه
وقطع الاشجار وخراب القرى والحصون وهو مع ذلك يواصل السير ليستولى على دار ملك سابور
قبل ان يشعروا فيمسكوا عليهم رجلا منهم ولم يكن للفرس همم الا الفرار من بين يديه
والاعتصام بالمعاقل والحصون فلم يزل قيصر على تلك الحال حتى بلغ مدينة سابور وقرار ملكه
فأحاط بها ونصب عليها آلات الحصار ولم يكن عندها قوة ولا منعة فى دفعه أكثر من ضبط
الاسوار والقتال عليها وكل ذلك فهمه سابور من كنايات الوزير فى محاضراته للمطران ولكن
لم يسمع له كلمة من حين سجنه قيصر فى تلك الصورة فلما علم سابور ان قيصر قد ثقلت وطأته وأشرف
على فتح البلد عيل صبره وساء ظنه ويئس من الحياة فلما جاءه الموكل بطعامه قال له ان هذه
الجامعة قد نالت منى منالا ضعفت قوتى عن احتماله فان كنتم تريدون بقاء نفسى فنفسوا عنى منها
واجعلوا بينها وبين يدى وعنقى خرقا من الحرير فجاء الموكل بالطعام الى المطران واعلمه بالذى
قاله سابور فسمعه الوزير وعلم ان سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما أراد سابور فلما جن الليل
وجلس لمسامرة المطران قال له قد ذكرت الليلة حديثا عجيبا اذكرته منذ كذا وكذا وددت
انى كنت حدثت به البطرك قبل سفرى فقال له المطران انى أرغب اليك ان تحدثنى الليلة
أيها الراهب الحكيم فقال الوزير حبا وكرامة ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور ويفهم
الغرض ويستأنس فقال اعلم أيها المطران انه كان ببلاد ناتى وفتاة ليس فى زمانهما احسن
منهما اسم الفتى عين أهله واسم الفتاة سيدة الناس وكانا وجين مؤتلفين لا ينفى أحدهما
بالآخر بدلا ثم ان عين أهله جلس يوما مع أصحابه فتذاكروا النساء الى أن ذكر أحدهم امرأة
أطنب فى وصفها وبالغ وذكر ان اسمها سيدة الذهب فوقع فى قلب عين أهله حبها فسأل الواصف
عن منزلها فذكر انها ببلد بالقرب من بلده ففكر عين أهله فى أمرها وخامره حبها فانطلق الى
البلد التى هى ساكنة بها وسأل عن منزلها فعرفه ولم يزل يتردد اليها حتى رآها فرأى منظرا
حسنا ولكن لم تكن بأحسن من امرأته بل ضرورات النفس حب التنقل فى الاحوال ولازم
عين أهله المعاودة الى منزل سيدة الذهب حتى فطن له بعلها وكان جافيا غليظ الطبع شديد
البطش يسمى الذئب فرصد عين أهله حتى مر به فلما رآه وثب عليه وقتل فرسه وخرق ثيابه
واستعان بجماعته عليه فاحتملوه الى داخل دار الذئب ورفعوه الى سار بتى الدار ووكل به
عجوزا مقطوعة اليد جدعاء عوراء شوهاء فلما جن عليه الليل وقدت تلك العجوز النار بالقرب
منه وجعلت تصطلى فذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والعافية والرفاهية والعز فبكى
بكاء شديدا فاقبلت عليه العجوز وقالت له ما ذنبك الذى أوجب هذا فقال عين أهله ما علمت لى
ذنبا فقالت العجوز هكذا قال الفرس للخنزير وكذب فقال عين أهله للعجوز وما الذى كذب

وقصدت به المدينة فلما بلغت هذا الموضع ظهر لى انى مخطئ فى ادخال هذا الظبى الى المدينة حيا
لعلمى انه اذا رؤى حيا طولبت بما كان عليه من الحلى فرأيت ان أذبحه وادخل به لحما فهذا
خبرى فقال له التاجر لقد جنى عليك طمعك الخيبة لماذا ابلك لو أطلقته وحصلت ما كان
عليه من الحلى ثم ان التاجر أرسل الغزال الى ولده مع أحد عبيده وقال للصياد ارجع معى فارنى
الجهة التى رأيت الخشف سعى نحوها فرجع به الى تلك الجهة فسمع من قريب صوته فصاح به
التاجر فعرف الخشف صوته فصوت فسمع التاجر الصوت فادركه فاذا هو فى ذلك الاخدود ملقى
فاخذوه ووهب التاجر للصياد ما رضى به وصرفه ورجع التاجر بالخشف الى ولده فكملت
مسرة الغلام وجعل الخشف يتجنب الغزال الكبير اذا رآه ولا يألفه فتنغصت مسرة الغلام
لذلك وجهد أهله بكل حيلة ان يجمعوا بين الخشف والغزال فلم يقدروا على ذلك فبينما الخشف
نائم فى كناسه اذ دخل عليه الغزال فايقظه وعاتبه على نفاره منه فقال الخشف اما أنت الذى
غدرت وقد علمت احتياجى فى غربتى الى معاونتك فقال له والله ما اخرنى عن ذلك الا وقوعى فى
شرك الصياد وقص عليه القصة فقبل عذره وعادا الى الالفة كما كانا فلما سمع عين أهله خطاب
العجوز وبهم كنايتها عن عجزها فى تخليصه امسك عن خطابها قيل فلما انتهى وزير سابور من
حديثه الى هذا الحديث سكت فقال له المطران ايها الحكيم الراهب ما هذا السكوت فقال
الوزير قد عاودنى ذلك الفتور الذى اجده فى أعضائى فقال المطران لا تفعل فان ذلك يشق على
فقال الوزير نعم افعل ذلك طلبا لمرضاتك ثم اندفع يحدثه قال وبات عين أهله تلك الليلة فى اضيق
الاحوال ولما أصبح دخل عليه الذئب فنال منه وهدده بالقتل وخرج من عنده فجعل يعلل
نفسه بقية نهاره ويمنيها بالفرج فلما أقبل عليه الليل استوحش وانتظر ان تجلس اليه العجوز
وتحادثه فلم تفعل فايقن بقتله فى تلك الليلة فاقبل على البكاء حتى مضى جانب من الليل ثم قال
للعجوز لم احظ فى هذه الليلة بمؤانستك فقالت له قد جرحت قلبى بقولك لى هان على الطليق ما لقى
الاسير ولو اعتبرت باطن حالى لعلمت أن اسرى اشد من اسرك فاستمع لى احدثك (اعلم ايها
الفتى) انى كنت زوجة لبعض الفرسان وكان لى محبا فكنت معه فى أرغد عيش وولدت له أولادا
كثيرة فغضب الملك على زوجى لامر كان منه فقتله وقتل أولادى الذكور وباعنى انا وبناتى
فاشترانى هذا الفارس الذى غدا عليك واحتملنى الى هذه البلدة وأساء الى وكلفنى من العمل
ما لا أطيق ولى معه على هذه الحالة سبع سنين ثم فررت منه فظفر بى فقطع يدى وعاود عسفى
ومضرتى وقد عزمت على تخليصك الليلة وما أشك أنه يقتلنى وجل قصدى ذلك لاجل الراحة مما
أنا فيه ولاجل ذلك انا اكثر الدخول والخروج اليك وأنا فى غاية الحيرة من الفزع والجزع ثم انها
فتحت قيود عين أهله وقطعت وثاقه ونومتنا واتت سكينا لتقتل نفسها فقال لها عين أهله ان تركتك
تقتلين نفسك فقد شاركتك فى دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومى اذهبى معى لكى ننجو
معا أو نعطب معا فقالت ان كبر سنى وضعف بصرى يمنعانى من اتباعك فقال لها عين أهله ان
الليل متسع والموضع الذى أنا فيه قريب ولى قوة على حملك فقالت له العجوز اذ عزمت على هذ
فانى لا احوجك الى حملى وخرجا معا فلم ينقض الليل حتى بلغا حيث أمنا فجزاها عين اهله خيرا

على

على ماصنعت واتخذها امافهذا ما بلغني من ذلك فقال المطران ما أعجب احاديثك أيها الحكيم ولقد وددت انى لا افارقك أبدا ونهض كل واحد منهما الى مضجعه وبات سابور يتصفح حديث وزيره و يتأمل أمثاله ففهم أن الخشف مثل لسابور وأن الغزال الكبير مثل للوزير وأن خروج الخشف مع الغزال الى الصحراء وحصول الخشف فى الاخدود مثل لصحبة سابور ووزيره حتى حصل سابور فى حبس قيصر وأن نفار الخشف عن الغزال لسوء ظن سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه وتحقق أن الوزير قد عزم على خلاصه والخروج به الى المدينة ليلا وأن المدينة قريبة منهما وأنه يحمله ان عجز عن المشي فأيقن سابور بالفرج ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التي يطبخ بها الطعام للمطران و بها الموكلون بقبة سابور ثم ينتظرون الطعام فتحيل الى أن ألقى فى الطعام مرقدا قوى الفعل ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ماجرت به العادة فلم تكن الا ساعة حتى صرع القوم فبادر الوزير الى فتح باب البقرة واستخراج سيده وأزال الجامعة عن عنقه ويديه وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر وقصد به المدينة فانتهيا معا الى سورها فصرخ بهم الموكلون فتقدم الوزير اليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وأعلمهم بسلامة الملك ثم عرفهم نفسه فابتدروا اليهما وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح وأمرهم أن يأخذوا أهبتهم فاذا ضربت نواقيس النصارى الضرب الاول يخرجون من المدينة ويفترقون على عسكر الروم فاذا ضربت النواقيس الضرب الثاني يحملون بأجمعهم فامتثلوا أمره ثم ان سابور انتخب كتيبة عظيمة فيها شجعان أساورته ووقف معهم مما يلى الجهة التي فيها أخبية قيصر فلما ضربت النواقيس الضرب الثاني حملوا من كل جهة وقصد سابور أخبية قيصر ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وسد أبوابهم فما شعروا حتى دهموهم وأخذ سابور قيصر أسيرا وغنم جميع ما فى عسكره واحتوى على جميع خزائنه ولم ينج من جنوده الا اليسير ثم عاد سابور الى مدينته ودار مملكته فقسم تلك الغنائم بين أهل عسكره وأحسن الى حفظة ملكه وفوض جميع أموره الى الوزير ثم انه أحضر قيصر فلاطفه وأكرمه وقال له انى مبق عليك كما أبقيت على وغير مجازلك على التضييق ولكن آخذك باصلاح ما أفسدت من جميع ملكي فتبني ماهدمت وتغرس جميع ما قلعت وتطلق كل ما عندك من أسارى الفرس فضمن له جميع ذلك ووفى به فلما تم لسابور ما أراد من ذلك كله أحسن الى قيصر وأطلقه وجهزه الى دار ملكه واستمر قيصر على مهادنته والانقياد الى طاعته انتهى

(ومن لطائف المنقول قصة أرينب بنت اسحق زوج عبد الله بن سلام) كان عبد الله ابن سلام واليا بالعراق من قبل معاوية وكانت أرينب بنت اسحق زوجاله وهي من اجمل نساء عصرها وأحسنهن ادبا وأكثرهن مالا وكان يزيد بن معاوية قد هام بجمالها وادبها على السماع وبما بلغه عنها من حسن الخلق والخلق وفتن بها فلما عيل صبره خص بسره خصيصا بمعاوية اسمه رفيق فذكر ذلك رفيق لمعاوية وذكر شدة شغف يزيد بها فبعث معاوية الى يزيد فاستفسره عن أمره فبث له شأنه فقال معاوية مهلا يا يزيد قال علام تأمرني بالمهل وقد انقطع

منها الامل فقال معاوية وأين جالك ومروءتك فقال له يزيد قد عيل الحبي ونفد الصبر قال له
يابني ساعدني على امرك بالكتمان والله بالغ أمره وكانت ارينب بنت اسحق قد سارت بذكر
جمالها الركبان وضربت بها الامثال فاخذ معاوية في الحيلة حتى يبلغ يزيد رضاه وينال غرضه
ومناه فكتب الى عبد الله بن سلام يستحثه على الحضور لصلحة عينها له وكان عند معاوية يومئذ
بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قدم عليه عبد الله بن
سلام الشام أعد له معاوية منزلا حسنا ونقل اليه وبالغ في اكرامه ثم قال لابي هريرة وأبي
الدرداء ان ابنتي قد بلغت وأريد انكاحها وقد رضيت عبد الله بن سلام لدينه وشرفه وفضله
وادبه وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى ولكن ارجو ان لا تخرج عن رأيي ان شاء الله تعالى
فخرجا من عنده متوجهين الى منزل عبد الله بن سلام بالذي قال لهما معاوية ثم دخل معاوية
على ابنته فقال لها اذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك عبد الله بن سلام
وانكاحا بالثمنه وحضا على المسارعة الى رضائي فقولي لهما عبد الله بن سلام كفء كريم
غير ان تحته أرينب بنت اسحق وأنا خائفة ان يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ولست
بفاعلة حتى يفارقها وأما أبو الدرداء وأبو هريرة فانهما لما وصلا الى عبد الله بن سلام اعلماه بما
قال لهما معاوية فردهما خاطبين عنه فلما مثلا بين يدي معاوية قال اني كنت اعلمتكما انني
جعلت لها في نفسها شورى فادخلا عليها واعلماها بما رأيتما فدخلا عليها واعلماها
بذلك فابدت ما قرره أبوها عندها من قبل فعادا الى عبد الله بن سلام فأعلماه بذلك ففهم المراد
واشهدهما عليه بطلاق ارينب وبعثهما اليه خاطبين فلما دخلا على معاوية أعلماه بطلاق
أرينب فاظهر معاوية كراهية ذلك وقال ما استحسنت طلاق زوجته ولا أحببته فانصرفا
في عافية وعودا الينا وكتب الى ابنه يزيد يعلمه بما كان من طلاق عبد الله بن سلام لارينب بنت
اسحق وغاد بعد ذلك أبو الدرداء وأبو هريرة الى معاوية فامرهما بالدخول على ابنته وسؤالها
عن رضاها وهو يقول لم يكن لي ان اكرهها وقد جعلت الشورى في نفسها فدخلا عليها
واعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسراها بذلك وذكرا فضله وشرفه وكرمه ومروءته
فقالت جف القلم بما هو كائن ولا أنكر شرفه وفضله واني سائلة عنه حتى أعرف دخيلة
خبره ولا قوة الا بالله

فان يك صدر هذا اليوم ولى * فان غدا لناظره قريب

ثم تزايد حديث الناس بطلاق أرينب وخطبة ابنة معاوية واستحث عبد الله أبا الدرداء وأبا
هريرة فاتياها فقالا لها اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله فقالت ارجو والحمد لله ان يكون
الله قد اختار لي فانه لا يكل الى غيره وقد سبرت امره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق
لما أريد لنفسي مع اختلاف من استشرته فيه فمنهم الناهي عنه والآمر به فلما بلغه كلامها علم
انها حيلة وانه مخدوع وقال متعزيا ليس لامر الله راد ولعل ما سروا به لا يدوم لهم سروره (قال)
وذاع أمره وفشا في الناس وقالوا خدعه معاوية حتى طلق امرأته لغرض ابنه بئس ما صنع ثم
ان معاوية بعد انقضاء أيامها المعلومة وجه أبا الدرداء الى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد

فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما فقال أبو الدرداء اذ
قدم العراق ماينبغى لذى عقل ان يبدأ بشئ قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة اذا دخل
موضعا هو فيه فقصد الحسين رضى الله عنه فلما رآه قام اليه وصافحه اجلالا لصحبته لجده صلى
الله عليه وسلم وقال ما أتى بك يا أبا الدرداء قال وجهنى معاوية خاطبا على ابنه يزيد أرينب بنت
اسحق فرأيت على حقا ان لا أبدأ بشئ قبل السلام عليك فشكره الحسين على ذلك واثنى عليه
وقال لقد كنت ذكرت نكاحها واردت الارسال اليها اذا انقضت عدتها وقد أتى الله بك
فاخطب على بركة الله على وعليه وهى أمانة فى عنقك واعطها من المهر مثل مابذل لها معاوية
عن ابنه فقال أفعل ان شاء الله فلما دخل عليها قال أيتها المرأة ان الله خلق الامور بقدرته
وكونها بعزته وجعل لكل أمر قدرا ولكل قدر سببا فليس لاحد عن قدر الله مخلص فكان
ماسبق لك وقدر عليك من فراق عبد الله بن سلام على غير قياس ولعل ذلك لا يضرك ويجعل
الله فيه خيرا كثيرا وقد خطبك أمير هذه الامة وابن ملكها وولى عهده والخليفة من بعده
يزيد بن معاوية والحسين بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أول من آمن به من أمته وسيد
شباب أهل الجنة فاختارى ايهما شئت فسكتت طويلا ثم قالت يا أبا الدرداء لو جاءنى هذا
الامر وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل اليك واتبعت فيه رأيك فأما اذا كنت أنت المرسل
فيه فقد فوضت أمرى فيه بعد الله اليك وجعلته فى يديك فاختر لى ارضاهما اليك والله شاهد
عليك فاقض ولا يصدنك عن ذلك اتباع الهوى فليس أمرهما عليك خفيا فقال أبو الدرداء
أيتها المرأة انما على اعلامك ولك الاختيار لنفسك فقالت عفا الله عنك انما أنا بنت أخيك
ولا يمنعك أحد من قول الحق فيما طوقتك به فقد وجب عليك أداء الامانة فلم يجد بدا من القول
فقال يا بنية ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الى فى ذلك وأرضى عندى والله أعلم
وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعا شفتيه على شفتى الحسين فضعى شفتيك حيث
وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم شفتيه قالت قد اخترته ورضيته فتزوجها الحسين بن على
عليهما السلام فساق لها مهرا عظيما وبلغ معاوية مافعله أبو الدرداء فعظم عليه وقال من
يرسل ذا بله وعمى ركب خلاف مايهوى وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه اياها
ذهبا وكان معاوية قد اطرحه وقطع عنه جميع روادفه لقوله انه خدعه حتى طلق امرأته فلم يزل
يجفوه حتى قل ما بيده فرجع الى العراق فلما قدمها لقى الحسين فسلم عليه ثم قال لقد علمت ما كان
من خبرى وخبر أرينب وكنت قبل فراقى اياها استودعتها مالا وكان الذى كان ولم أقبضه ووالله
ان ظنى بها جميل فذاكرها فى أمرى فان الله يجزيك به أجرك فسكت عنه فلما انصرف الى
أهله قال لها قدم عبد الله بن سلام وهو كثير الثناء عليك فى دينك وحسن صحبتك فسرنى ذلك
واعجبنى وذكر أنه استودعك مالا فقالت صدق استودعنى مالا لا أدرى لمن هو وانه لمطبوع عليه
بخاتمه وها هو ذا فادفعه اليه بطابعه فأثنى عليها الحسين خيرا وقال الا أدخله عليك حتى تبرئى
منه ثم لقى عبد الله فقال ما أنكرت مالك وزعمت انه كما دفعته اليها بطابعك فادخل يا هذا
اليها واستوف مالك منها بحيث تحصل البراءة من الطرفين فلما دخل عليها قال لها الحسين

هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته فاخرجت اليه البدر فوضعها بين يديه وقالت له هذا مالك فشكر واثنى فخرج الحسين عنهما وفض عبد الله ختم بدره وحثا لها من ذلك جانبا كبيرا وقال لها والله هذا قليل مني فاستعبرا حتى علت أصواتهما بالبكاء على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما ثم قال أشهد الله انها طالق ثلاثا اللهم أنت تعلم انني لم استنكحها رغبة في مالها ولا في جمالها ولكني أردت احلالها لزوجها فطلقها ولم يأخذ شيئا مما ساق لها في مهرها بعدما عرضته عليه وقال الذي أرجوه من الثواب خير لي فلما انقضت مدتها تزوجها عبد الله بن سلام وعادا على ما كانا عليه من حسن الصحبة الى أن فرق الموت بينهما هكذا نقله ابن بدرون في تاريخه والله أعلم (ومن غرائب المنقول وعجائبه) عن الامير بدر الدين أبي المحاسن يوسف المهمندار المعروف بمهمندار العرب انه قال حكى لي الامير شجاع الدين محمد الشيرازي متولي القاهرة في الايام الكاملية سنة ثلاث وستمائة قال بتنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد فأكرمنا وكان الرجل شديد السمرة وهو شيخ كبير فحضر له أولاد بيض الوجوه حسان الاشكال فقلنا له هؤلاء أولادك فقال نعم وكأني بكم وقد أنكرتم بياضهم وسوادي فقلنا له نعم قال هؤلاء أمهم افرنجية أخذتها في أيام الملك الناصر صلاح الدين وانا شاب فقلنا وكيف أخذتها قال حديثي بها عجيب فلنا اتحفنا به قال زرعت كتانا في هذه البلدة وقلعته ونفضته فانصرف عليه خمسمائة دينار ولم يبلغ الثمن الى أكثر من ذلك فحملته الى القاهرة فلم يصل الى اكثر من ذلك فأشير على بحمله الى الشام فحملته فما زاد على تلك القيمة شيئا فوصلت به الى عكا فبعت بعضه بالاجل والبعض تركته عندي واكتريت حانوتا أبيع فيه على مهلي الى حيث انقضاء المدة فبينما أنا أبيع اذ مرت بي امرأة افرنجية ونساء الافرنج يمشون في الاسواق بلا نقاب فأتت تشتري مني كتانا فرأيت من جمالها ما بهرني فبعتها وسامحتها ثم انصرفت وعادت الي بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من المرة الاولى فتكررت الي وعلمت اني أحبها فقلت للعجوز التي معها انني قد تلفت بحبها وأريد منك الحيلة فقالت لها ذلك فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو فقلت لها قد سمحت بروحي في حبها واتفق الحال على ان أدفع خمسين دينارا صورية فوزنتها وسلمتها العجوز فقالت نحن الليلة عندك فمضيت وجهزت ماقدرت عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلواء فجاءت الافرنجية فاكلنا وشربنا وجن الليل ولم يبق غير النوم فقلت في نفسي اما تستحي من الله وأنت غريب تعصي الله مع نصرانية اللهم اني اشهدك اني قد عففت عنها في هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ثم نمت الى الصبح فنامت الى الصبح وقامت في السحر وهي غضبى ومضت ومضيت انا الى حانوتي فجلست فيه واذا هي قد عبرت علي وهي والعجوز وهي مغضبة وكانها القمر فهلكت فقلت في نفسي من هو أنت حتى تترك هذه البارعة في حسنها ثم لحقت العجوز وقلت ارجعي فقالت وحق المسيح ما ارجع اليك الا بمائة دينار فقلت نعم رضيت فوزنت مائة دينار فلما حضرت الجارية عندي لحقتني الفكرة الاولى وعففت عنها وتركتها حياء من الله تعالى ثم مضت ومضيت الى موضعي ثم عبرت بعد ذلك علي وكانت مستعبرة به فقالت وحق المسيح ما بقيت تفرح بي عندك الا بخمسمائة دينار أو

ثوب مجد افارنعت لذلك وعزمت انى أصرف عليها ثمن الكتان جميعه فبينما انا كذلك
والمنادى ينادى معاشر المسلمين ان الهدنة التى بيننا و بينكم قد انقضت وقد أمهلنا من هنا
من المسلمين الى جمعة فانقطعت عنى وأخذت أنا فى تحصيل ثمن الكتان الذى لى والمصالحة على
ما بقى منه وأخذت معى بضاعة حسنة وخرجت من عكا وفى قلبى من الافرنجية ما فيه فوصلت
الى دمشق وبعت البضاعة باوفى ثمن بسبب فراغ الهدنة ومن الله بكسب وافر وأخذت اتجر
فى الجوارى عسى يذهب ما بقلبى من الافرنجية فمضت ثلاث سنين وجرى للسلطان الملك
الناصر ما جرى من وقعة حطين وأخذه جميع الملوك وفتحه بلاد الساحل باذن الله تعالى فطلب
منى جارية للملك الناصر فاحضرت جارية حسناء فاشتريت له منى بمائة دينار فأوصلوا الى
تسعين دينارا وبقيت عشرة دنانير لم يلقوها فى الخزانة ذلك اليوم لانه أنفق جميع الاموال
فشاوروه على ذلك فقال امضوا به الى الخزانة التى فيها السبى من نساء الافرنج فخيروه فى
واحدة منهن يأخذها بالعشرة الدنانير التى له فأتيت الخيمة فعرفت غريمتى الافرنجية فقلت
أعطونى هذه فأخذتها ومضيت الى خيمتى وخلوت بها وقلت لها أتعرفينى قالت لا فقلت أنا
صاحبك التاجر الذى جرى لى معك ما جرى وأخذت منى الذهب وقلت ما بقيت تبصرينى الا
بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشرة دنانير فقالت مد يدك أنا أشهد أن لا اله الا الله وأن
محمدا رسول الله فأسلمت وحسن اسلامها فقلت والله لا وصلت اليها الا بأمر القاضى فرحت
الى ابن شداد وحكيت له ما جرى فعجب وعقد لى عليها وباتت تلك الليلة عندى فحملت منى ثم
رحل العسكر وأتينا دمشق وبعد مدة يسيرة أتى رسول الملك يطلب الاسارى والسبايا باتفاق
وقع بين الملوك فردوا من كان أسيرا من الرجال والنساء ولم يبق الا التى عندى فسألوا عنها واتضح
الخبر أنها عندى وطلبت منى فحضرت وقد تغير لونى وأحضرتها معى بين يدى مولانا السلطان
الملك الناصر والرسول حاضر فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول ترجعين الى بلادك والى
زوجك فقد فككنا أسرك وأسر غيرك فقالت يا مولانا السلطان أنا قد أسلمت وحبلت
وها بطنى كما ترونه وما بقيت الافرنج تنتفع بى فقال لها الرسول أيما أحب اليك هذا المسلم
أو زوجك الافرنجى فلان فأعادت عبارتها الاولى فقال الرسول لمن معه من الافرنج اسمعوا
كلامها ثم قال لى الرسول خذ زوجتك فوليت بها فطلبنى ثانيا وقال ان أمها أرسلت معى وديعة
وقالت ان ابنتى أسيرة وأشتهى أن توصل لها هذه الكسوة فتسلمت الكسوة ومضيت الى
الدار وفتحت القماش فاذا هو قماشها بعينه قد سيرته لها أمها ووجدت الصرتين الذهب
الخمسين دينارا والمائة دينارا كما هما بطى لم يتغيرا وهؤلاء الاولاد منها وهى التى صنعت
لكم هذا الطعام (ومن لطائف المنقول من المستجاد) قال الواقدى كان ابراهيم بن المهدى قد
ادعى الخلافة لنفسه بالرى وأقام مالكها سنة واحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة
أحسنها عندى ما حكاه لى (قال) لما دخل المأمون الرى فى طلبى وجعل لمن أتاه بى مائة ألف
درهم خفت على نفسى وتحيرت فى أمرى فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما
أدرى أين أتوجه فوقفت فى شارع غير نافذ وقلت انا لله وانا اليه راجعون ان عدت على أثرى

يرتاب فى أمرى فرأيت فى صدر الشارع عبدا أسود قائما على باب دار فتقدمت اليه وقلت هل عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار فقال نعم وفتح الباب فدخلت الى بيت نظيف فيه حصر وبسط ووسائد جلود الا أنها نظيفة ثم أغلق الباب على ومضى فتوهمته قد سمع الجعالة فىّ وانه خرج ليدل على فبقيت على مثل النار فبينما أنا كذلك اذ اقبل ومعه حمال عليه كل ما يحتاج اليه من خبز ولحم وقدر جديدة وجرة نظيفة وكيزان جدد فحط عن الحمال ثم التفت الى وقال جعلنى الله فداك أنا رجل حجام وأنا أعلم أنك تتقزز منى لما أتولاه من معيشتى فشأنك بما لم تقع عليه يد وكان بى حاجة الى الطعام فطبخت لنفسى قدرا ما اذكر أنى أكلت مثلها فلما قضيت أربى من الطعام قال هل لك فى شراب فانه يسلى الهم فقلت ما أكره ذلك رغبة فى مؤانسته فأتى بقطر ميز جديد لم تمسه يد وجاءنى بدست شراب مطينة وقال لى روق لنفسك فروقت شرابا فى غاية الجودة وأحضر لى قدحا جديدا وفاكهة وأبقالا مختلفة فى طسوت فخار جدد ثم قال بعد ذلك أتأذن لى جعلت فداك ان أقعد ناحية وآتى بشراب فأشرب به سرورا بك فقلت له افعل فشرب وشربت ثم دخل الى خزانة له فأخرج عودا مصفحا ثم قال ياسيدى ليس من قدرى ان أسألك فى الغناء ولكن قد وجبت على مروءتك حرمتى فان رأيت أن تشرف عبدك فلك علو الرأى (فقلت) ومن أين لك انى أحسن الغناء فقال ياسبحان الله مولانا أشهر من ذلك أنت ابراهيم بن المهدى خليفتنا بالامس الذى جعل المأمون لمن دله عليه مائة ألف درهم فلما قال ذلك عظم فى عينى وثبتت مروءته عندى فتناولت العود وأصلحته وغنيت وقد مر بخاطرى فراق أهلى وولدى

وعسى الذى أهدى ليوسف أهله * وأعزه فى السجن وهو أسير
ان يستجيب لنا فيجمع شملنا * والله رب العالمين قدير

فاستولى عليه الطرب المفرط وطاب عيشه كثيرا ومن شدة طربه وسروره قال لى ياسيدى أتأذن لى أن أغنى ما سنح بخاطرى وان كنت من غير أهل هذه الصناعة فقلت هذا زيادة فى أدبك ومروءتك (فأخذ العود وغنى)

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا * فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لان النوم يغشى عيونهم * سريعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
اذا ما دنا الليل المضر بذى الهوى * جزعنا وهم يستبشرون اذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما * نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فوالله لقد أحسنت بالبيت قد سار بى وذهب عنى كل ما كان بى من الهلع وسألته أن يغنى فغنى

تعيرنا انا قليل عديدنا * فقلت لها ان الكرام قليل
وما ضرنا انا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل
وانا لقوم لا نرى القتل سبة * اذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول

فداخلنى من الطرب مالا مزيد عليه الى ان غالبنى السكر فلم استيقظ الا بعد المغرب فعاودنى

فكري في نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه فقمت وغسلت وجهي وأيقظته وأخذت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير لها قيمة فرميت بها اليه وقلت له استودعك الله فانني ماض من عندك وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهمك ولك عندي المزيد ان أمنت من خوفي فأعادها علي متنكدا وقال ياسيدي ان الصعاليك منا لا قدر لهم عندكم آخذ على ما وهبنيه الزمان من قربك وحلولك عندي ثمنا والله ان راجعتني في ذلك لاقتلن نفسي فأعدت الخريطة الى كمي وقد أثقلني حملها فلما انتهيت الى باب داره قال لي يا سيدي ان هذا المكان أخفى لك من غيره وليس في مؤنتك على ثقلة فاقم عندي الى ان يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن ينفق من تلك الخريطة فلم يفعل فأقمت عنده أياما على تلك الحالة في ألذ عيش فتذممت من الاقامة في مؤنته واحتشمت من التثقيل عليه فتركته وقد مضى يجدد لنا حالا وقمت فتزييت بزي النساء بالخف والنقاب وخرجت فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف أمر شديد وجئت لاعبر الجسر فاذا أنا بموضع مرشوش بماء فبصر بي جندي ممن كان يخدمني فعرفني فقال هذه حاجة المأمون فتعلق بي فمن حلاوة الروح دفعته هو وفرسه فرميتهما في ذلك الزلق فصار عبرة وتبادر الناس اليه فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر ودخلت شارعا فوجدت باب دار وامرأة واقفة في دهليز فقلت ياسيدة النساء احقني دمي فاني رجل خائف فقالت على الرحب وأطلعتني الى غرفة مفروشة وقدمت لي طعاما وقالت يهدأ روعك فما علم بك مخلوق واذا بالباب يدق دقا عنيفا فخرجت وفتحت الباب واذا بصاحبي الذي دفعته على الجسر وهو مشدود الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرس فقالت ياهذا ما دهاك فقال ظفرت بالغني وانفلت مني فأخبرها بالحال فأخرجت خرقا وعصبته بها وفرشت له ونام عليلا وطلعت الي وقالت أظنك صاحب القصة فقلت نعم قالت لا بأس عليك ثم جددت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثا ثم قالت اني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فينم بك فانج بنفسك فسألتها المهلة الى الليل ففعلت فلما دخل الليل لبست زي النساء وخرجت من عندها فأتيت الى بيت مولاة كانت لنا فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدت الله على سلامتي وخرجت كأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة فظننت خيرا فما شعرت الا بابراهيم الموصلي بنفسه في خيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتني اليه فرأيت الموت عيانا وحملت بالزي الذي أنا فيه الى المأمون فجلس مجلسا عاما وأدخلني اليه فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فقال لا سلم الله عليك ولا حياك ولا رعاك فقلت له على رسلك يا أمير المؤمنين ان ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى وقد جعلك الله فوق كل عفو كما جعل ذنبي فوق كل ذنب فان تأخذ فبحقك وان تعف فبفضلك ثم أنشدت

ذنبي اليك عظيم * وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا * فاصفح بحلمك عنه
ان لم أكن في فعالي * من الكرام فكنه

فرفع الي رأسه فبدرته وقلت

أتيت ذنبا عظيما * وأنت للعفو أهل
فان عفوت فمن * وان جزيت فعدل

فرق المأمون واستروحت روائح الرحمة من شمائله ثم أقبل على ابنه العباس وأخيه أبي اسحق وجميع من حضر من خاصته فقال ماترون في أمره فكل أشار بقتلي الا انهم اختلفوا في القتلة كيف تكون فقال المأمون لاحمد بن أبي خالد ماتقول يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين ان قتلته وجدنا مثلك قتل مثله وان عفوت عنه لم نجد مثلك عفا عن مثله فنكس المأمون رأسه ينكت في الارض وأنشد متمثلا

قومي هم قتلوا أميم أخي * فاذا رميت يصيبني سهمي

فكشفت المقنعة عن رأسي وكبرت تكبيرة عظيمة وقلت عفا والله عني أمير المؤمنين فقال المأمون لا بأس عليك ياعم فقلت ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أتفوه معه بعذر وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ولكن أقول

ان الذي خلق المكارم حازها * في صلب آدم للامام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة * وتظل تكلؤهم بقلب خاشع
ماان عصيتك والغواة تمدني * أسبابها الا بنية طائع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله * عفو ولم يشفع اليك بشافع
ورحمت أطفالا كافراخ القطا * وحنين والدة بقلب جازع

(فقال) المأمون لاتثريب عليك اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك فقلت

رددت مالي ولم تبخل علي به * وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به * والمال حتى أسل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعت * اليك لو لم تعرها كنت لم تلم
فان جحدتك ما أوليت من كرم * اني الى اللؤم أولى منك بالكرم

(فقال المأمون) ان من الكلام دراوهذا منه وخلع عليه وقال ياعم ان أبا اسحق والعباس أشارا بقتلك فقلت انهما نصحالك يا أمير المؤمنين ولكن أتيت بما أنت أهله ودفعت ماخفت بما رجوت (فقال) المأمون ياعم أمت حقدي بحياة عذرك وقد عفوت عنك ولم أجرعك مرارة امتنان الشافعين ثم سجد المأمون طويلا ورفع رأسه وقال ياعم أتدري لم سجدت قلت شكرا لله تعالى الذي أظفرك بعدوّ دولتك فقال ما أردت هذا ولكن شكرا لله الذي ألهمني العفو عنك فحدثني الآن حديثك فشرحت له صورة أمري وماجرى لي مع الحجام والجندي والمرأة والمولاة التي نمت على فأمر المأمون باحضارها وهي في دارها تنتظر الجائزة فقال لها ماحملك على مافعلت مع سيدك فقالت الرغبة في المال فقال لها هل لك ولد أو زوج قالت لا فأمر بضربها مائتي سوط وخلد سجنها (ثم قال) احضروا الجندي وامرأته والحجام فاحضروا فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على مافعل فقال الرغبة في المال (فقال المأمون) أنت يجب أن تكون حجاما ووكل به من يلزمه الجلوس في دكان الحجام ليتعلم الحجامة وأكرم زوجته

وأدخلها الى القصر وقال هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات ثم قال الصمصام لقد ظهر من مروءتك
ما يوجب المبالغة في اكرامك وسلم اليه دار الجندي بما فيها وخلع عليه وأنعم عليه برزقه
وزيادة ألف دينار في كل سنة ولم يزل في تلك النعمة الى أن مات (ومما يضارع ذلك) انه لما
أفضت الخلافة الى بني العباس اختفت رجال بني أمية منهم ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك
وكان ابراهيم رجلا عالما عاملا أديبا كاملا وهو في سن الشبيبة فأخذوا له أمانا من السفاح
فقال له يوما حدثني عن ماصر بك في اختفائك قال كنت يا أمير المؤمنين مختفيا بالحيرة في منزل
شارع على الصحراء فبينما أنا على ظهر البيت اذ نظرت الى أعلام سود قد خرجت من الكوفة
تريد الحيرة فتخيلت أنها تريدني فخرجت من الدار متنكرا حتى أتيت الكوفة ولا أعرف
أحدا اختفي عنده فبقيت في حيرة فاذا أنا بباب كبير رحبته واسعة فدخلت فيها فاذا رجل
وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه واتباعه فقال من أنت
وما حاجتك فقلت رجل خائف على دمه وقد استجار بمنزلك فأدخلني منزله ثم صيرني في حجرة تلي
حرمه وكنت عنده في ذلك على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس لا يسألني عن شئ من حالي
الا أنه يركب في كل يوم ركبة فقلت له يوما أراك تدمن الركوب ففيم ذلك قال ابراهيم بن سليمان
قتل أبي صبرا وقد بلغني أنه مختف فأنا أطلبه لأدرك منه ثاري فكثر والله تعجبي وقلت القدر
ساقني الى حتفي في منزل من يطلب دمي وكرهت الحياة فسألت الرجل عن اسمه واسم ابيه
فأخبرني فعلمت أن الخبر صحيح وأنا الذي قتلت أباه فقلت له يا هذا قد وجب علي حقك ومن حقك
ان أدلك على خصمك وأقرب اليك الخطوة قال وما ذاك قال أنا ابراهيم بن سليمان قاتل أبيك
فخذ بثارك فقال اني أحسبك رجلا قد مضه الاختفاء فأحببت الموت فقلت لا والله ولكن
أقول لك الحق يوم كذا وكذا بسبب كذا وكذا فلما علم صدقي تغير لونه واحمرت عيناه وأطرق
مليا ثم قال أما أنت فستلقى أبي عند حكم عدل فيأخذ بثاره وأما أنا فغير مخفر ذمتي فاخرج عني
فلست آمن عليك من نفسي وأعطاني ألف دينار فلم آخذها منه وانصرفت عنه فهذا أكرم
رجل رأيته بعد أمير المؤمنين (ومن لطائف ما نقلته من المستجاد) حدث أبو الحسن بن صالح
البلخي بمصر قال أخبرني بعض عمال شيوخنا عن شيبة بن محمد الدمشقي قال كان في أيام
سليمان بن عبد الملك رجل يقال له خزيمة بن بشر من بني أسد مشهور بالمروءة والكرم
والمواساة وكانت نعمته وافرة فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج الى اخوانه الذين كان يواسيهم
ويتفضل عليهم فواسوه حينا ثم ملوه فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال لها
يا بنت العم قد رأيت من اخواني تغيرا وقد عزمت على لزوم بيتي الى ان يأتيني الموت ثم أغلق بابه
عليه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد وبقي حائرا في حاله فكان عكرمة الفياض واليا على
الجزيرة فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد اذ جرى ذكر خزيمة بن بشر فقال
عكرمة ما حاله فقالوا صار في اسوأ الاحوال وقد أغلق بابه ولزم بيته فقال عكرمة الفياض وما
سمي الفياض الا للافراط في الكرم فما وجد خزيمة بن بشر مواسيا ولا مكافئا فأمسك عن
ذلك فلما كان الليل عمد الى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد ثم أمر باسراج دابته

وخرج سراً من أهله فركب ومعه غلام واحد يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم الى الباب فطرقه بنفسه فخرج خزيمة فقال له اصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلا فوضعه وقبض على لجام الدابة وقال له من أنت جعلت فداك قال له ماجئت فى هذا الوقت وأنا أريد ان تعرفنى قال خزيمة فما أقبله أو تخبرنى من أنت قال أنا جابر عثرات الكرام قال زدنى قال لا ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس الى امرأته فقال لها ابشرى فقد أتى الله بالفرج فلو كان فى هذا فلوس كانت كثيرة قومى فاسرجى قالت لا سبيل الى السراج فبات يلمس الكيس فيجد تحت يده خشونة الدنانير ورجع عكرمة الى منزله فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه منفردا فارتابت وشقت جيبها ولطمت خدها فلما رآها على تلك الحالة قال لها مادهاك يا ابنة العم قالت سوء فعلك بابنة عمك أمير الجزيرة يخرج بعد هدأة من الليل منفردا عن غلمانه فى سر من أهله الا الى زوجة أو سرية فقال لقد علم الله ماخرجت لواحدة منهما قالت لابد تعلمنى قال فاكتميه اذا (قالت) أفعل فأخبرها بالقصة على وجهها ثم قال أتحبين ان أحلف لك قالت لا فقد سكن قلبى ثم أصبح خزيمة صالح غرماءه وأصلح من حاله ثم تجهز يريد سليمان بن عبد الملك بفلسطين فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهور المروءة وكان الخليفة به عارفا فأذن له فلما دخل عليه وسلم بالخلافة قال يا خزيمة ما ابطأك عنا فقال سوء الحال يا أمير المؤمنين قال فما منعك من النهضة الينا قال ضعفى قال فيم أنهضك قال لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل الا ورجل يطرق بابى وكان منه كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها الى آخرها فقال هل عرفته قال لا والله لانه كان متنكرا وما سمعت منه الا جابر عثرات الكرام قال فتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال لو عرفناه لاعناه على مروءته ثم قال على بقناة فأتى بها فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض وأجزل عطاياه وأمره بالتوجه الى الجزيرة فخرج خزيمة متوجها اليها فلما اقترب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه فسلم عليه ثم سارا جميعا الى ان دخلا البلد فنزل خزيمة فى دار الامارة وأمر أن يؤخذ عكرمة وان يحاسب فحوسب ففضل عليه مال كثير فطلبه خزيمة بالمال فقال مالى الى شئ منه سبيل فأمر بحبسه ثم بعث يطالبه فأرسل اليه انى لست ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ماشئت فأمر به فكبل بالحديد وضيق عليه وأقام على ذلك شهرا فأضناه ثقل الحديد وأضر به وبلغ ذلك ابنة عمه فجزعت عليه واغتمت ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت امضى الساعة الى باب هذا الامير فقولى عندى نصيحة فاذا طلبت منك قولى لا أقولها الا للامير خزيمة فاذا دخلت عليه سليه الخلوة فاذا فعل قولى له ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك فى مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد قال ففعلت ذلك فلما سمع خزيمة قولها قال واسوءتاه جابر عثرات الكرام غريمى قالت نعم فأمر من وقته بدابته فاسرجت وركب الى وجوه أهل البلد فجمعهم وسار بهم الى باب الحبس ففتح ودخل فرأى عكرمة الفياض فى قاع الحبس متغيرا قد أضناه الضر فلما نظر عكرمة الى خزيمة والى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فاقبل خزيمة حتى انكب على رأسه فقبله فرفع

رأسه اليه وقال ما أعقب هذا منك قال كريم فعلك وسوء مكافاتي قال يغفر الله لنا ولك ثم أمر بفك قيوده وان توضع في رجليه فقال عكرمة تريد ماذا قال أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك فقال أقسم عليك بالله ان لا تفعل فخرجا جميعا الى ان وصلا الى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف فلم يمكنه من ذلك قال وما تريد قال أغير من حالك وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك ثم أمر بالحمام فاخليت ودخلا جميعا ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمل اليه مالا كثيرا ثم سار معه الى داره واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه فاذن له فاعتذر اليها وتذمم من ذلك ثم سأله ان يسير معه الى أمير المؤمنين وهو يومئذ مقيم بالرملة فانعم له بذلك فسارا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فاخبره بقدوم خزيمة ابن بشر فراعه ذلك وقال والي الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا مع قرب العهد به ما هذا الا لحادث عظيم فلما دخل عليه قال قبل ان يسلم ما وراءك يا خزيمة قال خير يا أمير المؤمنين قال فما أقدمك قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فاحببت ان أسرك لما رأيت من شوقك الى رؤيته قال ومن هو قال عكرمة الفياض فاذن له في الدخول فدخل فسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال يا عكرمة كان خيرك له وبالا عليك ثم قال له اكتب حوائجك وما تختاره في رقعة فكتبها وقضيت على الفور ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف اليها من التحف والظرف ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وارمينية واذربيجان وقال له أمر خزيمة اليك ان شئت أبقيته وان شئت عزلته قال بل أرده الى عمله يا أمير المؤمنين ثم انصرفا جميعا ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته (و يضارع ذلك من المستجاد أيضا ما روى عن أبي موسى محمد بن الفضل بن يعقوب كاتب عيسى بن جعفر) قال حدثني أبي قال كنت أتردد الى زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وأخدمها فتوجهت الى خدمتها يوما فقالت اقعد حتى أحدثك حديثا كان بالامس يكتب على الآماق كنت أمس عند الخيزران ومن عادتي ان أجلس بازائها وفي الصدر مجلس للمهدي يجلس فيه وهو يقصدنا في كل وقت فيجلس قليلا ثم ينهض فبينما نحن كذلك اذ دخلت علينا جارية من جواريها فقالت أعز الله السيدة بالباب امرأة ذات جمال وخلقة حسنة وليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية تستأذن عليك وقد سألتها عن اسمها فامتنعت أن تخبرني فالتفتت الى الخيزران وقالت ما ترين فقلت أدخليها فانه لا بد من فائدة أو ثواب فدخلت امرأة من أجمل النساء لا تتوارى بشئ فوقفت بجنب عضادة الباب ثم سلمت متضائلة ثم قالت أنا مزنة بنت مروان بن محمد الاموي فقالت الخيزران لا حياك الله ولا قربك فالحمد لله الذي أزال نعمتك وهتك سترك وأذلك أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك ان تكلمي صاحبك في الاذن في دفن ابراهيم بن محمد فوثبت عليهن وأسمعتيهن ما لا يسمعن قبل وأمرت فأخرجن على تلك الحالة فضحكت مزنة لما أنسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة ثم قالت يا بنت العم أي شئ أعجبك من حسن صنيع الله بي على العقوق حتى أردت أن تتأسي بي فيه والله اني فعلت بنسائك ما فعلت فاسلمني الله لك ذليلة جائعة عريانة وكان ذلك مقدار شكرك لله

تعالى على ما أولاك بي ثم قالت السلام عليكم ثم ولت مسرعة فصاحت بها الخيزران فرجعت
قالت زينب فنهضت اليها الخيزران لتعانقها فقالت ليس في لذلك موضع مع الحال التي أنا عليها
فقالت الخيزران لها فالحمام اذا وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها الى الحمام
فدخلت وطلبت ماشطة ترجي ما على وجهها من الشعر فلما خرجت من الحمام وافتها الخلع
والطيب فأخذت من الثياب ما أرادت ثم تطيبت ثم خرجت الينا فعانقتها الخيزران وأجلستها
في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي ثم قالت لها الخيزران هل لك في الطعام فقالت
والله ما فيكن أحوج مني اليه فعجلوا فأتي بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة الى أن اكتفت
ثم غسلنا أيدينا فقالت لها الخيزران من وراءك ممن تعتنين به قالت ما خارج هذه الدار من بيني
وبينه نسب فقالت اذا كان الأمر هكذا فقومي حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا
ونحول لها جميع ما تحتاجين اليه ثم لا نفترق الى الموت فقامت ودارت بها في المقاصير فاختارت
أوسعها وأنزهها ولم تبرح حتى حولت اليها جميع ما تحتاج اليه من الفرش والكسوة قالت
زينب ثم تركناها وخرجنا عنها فقالت الخيزران هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه وقد مسها
الضر وليس يغسل ما في قلبها الا المال فاحملوا اليها خمسمائة ألف درهم فحملت اليها وفي أثناء
ذلك وافى المهدي فسألنا عن الخبر فحدثته الخيزران حديثها وما لقيتها به فوثب مغضبا وقال
للخيزران هذا مقدار شكر الله على نعمه وقد أمكنك من هذه المرأة مع الحالة التي هي عليها
فوالله لولا محلك بقلبي لحلفت أن لا أكلمك أبدا فقالت الخيزران يا أمير المؤمنين قد اعتذرت
اليها ورضيت وفعلت معها كذا وكذا فلما علم المهدي ذلك قال لخادم كان معه احمل اليها مائة
بدرة وادخل اليها وأبلغها مني السلام وقل لها والله ما سررت في عمري كسروري اليوم وقد
وجب على أمير المؤمنين اكرامك ولولا احتشامك لحضر اليك مسلما عليك وقاضيا لحقك فمضى
الخادم بالمال والرسالة فأقبلت على الفور فسلمت على المهدي بالخلافة وشكرت صنيعه وبالغت
في الثناء على الخيزران عنده وقالت ما على أمير المؤمنين حشمة أنا في عدد حرمه ثم قامت الى
منزلها فخلفتها عند الخيزران وهي تتصرف في المنازل والجواري كتصرف الخيزران فأرخها
عندك فانها من أحسن النوادر (وروى عن عبد الرحمن بن عمر الفهري عن رجال سماهم)
أمر المأمون أن يحمل اليه عشرة من أهل البصرة كانوا قد رموا بالزندقة فحملوا فرآهم أحد
الطفيلية قد اجتمعوا بالساحل فقال ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة فدخل معهم ومضى بهم
الموكلون الى البحر وأطلعوهم في زورق قد أعد لهم فقال الطفيلي لا شك أنها نزهة فصعد
معهم في الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد الطفيلي معهم فعلم أنه قد وقع ورام
الخلاص فلم يقدر وساروا بهم الى أن دخلوا بغداد وحملوا حتى دخلوا على المأمون فلما مثلوا بين
يديه أمر بضرب أعناقهم فاستدعوهم بأسمائهم حتى لم يبق الا الطفيلي وهو خارج عن العدة
(فقال) لهم المأمون من هذا قالوا والله ما ندري يا أمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به
(فقال) له المأمون ما قصتك قال يا أمير المؤمنين امرأتي طالق ان كنت أعرف من أقوالهم
شيئا ولا أعرف غير لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما رأيتهم مجتمعين فظننت

انهم يدعون الى وليمة فالتحقت بهم (قال) فضحك المامون ثم قال بلغ من شؤم التطفل ان أحل صاحبه هذا المحل لقد سلم هذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب (قال) ابراهيم بن المهدى هبه لى وأحدثك بحديث عن نفسى فى التطفل عجيب (قال) المامون قد وهبته لك هات حديثك (قال) ياأمير المؤمنين خرجت يوما متنكرا للتنزه فانتهى بى المشى الى موضع شممت منه روائح طعام وأبازير قد فاحت فتاقت نفسى اليها ووقفت ياأمير المؤمنين لا أقدر على المضى فرفعت بصرى واذا بشباك ومن خلفه كف ومعصم ما رأيت أحسن منهما فوقفت حائرا ونسيت روائح الطعام بذلك الكف والمعصم وأخذت فى اعمال الحيلة فاذا بخياط قريب من ذلك الموضع فتقدمت اليه وسلمت عليه فرد على السلام فقلت لمن هذه الدار قال لرجل من التجار قلت ما اسمه قال فلان بن فلان فقلت أهو ممن يشرب الخمر قال نعم وأحسب اليوم أن عنده دعوة وليس ينادم الا التجار فبينما نحن فى الكلام اذ اقبل رجلان نبيلان راكبان فاعلمنى انهما أخص الناس بصحبته وأعلمنى باسميهما فحركت دابتى فلقيتهما وقلت جعلت فداء كما قد استبطأ كما أبو فلان وسايرتهما حتى أتيا الباب فدخلت ودخلا فلما رآنى صاحب الدار معهما لم يشك انى منهما فرحب بى وأجلسنى فى أفضل المواضع ثم جىء بالمائدة فقلت فى نفسى هذه الالوان قد من الله على ببلوغ الغرض منها بقى الكف والمعصم ثم نقلنا الى مجلس المنادمة فرأيت مجلسا محفوفا باللطائف وجعل صاحب المجلس يتلطف بى ويقبل على فى الحديث لظنه انى ضيف لاضيافه وهم على مثل ذلك حتى شربنا أقداحا اذ خرجت علينا جارية كأنها غصن بان فى غاية الظرف وحسن الهيئة فسلمت غير خجلة وأتى بعود فاخذته وجسته فاذا هى حاذقة واندفعت تقول

أليس عجيبا أن بيتا يضمنى * واياك لا نخلو ولا نتكلم
سوى أعين تبدى سرائر انفس * وتقطيع أنفاس على النار تضرم
اشارة أفواه وغمز حواجب * وتكسير أجفان وكف يسلم

فهيجت ياأمير المؤمنين بلابلى فطربت لحذقها وحسن شعرها الذى غنت به فحسدتها وقلت قد بقى عليك ياجارية شئ فرمت العود وقالت متى كنتم تحضرون البغضاء فى مجالسكم فندمت على ما كان منى ورأيت القوم قد أنكروا على ذلك فقلت فى نفسى فاتنى جميع ما أملت فقلت أثم عود قالوا نعم فاحضروا عودا فاصلحت ما أردت فيه ثم اندفعت فغنيت

هذا محبك مطوى على كمده * صب مدامعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته * مما به ويد أخرى على كبده
يامن رأى كلفا مستبعدا دنفا * كانت منيته فى عينه ويده

فوثبت الجارية فاكبت على رجلى تقبلها وقالت المعذرة اليك ياسيدى والله ما علمت بمكانك ولا سمعت بمثل هذه الصناعة ثم أخذ القوم فى اكرامى وتبجيلى بعد ما طربوا غاية الطرب وسألنى كل منهم الغناء فغنيت لهم نوبات مطربة فغلب القوم السكر وغابت عقولهم فحملوا الى منازلهم وبقى صاحب المنزل فشرب معى أقداحا ثم قال ياسيدى ذهب ما مضى من عمرى مجانا اذ لم أعرف مثلك فبالله يامولاى من أنت لاعرف نديمى الذى من الله على به فى هذه الليلة

فأخذت أداري وهو يقسم على فأعلمته فوثب قائما وقال قد عجبت ان يكون هذا الفضل الا لمثلك ولقد أسدى الى الزمان يدالا أقوم بشكرها ومتى طمعت ان تزورني الخلافة في منزلى وتنادمني ليلتي وماهذا الا في المنام فأقسمت عليه ان يجلس فجلس وأخذ يسألني عن السبب في حضوري عنده بألطف معنى فأخبرته بالقصة من أولها الى آخرها وماسترت منها شيأ ثم قلت أما الطعام فقد نلت منه بغيتي فقال والكف والمعصم ان شاء الله ثم قال يافلانة قولى لفلانة تنزل ثم جعل يستدعي واحدة بعد واحدة يعرضها على وأنا لاأرى صاحبتي الى أن قال والله مابقي الا أمي وأختي ووالله لتنزلان فجعبت من كرمه وسعة صدره فقلت جعلت فداك تبدأ بالاخت قال حبا وكرامة ثم نزلت أخته فأراني يدها فاذا هي التي رأيتها فقلت هذه الحاجة فأمر غلمانه لوقته فأحضروا الشهود وأحضر بدرتين فلما حضر الشهود قال لهم هذا سيدي ابراهيم بن المهدي يخطب أختي فلانة وأشهدكم انى قد زوجتها له وأمهرتها منه عشرين ألف درهم فقلت قبلت ذلك ورضيت فشهدوا علينا فدفع البدرة لواحدة الى أخته والاخرى فرقها على الشهود ثم قال ياسيدي أمهد لك بعض البيوت وتنام مع أهلك فاحشمني مارأيت من كرمه وتذممت ان أخلو بها في داره ثم قلت بل أحضر عمارتي وأحملها الى منزلي فقال افعل ماشئت فاحضرت عمارتي وحملتها الى منزلي فوحقك ياأمير المؤمنين لقد حمل الي من الجهاز ماضاقت عنه بيوتنا على سعتها وأولدتها هذا الغلام القائم بين يدي أمير المؤمنين فعجب المأمون من كرم هذا الرجل وقال لله دره ماسمعت قط بمثله وأمر ابراهيم باحضار الرجل ليشاهده فاحضره بين يديه فاستنطقه فأعجبه وصيره من جملة خواصه ومحاضريه (ومن غريب المنقول) ان فتى من ذوي النعم قعد به زمانه وكانت له جارية تحسنا محسنة في الغناء فضاق بهما الخناق واشتدت بهما الحال في عدم مايقتاتان به فقال لها قد ترين ماقد صرنا اليه من هذه الحالة السيئة ووالله لموتي وأنت معي أحسن وأهون على مما أذكره لك فان رأيت أن أبيعك لمن يحسن اليك ويغسل عنك ما أنت فيه وأنفرج أنا بما لعله يصير الي من الثمن ولعلك تحصلين عند من تتوصلين الى نفعي معه فقالت والله لموتي على تلك الحالة معك آثر عندي من انتقالي الى غيرك ولو كان خليفة ولكن اصنع مابدا لك قال فخرج وعرضها للبيع فاشار عليه أحد اصدقائه ممن له رأي أن يحملها الى ابن معمر أمير العراق فحملها اليه فلما عرضت عليه استحسنها فقال لمولاها كم كان شراؤها عليك قال مائة ألف درهم وقد انفقت عليها مالا كثيرا حتى صارت في رتبة الاستاذين قال اما ماانفقت عليها فغير محتسب لك به لانك أنفقته في لذاتك وأما ثمنها فقد أمرنا لك بمائة ألف درهم وعشرة أسفاط من الثياب وعشرة رؤس من الخيل وعشرة رؤس من الرقيق أرضيت قال نعم أرضى الله الامير فأمر بالمال فاحضر وأمر قهرمانه بادخال الجارية الى الحرم فامسكت بجانب الستر وبكت وقالت

هنيألك المال الذي قد أفدته * ولم تبق في كفي غير التفكر
أقول لنفسي وهي في كربانها * أقلي فقد بان الحبيب أو اكثري
اذا لم يكن للامر عندك موضع * ولم تجدي بدا من الصبر فاصبري

فبكى مولاها وأجاب قائلا

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن * بفرقنا شيء سوى الموت فاعذري
أروح بهم من فراقك موجع * أناجي به قلبا قليل التصبر
عليك سلامي لا زيارة بيننا * ولا قرب الا ان يشاء ابن معمر

فقال له ابن معمر قد شئت نخذها بارك الله لك فيها وفيما وصل اليك منا فاخذها وأخذ المال والخيل والرقيق والثياب وعاد وقد حسنت حاله (ومما جنيته من ثمرات الاوراق) ان الحجاج لما قتل عبدالله بن الزبير رحل الى عبد الملك بن مروان ومعه ابراهيم بن محمد بن طلحة فلما قدم على عبد الملك سلم عليه بالخلافة وقال قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز في الشرف والابوة وكمال المروءة والادب وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة وهو ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله فافعل به يا أمير المؤمنين ما يستحق أن يفعل بمثله في أبوته وشرفه فقال عبد الملك يا أبا محمد اذ كرتنا حقا واجبا ائذنوا لابراهيم فلما دخل وسلم بالخلافة أمره بالجلوس في صدر المجلس وقال له عبد الملك ان أبا محمد ذكرنا مالم نزل نعرفه منك من الابوة والشرف فلا تدع حاجة في خاصة أمرك وعامته الا سألتها فقال ابراهيم أما الحوائج التي نبتغي بها الزلفى ونرجو بها الثواب فما كان لله خالصا ولنبيه صلى الله عليه وسلم ولكن لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحة لا اجد بدا من ذكرى اياها قال أهي دون أبي محمد قال نعم قال قم يا حجاج فنهض الحجاج خجلا لا يبصر اين يضع رجله ثم قال عبد الملك قل يا ابن طلحة فقال تالله يا أمير المؤمنين انك عمدت الى الحجاج في ظلمه وتعديه على الحق واصغائه الى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابناء المهاجرين والانصار يسومهم الخسف ويطأهم العسف بطغام أهل الشأم ومن لا روية له في اقامة الحق ولا ازاحة الباطل قال فاطرق عبد الملك ساعة ثم رفع رأسه وقال كذبت يا ابن طلحة ظن فيك الحجاج غير ما هو فيك قم فرب ما ظن الخير بغير أهله قال فقمت وأنا ما أبصر طريقا قال واتبعني حرسيا وقال اشدد يدك به (قال) ابراهيم فما زلت جالسا حتى دعا الحجاج فما زالا يتناجيان طويلا حتى ساء ظني ولا أشك انه في أمري ثم دعاني فلقيني الحجاج في الصحن خارجا فقبل بين عيني وقال أحسن الله جزاءك قال فقلت في نفسي انه يهزأ بي ودخلت على عبد الملك فاجلسني مجلسي الاول ثم قال يا ابن طلحة هل اطلع على نصيحتك أحد فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ولا أردت الا الله ورسوله والمسلمين وأمير المؤمنين علم ذلك فقال عبد الملك قد عزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهته لهما واعلمته انك استقللت ذلك عليه وسألتني له ولاية كبيرة وقد أوليته العراقين وقررت له ان ذلك بسؤالك ليلزمه من حقك مالا بدله من القيام به فاخرج معه غير ذام لصحبته (ومن لطائف المنقول) عن القاضي أبي الحسين بن عبد المحسن بن علي التنوخي رحمه الله تعالى ان الاسكندر لما انتهى الى الصين ونزل على ملكها أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره فقال له رسول ملك الصين يستأذن عليك فقال ائذن له فلما دخل عليه وقف بين يديه وسلم وقال ان رأى الملك أن يخلي مجلسه فليفعل فامر الاسكندر من بحضرته بالانصراف ولم يبق غير حاجبه فقال له الرسول الذي جئت به لا يحتمل ان يسمعه غيرك فأمر بتفتيشه ففتش فلم يوجد معه شيء من السلاح فوضع الاسكندر بين يديه سيفا مجردا وقال له قل ما شئت ثم أخرج

جميع من عنده فلما خلا المكان قال له الرسول أنا ملك الصين لا رسوله وقد حضرت أسألك عما
تريد فان كان مما يمكن الانقياد اليه الا على أصعب الوجوه أجبت اليه وغنيت أنا وأنت عن
الحرب فقال له الاسكندر وما الذى أمنك منى قال علمى بانك رجل عاقل وليس بيننا عداوة
متقدمة ولا مطالبة بذحل ومتى قتلتنى أقاموا غيرى ولم يسلموا اليك البلد ثم تنسب أنت الى
غير الجميل وضد الحزم فأطرق الاسكندر متفكرا فى مقاله وعلم انه رجل عاقل فقال له أريد
ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلا ونصف ارتفاعه فى كل سنة قال أجبتك قال فكيف
تكون حالك قال أكون قتيلا لأول محارب قال فان قنعت منك بارتفاع سنتين كيف حالك قال
أصلح مما تقدم ذكره قال فان قنعت منك بارتفاع سنة واحدة قال يكون مضرا بى ومذهبا
لجميع لذاتى قال فان اقتصرت منك على السدس قال يكون السدس موفرا والباقى للجيش
ولأسباب الملك قال قد اقتصرت على هذا فشكره وانصرف فلما أصبح وطلعت الشمس
أقبل جيش الصين حتى طبق الارض واختلط بجيش الاسكندر فارتعب وتواثبت أصحابه
فركبوا واستعدوا للحرب فبينما هم كذلك اذ ظهر ملك الصين وعليه التاج فلما رأى
الاسكندر ترجل فقال له الاسكندر أغدرت قال لا والله قال فما هذا الجيش قال أردت ان
أعلمك أنى لم أطعك من ضعف ولا من قلة وما غاب عنك من الجيش أكثر لكنى رأيت العالم
الاكبر مقبلا عليك ممكنا لك فعلمت انه من حارب العالم الاكبر غلب فأردت طاعته بطاعتك
والذلة لأمره بالذلة لأمرك فقال الاسكندر ليس مثلك يؤخذ منه شئ فما رأيت بينى وبينك
أحدا يستحق التفضيل ويوصف بالفضل غيرك وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا
منصرف عنك فقال ملك الصين أما اذ فعلت ذلك فلست تخسر فلما انصرف الاسكندر اتبعه
ملك الصين من الهدايا والتحف بضعف ما كان قدره عليه (ومن غريب المنقول عن أبى الفرج
الاصبهانى انه قال) أخبرنى عمى عن أبيه عن الكلبى عن أبيه قال أخبرنى شيخ من بنى نبهان
قال أصابت بنى نبهان سنة ذهبت بالاموال فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة وقال كونوا
قريبا من الملك يصبكم من خيره حتى أرجع اليكم ومضى على وجهه يسوق راحلته سبعة أيام
حتى انتهى الى عطن ابل عند تطفيل الشمس فاذا خباء عظيم وقبة من أدم قال فقلت فى نفسى
ما لهذا الخباء بد من أهل وما لهذه القبة بد من رب وما لهذا العطن بد من ابل فنظرت فى الخباء
فاذا شيخ كبير قد أوهاه الكبر وهو شبه النسر فجلست خلفه فلما انصرم النهار أقبل فارس
لم أر أعظم من شكله وفى خدمته أسودان يمشيان بين جنبيه واذا مائة من الابل معها فحلها فبرك
الفحل وبركن حوله فقال لاحد عبيده احلب فلانة فحلبها ثم وضع اللبن بين يدى الشيخ فكرع
منه وأخذه وقدمه الى فشربت نصفه ثم أمر بشاة فذبحت وشويت وأكلنا منها جميعا فأمهلت
حتى اذا ناموا وحكم عليهم النوم ثرت الى الفحل فحللت عقاله وركبته فاندفع بى وتبعته الابل
فمشيت الى الصباح فلما أصبحت نظرت فلم أجد أحدا (ولما) تعالى النهار التفت فاذا أنا بخيال
كأنه طائر فما زال يدنو حتى تبينته فاذا هو فارس على فرس واذا هو صاحبى بالامس فعقلت الفحل
وعمدت الى كنانتى فقال احلل عقاله فقلت كلا لقد خلفت خلفى عيالا جياعا بالحيرة قال فانك
ميت حل عقاله لا أم لك وانصب لى خطامه واجعل فيه خمس عقد وقل لى اين تحب ان أضع

سهمي فقلت في هذا الموضع فكأنما وضعه بيده ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم فرددت نبلي وحططت قوسي ووقفت مستسلما فدنا مني وأخذ القوس والسيف ثم أردفني خلفه وقد عرف اني الذي شربت اللبن عنده وأكلت اللحم فقال كيف ظنك بي فقلت أحسن ظن فقال ابشر ان لن تسال شرا وقد كنت ضيف مهلهل فقلت أزيد الخيل أنت قال نعم أنا زيد الخيل فلما انتهينا الى منزله قال لو كانت هذه الابل لي لسلمتها اليك ولكنها لابنة مهلهل فاقم عندي فاقمت عنده أياما فشن الغارة على بني نمير فاصاب مائة بعير فقال هذه أحب اليك أم تلك فقلت هذه قال دونكها او بعث معي خفراء من ماء الى ماء الى ان وردت الحيرة فلقيني نبطي فقال يا اعرابي احتفظ بابلك فقد قرب مخرج النبي صلى الله عليه وسلم الذي يملك هذه الارض و يطرد أهلها حتى ان أحدكم ليبتاع البستان بثمن بعير قال ما حملت باهلي الى النبط حتى جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلمنا على يديه وما مضت الأيام حتى اشتريت بثمن بعير من ابلي بستانا بالحيرة والله أعلم * ونقل عن الواقدي قال كان لي صديقان أحدهما هاشمي والآخر نبطي فكنا في الصداقة كنفس واحدة فنالتني ضيقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتي أما نحن فنصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد تقطع قلبي عليهم رحمة لانهم يرون صبيان جيراننا وقد تزينوا في عيدهم وهم فرحون ولا باس بالاحتيال فيما نصرفه في كسوتهم قال فكتبت الى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة علي بشئ فوجه الي كيسا فيه ألف درهم فما استقر قراره حتى كتب الي صديقي الآخر يشكو الي مثل ما شكوته الى الهاشمي فوجهت اليه بالكيس على حاله وخرجت الى المسجد وأنا مستحي من امرأتي فلما دخلت عليها لم تعنفني لعلمها بالحال فبينما انا كذلك اذ أقبل صديقي الهاشمي ومعه الكيس بختمه فقال اصدقني عما فعلته فيما وجهت به اليك فاعلمته بالخبر فقال انك وجهت الي وما أملك الا ما بعثت به اليك وكتبت الى صديقنا أسأله المواساة فوجه الي كيسي بختمه فاخرجنا للمرأة مائة درهم وتقاسمنا الباقي أثلاثا ونما الخبر الى المأمون فاحضرني وسالني عن الخبر فشرحته له فامر لنا بسبعة آلاف دينار منها ألف للمرأة وألفان ألفان لكل واحد منا (و بضارع ذلك ما هو منقول عن الاصمعي) قال قصدت في بعض الايام رجلا كنت أغشاه لكرمه فوجدت على بابه بوابا فمنعني من الدخول اليه ثم قال والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لامنع مثلك الا لرقة حاله وقصور يده فكتبت رقعة فيها

اذا كان الكريم له حجاب * فما فضل الكريم على اللئيم

ثم قلت له أوصل رقعتي اليه ففعل وعاد بالرقعة وقد وقع على ظهرها

اذا كان الكريم قليل مال * تحجب بالحجاب عن الغريم

(ومع) الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار فقلت والله لاتحفن المأمون بهذا الخبر فلما رآني قال من أين يا أصمعي قلت من عند رجل من أكرم الاحياء حاشى أمير المؤمنين قال ومن هو فدفعت اليه الورقة والصرة وأعدت عليه الخبر فلما رأى الصرة قال هذه من بيت مالي ولا بد لي من الرجل فقلت والله يا أمير المؤمنين اني استحي ان أروعه برسلك فقال لبعض خاصته امض مع الاصمعي فاذا أراك الرجل فقل له أجب أمير المؤمنين من غير ازعاج قال فلما حضر الرجل

بين يدي المأمون قال له أما أنت الذي وقفت لنا بالامس وشكوت رقة فان الزمان قد أناخ عليك بكلكله فدفعنا اليك هذه الصرة لتصلح بها حالك فقصدك الاصمعي ببيت واحد فدفعتها اليه فقال نعم يا أمير المؤمنين والله ماكذبت فيما شكوت لامير المؤمنين من رقة الحال لكن استحييت من الله تعالى ان أعيد قاصدي الا كما أعادني أمير المؤمنين فقال له المأمون لله أنت فما ولدت العرب أكرم منك ثم بالغ في اكرامه وجعله من جملة ندمائه (ومن لطائف المنقول ماهو منقول عن الربيع) انه قال مارأيت رجلا أثبت ولا أربط جاشا من رجل رفع الى المنصور ان عنده ودائع وأموالا لبني أمية فامر باحضاره فاحضرته ودخلت به اليه فقال له المنصور قد رفع الينا خبر الودائع والاموال التي لبني أمية عندك فاخرج لنا منها فقال يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبني أمية قال لا قال فوصي قال لا قال فما سؤالك عما في يدي من ذلك قال فاطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال ان بني أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين في حقهم فاريد ان آخذ أموال المسلمين وأجعلها في بيت مالهم فقال يا أمير المؤمنين تحتاج في ذلك الى اقامة البينة العادلة على أن الذي في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين فان بني أمية كان لهم أموال غير أموال المسلمين قال فاطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه الي وقال صدق الرجل ياربيع ماوجب عليه عندنا شئ ثم بش في وجهه فقال هل لك من حاجة فقال نعم يا أمير المؤمنين حاجتي ان تنفذ كتابي مع البريد الى أهلي ليسكنوا الى سلامتي فقد راعهم اشخاصي وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين قال ماهي قال تجمع بيني وبين من سعى بي اليك فوالله مالبني أمية عندي ولا في يدي وديعة ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني رأيت ماقلته أقرب الى الخلاص والنجاة فقال ياربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما فقال هذا غلامي ضرب على ثلاثة آلاف من مالي وأبق فشدد المنصور على الغلام فاقر انه غلامه وانه أخذ المال الذي ذكره وابق منه وكذب عليه خوفا من الوقوع في يده فقال المنصور للرجل نسألك أن تصفح عنه فقال يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه وابرأته من المال وأعطيته ثلاثة آلاف دينار أخرى فقال المنصور ماعلى مافعلت مزيد في المكرم قال بلى يا أمير المؤمنين هذا حق كلامك وانصرف وكان المنصور يتعجب منه كلما ذكره ويقول مارأيت مثل هذا الرجل ياربيع *(رحلة الامام الشافعي رضي الله عنه)* قال الشيخ الامام العالم المقري أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الاردبيلي المالكي بالجامع العتيق بمصر في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن فتح المعروف بابن الحبشي سنة ثلاثين وخمسمائة أخبرنا الشريف القاضي الموسوي أبو اسماعيل موسى بن الحسين بن اسماعيل بن علي الحسيني المقري في سنة أربع وثمانين وأربعمائة بالجامع العتيق بمصر قال أخبرنا الشيخ أبو العباس أحمد بن ابراهيم الفارسي في ربيع الاول سنة احدى وخمسين وأربعمائة قال أخبرنا يحيى بن عبد الله الرجل الصالح ويحيى بن موسى المعدل بمصر قالا حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد الواعظ المصري الكراز قال حدثني أبو الفرج عبد الرزاق حميدان البطين قال حدثني أبو بكر محمد بن المنذر قال حدثني الربيع بن سليمان قال سمعت الامام الشافعي رضي الله عنه يقول فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة لانبات بعارضي من الابطح الى ذي طوى وعلى بردتان يمانيتان

فرأيت ركبانا فسلمت عليهم فردوا على السلام ووثب الى شيخ كان فيهم قال سألتك بالله الا
ما حضرت طعامنا قال الشافعى رضى الله عنه وما كنت أعلم انهم أحضروا طعاما فاجبت
مسرعا غير محتشم فرأيت القوم يأخذون الطعام بالخمس و يدفعون بالراحة فأخذت كأخذهم
كى لا يستبشع عليهم ما كلى والشيخ ينظر الى ثم أخذت السقاء فشربت وحمدت الله واثنيت
عليه فاقبل على الشيخ وقال أمكى أنت قلت مكى قال افرشى أنت قلت قرشى ثم أقبلت عليه
وقلت باعم بما استدللت على قل أما فى الحضر فبالزى وأما فى النسب فبأكل الطعام لانه من
أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه وذلك فى قريش خصوصا (قال الشافعى
رضى الله عنه) فقلت للشيخ من أين أنت قال من يثرب مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له
من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله تعالى والمفتى باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال سيد بنى أصبح مالك بن أنس رضى الله عنه قال الشافعى رضى الله عنه فقلت واشوقاه الى
مالك فقال لى قد بل الله شوقك انظر الى هذا البعير الاورق فانه أحسن جمالنا ونحن على
رحيل ولك منا حسن الصحبة حتى تصل الى مالك فما كان غير بعيد حتى قطروا بعضها الى بعض
وأركبونى البعير الاورق وأخذ القوم فى السير وأخذت أنا فى الدرس فختمت من مكة الى
المدينة ست عشرة ختمة بالليل ختمة و بالنهار ختمة ودخلت المدينة فى اليوم الثامن بعد صلاة
العصر فصليت العصر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودنوت من القبر فسلمت على
النبى صلى الله عليه وسلم ولذت بقبره فرأيت مالك بن أنس متزرا ببردة متشحا باخرى قال حدثنى
نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر وضرب بيده الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال
الشافعى) رضى الله عنه فلما رأيت ذلك هبته مهابة عظيمة وجلست حيث انتهى بى المجلس
فأخذت عودا من الارض فجعلت كلما أملى مالك حديثا كتبته بريقى على يدى والامام مالك
رضى الله عنه ينظر الى من حيث لا أعلم حتى انقضى المجلس وانتظرنى مالك ان أنصرف فلم
ير فى انصرفت فأشار الى فدنوت منه فنظر الى ساعة ثم قال أحرمى أنت فقلت حرمى قال أمكى
أنت قلت مكى قال افرشى أنت قلت قرشى قال كملت أوصافك لكن فيك اساءة أدب قلت
وما الذى رأيت من سوء أدبى قال رأيتك وأنا أملى ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام
تلعب بريقك على يدك فقلت له عدمت البياض فكنت أكتب ما تقول فجذب مالك
يدى اليه فقال ما أرى عليها شيئا فقلت ان الريق لا يثبت على اليد ولكن فهمت جميع
ما حدثت به منذ جلست وحفظته الى حين قطعت فتعجب الامام مالك من ذلك فقال أعد على
ولو حديثا واحدا (قال الشافعى رضى الله عنه) فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر
واشرت بيدى الى القبر كاشارته حتى اعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من حين
جلس الى وقت قطع المجلس وسقط القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال خذ بيد
سيدك اليك وسألنى النهوض معه (قال الشافعى) رحمه الله فقمت غير ممتنع الى ما دعا من
كرمه فلما أتيت الدار ادخلنى الغلام الى خلوة فى الدار وقال لى القبلة فى البيت هكذا وهذا
اناء فيه ماء وهذا بيت الخلاء (قال الشافعى) رضى الله عنه فما لبث مالك رضى الله عنه حتى أقبل
هو والغلام حاملا طبقا فوضعه من يده وسلم الامام على ثم قال للعبد اغسل علينا ثم وثب الغلام

الى الاناء وأراد ان يغسل على أولا فصاح عليه مالك وقال الغسل فى أول الطعام لرب البيت وفى آخر الطعام للضيف (قال الشافعى) رضى الله عنه فاستحسنت ذلك من الامام مالك رضى الله عنه وسألته عن شرحه فقال انه يدعو الناس الى كرمه فحكمه أن يبتدئ بالغسل وفى آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه (قال الشافعى رضى الله عنه) فكشف الامام رضى الله عنه الطبق فكان فيه صحفتان فى احداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لى يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل الى فقير معدم فقلت لا عذر على من أحسن انما العذر على من اساء (قال الشافعى رضى الله عنه) فأقبل مالك يسألنى عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عنى وقال حكم المسافر أن يقلل تعبه بالاضطجاع فنمت ليلتى فلما كان فى الثلث الاخير من الليل قرع على مالك الباب فقال لى الصلاة يرحمك الله فرأيته حامل اناء فيه ماء فتبشع على ذلك فقال لى لا يرعك ما رأيت فخدمة الضيف فرض (قال الشافعى) رضى الله عنه فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الامام مالك فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس لا يعرف بعضهم بعضا من شدة الغلس وجلس كل واحد منا فى مصلاه يسبح الله تعالى الى أن طلعت الشمس على رؤس الجبال فجلس مالك فى مجلسه بالامس وناولنى الموطأ أمليه واقرأه على الناس وهم يكتبونه (قال الشافعى) رضى الله عنه فأتيت على حفظه من أوله الى آخره واقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الانس الذى كان بيننا انا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة واستماع الموطا (قال الشافعى) فامليت عليهم حفظا منهم عبد الله ابن عبد الحكم وأشهب وابن القاسم قال الربيع واحسب انه ذكر الليث بن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم (قال الشافعى رضى الله عنه) فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيرا فسألته عن اسمه فاخبرنى وسألته عن بلده فقال العراق فقلت أى العراق فقال لى الكوفة فقلت من العالم بها والمتكلم فى نص الكتاب والمفتى باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبى حنيفة رضى الله عنه (قال الشافعى) رضى الله عنه فقلت ومتى عزمتم تظعنون فقال لى فى غداة غد وقت الفجر فعدت الى مالك فقلت له خرجت من مكة فى طلب العلم بغير استئذان العجوز أفأعود اليها أو ارحل فى طلب العلم فقال لى العلم فائدة يرجع منها الى فائدة ألم تعلم ان الملائكة تضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلبه (قال الشافعى رضى الله عنه) فلما ازمعت على السفر زودنى الامام مالك رضى الله عنه فلما كان فى السحر سار معى مشيعا الى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكرى راحلته الى الكوفة فاقبلت عليه وقلت بم تكترى وليس معك ولا معى شئ فقال لى انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة اذ قرع على قارع الباب فخرجت اليه فاصبت ابن القاسم فسألنى قبول هديته فقبلتها فدفع الى صرة فيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالى فاكترى لى بأربعة دنانير ودفع الى باقى الدنانير وودعنى وانصرف وصرت فى جملة الحاج حتى وصلت الى الكوفة يوم رابع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت العصر فبينما أنا كذلك

اذرأيت غلاما قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة فقمت اليه ناصحا فقلت له أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لى أنا أظن انك من أهل الحجاز لان فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلى هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدى محمد بن الحسن وأبى يوسف فما عابا على صلاتى قط وخرج معجبا ينفض رداءه فى وجهى فلقى للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد فقال علمتما فى صلاتى من عيب فقالا اللهم لا قال فى مسجدنا هذا من عاب صلاتى فقالا اذهب اليه فقل له بم تدخل الصلاة (قال الشافعى رضى الله عنه) فقال لى يا من عاب صلاتى بم تدخل فى الصلاة فقلت بفرضين وسنة فعاد اليهما واعلمهما بالجواب فعلما انه جواب من نظر فى العلم فقالا اذهب اليه فقل له ما الفرضان وما السنة فأتى الى فقال ما الفرضان وما السنة فقلت له أما الفرض الاول فالنية والثانى تكبيرة الاحرام والسنة رفع اليدين فعاد اليهما فاعلمهما بذلك فدخلا الى المسجد فلما نظرا الى أظنهما ازدريانى فجلسا ناحية وقالا اذهب اليه وقل له أجب الشيخين (قال الشافعى رحمه الله تعالى) فلما أتانى علمت انى مسؤل عن شئ من العلم فقلت من حكم العلم أن يؤتى اليه وما علمت لى اليهما حاجة (قال الشافعى) رضى الله عنه فقاما من مجلسهما الى فلما سلما على قمت اليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين يديهما فأقبل على محمد بن الحسن قال أحرمى أنت فقلت نعم فقال أعربى أم مولى فقلت عربى فقال من أى العرب فقلت من ولد المطلب قال من ولد من قلت من ولد شافع قال ارأيت مالكا هكذا وقعت هذه اللفظة قلت من عنده أتيت قال لى نظرت فى الموطا قلت أتيت على حفظه فعظم ذلك عليه ودعا بدواة وبياض وكتب مسئلة فى الطهارة ومسئلة فى الزكاة ومسئلة فى البيوع والفرائض والرهان والحج والايلاء ومن كل باب فى الفقه مسئلة وجعل بين كل مسئلتين بياضا ودفع الى الدرج وقال أجب عن هذه المسائل كلها من الموطا (قال الشافعى رضى الله عنه) فاجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه عليه السلام واجماع المسلمين فى المسائل كلها ثم دفعت اليه الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبده خذ سيدك اليك (قال الشافعى رضى الله عنه) ثم سألنى النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت الى الباب قال لى العبد ان سيدى أمرنى أن لا تصير الى المنزل الا راكبا (قال الشافعى رضى الله عنه) فقلت له قدم فقدم الى بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسى بالمهارة فطاف بى أزقة الكوفة الى منزل محمد بن الحسن فرأيت أبوابا ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة فذكرت ضيق أهل الحجاز وما هم فيه فبكيت وقلت أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل على محمد بن الحسن وأنا فى بكائى فقال لا يرعك يا عبد الله ما رأيت فما هو الا من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبنى الله فيها بفرض وانى أخرج زكاتها فى كل عام فاسر بها الصديق واكبت بها العدو (قال الشافعى رضى الله عنه) فما بت حتى كسانى محمد بن الحسن خلعة بألف درهم ثم دخل خزانته فاخرج الى الكتاب الاوسط تأليف الامام أبى حنيفة فنظرت فى أوله وفى آخره ثم ابتدأت الكتاب فى ليلتى احفظه فما أصبحت الا وقد حفظته ومحمد بن الحسن لا يعلم بشئ من ذلك وكان المشهور بالكوفة

بالفتوى والمجيب فى النوازل فانا قاعد عن يمينه فى بعض الايام اذ سئل عن مسئلة أجاب فيها
وقال هكذا قال أبو حنيفة فقلت له قد وهمت فى الجواب فى هذه المسئلة والجواب عن قول الرجل
كذا وكذا وهذه المسئلة تحتها المسئلة الفلانية وفوقها المسئلة الفلانية فى الكتاب الفلانى فامر
محمد بن الحسن بالكتاب فاحضر فتصفحه ونظر فيه فوجد القول كما قلت فرجع عن جوابه
الى ما قلت ولم يخرج الى كتابا بعد هذا قال الشافعى فاستأذنته فى الرحيل فقال ما كنت لآذن
لضيف بالرحيل عنى وبذل لى مشاطرة نعمته فقلت ما لذا قصدت ولا لذا أردت ولا رغبتى الا فى
السفر قال فأمر غلامه ان يأتى بكل مالى فى خزائنه من بيضاء وحمراء فدفع الى ما كان فيها وهو
ثلاثة آلاف درهم وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد الاعاجم وألقى الرجال
حتى صرت ابن احدى وعشرين سنة ثم دخلت العراق فى خلافة هرون الرشيد فعند دخول
الباب تعلق بى غلام فلاطفنى وقال لى ما اسمك فقلت محمد قال ابن من قلت ابن ادريس الشافعى
فقال مطلبى فقلت أجل فكتب ذلك فى لوح كان فى كمه وخلى سبيلى فأويت الى بعض المساجد
افكر فى عاقبة ما فعل حتى اذا ذهب من الليل النصف كبس المسجد وأملوا نا ملون وجه
كل رجل حتى أتوا الى فقالوا للناس لا بأس عليكم هذا هو الحاجة والعاية المطلوبة ثم أقبلوا
على وقالوا أجب أمير المؤمنين فقمت غير ممتنع فلما بصرت بامير المؤمنين سلمت عليه سلاما بينا
فاستحسن الالفاظ ورد على الجواب ثم قال تزعم انك من بنى هاشم فقلت يا أمير المؤمنين كل زعم
فى كتاب الله باطل فقال أبن لى عن نسبك فانتسبت حتى لحقت آدم عليه السلام فقال لى الرشيد
ما تكون هذه الفصاحة ولا هذه البلاغة الا فى رجل من ولد المطلب هل لك ان أوليك قضاء
المسلمين وأشاطرك ما أنا فيه وتنفذ فيهم حكمك وحكمى على ما جاء به الرسول عليه السلام
واجتمعت عليه الامة فقلت يا أمير المؤمنين لو سألتنى ان افتح باب القضاء بالغداة وأغلقه
بالعشى بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبدا فبكى الرشيد وقال تقبل من عرض الدنيا شيأ هكذا
وردت هذه اللفظة قلت يكون معجلا فامر لى بألف دينار فما برحت من مقامى حتى قبضتها ثم
سألنى بعض الغلمان والحشم ان أصلهم من صلتى فلم تسع المروءة ان كنت مسؤلا غير المقاسمة
فيما أنعم الله به على فخرج لى قسم كاقسامهم ثم عدت الى المسجد الذى كنت فيه فى ليلتى فتقدم
يصلى بنا غلام صلاة الفجر فى جماعة فاجاد القراءة ولحقه سهو ولم يدر كيف الدخول ولا كيف
الخروج فقلت له بعد السلام افسدت علينا وعلى نفسك أعد فاعاد مسرعا وأعدنا ثم قلت له
أحضر يا هذا العمل لك باب السهو فى الصلاة والخروج منها فسارع الى ذلك ففتح الله عز وجل
فالفت له كتابا من كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام واجماع المسلمين وسميته باسمه وهو
أربعون جزأ يعرف بكتاب الزعفران وهو الذى وضعته بالعراق حتى تكامل فى ثلاث سنين
وولانى الرشيد الصدقات بنجران وقدم الحاج فخرجت أسألهم عن الحجاز فرأيت فتى فى قبته
فلما أشرت اليه بالسلام أمر قائد القبة ان يقف واشار الى بالكلام فسألته عن الامام مالك
وعن الحجاز فأجاب بخير ثم عاودته الى السؤال عن مالك فقال لى أشرح لك أو أختصر قلت فى
الاختصار البلاغة فقال فى صحة جسم وله ثلثمائة جارية تبيت عند الجار ية ليلة فلا يعود
اليها الى سنة فقد اختصرت لك خبره (قال الشافعى رضى الله عنه) فاشتهيت ان أراه فى حال

غناه كما رأيته في حال فقره فقلت له أما عندك من المال ما يصلح للسفر فقال انك لتوحشني خاصة وأهل العراق عامة وجميع مالي فيه لك فقلت له فيم تعيش قال بالجاه ثم نظر الى وحكمني في ماله فأخذت منه على حسب الكفاية والنهاية وسرت على ديار ربيعة ومضر فاتيت حران ودخلتها يوم الجمعة فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه فقصدت الحمام فلما سكبت الماء رأيت شعر رأسي شعثا فدعوت المزين فلما بدأ برأسي وأخذ القليل من شعري دخل قوم من أعيان البلد فدعوه الى خدمتهم فسارع اليهم وتركني فلما قضوا ما أرادوا منه عاد الى لما أردته وخرجت من الحمام فدفعت اليه أكثر ما كان معي من الدنانير وقلت له خذ هذه واذا وقف بك غريب لا تحتقره فنظر الى متعجبا فاجتمع على باب الحمام خلق كثير فلما خرجت عاتبني الناس فبينما أنا كذلك اذ خرج بعض من كان في الحمام من الاعيان فقدمت له بغلة ليركبها فسمع خطابي لهم فانحدر عن البغلة بعد ان استوى عليها وقال لي انت الشافعي فقلت نعم فدار الركاب مما يليني وقال بحق الله اركب ومضى بي الغلام مطرقا بين يدي حتى أتيت الى منزل الفتى ثم أتى وقد حصلت في منزله فاظهر البشاشة ثم دعا بالغسل فغسل علينا ثم حضرت المائدة فسمى وجبست يدي فقال مالك يا عبد الله فقلت له طعامك حرام على حتى أعرف من أين هذه المعرفة فقال انا ممن سمع منك الكتاب الذي وضعته ببغداد وأنت لي أستاذ (قال الشافعي رضي الله عنه) فقلت العلم بين أهل العقل رحم متصلة فما كانت بفرحة اذلم يعرف الله تعالى الا بيني وبين أبناء جنسي وأقمت ضيفه ثلاثا فلما كان بعد ثلاث قال ان لي حول حران أربع ضياع ما بحران أحسن منها اشهد الله ان اخترت المقام فانها هدية مني اليك فقلت فيم تعيش قال بما في صناديقي تلك وأشار اليها وهي اربعون ألف درهم وقال أتجربها فقلت ليس الى هذا قصدت ولا خرجت من بلدي لغير طلب العلم فقال لي فالمال اذا من شأن المسافر فقبضت الاربعين ألفا وودعته وخرجت من مدينة حران وبين يدي احمال ثم تلقاني الرجال وأصحاب الحديث منهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة والاوزاعي فاجزت كل واحد منهم على قدر ما قسم له حتى دخلت مدينة الرملة وليس معي الا عشرة دنانير فاشتريت بها راحلة واستويت على كورها وقصدت الحجاز فما زلت من منهل الى منهل حتى وصلت الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم بعد سبعة وعشرين يوما بعد صلاة العصر فصليت العصر ورأيت كرسيا من الحديد عليه مخدة من قباطي مصر مكتوب عليها لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الشافعي رضي الله عنه وحوله أربعمائة دفتر أو يزدن وبينما أنا كذلك اذ رأيت مالك بن أنس رضي الله عنه قد دخل من باب النبي صلى الله عليه وسلم وقد فاح عطره في المسجد وحوله أربعمائة أو يزيدون يحمل ذيله منهم أربعة فلما وصل قام اليه من كان قاعدا وجلس على الكرسي فالقى مسئلة في جراح العمد فلما سمعت ذلك لم يسعني الصبر فقمت قائما في سور الحلقة فرأيت انسانا فقلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب قبل فراغ مالك من السؤال فاضرب عنه مالك وأقبل على أصحابه فسألهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل ففرح الجاهل باصابته فلما ألقى السؤال الثاني أقبل على الجاهل يطلب مني الجواب فقلت له الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فلم يلتفت اليه مالك وأقبل على أصحابه واستخبرهم

عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل (قال الشافعي رضي الله عنه) فلما ألقى السؤال الثالث قلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فأعرض مالك عنهم وأقبل على أصحابه فخالفوه فقال أخطأتم وأصاب الرجل ثم قال للرجل ادخل ليس ذلك موضعك فدخل الرجل طاعة منه لمالك وجلس بين يديه فقال له مالك قرأت الموطأ قال لا قال فنظرت ابن جريج قال لا قال فلقيت جعفر بن محمد الصادق قال لا قال فهذا العلم من أين قال الى جانبي غلام شاب يقول لي قل الجواب كذا وكذا فكنت أقول قال فالتفت مالك والتفت الناس بأعناقهم لالتفات مالك رضي الله عنه فقال للجاهل قم فأمر صاحبك بالدخول الينا (قال الشافعي) رضي الله عنه فدخلت فاذا أنا من مالك بالموضع الذي كان الجاهل فيه جالسا بين يديه فتأملني ساعة وقال أنت الشافعي فقلت نعم فضمني الى صدره ونزل عن كرسيه وقال أتمم هذا الباب الذي نحن فيه حتى تنصرف الى المنزل الذي هو لك المنسوب الى (قال الشافعي) رضي الله عنه فألقيت أربعمائة مسئلة في جراح العمد فما أجابني أحد بجواب واحتجت ان آتي بأربعمائة جواب فقلت الاول كذا وكذا والثاني كذا وكذا حتى سقط القرص وصلينا المغرب فضرب مالك بيده الى فلما وصلت المنزل رأيت بناء غير الاول فبكيت فقال مم بكاؤك كأنك خفت يا أبا عبد الله ان قد بعت الآخرة بالدنيا قلت هو والله ذلك قال طب نفسا وقر عينا هذه هدايا خراسان وهدايا مصر والهدايا تجيء من أقاصي الدنيا وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويرد الصدقة وان لي ثلثمائة خلعة من رق خراسان وقباطي مصر وعندي عبيد بمثلها لم تستكمل الحلم فهم هدية مني اليك وفي صناديقي تلك خمسة آلاف دينار اخرج زكاتها عند كل حول فلك مني نصفها قلت انك موروث وأنا موروث فلا يبيت جميع ما وعدتني به الا تحت خاتمي ليجري ملكي عليه فان حضرني أجلي كان لوارثي دون ورثتك وان حضرك أجلك كان لي دون ورثتك فتبسم في وجهي وقال أبيت الا العلم فقلت لا يستعمل أحسن منه ومابت الا وجميع ما وعدني به تحت ختمي فلما كان في غداة غد صليت الفجر في جماعة وانصرفت الى المنزل أنا وهو وكل واحد منا يده في يد صاحبه اذ رأيت كراعا على بابه من جياد خراسان وبغالا من مصر فقلت له ما رأيت كراعا أحسن من هذا فقال هو هدية مني اليك يا أبا عبد الله فقلت له دع لك منها دابة فقال اني استحي من الله ان أطأ تربة فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة (قال الشافعي رضي الله عنه) فعلمت أن ورع الامام مالك باق على حاله فأقمت عنده ثلاثا ثم ارتحلت الى مكة وأنا أسوق خير الله ونعمه ثم انفذت من يعلم بخبري فلما وصلت الى الحرم خرجت العجوز ونسوة معها فضمتني الى صدرها وضمتني بعدها عجوز كنت آلفها دعوها خالتي (وقالت)

ليس امك احتاجت المنايا * كل فؤاد عليك أم

(قال الشافعي رضي الله عنه) وهي أول كلمة سمعتها في الحجاز من امرأة فلما هممت بالدخول قالت لي العجوز الى أين عزمت فقلت الى المنزل فقالت هيهات تخرج من مكة بالامس فقيرا وتعود اليها مثريا تفتخر على بني عمك بذلك فقلت ما أصنع فقالت ناد بالابطح في العرب باشباع الجائع وحمل المنقطع وكسوة العراة فتربح ثناء الدنيا وثواب الآخرة ففعلت ما أمرتني به وسار بذلك الفعل الرجال على آباط الابل وبلغ ذلك مالكا فبعث الي يستحثني على الفعل ويعدني

انه يحمل الى فى كل عام مثل ما صار الى منه وما دخلت الى مكة وأنا أقدر على شئ مما جاء معى الا على بغلة واحدة وخمسين دينارا فوقعت القرعة فينا وتمنى اباها أمه على كتفها قربة فاخرجت لها خمسة دنانير فقالت لى ا العجوز ما أنت صانع فقلت أجيزها على فعلها فقالت ادفع اليها جميع ما تأخر معك قال فدفعت اليها ودخلت الى مكة فما تلك الليلة الا مديونا وأقام مالك رضى الله عنه يحمل الى فى كل عام مثل ما كان دفع الى أولا احدى عشرة سنة فلما مات ضاق بى الحجاز وخرجت الى مصر فعرف رضى الله عبد الله بن عبد الحكم فقام بالكلفة فهذا جميع ما لقيته فى سفرى فافهم ذلك يا ربيع قال الربيع وسألنى المزنى املاء ذلك بحضرته فما وجدنا المجلس فرغنا وقع كتاب السفر الى أحد غيرى (ومن لطائف المنقول) ما نقله القرطبى فى كتابه المسمى بالاعلام عن صدق محبة أبى طالب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج الى الكعبة يوما وأراد ان يصلى فلما دخل فى الصلاة قال أبو جهل لعنه الله من يقوم الى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته فقام عبد الله بن الزبعرى وأخذ فرثا ودما فلطخ به وجه النبى صلى الله عليه وسلم فانفتل النبى صلى الله عليه وسلم من صلاته وأتى الى أبى طالب عمه وقال ياعم الا ترى ما فعل بى فقال له أبو طالب من فعل بك هذا فقال النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن الزبعرى فقام أبو طالب فوضع سيفه على عاتقه ومشى حتى أتى القوم فلما رأوه قد أقبل نهضوا له فقال أبو طالب والله ان قام رجل جللته بسيفى هذا ثم قال يابنى من الفاعل بك هذا فقال عبد الله بن الزبعرى فأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ وجوههم ولحاهم وثيابهم واساء لهم القول فنزلت هذه الآية الشريفة وهم ينهون عنه وينأون عنه فقال النبى صلى الله عليه وسلم ياعم نزلت فيك آية قال وما هى قال تمنع قريشا ان يؤذونى وتأبى ان تؤمن بى فقال أبو طالب

والله لن يصلوا اليك بجمعهم * حتى أوسد فى التراب دفينا
فامضى لامرك قد زعمتك ناصحى * فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بانه * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة * لوجدتنى سمحا بذاك يقينا

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله هل تنفع نصرتك أبى طالب قال نعم رفع عنه بذلك الفعل انه لم يقرن مع الشياطين ولم يدخل جب الحيات والعقارب انما عذابه فى نعلين من نار فى رجليه يغلى منهما دماغه وهو أهون أهل النار عذابا (وفى) صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى طالب قل لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة فقال أبو طالب لولا ان يعايرونى بها يعنى قريشا يقولون انما حمله الجزع لاقررت بها عينك فأنزل الله تعالى انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء (وأما) عبد الله بن الزبعرى فانه أسلم عام الفتح وحسن اسلامه واعتذر الى النبى صلى الله عليه وسلم فقبل عذره وكان شاعرا مجيدا فقال يمدح النبى صلى الله عليه وسلم بابيات منها فى حكاية حاله

انى لمعتذر اليك من الذى * أسديت اذ أنا فى الضلال مقيم
فاغفر فداك والدى كلاهما * وارحم فانك راحم مرحوم

(ومن غريب مانقله القرطبي في الاعلام) ان الانصار الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم كانوا من أولاد العلماء والحكماء الذين كانوا مع تبع الاول فيما ذكر ابن اسحق وكان تبع من الخمسة الذين كانت لهم الدنيا باسرها وكان كثير الوزراء فاختار منهم واحدا وأخرجه معه لينظر في ملكه فكان اذا أتى بلدة يختار من حكمائها عشرة رجال وكان معه من العلماء والحكماء مائة ألف رجل ثم الذين اختارهم من البلدان وهذا القدر غير محسوب من الجيش فلما انتهى الى مكة لم تخضع له أهل مكة كخضوع أهل البلاد ولم تعظمه فغضب لذلك ودعا وزيره وكان اسمه عماريا فقال له كيف شاهدت هذه البلدة فانهم لم يهابوني ولم يخشوا عسكري فقال انهم عرب لا يعرفون شيأ ولهم بيت يقال له الكعبة وهم معجبون به ويسجدون فيه للاصنام قال فنزل الملك بعسكره ببطحاء مكة وعزم على هدم البيت وقتل الرجال وسبي النساء فاخذه الله بالصداع وتفجر من عينيه واذنيه ومنخريه وفمه ماء منتن فلم يصبر عنده أحد طرفة عين من نتن الريح فاستيقظ لذلك وقال لوزيره اجمع العلماء والحكماء والاطباء وتكلم معهم في أمري فاجتمع عنده العلماء والحكماء والاطباء فلم يقدروا على الجلوس عنده ساعة وعجزوا عن مداواته وقالوا نحن نقدر على مداواة ما يعرض من أمور الارض وهذا شيء من السماء لا نستطيع له ردا ثم اشتد أمره ونفرت الناس عنه ولم يزل أمره في شدة حتى أقبل الليل فجاء أحد العلماء الى وزيره فقال له ان بيني وبينك سرا وهو ان كان الملك يصدقني في حديثه عالجته فاستبشر الوزير بذلك وقال له قل ما شئت فقال أريد الخلوة فاخلى له المكان فلما خلا مجلس الملك قال له العالم أيها الملك أنت نويت لهذا البيت سوأ قال نعم نويت خرابه وقتل رجاله وسبي نسائه فقال له العالم أيها الملك هذه النية هي التي أحدثت لك هذا الداء ورب هذا البيت قادر يعلم الاسرار فبادر وأخرج من قلبك ما هممت به من أمر هذا البيت وأهله ولك خير الدنيا والآخرة قال الملك قد أخرجت ذلك من قلبي ونويت لهذا البيت المبارك ولاهله كل خير فلم يخرج العالم من عنده حتى برأ من علته وعافاه الله تعالى بقدرته فآمن بالله من ساعته وخلع على الكعبة سبعة أثواب وهو أول من كسا الكعبة وخرج الى يثرب وهي يومئذ بقعة فيها عين ماء ليس فيها بيت فنزل على رأس العين هو وعسكره وجميع العلماء الذين كانوا معه ومعهم رئيسهم عماريا الذي يرى الملك برأيه ثم ان العلماء والحكماء أخرجوا من بينهم أربعمائة وهم اعلمهم وبايع كل واحد منهم صاحبه ان لا يخرجوا من ذلك المقام وان قتلهم الملك فلما علم الملك بما عزموا عليه قال للوزير ما شأنهم يمتنعون عن الخروج معي وأنا محتاج اليهم وأي حكمة اقتضت نزولهم في هذا المكان واختيارهم اياه على سائر النواحي فسألهم الوزير عن ذلك فقالوا أيها الوزير ان ذلك البيت وهذه البقعة التي نحن فيها يشرفان برجل يبعث في آخر الزمان يقال له محمد ووصفوه له ثم قالوا طوبى لمن أدركه وآمن به ونحن على رجاء ان ندركه أو تدركه أولادنا فلما سمع الوزير مقالتهم هم بالمقام معهم فلما جاء وقت الرحيل أمرهم الملك ان يرتحلوا فقالوا لا نفعل وقد أعلمنا الوزير بحكمة مقامنا فدعا بالوزير فاخبره بما سمع منهم فتفكر الملك وهم ان يقيم معهم رجاء ان يدرك محمدا صلى الله عليه وسلم فاقام وأمر الناس ان يبنوا أربعمائة دار على عدة العلماء والحكماء واشترى لكل واحد منهم جارية وأعتقها وزوجها برجل منهم وأعطى كل واحد منهم

عطاء جزيلا وامرهم أن يقيموا في ذلك المكان الى ان يجيء زمان النبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب الكتاب وختمه بخاتم من ذهب ودفعه الى عالمهم الكبير وأمره ان يدفع الكتاب الى محمد صلى الله عليه وسلم ان أدركه والا فيوصي به أولاده مثل ما أوصاه به وكذلك الاولاد حتى يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك الكتاب (أما بعد) فاني آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك وأنا على دينك وسنتك وآمنت بربك وبكل ما جاء من ربك من شرائع الايمان والاسلام فان أدركتك فبها ونعمت والا فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة فاني من أمتك الاولين وقد بايعتك قبل مجيئك وأنا على ملتك وملة أبيك ابراهيم عليه السلام ثم ختم الكتاب ونقش عليه لله الامر من قبل ومن بعد وكتب عنوانه الى محمد بن عبد الله ونبي الله ورسوله وخاتم النبيين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم من تبع الاول الحميري ودفع الكتاب الى الرجل العالم الذي ابرأه من علته وسار تبع من يثرب حتى وصل الى بلاد الهند ومات بها وكان من اليوم الذي مات فيه تبع الى اليوم الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا تزيد ولا تنقص وكانت الانصار الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم من أولاد أولئك العلماء والحكماء فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة تسأله أهل القبائل ان ينزل عليهم فكانوا يتعلقون بناقته وهو يقول خلوا الناقة فانها مأمورة حتى جاءت الى دار أبي أيوب وكان من أولاد العالم الذي ابرأ تبعا برايه ثم استشار الانصار عبد الرحمن بن عوف في ايصال الكتاب الى النبي صلى الله عليه وسلم لما ظهر خبره قبل هجرته فأشار عبد الرحمن ان يدفعوه الى رجل ثقة فاختاروا رجلا يقال له أبو ليلى وكان من الانصار فدفعوا الكتاب اليه وأوصوه بحفظه فأخذ الكتاب وخرج من المدينة على طريق مكة فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في قبيلة بني سليم فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه وقال أنت أبو ليلى قال نعم قال ومعك كتاب تبع الاول قال نعم فبقي أبو ليلى متفكرا وقال في نفسه ان هذا من العجائب ثم قال له أبو ليلى من أنت فاني لست أعرف وتوهم انه ساحر وقال في وجهك اثر السحر فقال له بل أنا محمد رسول الله هات الكتاب فاخرجه ودفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذه النبي صلى الله عليه وسلم ودفعه الى علي كرم الله وجهه فقرأه عليه فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم كلام تبع قال مرحبا بالاخ الصالح ثلاث مرات ثم أمر أبا ليلى بالرجوع الى المدينة ليبشرهم بقدومه عليهم (قال أبو عبد الله محمد القرطبي نور الله ضريحه) ماذكرت هذا الخبر وان كان فيه طول الالما احتوى عليه من فضل مكة والمدينة والتصديق بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم قبل ايجاده بألف عام (ومن لطائف مانقلته من كتاب الاعلام للقرطبي) ما اورده من مسند أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه الى آخر الآية ان أول من جحد الدين آدم عليه السلام لانه لما أراه الله تعالى ذريته رأى فيهم رجلا ازهر ساطع النور فقال يارب من هذا قال ابنك داود قال يارب فما عمره قال ستون سنة قال يارب زد في عمره قال لا الا أن تزيده من عمرك قال وما عمري قال ألف سنة قال آدم فقد وهبته أربعين سنة قال فكتب الله عليه كتابا وأشهد عليه ملائكته فلما حضرته الوفاة قال بقي من عمري أربعون سنة فقيل له

قد وهبتها الابنك داود وقال ما وهبت لاحد شيئا فاخرج الله ذلك الكتاب وفيه شهادة الملائكة (وفي رواية) ان الله جل جلاله اتم لداود مائة سنة ولآدم ألف سنة خرجه الترمذي بمعناه وصححه وفيه فقال عليه السلام نسي آدم فنسيت ذريته وجحد آدم فجحدت ذريته والله أعلم (ومن لطائف الغرائب المنقولة من كتاب الاعلام للقرطبي) ان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه مدح النبي صلى الله عليه وسلم بأبيات على قافية بديعة أعجبت النبي صلى الله عليه وسلم منها قوله

وأنت لما ولدت اشرقت الا رض وضاءت بنورك الافق

فنحن في ذلك الضياء وفي النـور وسبل الرشاد نخترق

فقال يا عم لكل شاعر جائزة وجائزتك ان الخلافة في عقبك الى يوم القيامة (ومن غريب التفسير) ما نقلته من الاعلام ان في قوله تعالى ووجدك ضالا فهدى أقوالا ذكرت في أحكام مخارج القرآن احسنها ماذكره بعض المتكلمين ان العرب كانت اذا وجدت شجرة منفردة في فلاة من الارض لاشجر معها سموها ضالة فيهتدى بها على الطريق فقال الله تعالى لنبيه ووجدك ضالا فهدى أي وجدتك لا أحد على دينك فهديت بك الخلق الى الحق (قلت) قد تقدم الكلام في سعادة العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وما نال بالاسلام من العز وقول النبي صلى الله عليه وسلم ان الخلافة في عقبك الى يوم القيامة (وتقدم) ذكر شقوة عمه أبي طالب بالشرك مع حمايته ورعايته لجانب النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي تقدم قوله مشيرا الى قريش في خطابه الى النبي صلى الله عليه وسلم

والله لن يصلوا اليك بجمعهم * حتى أوسد في التراب دفينا

(قال السهيلي) نور الله ضريحه في الروض الأنف هذا من باب النظر في حكمة الله (ونقل) في الروض الانف أيضا عن هشام بن السائب ان أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع وجوه قريش وقال لهم انكم صفوة الله من خلقه وقلب العرب وفيكم السيد المطاع وفيكم المتقدم الشجاع والواسع الباع لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبا الا أحرزتموه ولا شرفا الا أدركتموه فلكم على الناس بذلك الفضيلة ولهم به اليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حربكم الب واني أوصيكم بتعظيم هذه البنية فان فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش وثباتا للوطأة صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فان في صلة الرحم منسأة في الاجل وزيادة في العدد واتركوا البغي والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم واجيبوا الداعي وأعطوا السائل فان فيهما شرف الحياة والممات وعليكم بصدق الحديث واداء الامانة فان فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام وأنا أوصيكم بمحمد خيرا فانه الامين في قريش والصديق في العرب وهو جامع لكل ما أوصيكم به وقد جاء بامر قبله الجنان وانكره اللسان مخافة الشنآن وأيم الله كاني انظر الى صعاليك العرب وأهل البر في الاطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا امره فخاض بهم غمرات فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا واذا أعظمهم عليه أحوجهم اليه وابعدهم منه احظاهم عنده قد محضته العرب ودادها واصفت له فؤادها واعطته قيادها دونكم يا معاشر قريش ابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا يسلك أحد منكم سبيله الا رشد ولا يأخذ أحد بهديه الا سعد ولو

كان لنفسي مدة ولا جلي تأخير لكفيت عنها الهزاهز ولدافعت عنه الدواهي ثم هلك

﴿ ومن شهي المجتنى من ثمرات الاوراق ﴾

ماروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه انه مر على طائفة بالمدينة أيام خلافته فاذا بجارية تبكي وتقول

وهويته من قبل قطع تمائمي * متناشيا مثل القضيب الناعم

فكان نورا لبدر سنة وجهه * يمشي و يصعد من ذؤابة هاشم

فقرع الباب فخرجت اليه فقال لها احرة أنت أم أمة فقالت بل أمة يا صاحب رسول الله فقال من هويت فبكت وقالت بحق صاحب هذا القبر الا انصرفت عني فقال لست بمنصرف من مكاني حتى تعلميني وتقولي فقالت

وانا الذي عمل الفراق بقلبها * فبكت بحب محمد بن القاسم

فسار أبو بكر رضي الله عنه الى المسجد و بعث الى مولاها فاشتراها منه و بعث بها الى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب عفى عنه

﴿ ومن مناقب الامام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ﴾

في فتح بيت المقدس ان المسلمين تكامل لهم فتوح الشام فاقاموا على دمشق شهرا فجمع أبو عبيدة امراء المسلمين واستشارهم في المسير الى قيسارية أو الى بيت المقدس فقال له معاذ بن جبل أيها الامير اكتب الى أمير المؤمنين عمر فحيث أمرك امتثله قال له أصبت الرأي يا معاذ ثم كتب الى أمير المؤمنين عمر يعلمه بذلك وأرسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعي فسار حتى وصل المدينة فسلم الكتاب الى عمر رضي الله عنه فقرأه على المسلمين واستشارهم فقال علي رضي الله عنه يا أمير المؤمنين مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين الى بيت المقدس فاذا فتح الله بيت المقدس صرف وجهه الى قيسارية فانها تفتح بعدها ان شاء الله تعالى كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر صدق المصطفى صلى الله عليه وسلم وصدقت أنت يا أبا الحسن ثم دعا بدواة و بياض وكتب بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر الى عامله بالشام أبي عبيدة أما بعد فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه وقد وصلني كتابك تستشيرني الى أي ناحية تتوجه وقد أشار ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسير الى بيت المقدس فان الله يفتحها على يديك والسلام فلما وصل الكتاب الى أبي عبيدة قرأه على المسلمين ففرحوا بالمسير الى بيت المقدس وتقدمه الجيش الى بيت المقدس وأقام المسلمون في القتال عشرة أيام وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح لعدم الخوف فلما كان في اليوم الحادي عشر أشرفت عليهم راية أبي عبيدة وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن يساره فضج الناس ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير فوقع الرعب في أهل بيت المقدس فاجتمعوا بقمامة وهي البيعة المعظمة عندهم فلما وقفوا بين يدي البطرك قال لهم ماهذه الضجة التي أسمع قالوا يا أبانا قد قدم أمير القوم ببقية المسلمين فلما سمع البطرك منهم ذلك انخطف لونه وتغير وجهه وقال انا وجدنا في علمنا الذي ورثناه ان الذي يفتح الارض هو الرجل الاسمر صاحب نبيهم محمد فان كان قدم عليكم فلا سبيل الى قتاله

ولابدأن أشرف عليه وأنظر الى صفته فان كان هو أجبته الى مايريدوان كان غيره فلا بأس عليكم ثم وثب قائماو القسوس والرهبان والشمامسة من حوله وقد رفعوا الصلبان على رأسه فصعدوا الى السور الى ان ورد أبوعبيدة رضي الله عنه فناداهم رجل من الروم باذن البطرك يامعاشر المسلمين كفوا عن القتال حتى نسالكم فامسك المسلمون عنهم فناداهم الرجل بلسان عربي اعلموا أن الرجل الذي يفتح بلدتنا هذه وجميع الارض صفته عندنا فان كانت في أميركم لم نقاتلكم بل نسلم اليكم وان لم تكن هذه صفته فلا نسلم اليكم أبدا فاعلم المسلمون أباعبيدة بذلك فخرج أبوعبيدة اليهم الى أن حاذاهم فنظر البطرك وحقق صورته فقال ليس هو الرجل فابشروا وقاتلوا عن دينكم وحريمكم وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في فصل الشتاء والبرد فاقاموا عليها أربعة أشهر في أشد قتال مع الصبر على المطر والثلج فلما نظر أهل بيت المقدس الى شدة الحصار في ذلك الفصل الصعب وما نزل بهم من المسلمين وقفوا بين يدي البطرك وقالوا له قد عظم الامر ونريد منك أن تشرف على القوم وتسأل ما الذي يريدون فان كان أمرا صعبا فتحنا الابواب وخرجنا اليهم فامانقتل عن آخرنا أونهزمهم عنا فاجابهم البطرك الى ذلك وصعد السور واجتمع القسيسون والرهبان حوله ونادى منهم رجل بالعربي وقال يامعاشر الفرسان عمدة دين النصرانية قد أقبل يخاطبكم فليدن منا أميركم فقام أبوعبيدة يمشي ومعه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان فلما وقف بازائهم قال ما الذي تريدون هذا أمير العرب فقال البطرك انكم لوأقمتم علينا عشرين سنة لم تصلوا الى فتح بلدتنا أبدا وانما يفتحه رجل موصوف وليست الصفة معكم قال أبوعبيدة وماصفة من يفتح بلدكم قال البطرك لانخبركم بصفته ولكن قرأنا ان هذا البلد يفتحه صاحب محمد اسمه عمر بن الخطاب ويعرف بالفاروق وهورجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم فلما سمع أبوعبيدة كلام البطرك تبسم وقال فتحنا البلد ورب الكعبة ثم أقبل على البطرك وقال ان رأيت الرجل تعرفه قال نعم وكيف لا أعرفه وصفته عندنا قال أبوعبيدة هو والله خليفتنا وصاحب نبينا صلى الله عليه وسلم قال البطرك فاذا كان الامر على ما ذكرتم فاحقن الدماء وابعث الى صاحبك يأتي فاذا رأيناه وتبينا نعته فتحنا له البلد وأعطيناه الجزية فانصرف أبوعبيدة وأمر الناس بالكف عن القتال وأعلمهم بالخبر فكبروا وكتب أبوعبيدة الى الامام عمر رضي الله عنه يعلمه بالخبر على يد ميسرة بن مسروق فلما وصل الكتاب الى عمر رضي الله عنه فرح وقرأه على المسلمين (وقال) ماترون رحمكم الله فيما كتب الينا أمين الامة فكان أول من تكلم عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال ياأمير المؤمنين ان الله قد أذل الروم فان أنت أقمت ولم تسر اليهم علموا انك بأمرهم مستخف فلا يلبثون الا يسيرا فلما سمع عمر ذلك من عثمان جزاه خيرا وقال هل عند أحد منكم رأى غيرهذا فقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه نعم عندي غيرهذا الرأي وأنا أبديه اليك رحمك الله فقال له عمر وماهو ياأبا الحسن قال ان القوم قد سألوك وفي سؤالهم ذل وهو على المسلمين فتح وقد أصابهم جهد عظيم البرد والقتال وطول المقام وان صرت اليهم فتح الله على يديك هذه المدينة وكان لك في مسيرك الاجر العظيم ولست آمن منهم انهم اذا أيسوا

منك أن يأتيهم المدد من طاغيتهم فيحصل للمسلمين بذلك الضرر والصواب ان تسير اليهم ففرح عمر بمشورة علي وقال لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو وعلي أحسن النظر للمسلمين جزاهما الله خيرا ولست آخذ الا بمشورة علي فما عرفناه الا محمود المشورة ميمون الطلعة ثم ان عمر أمر الناس أن يأخذوا الاهبة للسير معه واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب وخرج من المدينة وهو على بعير له أحمر عليه غرارتان في احداهما سويق وفي الاخرى تمر وبين يديه قربة وخلفه جفنة للزاد وسار الى أن أقبل على بيت المقدس فالتقاه أبو عبيدة فلما رآه أناخ قلوصه وأناخ عمر بعيره وترجلا ومد أبو عبيدة يده وصافح عمر وتعانقا وسلم كل منهما على صاحبه وأقبل المسلمون يسلمون على عمر ثم ركبوا جميعا الى ان نزلوا فصلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم فلما فرغ من خطبته جلس وأبو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم الى ان حضرت صلاة الظهر أذن بلال في ذلك اليوم فلما قال الله أكبر خشعت جوارحهم واقشعرت أبدانهم فلما قال أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله بكى الناس بكاء شديدا عند ذكر الله وذكر رسوله وكاد بلال أن يقطع الاذان فلما فرغ الاذان صلى عمر وجلس ثم أمرهم بالركوب فلما هم بالركوب على بعيره وعليه مرقعة الصوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من أدم قال المسلمون يا أمير المؤمنين لو ركبت غير بعيرك جوادا ولبست ثيابا بيضا لكان ذلك أعظم لهيبتك في قلوب أعدائك واقبلوا يسألونه ويتلطفون به الى ان أجابهم الى ذلك ونزع مرقعته ولبس ثيابا بيضا قال الزبير أحسبها كانت من ثياب مصر تساوي خمسة عشر درهما وطرح على كتفه منديلا من الكتان دفعه اليه أبو عبيدة وقدم له برذونا أشهب من براذين الروم فلما صار عمر فوقه جعل البرذون يهملج به فلما نظر عمر الى ذلك نزل مسرعا وقال أقيلوني عثرتي أقالكم الله عثراتكم يوم القيامة لقد كاد أميركم يهلك مما داخله من الكبر ثم انه نزع البياض وعاد الى لبس مرقعته وركوب بعيره فعلت ضجة المسلمين بالتهليل والتكبير فقال البطرك للروم انظروا ما شأن العرب فأشرف رجل من المتنصرة فقال يا معاشر العرب ما قضيتكم فقالوا ان عمر بن الخطاب قد قدم علينا من مدينة نبينا صلى الله عليه وسلم فرجع المتنصر وأعلم البطرك فأطرق ولم يتكلم فلما كان من الغد صلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم قال لابي عبيدة تقدم الى القوم وأعلمهم اني قد أتيت فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أتى فما تصنعون فيما قلتم فاعلم البطرك بذلك فخرج من قمامة وعليه المسوح ومن حوله الرهبان والقسس ثم علا السور وأشرف على أبي عبيدة وقال ما هذا أيها الشيخ قال أبو عبيدة هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال البطرك قل له يدنو مني فانا نعرفه بصفاته ونعته وأفردوه من بينكم حتى نراه فرجع أبو عبيدة الى عمر فاخبره بما قال البطرك فهم عمر بالقيام فقال له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نخشى عليك من الانفراد بلا عدة فقال عمر قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ثم لبس مرقعته وركب بعيره وأبو عبيدة سائر بين يديه الى ان أتى بازاء البطرك قريبا من الحصن فقال أبو عبيدة هذا أمير المؤمنين فمد البطرك عنقه ونظر اليه فزعق زعقة وقال هذا والله الذي صفته ونعته في كتبنا ثم

قال يا أهل بيت المقدس انزلوا اليه وخذوا منه الامان والذمة فهذا والله صاحب محمد بن عبد الله فنزلوا مسرعين وكانت أنفسهم قد ضاقت من شدة الحصار وفتحوا الباب وخرجوا الى عمر يسألونه العهد فلما رآهم عمر رضي الله عنه في تلك الحالة تواضع لله سبحانه وتعالى وخر ساجدا على قتب بعيره ثم أقبل عليهم وقال ارجعوا الى بلدكم ولكم العهد فرجع القوم الى البلد ولم يغلقوا الباب ورجع عمر فلما كان من الغد وهو يوم الاثنين دخل اليها وأقام بها الى يوم الجمعة وخط بها محرابا وهو موضع مسجده وتقدم وصلى بالمسلمين صلاة الجمعة وأقام في بيت المقدس عشرة أيام وبها أسلم كعب الاحبار على يده وارتحل معه الى المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ان كتب الامام عمر لاهل بيت المقدس وأقرهم في بلدهم على عهدهم وأداء الجزية (ومن شهي المجتنى من ثمرات الاوراق) ما نقله أبو الحسن علي بن عبد المحسن التنوخي في المستجاد ان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بات على فراش النبي صلى الله عليه وسلم ليفديه بنفسه أوحى الله تعالى الى جبريل وميكائيل عليهما السلام اني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختار كل منهما الحياة فأوحى الله اليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره الحياة اهبطا الى الارض واحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبريل ينادي بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة فانزل الله تعالى ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤف بالعباد (قال أبو الحسن المدائني) خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر رضي الله عنه حجاجا ففاتتهم اثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خباء لها فقال أحدهم هل من شراب قالت نعم فاناخوا اليها وليس لها الا شويهة فقالت احلبوها واشربوا لبنها ففعلوا فقالوا هل من طعام قالت لا الا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم ما تأكلون فقام اليها أحدهم فذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فاذا رجعنا سالمين فألمي بنا فانا صانعون اليك خيرا فارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب وقال ويحك تذبحين شاتي لقوم لا أعرفهم ثم تقولين نفر من قريش ثم بعد مدة ألجأتهم الحاجة الى دخول المدينة فدخلاها وجعلا ينقلان البعر ويعيشان بثمنه فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فاذا الحسن بن علي على باب داره فعرف العجوز وهي منكرة فبعث اليها غلامه فدعاها فقال لها يا أمة الله أتعرفينني قالت لا قال انا ضيفك بالامس يوم كذا وكذا قالت بأبي أنت وأمي ثم اشترى لها من شاء الصدقة ألف شاة وأمر لها بألف دينار وبعث بها مع غلامه الى الحسين رضي الله عنهما فأمر لها بمثل ذلك وبعث بها مع غلامه الى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين قالت بألفي شاة وألفي دينار فقال لها لو بدأت بي لاتعبتهما في العطاء اعطوها فأعطيتهما فرجعت العجوز الى زوجها بأربعة آلاف دينار وأربعة آلاف شاة (ومما يضارع هذه اللطائف) انه جرى بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين أخيه محمد بن الحنفية رضي الله عنهما كلام فانصرفا

متغاضبين فلما وصل محمد الى منزله أخذ رقعة وكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن على ابن أبى طالب الى أخيه الحسين بن على بن أبى طالب (أما بعد) فان لك شرفا لا أبلغه وفضلا لا أدركه فاذا قرأت رقعتى هذه فالبس رداءك ونعليك وسر الى فترضينى واياك أن أكون سابقك الى الفضل الذى أنت أولى به منى والسلام فلما قرأ الحسين رضى الله عنه الرقعة لبس رداءه ونعليه ثم جاء الى أخيه محمد فترضاه (قال أبو الفرج الاصفهانى) حدثنى أحمد بن محمد الجعد ومحمد بن يحيى قالا حدثنا محمد بن زكريا العلائى قال حدثنا ابن عائشة قال حج هشام بن عبد الملك فى خلافة أخيه الوليد ومعه رؤساء أهل الشام فطاف وجهد ان يستلم الحجر فلم يقدر من الازدحام فنصب له منبر وجلس عليه ينظر الى الناس فاقبل على بن الحسين رضى الله عنهما وهو أحسن الناس وجها وأنظفهم ثوبا وأطيبهم رائحة فلما طاف بالبيت وبلغ الحجر تنحى الناس كلهم اجلالا له فاستلم الحجر وحده فغاظ ذلك هشاما وبلغ منه فقال رجل من أهل الشام لهشام من هذا أصلح الله الامير قال لا أعرفه وكان به عارفا ولكن خاف من رغبة أهل الشام فقال الفرزدق وكان حاضرا انا أعرفه يا شامى قال من هو قال

هذا ابن من تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم * هذا التقى النقى الطاهر العلم
اذا رأته قريش قال قائلهم * الى مكارم هذا ينتهى الكرم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله * بجده أنبياء الله قد ختموا
يكاد يمسكه عرفان راحته * ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
أى الخلائق ليست فى رقابهم * لاولية هذا أوله نعم
من يعرف الله يعرف اوليته ذا * فالدين من بيت هذا ناله الامم
وليس قولك من هذا بضائره * العرب تعرف من أنكرت والعجم

فحبسه هشام ثم أطلقه فوجه اليه على بن الحسين عشرة آلاف درهم وقال اعذرنا يا أبا فراس فلو كان معنا فى هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به فردها الفرزدق وقال ما قلت ما كان الا لله فقال له على بن الحسين قد رأى الله مكانك ولكنا أهل بيت اذا أنفذنا شيأ لم نرجع فيه وأقسم عليه فقبلها (ومن غالى جواهر العقد لابن عبد ربه) قال يزيد حدثنى أبى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم من المدينة الى الشام على حمار فتلقاه معاوية فى موكب نبيل فأعرض عنه عمر فجعل يمشى الى جنبه راجلا فقال له عبد الرحمن بن عوف أتعبت الرجل فاقبل عليه وقال يا معاوية أنت صاحب الموكب مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك قال نعم يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك قال لانا فى بلاد لا تمنع من الجواسيس ولا بد لهم ما يروعهم من هيبة السلطان فان أمرتنى بذلك أقمت عليه وان نهيتنى عنه انتهيت قال ان كان الذى قلت حقا فانه رأى أريب وان كان باطلا فانها خدعة أديب فلا آمرك ولا أنهاك عنه (ومن لطائف معاوية) انه كان لعبد الله بن الزبير أرض قريبة لارض لمعاوية فيها عبيد له من الزنوج يعمرونها فدخلوا فى أرض عبد الله فكتب الى معاوية أما بعد فانه يا معاوية ان لم تمنع عبيدك من الدخول فى

أرضى والا كان لى ولك شأن فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه الى ابنه يزيد فلما قرأه قال له ماترى قال أرى ان تنفذ اليه جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه فقال يابنى عندى خير من ذلك على بدواة وقرطاس وكتب وقفت على كتابك يا ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءنى والله ماساءك والدنيا هينة عندى فى جنب رضاك وقد كتبت على نفسى رقما بالارض والعبيد وأشهدت على فيه ولتضف الارض الى أرضك والعبيد الى عبيدك والسلام فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب اليه وقفت على كتاب أمير المؤمنين اطال الله بقاءه فلا عدم الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل والسلام فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله رماه الى ابنه يزيد فلما قرأه اسفر وجهه فقال يابنى اذا رميت بهذا الداء داوه بهذا الدواء (نادرة لطيفة) قال الاستاذ أبو على لما سعى غلام خليل بالصوفية الى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم فاما الجنيد فانه استتر بالفقه وأما الشحام والرقام والنورى وجماعة فقبض عليهم وبسط النطع لضرب أعناقهم فتقدم النورى فقال له السياف أتدرى لما ذا تتقدم قال نعم قال فما يعجلك قال اوثر أصحابى بحياة ساعة فتحير السياف ونما الخبر الى الخليفة فردهم الى القاضى ليعرف أحوالهم فالقى القاضى على أبى الحسن النورى مسائل فقهية فاجاب عن الكل ثم أخذ يقول ان لله عبادا اذا قاموا قاموا بالله واذا نطقوا نطقوا بالله وسرد حتى بكى القاضى فارسل الى الخليفة يقول ان كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الارض مسلم فاكرمهم وأطلقهم (ومن المروى عن أحمد بن أبى دواد القاضى) انه قال مارأيت رجلا عرض على الموت فلم يكترث به الا تميم بن جميل الخارجى كان قد خرج على المعتصم ورأيته قد جىء به أسيرا فادخل عليه فى يوم موكب وقد جلس المعتصم للناس مجلسا عاما ودعا بالسيف والنطع فلما مثل بين يديه نظر اليه المعتصم فاعجبه شكله وقده ورآه يمشى الى الموت غير مكترث به فاطال الفكرة فيه ثم استنطقه لينظر فى عقله وبلاغته فقال يا تميم ان كان لك عذر فأت به فقال أما اذا أذن أمير المؤمنين جبر الله به صدع الدين ولم شعث المسلمين وأخمد شهاب الباطل وأنار سبل الحق فالذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الالسن وتصدع الافئدة وايم الله لقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق الا العفو أو الانتقام وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما اليك أولاهما بك وأشبههما بخلائقك ثم أنشد

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا * يلاحظنى من حيث لا أتلفت
وأكثر ظنى انك اليوم قاتلى * وأى امرئ مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذى يأتى بعذر وحجة * وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعى من ان أموت وانى * لاعلم ان الموت شئ موقت
ولكن خلفى صبية قد تركتهم * وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنى أراهم حين أنعى اليهم * وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا
فان عشت عاشوا سالمين بغبطة * أذود الردى عنهم وان مت موتوا
وكم قائل لا يبعد الله داره * وآخر جذلان يسر ويشمت

(قال) فبكى المعتصم وقال ان من البيان لسحرا ثم قال كاد والله يا تميم ان يسبق السيف العذل

وقد

وقدوه. تلك الله واصبيتك وأعطاه خمسين ألف درهم (ومن لطائف المنقول من المستجاد) انه
كان بين غسان بن عباد وبين علي بن عيسى القمر عداوة عظيمة وكان علي بن عيسى ضامنا أعمال
الخراج والضياع ببلده فبقيت عليه بقية مبلغها أربعون ألف دينار فالح المأمون عليه بطلبها
الى ان قال لعلي بن صالح الحاجب أمهله ثلاثة أيام فان أحضر المال والا فاضربه بالسياط حتى
يؤدي المال أو يتلف فانصرف علي بن عيسى من دار المأمون آيسا من نفسه وهو لا يدري وجها
يتجه اليه فقال له كاتبه لو عرجت على غسان بن عباد وعرفته خبرك لرجوت ان يعينك على أمرك
فقال له على ما بيني وبينه من العداوة فقال نعم فان الرجل أريحي كريم فدخل على غسان فقام
اليه وتلقاه بالجميل واوفاه حقه بالخدمة ثم قال له الحال الذي بيني وبينك على حاله ولكن دخولك
الى داري له حرمة توجب بلوغ ما رجوته مني فاذكر ان كان لك حاجة فقص عليه القصة فقال
أرجو ان يكفيكه الله تعالى ولم يزده على ذلك شيأ فنهض علي بن عيسى وخرج آيسا نادما على قصد
غسان وقال لكاتبه ما افدتني بالدخول على غسان غير تعجيل الشماتة والهوان فلم يصل علي بن
عيسى الى داره حتى حضر اليه كاتب غسان معه البغال عليها المال فتقدم وسلمه وبكر الى دار
أمير المؤمنين فوجد غسان قد سبقه اليها ودخل على المأمون وقال يا أمير المؤمنين ان لعلي بن
عيسى بحضرتك حرمة وخدمة وسالف أصل وقد لحقه من الخسران في ضمانه ما تعارفه الناس
وقد توعدته بضرب السياط بما أطار عقله واذهب لبه فان رأى أمير المؤمنين ان يجبرني على
حسن كرمه ببعض ما عليه فهي صنيعة يجددها علي تحرس ما تقدمها من احسانه ولم يزل يتلطف
الى ان حط عنه النصف واقتصر على عشرين ألف دينار فقال غسان على ان يجدد عليه أمير
المؤمنين الضمان ويشرفه بخلعة تقوى نفسه وترهف عزمه ويعرف بها مكان الرضا عنه فاجابه
المأمون الى ذلك قال فيأذن أمير المؤمنين ان أحمل الدواة الى حضرته ليوقع ما رآه من هذا
الانعام قال افعل فحمل الدواة الى أمير المؤمنين فوقع ذلك وخرج علي بن عيسى بالخلعة والتوقيع
بيده فلما حضر في داره حمل من المال عشرين ألف دينار وأرسلها الى غسان وشكره على
جميل فعله معه فقال غسان لكاتبه والله ما شفعت عند أمير المؤمنين الا ليتوفر عليه وينتفع بها
فامض بها اليه فلما ردها كاتبه الى علي بن عيسى علم قدر ما فعل معه غسان فلم يزل يخدمه الى آخر
العمر (ومن غريب ما يقتطف من ثمرات الاوراق) ان عمر بن عبد العزيز رحمه الله خلف أحد
عشر ابنا فأصاب كل ابن نصف وربع دينار وقال لهم عند وفاته يا بني ليس لي مال فأوصي
فيه وخلف هشام بن عبد الملك أحد عشر ابنا فأصاب كل واحد من البنين ألف ألف دينار
فأما أولاد عمر بن عبد العزيز فما رؤي أحد منهم الا وهو غني ومنهم واحد جهز من ماله مائة ألف
فارس على مائة ألف فرس في سبيل الله تعالى وما رؤي أحد من أولاد هشام بن عبد الملك الا
وهو فقير ولقد شوهد أحدهم وهو يوقد في الاتون (قيل لمعاوية بن أبي سفيان) ان بالحيرة رجلا
من بني جرهم قد عمر ورأى أعاجيب فقال معاوية علي به فلما حضر قال من الرجل قال عبيد بن
شرية قال ثم ممن قال من قوم لم يبق منهم بقية قال فكم مضى من عمرك قال عشرون ومائتا سنة
قال أخبرني باعجب ما رأيت في عمرك قال نعم يا أمير المؤمنين كنت في حي من أحياء العرب فمات

عندهم ميت يقال له عشير بن لبيد العذري فشيت في جنازته وتأسيت بجماعته فلما دفن في قبره وأعول النساء في أثره ادركتني عليه عبرة ولم استطع ردها وتمثلت بأبيات كنت سمعتها قديما وعلق الآن على خاطري منها هذه الابيات

يا قلب انك من أسماء مغرور * فاذكر وهل ينفعنك اليوم تذكير
قد بحت بالحب ما تخفيه من أحد * حتى جرت لك اطلاقا محاضير
فلست تدري ولا تدري اعاجلها * أدنى لرشدك أم ما فيه تأخير
فاستقدر الله خيرا وارضين به * فبينما العسر اذ دارت مياسير
وبينما المرء في الاحياء مغتبط * اذا هو الرمس تعفوه الاعاصير
يبكي الغريب عليه ليس يعرفه * وذو قرابته في الحي مسرور
وذاك آخر عهد من أخيك اذا * ما المرء ضمنه اللحد الخناسير

فبينما أنا اردد هذه الابيات وعيناي ينسكبان اذ قال لي رجل الى جنبي من عذرة يا عبد الله هل تعرف قائل هذا الشعر قلت لا والله قال فانه هذا الميت الذي دفناه وأنت الغريب الذي تبكي عليه ولا تعرفه ولا تعلم انه قائل هذه الابيات وذو قرابته الذي ذكرته مسرور وهو ذاك وأشار الى رجل في الجماعة فرأيته لا يستطيع كتمان ما هو عليه من المسرة فقال معاوية يا أخا جرهم سل ما شئت قال ما مضى من عمري ترده والاجل اذا احضر تدفعه قال ليس ذلك لي سل غيره قال يا أمير المؤمنين ليس اليك رد شبابي ولا الآخرة فتكرم مآبي والمال فقد أخذت منه في عنفواني ما كفاني قال لا بد ان تسالني قال أما اذ شئت فامر لي برغيفين اتغدى باحدهما واتعشى بالآخر واتق الله واعلم انك مفارق ما أنت فيه وقادم على ما قدمت فأمر له معاوية بأشياء وحنطة وغيرها فردها وقال ان أعطيت المسلمين كلهم مثلها أعطيتني والا فلا حاجة لي في ذلك ثم ودعه وانصرف (قيل وفد عبد الله بن جعفر رضي الله عنه على أحد خلفاء بني أمية) فقال له الخليفة كم كان أمير المؤمنين يعطيك يعني أباه قال كان رحمه الله يعطيني ألف ألف درهم قال زدناك لترحمك عليه ألف ألف درهم قال بأبي أنت وأمي قال وبهذه ألف ألف قال لا أقولها لاحد بعدك قال ولهذه ألف ألف قال منعني من الاطناب في وصفك الاشفاق عليك من جودك قال ولهذه ألف ألف فقيل له فرقت يا أمير المؤمنين بيت مال المسلمين على رجل واحد قال انما فرقته على أهل المدينة أجمعين ثم وكل به من يعلمه بخبره من حيث لا يشعر فلما قدم المدينة فرق جميع ما معه حتى احتاج بعد شهر الى القرض (ومن لطائف المنقول) ان رجلا قال لهشام القرطبي كم تعد قال من واحد الى ألف ألف وأكثر قال لم أرد هذا كم تعد من السن قال اثنتين وثلاثين ستة عشر من أعلى وستة عشر من أسفل قال لم أرد هذا كم لك من السنين قال والله ليس لي منها شيء والسنون كلها لله قال يا هذا ما سنك قال عظم قال ابن لي ابن كم أنت قال اثنين رجل وامرأة قال كم أتى عليك قال لو أتى علي شيء قتلني قل كيف أقول قال تقول كم مضى من عمرك (قيل) عرض محمد بن الجهم داره للبيع بخمسين ألف درهم فلما حضروا ليشتروا قال بكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص فقالوا والجوار يباع قال وكيف لا يباع جوار

من ان سألته اعطاك وان سكت عنه ابتدأك وان اساءت اليه أحسن اليك فبلغ ذلك سعيدا فوجه اليه بمائة ألف درهم وقال امسك دارك عليك (قيل) خرج عبد الله بن جعفر الى ضيعة له فنزل على نخل قوم فيها غلام اسود يقوم عليها فاتى بثلاثة أقراص فدخل كلب فدنا منه فرمى اليه بقرص فاكله ثم رمى اليه بالثانى والثالث فاكلها وعبد الله ينظر اليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت الكلب قال لان ارضنا ما هى بارض كلاب وانه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت رده قال فما كنت صانعا اليوم قال اطوى يومى هذا فقال عبد الله بن جعفر الامر مبنى على السخاء والله ان هذا لاسخى منى فاشترى النخل والعبد فاعتقه ووهب ذلك له (ومن لطائف المنقول) انه رفع للرشيد موت العباس بن الاحنف وابراهيم الموصلى المعروف بالنديم وعشيمة الخمارة فى يوم واحد فخرج للصلاة عليهم فصفوا بين يديه فقال من الاول فقالوا ابراهيم الموصلى فقال أخروه وقدموا العباس بن الاحنف فتقدم وصلى عليه فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله الخزاعى وقال يا أمير المؤمنين كيف آثرت العباس بالتقديم على من حضر فقال بقوله

وسعى بها قوم وقالوا انها * لهى التى تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم * انى ليعجبنى المحب الجاحد

ثم قال أتحفظهما قلت نعم قال أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقديم فقلت بلى والله يا أمير المؤمنين (قلت ويضارع هذا ما حكاه صاحب الاغانى) حكى ان رجلا ادى شهادة عند بعض القضاة فقال القاضى هل يعرفك أحد من ذوى العدالة قال نعم فلان فلما حضر قال له القاضى هل تعرف هذا قال نعم اعرفه عدلا وما ذاك الا أنى سمعته ينشد لجرير

ان الذين غدوا بلبك غادروا * وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من أبصارهن وقلن لى * ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فعلمت ان هذا لا يرسخ الا فى قلب مؤمن (وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله) كانت رقائق الشيخ تقى الدين السروجى تسلب العقول وكان يغنى بها فى عصره لانها فى الطريق الغرامى غاية لا تدرك فمن ذلك قوله رحمه الله

أنعم بوصلك لى فهذا وقته * يكفى من الهجران ما قد ذقته
أنفقت عمرى فى هواك وليتنى * أعطى وصولا بالذى أنفقته
يا من شغلت بحبه عن غيره * وسلوت كل الناس حين عشقته
كم جال فى ميدان حسنك فارس * بالسبق فيك الى رضاك سبقته
أنت الذى جمع المحاسن وجهه * لكن عليه تصبرى فرقته
قال الوشاة قد ادعى بك نسبة * فسررت لما قلت قد صدقته
بالله ان سالوك عنى قل لهم * عبدى وملك يدى وما أعتقته
أو قيل مشتاق اليك فقل لهم * أدرى بذا وأنا الذى شوقته

(قلت) لو كان الشيخ تقى الدين السروجى رحمه الله فى جملة من صلى عليه الرشيد لم يقدم غيره

عليه (قال الشهاب محمود) وكان الشيخ تقي الدين السروجي مع دينه وورعه وزهده وعفته مغرما بالجمال وكذلك قال الشيخ أثير الدين وكان يكره مكانا فيه امرأة ومن دعاه من أصحابه قال شرطي معروف وهو ان لا يحضر بالمجلس امرأة (قال الشهاب) محمود وكانوا في دعوة فاحضر صاحب الدعوة شواء وأمر بادخاله الى النساء ليجعلنه في الصحون فلما أحضر بعد ذلك تفرف منه وقال كيف يؤكل وقد مسسنه بايديهن (قال الشيخ) أثير الدين واتوفي الشيخ تقي الدين بمصر رابع رمضان المعظم سنة ثلاث وتسعين وستمائة حلف أبو محبوبه ان لا يدفنه الا في قبر ابنه وقال كان الشيخ يهواه بالحياة وما أفرق بينهما بالممات هذا لما كان يعلمه من دينه وعفافه (قلت) والشيخ مدرك هو أبو هذه العذرة وثمرة هذه الشجرة فانه ممن هام مع زهده وورعه بالجمال وعف وصبر الى أن مات وكان الشيخ مدرك المذكور من أكابر علماء المغرب المتفقهين وكان مطبوعا في نظم الشعر الجيد الرقيق وكان يقرئ الادب وله مجلس بمحلة دار الروم وكان لا يقرئ الا الاحداث ففتن بنصراني اسمه عمرو بن يوحنا كان من أحسن أهل زمانه واسلمهم طبعا فهام الشيخ به وكتب رقعة وطرحها في حجره وهي

مجالس العلم التي * بك تم جمع جموعها
الا رثيت لمقلة * غرقت بماء دموعها
بيني وبينك حرمة * الله في تضييعها

(فلما) قرأها عمرو استحيا وعلم بها من في المجلس فانقطع عمرو واشتد بالشيخ الوجد فترك المجلس ونظم القصيدة المشهورة قيل انها اشتملت على سائر عبادات النصارى ومواقيتهم وأسماء المعظمين في دينهم وعده صاحب مصارع العشاق مع الذين ماتوا غراما (وقال) في كتابه الموسوم بمصارع العشاق أخبرنا القاضي أبو القاسم التنوخي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة قال حدثنا القاضي أبو الفرج المعافى قال أنشدنا أبو القاسم مدرك بن محمد الشيباني لنفسه في عمرو النصراني قال القاضي أبو الفرج وقد رأيت عمرا وقد ابيض رأسه

من عاشق ناء هواه دان * ناطق دمع صامت اللسان
موثق قلب مطلق الجثمان * معذب بالصد والهجران
من غير ذنب كسبت يداه * لكن هوى نمت به عيناه
شوقا الى رؤية من اشقاه * كانما عافاه من ابلاه
يا ويحه من عاشق ما يلقى * من أدمع منهلة ما ترقى
ذاب الى أن كاد يفنى عشقا * وعن دقيق الفكر فيه دقا
لم يبق منه غير طرف يبكي * بادمع مثل نظام السلك
تخمد نيران الهوى وتذكي * منهلة قطر السماء تحكي
الى غزال من بني النصارى * فضل بالحسن على العذارى
وغادر الاسد به حيارى * في ربقة الحب له اسارى
ريم به أي هزبر لم يصد * يقتل بالحظ ولا يخشى القود

متى تقبلها قالت الالحاظ قد * كانه ناسوته حسين الخد
ياليتني كنت له زنارا * يديرني في الخصر كيف دارا
حتى اذا الليل طوى النهارا * صرت له حينئذ ازارا
ياعمرو ناشدتك بالمسيح * الا سمعت القول من فصيح
يذب عن قلب له جريح * ليس من الحب بمستريح
ياعمرو بالحق مع اللاهوت * والروح روح القدس والناسوت
ذاك الذي في مهده المنعوت * عوض بالنطق عن السكوت
بحق ناسوت ببطن مريم * حل محل الريق منها في الفم
ثم استحال في القنوم الاقدم * يكلم الناس ولما يفطم
بحق من بعد الممات قمصا * يوما على مقداره ماقصصا
وكان لله تقيا مخلصا * يشفي و يبري اكمها وأبرصا
بحق محيي صورة الطيور * و باعث الموتى من القبور
ومن اليه مرجع الامور * يعلم مافي البر والبحور
بحق من في شامخ الصوامع * من ساجد لربه وراكع
يبكي اذا ماتام كل هاجع * خوفا من الله بدمع هامع
بحق قوم حلقوا الرؤسا * وعالجوا طول الحياة بوسا
وقرعوا في البيعة الناقوسا * مشمعلين يعبدون عيسى
بحق مارمريم و بولس * بحق شمعون الصفا و بطرس
بحق دانيل بحق يونس * بحق حزقيل وبيت المقدس
ونينوى اذقام يدعو ربه * مطهرا من كل سوء قلبه
ومستقيلا فقبل ذنبه * ونال من مولاه ما احبه
بحق مافي قلة الميرون * من نافع الادواء للمجنون
بحق مايؤثر عن شمعون * من بركات النخل والزيتون
بحق اعياد الصليب الزهر * وعيد أشموني وعيد الفطر
و بالشعانين الجليل القدر * وعيد مرماري الرفيع الذكر
وعيد شعياء و بالهياكل * والدخن اللاتي بكف الحامل
يشفى بها من خبل كل خابل * ومن دخيل السقم في المفاصل
بحق سبعين من العباد * قاموا بدين الله في البلاد
وأرشدوا الناس الى الرشاد * حتى اهتدى من لم يكن بهاد
بحق ثنتي عشرة من الامم * ساروا الى الاقطار يتلون الحكم
حتى اذا صبح الهدى جلا الظلم * ساروا الى الله ففازوا بالنعم
بحق مافي محكم الانجيل * من منزل التحريم والتحليل

وخبر ذى نبا جليل * يرويه جيل قد مضى عن جيل
بحق مرعيد التقى الصالح * بحق لوقا بالحكيم الراجح
والشهداء بالفلا الصحاصح * من كل غاد منهم ورائح
بحق معمودية الارواح * والمذبح المشهور فى النواحى
ومن به من لابس الامساح * من راهب بالدير ومن نواح
بحق تقريبك فى الاعياد * وشربك القهوة كالفرصاد
بما بعينيك من السواد * بطول تقطيعك للاكباد
بحق ماقدس شعيا فيه * بالحمد لله وبالتنزيه
بحق نسطور ومايرويه * عن كل ناموس له فقيه
شيخان كانا من شيوخ العلم * وبعض أركان التقى والحلم
لم ينطقا قط بغير الفهم * موتهما كان حياة الخصم
بحرمة الاسقف والمطران * والجاثليق العالم الربانى
والقس والشماس والديرانى * والبطرك الاكبر والرهبان
بحرمة المحبوس فى أعلى الجبل * ومارقولا حين صلى وابتهل
وبالكنيسات القديمات الأول * وبالمسيح المرتضى ومافعل
بحرمة الاسقوفيا والبيرم * وماحوى مغفر رأس مريم
بحرمة الصوم الكبير الاعظم * بحق كل بركة ومحرم
بحق يوم الذبح فى الاشراق * وليلة الميلاد والتلاقى
والمذهب الابريز لا الاوراق * بالفصح يامهذب الاخلاق
بكل قداس على قداس * قدسه القس مع الشماس
وقربوا يوم خميس الناس * وقدموا الكاس لكل حاس
الارغبت فى رضا أديب * باعده الحب عن الحبيب
فذاب من شوق الى المذيب * أعلى مناه أيسر التقريب
انظر أميرى فى صلاح أمرى * محتسبا فى عظيم الاجر
مكتسبا منى جميل الشكر * من نثر الفاظ ونظم شعر

(قلت والشئ بالشئ يذكر) الشيخ مدرك الجأته الضرورة الغرامية أن يتجشم المشاق ويتقرب الى محبوبه باقسام لها عند أهل دين النصرانية محل عظيم الموقع كما الجأت الشيخ مهذب الدين بن منير الطرابلسى الشاعر المشهور ان يترك التشيع وكان من كبار الشيعة ويرجح جانب السنة ويوهى أقوال الرافضة وموجب ذلك ان مهذب الدين المذكور هاجر الى بغداد بسبب مدح الشريف الموسوى نقيب الاشراف بها وكان الشريف أيضا من كبار الشيعة فلما دخل بغداد جهز الى الشريف هدية مع مملوكه بل معشوقه تتر الذى سارت الركبان بغرامه فيه فاخذ الهدية واعجبه المملوك فأخذه فلما وصل الخبر الى مهذب الدين بن

منبر اشرف على ذهاب روحه وكتب الى الشريف والى تتر

عذبت طرفي بالسهر * وأذبت قلبي بالفكر
ومزجت صفو مودتي * من بعد بعدك بالكدر
ومنحت جثماني الضنا * وكحلت جفني بالسهر
وجفوت صبا ماله * عن حسن وجهك مصطبر
يا قلب ويحك كم تخا * دع بالغرور وكم تغر
والام تكلف بالاغن من الظباء وبالاغر
ريم يفوق ان رما * ك بسهم ناظره النظر
تركتك أعين تركها * من باسهن على خطر
ورمت ماصمت عن قسي لا ينياط بها وتر
جرحتك جرحا لا يخيط بالخيوط ولا الابر
تلهو وتلعب بالعقو * ل عيون أبناء الخزر
فكأنهن صوالج * وكأنهن لها أكر
تخفي الهوى وتسره * وخفي سرك قد ظهر
أتهل لوجدك من مدى * يقضى اليه فينتظر
نفسي الفداء لشادن * أنا من هواه على خطر
رشأ تحاوله الحوا * طر ان تدني أو خطر
عذل العذول وما رآ * ه فحين عاينه عذر
قمر يزين ضوء صبح جبينه ليل الشعر
تدمي اللواحظ خده * فيرى لهاتيه أثر
هو كالهلال ملثما * والبدر حسنا ان سفر
ويلاه ما أحلاه في * قلبي الشقي وما أمر
نومي المحرم بعده * وربيع لذاتي صفر
بالمشعرين وبالصفا * والبيت أقسم والحجر
وبمن سعى فيه وطا * ف به ولبي واعتمر
لئن الشريف الموسوي ابن الشريف أبي مضر
أبدى الجحود ولم يرد * الى مملوكي تتر
واليت آل أمية الطهر المياميين الغرر
وجحدت بيعة حيدر * وعدلت عنه الى عمر
واذا جرى ذكر الصحا * بة بين قوم واشتهر
قلت المقدم شيخ تيم ثم صاحبه عمر
ما سل قط ظبا على * آل النبي ولا شهر

كلا ولا صـد البتو * ل عن التراث ولا زجر
وأثابهـا الحسنى وما * شق الكتاب ولا بقر
وبكيت عثمان الشهيـ * ـد بكاء نسوان الحضر
وشرحت حسن صلاته * جنح الظلام المعتكر
وقرأت من أوراق مصحفه البراءة والزمر
ورثيت طلحة والزبيـ * ـر بكل شعر مبتكر
وأزور قبرهمـا وأز * جر من لحاني أو زجر
وأقول أم المؤمنيـ * ـن عقوقها احدى الكبر
ركبت على جمل لتصـ * ـلح من بنيها في زمر
وأتت لتصلح بين جيـ * ـش المسلمين على غرر
فأتى أبو حسن وسـ * ـل حسامه وسطا وكر
وأذاق اخوته الردى * وبعير أمهم عقر
ماضره لو كان كـ * ـف وعف عنهم اذ قدر
وأقول ان امامكم * ولى بصفين وفر
وأقول ان أخطا معا * وية فما أخطا القدر
هذا ولم يغدر معا * وية ولا عمرو ومكر
بطل بسوءته يقا * تل لا بصارمه الذكر
وجنيت من رطب النوا * صب ما تمر واختمر
وأقول ذنب الخارجيـ * ـن على على مغتفر
لا ثأر لقتـا لهـم * في النهروان ولا أثر
والاشعرى بما يؤو * ل اليه أمرهما شعر
قال انصبوا لى منبرا * فأنا البرىء من الخطر
فعلا وقال خلعت صا * حبكم وأوجز واختصر
وأقول ان يزيد ما * شرب الخمور ولا فجر
ولجيشه بالكف عن * أبناء فاطمة أمر
والشمر ماقتل الحسيـ * ـن ولا ابن سعد ما غدر
وحلقت في عشر المحـ * ـرم ما استطال من الشعر
ونويت صوم نهاره * وصيام أيام أخر
ولبست فيه أجل ثو * ب للملابس يدخر
وسهرت في طبخ الحبو * ب من العشاء الى السحر
وغدوت مكتحلا أصا * فح من لقيت من البشر
ووقفت في وسط الطريـ * ـق أقص شارب من عبر

وأكلت جرجير البقو * ل بلحم جوني الجفر
وجعلتها خبر المأ * كل والفواكه والخضر
وغسلت رجلي كله * ومسحت خفي في السفر
وأمين أجهر في الصلا * ة كمن بها قبلي جهر
وأسن تسنيم القبو * ر لكل قبر يحتفر
واذا جرى ذكر الغدير أقول ماصح الخبر
وسكنت جلق واقتديت بهم وان كانوا بقر
وأقول مثل مقالهم * بالفاشر ياقد فشر
مصطيحتي مكسورة * وفطيرتي فيها اقصر
بقرترى برئيسهم * طيش الظليم اذا نفر
وخفيفهم مستثقل * وصواب قولهم هذر
وطباعهم كجبالهم * خبثت وقدت من حجر
مابدرلنا التشبيب تغسر يد البلابل في السحر
وأقول في يوم تحا * ر له البصائر والبصر
والصحف ينشر طيها * والنار ترمي بالشرر
هذا الشريف أضلني * بعد الهداية والنظر
مالي مضل في الورى * الا الشريف أبو مضر
فيقال خذ بيد الشريف مستقر كما سقر
لواحة تسطو لها * تبقي عليه ولاتذر
والله يغفر للمسي * ء اذا تنصل واعتذر
فاخش الاله بسوء فعلك واحتذر كل الحذر
واليكها بدوية * رقت لرقتها الحضر
شامية لوشامها * قس الفصاحة لافتخر
وروي وأيقن انني * بحر وألفاظي درر
حبرتها فغدت كزهر الروض باكره المطر
والى الشريف بعثتها * لما قرأها وانبهر
رد الغلام وما استمر على الجحود ولا أصر
وأثابني وجزيته * شكرا وقال لقد صبر

(ومن لطائف المنقول) مانقله الشيخ الامام العالم العلامة الحبر زين الدين أبو حفص عمر بن الوردي رحمه الله تعالى لما دخل دمشق المحروسة في أيام قاضي القضاة نجم الدين بن صصري الشافعي تغمده الله برحمته ورضوانه فاجلسه في صفة الشهود المعروفة بالشباك وكان الشيخ زين الدين يلبس زي أهل المعرة فاستزراه الشهود فحضر كتاب مشترى فقال بعضهم أعطوا

المعرى يكتبه فقال الشيخ زين الدين ترى هون اكتبه نظما أونثرا فزاد استهزاؤهم وقالوا نظما فأخذ القرطاس وكتب

بسم الله الخالق هذا ما اشترى * محمد بن يونس بن سنقرا
من مالك بن أحمد بن الازرق * كلاهما قد عرفا من حلق
فباعه قطعة أرض واقعة * بكورة الغوطة وهى جامعه
لشجر مختلف الاجناس * والارض فى البيع مع الغراس
وذرع هذى الارض بالذراع * عشرون فى الطول بلا نزاع
وذرعها فى العرض أيضا عشره * وهو ذراع باليد المعتبره
وحدها من قبلة ملك التقى * وحائز الرومى حد المشرق
ومن شمال ملك أولاد على * والغرب ملك عامر بن جهبل
وهذه تعرف من قديم * بانها قطعة بيت الرومى
بما بها من حقوق شرعيا * ثم شراء قاطعا مرعيا
بثمن مبلغه من فضه * وازنة جيدة مبيضه
جارية للناس فى المعامله * الفان منها النصف ألف كامله
قبضها البائع منه وافيه * فعادت الذمة منه خاليه
وسلم الارض الى من اشترى * فقبض القطعة منه وجرى
بينهما بالبدن التفرق * طوعا لما لاحد تعلق
ثم ضمان الدرك المشهور * فيه على بائعه المذكور
واشهدا عليهما بذلك فى * رابع عشر رمضان الاشرف
من عام سبعمائة وعشرة * من بعد خمس تلوها الهجره
والحمد لله وصلى ربى * على النبى وآله والصحب
يشهد بالمضمون من هذا عمر * ابن المظفر المعرى اذ حضر

(فلما فرغ) الشيخ زين الدين وتأمل الجماعة سرعة بديهته مع استيعاب الشروط الشرعية اعترفوا بفضله واعتذروا اليه لما علموا انه ابن الوردى واجلسوه فى الصدر ولكنهم عجزوا عن رسم الشهادة نظما وسألوه ذلك فكتب عن شخص منهم الى جانبه يدعى ابن رسول

قد حضر العقد لذلك أحمد * ابن رسول وبذلك يشهد

(تحفة من فوائد كتاب الانشاء) قال عبد الحميد كاتب مروان آخر ملوك بنى أمية لو كان الوحى ينزل على أحد بعد الانبياء لنزل على كتاب الانشاء وقال البلاغة هى ما رضيته الخاصة وفهمته العامة (ومن كلامه) خير الكلام ما كان فحلا ومعناه بكرا (اسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد) كتب الى يحيى بن خالد فى شكر ما تقدم من احسانك شاغل عن استبطاء ما تأخر منه جمع من الشكر والاستزادة بابلغ عبارة واوجز (عمرو بن مسعدة كاتب المأمون) كتب اليه كتابى هذا وأجناد أمير المؤمنين على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم

فقال المأمون لاحمد بن يوسف لله در عمرو ما أبلغه الا ترى الى ادماجه المسئلة فى الاخبار واعفائه من الاكثار (ابراهيم الصولى) كاتب المعتصم والواثق والمتوكل كان يقول التصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل من منشئه وكان يقول الخبز ليومه والطبيخ لساعته والنبيذ لسنته (ومن بديع نثره) ما كتبه عن أمير المؤمنين الى بعض الخارجين يتهددهم ويتوعدهم أما بعد فان لامير المؤمنين اناة فان لم تغن عقب بعدها وعيدا فان لم يغن اغنت عزائمه والسلام وهذا الكلام وجازته فى غاية الابداع و ينشأ منه بيت شعر وهو

اناة فان لم تغن عقب بعدها * وعيدا فان لم يغن اغنت عزائمه

(وكان) يقول ما اتسكلت فى مكاتبتى الا على ما يتخيله خاطرى ويجلس فى صدرى الاقولى وسار ما يحرزهم يبرزهم وما كان يعقلهم ينقلهم وقولى من أخرى فانزلوه من معقل الى عقال ويبدلوه آجالا من آمال فانى الممت بقولى آجالا من آمال بقول مسلم بن الوليد الانصارى المعروف بصريع الغوانى

موف على مهج فى يوم ذى وهج * كأنه أجل يسعى الى أمل

وفى المعقل والعقال بقول أبى تمام

فان باشر الاصحى فبالبيض والقنا * قراه واحواض المنايا مناهله

وان تبن حيطانا عليه فانما * اولئك عقالاته لا معاقله

والا فاعلمه بأنك ساخط * عليه فان الخوف لا شك قاتله

(ومن رقيق شعره) حين أحضر لمناظرته أحمد بن المدبر فقال ارتجالا

صد عنى وصدق الاقوالا * وأطاع الوشاة والعذالا

أتراه يكون شهر صدود * وعلى وجهه رأيت الهلالا

فطرب المتوكل واهتز وخلع عليه (ومن رقيق شعره أيضا قوله)

دنت بأناس عن تناء زيارة * وشط بليلى عن دنو مزارها

وان مقيمات بمنعرج اللوى * لاقرب من ليلى وهاتيك دارها

(الحسن بن وهب) سئل عن مبيته فقال شربت البارحة على عقد الثريا ونطاق الجوزاء فلما تنبه الصبح نمت فلم استيقظ الا بلبسى قميص الصبح (بديع الزمان الهمدانى) الحمد لله الذى بيض القار وسماه الوقار وعسى الله ان يغسل الفؤاد كما غسل السواد (ومن انشائه البديع) قد يوحش اللفظ وكله ود و يكره الشئ وليس منه بد هذه العرب تقول لا أبا لك ولا يقصدون الذم وويل امه لامر اذاهم وسبيل ذوى الالباب فى الدخول من هذا الباب ان ينظروا فى القول الى قائله فان كان وليا فهو الولاء وان خشن وان كان عدوا فهو البلاء وان حسن (ومن انشاء أبى القاسم على بن الحسن المعروف بالمغربى) وصلت الرقعة فاستخفيت النسيم بالاضافة الى لطائفها واستثقلت عقود اللؤلؤ بالقياس الى خفة موقعها (ومن بديع انشائه) وغرقت فى هواجس الفكر ووساوس الذكر حتى نسيتكم من شدة التذكر أو لقيتكم من حدة التصور والله تعالى اسأل ان يسقط بيننا فى تشاكى ألم الفراق اسناد القلم بمشافهة الفم للفم (أبو الحسن بن بسام) من انشائه عارض اذا همع استوشلت البحار ونجم

اذا طلع تضاءلت الشموس والاقمار وسابق لا يمسح وجهه الا بهياديب الغيوم وصارم لا يحلى غمده الا بافراد النجوم (ضياء الدين بن الاثير الجزرى) ودولته هى الضاحكة وان كان نسبها الى العباس وهى خير دولة اخرجت للدهر ورعايا هاخير أمة أخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بانها لا تهرم وانها لا تزال محبوة من ابكار السعادة بالوصل الذى لا يصرم وله فى القلم فهو الملقب بالجواد المضمر واذا أخذت السوابق فى احضارها بلغ الغاية وما أحضر وله لون تحقق فيه القول النبوى لو جمعت الحبل فى صعيد لسبقها الاشقر (ومن انشاء القاضى تاج الدين بن الاثير) والمجنيقات تفوق اليهم قسيها وتخيل لهم انها ساعية بحبالها اليهم وعصيها وهى للحصون من آكد الخصوم واذا امت حصنا حكم بانه ليس بامام معصوم ومتى امترى خلق فى آلات الفتوح لم يكن فيها أحد من الممترين واذا نزلت بساحة قوم فساء صباح المنذرين تدعى الى الوغا فتكلم وما أقيمت صلاة حرب عند حصن الا كان ذلك الحصن ممن يسجد ويسلم ولقد سهوت عن الصابئ وكان فى هذا الفن أمة وهو أبو اسحق ابراهيم بن هلال صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع كان كاتب الانشاء ببغداد عند الخليفة وعند معز الدولة بن بويه وكان متشددا فى دينه واجتهد معز الدولة ان يسلم فلم يفعل وكان يصوم شهر رمضان ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ واستعمله فى رسائله والصابئ عند العرب من خرج عن دين قومه (قيل) للصابئ ان الصاحب بن عباد قال مابقى من أوطارى وأغراضى الا ان املك العراق وأتصدر ببغداد واستكتب الصابئ ويكتب عنى وأغير عليه فقال الصابئ ويغير على وان أصبت (ومن انشائه) ما كتب به الى أبى الخير عن رقعة وصلت تتضمن انه أهدى اليه جملا وصلت رقعتك ففضضتها عن بلاغة يعجز عنها عبد الحميد فى بلاغته وسحبان فى خطابته وتصرف بين جد أمضى من القدر وهزل أرق من نسيم السحر الا ان الفعل قصر عن القول لانك ذكرت جملا جعلته لصفتك جملا وكان المعيدى ان تسمع لا أن تراه صغر عن الكبر وكبر عن القدم يعجب العاقل من حاول الحياة ومن تأتى الحركة فيه لانه عظم مجلد قد طال للكلا فقده وبعد بالمرعى عهده لم يرالقت الا نائما ولا عرف الشعير الا حالما وقد كنت ملت الى استبقائه لما تعرفه من محبتى للتوفير ورغبتى فى التثمير فلم أجد فيه مستبقى لبقاء ولا مدفعا لعناء لانه ليس بانثى فتلد ولا بفتى فينسل ولا بصحيح فيرعى ولا بسليم فيبقى فقلت اذبحه ليكون وظيفة للعيال وأقيمه رطبا مقام قديد الغزال فأنشدنى وقد أضرمت النار وحددت الشفار

أعيذها نظرات منك صادقة * ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ولست بذى لحم فاصلح للاكل لان الدهر قد أكل لحمى ولا بذى جلد يصلح للدباغ لان الايام قد مزقت أدمى ولا بذى صوف يصلح للغزل لان الحوادث قد حصت وبرى الا ان تطالبنى بذحل أو بينى وبينك دم فوجدته صادقا فى مقالته ناصحا فى مشورته ولم أعلم من أى أمريه أعجب امن مطالبته الدهر بالبقاء أم من صبره على الضر والبلاء أم من قدرتك عليه مع عدم مثله أم من هديتك اياه لصديق مع خساسة قدره ويا ليت شعرى ما كنت مهديا لو انى رجل من عرض الكتاب كأبى على وأبى الخطاب ما كنت مهديا الا كلبا أجرب أو قردا

أحدب والسلام (وله من رسالة) هو أخفض قدرا ومكانه وأظهر عجزا ومهانه من أن يستقل به قدم في مطاولتنا أو تطمئن له ضلوع في منابذتنا وهو في نشوزه عنا وطلبنا اياه كالضالة المنشوده والظلامة المردوده وكان له عبد اسمه يمن وكان يهواه وله فيه المعاني البديعة فمن ذلك قوله فيه

قد قال يمن وهو أسود للذى * ببياضه استعلى علو الخائن
ما فخر وجهك بالبياض وهل ترى * ان قد أفدت به مزيد محاسن
ولو ان منى فيه خالا زانه * ولو ان منه فى خال لاشانني

(الصاحب بن عباد) من بلاغاته المخترعة انه قيل له ما هو أحسن السجع قال ما خف على السمع قيل مثل ماذا قال مثل هذا وسئل ابن العميد عن بغداد فقال بغداد فى البلاد كالاستاذ فى العباد (وله جواب كتاب) وصل كتاب مولاى فكانت فاتحته أحسن من كتاب الفتح وواسطته أنفس من واسطة العقد وخاتمته أشرف من خاتم الملك (ومن) شعره يرثى كثير بن أحمد الوزير

يقولون قد أودى كثير بن أحمد * وذلك رزء فى الانام جليل
فقلت دعونى والعلا نبكه معا * فمثل كثير فى الرجال قليل

(القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم) علم المتقدمين والمتأخرين وزير السلطان صلاح الدين ابن أيوب الملقب بالملك الناصر تمكن منه غاية التمكين وبرز فى صناعة الانشاء على المتقدمين قال ابن خلكان فى تاريخه (أخبرنى) أحد الفضلاء الثقات الطلعين على حقيقة أمره ان مسودات رسائله اذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد وهو مجيد فى أكثرها (وذكر) ابن خلكان فى تاريخه أيضا ان العماد الكاتب قال فى الخريدة هو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع وكانت ولادته خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بمدينة عسقلان وولى أبوه القضاء ببيسان فلهذا نسبوه اليها (وقال) الفقيه عمارة اليمنى فى كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية فى ترجمة العادل بن الصالح بن رزيك ومن أيامه الحسنة التى لا توارى بل هى اليد البيضاء التى لا تجارى خروج أمره الى والى الاسكندرية باحضار القاضى الفاضل الى الباب واستخدامه بحضرته فى الديوان فانه عروس الدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت وفرعها فى السماء (وتوفى الفاضل) فى ليلة الاربعاء سادس ربيع الاول سنة ست وتسعين وخمسمائة ودفن فى تربته بسفح المقطم فى القرافة الصغرى (قال) ابن خلكان كان القاضى الفاضل من محاسن الدنيا وهيهات أن يخلف الزمان مثله (فمن انشائه المرقص المطرب قوله) وقد كان يقال ان الذهب الابريز لا تدخل عليه آفه وان يد الدهر البخيلة به كافه وأنتم يا بنى أيوب أيديكم آفة نفائس الاموال كما ان سيوفكم آفة نفوس الابطال فلو ملكتم الدهر لا منطيتم لياليه أداهم وقلدتم أيامه صوارم ووهبتم شموسه وأقماره دنانير ودراهم وأيام دولتكم اعراس وما تم فيها الا على الاموال ماتم والجود فى أيديكم خاتم ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم (ومن انشائه فى كاحل) كأنه غاسل يدخل الى انسان العين بحنوط من كحله الملعون لعلة المنون

ويدرج في كفن من الخرقة السوداء التي يلبسها سواد العيون فتقل العين الى بياض الثغور ويسلبها سواد اللما وما برحت عصبة مرذودة ولديها عصا النجا قد انتهى الى فوق ما يضرب به المثل اذ قيل يسرق الكحل من العين فهذا يسرق العين من الكحل وهو لص من أكابر اللصوص وسموا كحالين وهم صاغة لما يركبون فوق العين من الفصوص قد أودع كحله حزن يعقوب فمن كحل منه ابيضت عيناه ويجدد معجز القميص اليوسفي فلو مروا به على ناظر انقرحت جفناه وهو من الذين اذا رفعوا أميالهم فانما هي لشمس العيون مزوله واذا أولج أحدهم الميل في المكحلة فهو أولى بالرجم ممن أولج الميل في المكحلة (ومن انشائه) سقى الله ثراه والجو يتنفس عن صدر مسجور كصدر المهجور والحر وصاليه في هذا الضوجار ومجرور والمهامه قد نشرت فيها ملاء السراب وزخرفها بجر ماء ولد لغير رشدة على غير فراش السحاب وحر الرمل قد منع حث الرمل ونحن في أكثر من جموع صفين الا أننا نخاف وقعة الجمل ووردنا ماء هذه العيون وهو كالمحاجر يغترف منه المجرم مثل عمله ويرسله سهما فلا يخطئ نقرة مقتله وهو مع هذا قليل كأنه مما جادت به الآماق في ساحات المفاق لا في ساعات الفراق فيالك من ماء لا تميز اوصافه من التراب ولا يرتفع به فرض التيمم كما لا يرتفع بالسراب ولا يعدو ما وصف به أهل الجحيم في قوله تعالى وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب فنحن حوله كالعوائد حول المريض يعللون عليلا لا يرد الجواب بل يندبون ميتا قد حال بينه وبينهم التراب يجهز للدفن ونعشه المراد ويحفر عليه ايقوم من قبره وذلك خلاف المعتاد * وفي غير من قد وارت الارض فاطمع * على أنه لو كان دمعا لما بل الاجفان ولو كان مالا لما رفع كفة الميزان (ومن انشائه) الى أن يرد كتب العسكر وأعلامها من مدات المماته ورؤس العدا قطعات همزاته (ومنه) فبنت سنابك الخيل سماء من العجاج نجومها الاسنه وطارت اليهم عقبان الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الاعنه وتصوبت عيون السمر الى قلوبهم كأنما تطلب سوادها وقصدت أنهار السيوف صدورهم لتروي أكبادها (ومنه) وما أحسب الاقلام جعلت ساجدة الا لان طرسه محراب ولا أنها سميت خرسا الا قبل أن ينفث سيدنا في روعها رائع هذا الصواب ولا أنها اضطجعت الا ليبعثها ماينفخ فيها من روحه من مرقدها ولا سودت رؤسها الا لانها أعلام عباسية تناولتها الحضرة بيدها لا جرم أنها تحامي الحمى وتسفك دما وتحقن دما وتتشجع بها يده عنا ناو ترسلها فتعلم الفرسان ان في الكتاب لفرسانا وتقوم الخطباء بما كتبت تعلم الالسنة ان في الايدي كما في الافواه لسانا (قلت ومن مخترعاته قوله) وان ادعى سحر البيان انه يقضي أيسر حقوقه ويثمر ما يجب من شكر فروعه وعروقه كنت أفضح باطل سحره وأذيقه وبال أمره وأسلب الحلو المرا السحارة على جذوع الاقلام وأعقد ألسنتها كما تعقد السحرة الالسنة عن الكلام (ومن أنشائه في وفاء النيل المبارك عن الملك الناصر صلاح الدين نور الله ضريحه) نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا وأضفاها سبوغا وأصفاها ينبوعا وأسناها منفوعا وأمدها بحر مواهب وأضمنها حسن عواقب النعمة بالنيل المصري الذي يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره ويربي النبات جره ويحيي مطلقه الحيوان وتجني ثمرات

الارض صنوان وغير صنوان و ينشر مطوى حريرها و ينشر مواتها و يوضح معنى قوله عزوجل وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فاسفر وجه الارض وان كانت تنقب وأمن يوم بشراه من سكان خائفا يترقب ورأينا الابانة عن لطائف الله التى حققت الظنون ووفت بالرزق المضمون ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقد أعلمناك لتوفى حقه من الاذاعه وتبعده من الاضاعه وتتعرف على ما يصرف فى الطاعه وتشهر ما أورده البشير من البشرى بابانته وتمده بايصال رسمه مهنأ على عادته (ورسم لى فى الايام المؤيدية وأنا منشئ الديوان الشريف المؤيدى) سنة تسع عشرة وثمانمائة ان انشئ رسالة بوفاء النيل المبارك لم أسبق اليها ممن تقدمنى من المنشئين بالديار المصرية حتى ان المقر الاشرف المرحومى القاضوى الناصرى محمد بن البارزى الجهنى الشافعى سقى الله ثراه قرأ على المسامع الشريفة هذه الرسالة المسطرة ورسالة من انشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وكان غرضه فى ذلك اختبار الالفاظ والمعانى من الرسالتين فانشأت بعد المستعان بالله * ونبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا فيه بالحسنى وزياده واجراه لنا فى طرق الوفاء على اجمل عاده وخلق أصابعه لمزولى الابهام فاعلن المسلمون بالشهادة كسر جسره فامسى كل قلب بهذا الكسر مجبورا واتبعناه بنوروز وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مكسورا دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه وقبل ثغور الاسلام وارشفها ريقه الحلو فمالت اعطاف غصونها اليه وشبب خريره فى الصعيد بالقصب ومد سبائكه الذهبية الى جزيرة الذهب فضرب الناصرية واتصل بام دينار وقلنا انه صبغ بفوة لما جاء وعليه ذلك الاحمرار وأطال الله عمر زيادته فتردد فى الآثار وعمته البركة فاجرى سواقى مكة الى ان غدت جنة تجرى من تحتها الانهار وحضن مشتهى الروضة فى صدره وحنا عليها حنو المرضعات على الفطيم وارشفه على ظما زلالا * ألذ من المدامة للنديم وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الابيات وسقى الارض سلافته الحمرية فخدمته بحلو النبات وادخله الى جنات النخيل والاعناب فالق النوى والحب فارضع جنين النبت واحياله أمهات العصف والاب وصافحته كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية ولبس الورد تشريفه وقال ارجوان تسكون شوكتى فى ايامه قويه ونسى الزهرى بحلاوة لقائه مرارة النوى وهامت به مخدرات الاشجار فارخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى واستوفى النبات ما كان له فى ذمة الرى من الديون ومازج الحوامض بحلاوته فهام الناس بالسكر والليمون وانجذب اليه الكباد وامتد ولكن قوى قوسه لما حظى منه بسهم لا يرد ولبس شربوش الاترج وترفع الى ان لبس بعده التاج وفتح مقشور الارض اعلامته بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراج فتناول مقالم الشنبر وعلم باقلامها ورسم لمحبوس كل سد بالافراج وسرح بطائق السفن فخفقت أجنحتها بتعلق بشائره وأشار باصابعه الى قتل المحل فبادر الخصب الى امتثال أوامره وحظى بالمعشوق و بلغ من كل منية مناه فلا سكن على البحر الاخضر ساكنه بعد ما تقمصوا تقن باب المياه ومد شفاه أمواجه الى تقبيل فم الخور وزاد بسرعته فاستحلى المصريون زائده على الفور ونزل فى بركة الحبش فدخل التكرور فى طاعته وحمل على الجهات البحرية فكسر

المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته وأظهر فى مسجد الخضر عين الحياة فاقر الله عينه وصار أهل دمياط فى برزخ بين المالح وبينه وطلب المالح رده بالصدر وطعن فى حلاوة شمائله فما شعر الا وقد ركب عليه ونزل فى ساحله وأمست واوات دوائره على وجنات الدهر عاطفه وثقلت أرداف امواجه على خصور الجوارى فاضطربت كالخائفه ومال شبق النخيل اليه فلثم ثغر طلعه وقبل سالفه وامست سود الجوارى كالحسنات فى حمرة وجناته وكلما زاد زاد الله فى حسناته فلا فقير سد الا حصل له من فيض نعماه فتوح ولا ميت خليج الا عاش به ودبت فيه الروح ولكنه احمرت عينه على الناس بزيادة وترفع فقال له المقياس عندى قباله كل عين اصبع فنشر اعلام قلوعه وحمل وله على ذلك الحرير بحجره ورام ان يهجم على غير بلاده فبادر اليه عزم المؤيدى وكسره وقد أثردا المقر بهذه البشرى التى عم فضلها برا وبحرا وحدثناه عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالا وصدرا ليأخذ حظه من هذه البشارة البحرية بالزيادة الوافرة و ينشق من طيبها نشرا فقد حملت له من طيبات ذلك النسيم انفاسا عاطره والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة بسمعه الكريم لبصيرها فى كل وقت مشنفا ولا برح من نيلها المبارك وانعامنا الشريف على كلا الحالين فى وفا (قلت تقدم) قولى ان الشئ بالشئ يذكر وقد ذكرت بوصف النيل المبارك هارسالتى البحرية التى كتبت بها الى علامة عصرنا الشيخ بدر الدين الدمامينى فسح الله فى أجله من القاهرة المحروسة الى ثغر الاسكندرية المحروسة عند دخولى اليها من ثغر طرابلس الشأم وقد عضت على انياب الحرب بثغرها شانيا من أهوال برها وبحرها وذلك فى منتصف ربيع الآخر سنة اثنين وثمانمائة (وهى) يقبل الارض التى سقى دوحها بنزول الغيث فاثمر الفوائد البدريه وطلع بدر كمالها من المغرب فسلمنا المعجزاتها المحمديه وجرى لسان البلاغة فى ثغرها فسما على العقد بنظمه المستجاد وأنشد وقد ابتسم عن محاسنه التى لم يخلق مثلها فى البلاد

لقد حسنت بك الايام حتى * كأنك فى فم الدهر ابتسام

فاكرم به مورد فضل ما برح منهله العذب كثير الزحام ومدرسة علم تشرفت بالجناب المحمدى فعلى ساكنها السلام ومجلس حكم ما ثبت للباطل به حجه وعرفات أدب ان وقفت بها وقفة كنت على الحقيقة ابن حجة وأفق معال بالغ فى سمو بدره فلم يقنع بدون النجوم وميدان عرشه تجول به فرسان الفصاحة من بنى مخزوم وتالله ما الفرسان الشقراء والابلق فى هذا الميدان مجال واذا اعترفوا بما حصل للفارس المخزومى عندهم من الفتح كفى الله المؤمنين القتال و ينهى بعد أدعية ما برح المملوك منتصبا لرفعها وثغر ثلاثية ما أسجع المطوق فى الاوراق النباتية حلاوة سجعها وأشواق برحت بالمملوك ولكن تمسك فى مصر بالآثار وابرح ما يكون الدهر يوما * اذا دنت الديار من الديار وصول المملوك الى مصر محتميا بكنانتها وهو بسهام البين مصاب مذعور المشاهده من المصارع عند مقابلة الفرسان فى منازل الاحباب مكاما من ثغر طرابلس الشأم بالسنة الرماح محمولا على جناب غراب وقد حكم عليه البين ان لا يبرح من سفره على جناح

وكان فى البين ما كفانى * فكيف بالبين والغراب

(يامولانا)

(يامولانا) لقد قرعت سن هذا الثغر بأصابع السهام وقلع منه ضرس الامن ولم يبق له بعد ما شعر به البين تظام وكسرت الحرب فى ثناياه عن انياب واقتلعنا منه مع انهم لم يتركوا لنا فيه ثنية ولا ناب وأمست شهب الرماح قافية على آثارنا والسابق السابق منا الجواد ولزمت الروى من دمائنا لئلا يظهر اقافيتها عند نظم الحرب سناد وفسد انسجام تلك الابيات المنظومة على ذلك البحر المديد وبدات جنتها بنار الحرب التى كم تقول لها هل امتلات وتقول هل من مزيد ونفذ حكم القضاء وكم جرح خصم السيف فى ذلك اليوم شهودا واتصل الحكم بقضاء القضاة فلم يسلم منهم الامن كان مسعودا ووقع غالبنا فى القبض من عروض حزمهم الطويل وتبدلت محاسن طرابلس الشأم بالوحشة فلم نفارقها على وجه جميل وتالله لم يدخلها المملوك فى هذه الواقعة الامكرها الابطل وكم قلت لسارية العزم لما كشف لى عن مضيق سهلها ياسارية الجبل ولم يطلق المملوك عروس حماته الاجبرا اظهروا به كسره والعلوم الكريمة محيطة كيف يكون طلاق المكره يامولانا

بوادى حماة الشأم من أيمن الشط * وحقك تطوى شقة الهم بالبسط

بلادا اذا ماذقت كوثر مائها * اهيم كانى قد تملت باسفنط

ومن يجتهد فى ان بالارض بقعة * تشاكلها قل أنت مجتهد مخطى

وصوب حديثى مائها وهوائها * فان أحاديث الصحيحين ماتخطى

بمعصمها ان دار ملوى سوارها * فما الشأم بالخلخال أو مصر بالقرط

تنظم بالشطين درثمارها * عقودا فهذا العاصى راينا كالسمط

وترخى علينا للغصون ذوائبا * يسرحها كف النسيم بلامشط

ومذ مد ذاك النهر ساقا مدملجا * وراح بنقش النبت يمشى على بسط

لوينا خلاخيل النواعير فالتوت * وأبدت لنادورا على ساقة السبط

سقى سفحها ان قل دمعى سحابة * مطنبة بالدمع مهملة النقط

ويا أسطرا النبت التى قد تسلسلت * بصفحتها لازلت واضحة الخط

ولازال ذاك الخط بالطل معجما * ومن شكل أنواع الازاهر فى ضبط

لويت عنانى فى حماها عن اللوى * وهمت بها لا بالمحصب والسقط

ولذعناق الفقر لى بفنائها * وفى غيرها لم أرض بالملك والرهط

منازل أحبابى ومنبت شعبتى * وأوطان أوطارى بها ورضا سخطى

نعمت بها دهرا ولكن سلبته * برغمى وهذا الدهر يسلب مايعطى

وقد جاء شرط البين انى اغيب عن * حماها القداوفى فؤادى بالشرط

وحط على الدهر عمدا وشالنى * الى غيرها صبرا على الشيل والحط

وسبحة جمع الشمل كانت لنا بها * منظمة لكن قضى الدهر بالفرط

امثل شوقا شكلها فى ضمائرى * فتتبع عينى ذلك الشكل بالنقط

وقد سار يمشى الهم نحوى بسرعة * فياليته لو كان فى مشيه يبطى

وأصبح نظمى راجعا بى الى ورا * كأنى فى الديوان أكتب بالقبطى

(يامولانا) وابثك مالقيت من أهوال هذا البحر واحدث عنه ولاحرج فكم وقع المملوك من من أهوال يضه فى زحاف تقطع منه القلب لما دخل الى دوائر اللجج وشاهدت منه سلطانا جائرا يأخذ كل سفينة غصبا ونظرت الى الجوارى الحسان وقد رمت أزرقلوعها وهى بين يديه لقلة رجالها تسبى فتحققت ان رأى من جاء يسعى فى الفلك جالسا غيرصائب واستصوبت هنا رأى من جاء يمشى وهو راكب وزاد الظمأ بالمملوك وقد اتخذ بالبحر سبيله وكم قلت من شدة الظما ياترى قبل الحفرة هل أطوى من البحر هذه الشقة الطويلة

وهل أيا كر بحرا النيل منشرحا * واشرب الحلو من أكواب ملاح

بحر تلاطمت علينا أمواجه حين متنا من الخوف وحملنا على نعش الغراب وقامت واوات دوائره مقام مع فنصبتنا للغرق لما استوت المياه والاخشاب وقارن العبد فيه سوداء استرقت موالينا وهى جاريه وغشيهم منها ماغشيهم فهل أتاك حديث الغاشية واقعها الحرب فحملت بنا ودخلها الماء فجاءها المخاض وانشق قلبها لفقد رجالها وجرى ماجرى على ذلك القلب وفاض وتوشحت بالسواد فى هذا المأتم وسارت على البحر وهى مثل وكم سمع للغاربة على ذلك التوشيح زجل برج مائى ولكن تعرب فى رفعها وخفضها عن النسر والحوت وتتشامخ كالجبال وهى خشب مسندة من تبطنها عد من المتصبرين فى تابوت تأتى بالطباق ولكن بالقلوب لان صغيرها كبير وبياضها سواد وتمشى على الماء وتطير مع الهواء وصلاحها عين الفساد ان نقر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوعها بالعود ورقصا على آلتها الحدباء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود تتشامخ وهى كما قيل انف فى السماء واست فى الماء وكم نطيل الشكوى الى قامة صاريها عند الميل وهى الصعدة الصماء فيها الهدى وليس لها عقل ولادين وتتصابى اذا هبت الصبا وهى بنت أربعمائة وثمانين وتوقف أحوال القوم وهى تجرى بهم فى موج كالجبال وتدعى براءة الذمة وكم استغرقت لهم من أموال هذا وكم ضعف نحيل خصرها عن تشاقل ارداف الامواج وكم وجلت القلوب لما صار لاهداب مجاديفها فى مقلة البحر اختلاج وكم أسبلت على وجنته طرة قلعها فبالغ الريح فى تشويشها وكم مرعلى قريتها العامرة فتركها وهى خاوية على عروشها تتعاظم فتهزل الى ان ترى ضلوعها من السقم تعد ولقد رأينا ها بعد ذلك قد تبت وهى حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد وخلص المملوك من كدر المالح الى النيل المبارك فوجده من أهل الصفا واخوان الوفا وتنصل من ذلك العدو الازرق ذى الباطن الكدر وجمع من عذوبة النيل ونضارة شطوطه بين عين الحياة والخضر وتلا لسان الحال على المملوك وأصحابه ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين وقضى الامر وقيل بعدا للقوم الظالمين (وبعد) فان المملوك يسأل الاقاله من عثرات هذه الرساله فقد علم الله انها صدرت من فكر تركه البين مشتتا وأعضاء مع كثرة بردها قد خرجت من البحر عارية فى فصل الشتاء وليستر عوراتها بستائر الحلم وينظر اليها من الرحمة بعين وليكن ضربها بسيف النقد صفحا فقد كفى ما جرحت بسيوف البين وتالله لم يسلك المملوك هذه الجادة الا ليجد له سبيلا الى نهلة من عذب تلك الموارد ويعود على الضعيف الذى قطعت صلاته من صفا هذا المشرب عائد ويصير العبد مسعودا اذا

عدللابواب العالية من جملة الخدام ويحصل لكبده الحراء من ذلك النسيم الغربي برد وسلام والله تعالى يمن بقرب المثول بين يديه ليحصل المملوك بعد التخلص من البين حسن الختام (القاضي السعيد) هبة الله بن سناء الملك وان الشوق بحر وقلبه والله الغريق باامواجه وجمر وصدره المظلم بسراجه (ومن انشائه) فالاسلام من طلقاته والكفر مجاهد ولكن باتقانه وسيوفه تحسن في الاجسام البسط وفي الارواح القبض ورماحه تكاد لطولها تمسك السماء ان تقع على الارض (ومن انشائه) وكيف لا يحمد المملوك تلك الاشواق وهي تقربه من المولى بالتخييل اذا أبعدته الايام وتمثل المقام الكريم فيقابله كل ساعة بالسجود ويشافهه بالسلام ويرفع ناظره فلولا نظره اليه لكانت عينه مطرقه وسور اهدابه مسبلة وأبواب جفونه مغلقه ولولا اشتغالها بمطالعة طلعته لا لتهب من دموعها بمياه محرقه فهو منها في نار وجنه مغلول بغله مطوق بمنه (ومن انشائه) واقصد أنساه فراق مولاه حروف المعجم فما يعرف منها حرفا وعاقب خاطره الذي كفر بالبلاد فاسقط عليه من سمائها كسفا شوق ماخطر مثله على قلب بشر ودمع ما مر على بصر الا ومر كلمح بالبصر ولسان لا ينفك من الدعاء على يوم الفراق ومن دعا على ظالمه فقد انتصر (القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر) خليفة القاضي الفاضل (ومن انشائه قوله) نعلمه بفتوحات استطعم الايمان حلاوتها من الطراف المران واستنطق الاسلام عبارتها من ألسنة الخرصان وذلك بفتح حصن الاكراد الذي كان في حلق البلاد الشامية غصة لم تسغ بمياه السيوف المجرده وشجى في صدرها لم تقومه أدوية العزائم المفرده (ومن انشائه) بابطال الحشيش بعد الخمر نعلمه ان المنكرات أمرنا ان تملأ الصحائف بأجرها وتفرغ الصحاف وان لا يخلو بيت من بيوتها من كسر أو زحاف وقد بلغنا الآن انها اختصرت وان كلمة الشيطان بالتعريض عنها ماقصرت وان أم الخبائث ماعقمت وان الجماعة التي كانت ترضع ثدي الكاس عن ثديها ما فطمت وانها في النشوة ماخيب ابليس مسعاها وانها لما أحرج المنع عنها ماء الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها وانها استراحت من الخمار واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار وان ذلك فشا في كثير من الناس وعرف في عيونهم ما يعرف من الاحمرار في الكاس وساروا كأنهم خشب مسندة سكرا واذا مشوا يقدمون لفساد عقولهم رجلا ويؤخرون أخرى ونحن نأمر بان تجتنب أصولها وتقتلع ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع وتطهر منها المساجد والجوامع ويشهر مستعملها في المحافل والمجامع حتى تنتبه العيون من هذا الوسن وحتى لا تشتهي بعدها خضراء ولا خضراء الدمن (ومن انشائه) عن لسان الشريف الى الفرنج وقد أخذت شواني السلطان وفرق بين من يتصيد بالصقور من الخيل العراب وبين من اذا افتخر قال تصيدت بغراب فلئن أخذتم لنا قرية مكسوره فكم أخذنا لكم قرية معموره وقد قال الملك وعلمنا وعلم الله ان قولنا من الصحيح وانكل واتكالنا وأين من اتكل على الله ممن اتكل على الريح (ومن انشاء الصدر عز الدين بن سينا) في بشارة بكسر عساكر الفرنج عن الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة اثنتين وأربعين وستمائة (فلا) روضة الادرع ولا جدول الاحسام ولا غمامة الا النقع ولا وبل الا السهام ولا مدامة الا الدم ولا نغم

الاصليل ولامعربذالاقاتل ولاسكران الاقتيل حتى أنبت كافور الرمال شقيقا واستحال بلور الحصباء عقيقا وازدحمت الجنائب فى الفضاء فجعلته مضيقا وضرب النقع فى السماء طريقا (شعر)

وضاقت الارض حتى كادهاربهم * اذا رأى غيرشئ ظنه رجلا

(قلت ذكرت) بهذا التلاعب المطرب من انشاء الصدر عز الدين تلاعب القاضى محيى الدين ابن عبد الظاهر فى شفاعة ما نسج على منوالها (وهى) أدام الله نعمة مولانا ولا زال علم علاه مرفوعا أبدا وبناء مجده منصوبا بخفض العدا ولا برحت اقلامه لافعال الشك جازمه ولاعدائه متعدية ولآرائه لازمه (أما بعد) فان فلانا حضر وادّعى انه رخم فى غير النداء وجزم والجزم لا يدخل فى الاسماء واستثنى من غير موجب نخفض والخفض من أدوات الاستثناء وذكر ان العامل الذى دخل عليه منعه من الصرف ولزمه لزوم البناء واجتمع معه فى الشرط وأفرده بالجزاء والمأثور من مكارم مولانا نصب محله على المدح لا على الاغراء ورفع اسمه المعرى من العوامل على الابتداء ففيه من التمييز والظرف ما يوجب العطف ومن المعرفة والعدل ما يمنعه من الصرف لا زال مولانا بابا للعطف والصله ومآثر مكارمه متصلة لا منفصله (قلت) قد انتهت الغاية هنا الى التحلى بانقطر النباتى وقدعن لى أن أورد هنا حظيرة الانس الى حضرة القدس فانها من بديع انشائه وهى فى رحلته الى القدس الشريف مع الصاحب أمين الدين (وهى) الحمد لله حافظ سر الملك بأمينه وحامى حماه بمن قسم الشكر والاجر بين دنياه ودينه ومن اذا رفعت راية مجد تلقاها عرابة براعته بيمينه واذا امتدت اليه أجياد الممالك حلاها من عقد التدبير بثمينه واذا نوى فى السيادة فعلا أمضى العزم السنى قبل دخول سينه واذا خمل بنانه القلم روينا عن ابن بحر كتاب بيانه فى الفضل وتبيينه وصلى الله على سيدنا محمد الذى أيد بالروح الامين وعضد بوزراء آله وصحبه الغر الميامين وسلم عليه وعليهم سلاما باقيا الى يوم الدين (أما بعد) فان الله سبحانه وتعالى لما يريد من صلاح عباده وانتظام هذا العالم الارضى فى سلك سداده وتمام أمره بهذا السواد الاعظم بمدبره تماما خط الطرس بسواده جعل لكل دولة قائمة وزيرا قائما بتدبيرها مفرغا غصن القلم بتثميرها منفذا أمر سلطانها ومبلغا أحكام عدلها واحسانها يبنى ممالكها على الاسل من اقلامه ويحوط اطرافها الحالمة الزهر بكمامه ويحفها باوصاف وزيرية يعقد عليها العدل خنصره ويتضح بها وجه الاستحقاق من ابهامه (وكان) صاحب هذه الدولة التى خضعت لها الدول وفاضل أمرها الجليل وراسخ دوحها الذى ما مال مع الهوى وقديم صحائفها الذى تلا تسديده ما ضل صاحبكم وما غوى وضابط أمورها الذى طال ما استشرفت اليه اسماع وأبصار وانتصرت به تقديم هجرته فلا غرو ان صار من المهاجرين بها والانصار المقر الاشرف الصاحبى الوزيرى الامينى أعلى الله تعالى أبدا شانه ورفع على فرق الفرقدين مكانه وزان باقلامه أقاليم مصر فهذه سهام وهذه كنانه ممن استدعته رواة المحافل وترددفى المناصب العلية تردد الاقمار فى المنازل وجمع الاوصاف الوزير بة جمع أبى جاد للحروف وتنبه قلمه ونامت مل ء أجفانها السيوف وعرف بالسيادة والزهد فعلى كلا الحالين هو السرى وقدره معروف وكنت أود لو نقلت

الشهادة بصفاته عن الخبر الى المعاينه وجمعت بملازمة مقره الشريف ظاهر الوصف باطنه ورويت الاخبار عن لسنه وجنيت الورد من غصنه بل التبر من معدنه هـذا واشغاله بتدبير الدول شاغله وأيام البعد عند فراغه بيني و بين القصد حائله (فلما) عزم بدمشق المحروسة سنة خمس وثلاثين على زيارة القدس الشريف أطلع رأيه الشريف على مافى خاطري وأمرني بالمسير في ظل ركابه فسر على الحقيقة سائري وكاشف ولا يشكر الكشف لمن كثرت زواياه في البلاد ونظر لحالي ولا يشكر النظر في الاحوال لسيد الوزراء والزهاد وكان له في استصحابي مقصد تقبل الله عمله الصالح ومتجره الرابح وذلك انى كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي مقيما بين المقابر اقامة تفت حبة قلبي على قطعة كبدي ساقيا روض الحزن بغمائم الجفون باكيا على دينار وجه عاجلته الايام بصرف المنون أطلب قلبي في التراب وأنشده وأطارح صوت الصدا فينشدني وأنشده شعر

يالهف قلبي على عبد الرحيم ويا * شوقي اليه ويا شجوي ويادائي
في شهر كانون وافاه الحمام لقد * أحرقت بالنار يا كانون احشائي

وقال أيضا

آها لعقد قد وهي سلكه * وكان ذا در بعبد الرحيم
خليقتي لاثبت عنه الردي * وعاد ذاك الدرد رايتيم

فاقتضى تدقيق النظر الصاحبي في اسداء العوارف وابداء عواطف الفضل وفضل العواطف ان ينزع عنى بصحبة ركابه الكريم لباس الباس ويشغلني بمشافهة الانس القابل الا هكذا فليصنع الناس و ينهضني بالانعام من حوادث الزمن ويقرب مثلي قربا لايفطن لمثله الامين ومن فيا لها سفرة قابلها وجه الاقبال بالسفور وتلا فضلها الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور ومد فيها الانعام على ظلا ظليلا وملأ بيتي وعيني دقيقا وجليلا وأمرني ان أصف له المنازل والطرق وصفا كقصده الجميل جميلا فسرنا وأيدي السعد قد ذللت الطرق بل طوتها وقدمت وعود الآمال بل انجزتها والارض قد شرعت في لباس حليها وحللها ومراعي الربيع قد وعدت حتى الشمس تضمين حملها والشتاء قد آن أن يقوض الخيام والاذق قد شمر لانصراف ذيل الغمام ومبدا الروض أحق بقول أبي الطيب المتنبي

لقد حسنت بك الايام حتى * كانك في فم الدهر ابتسام

فأتينا الكسوة فلبسنا منها المسرة ثيابا سابغة الذيول وطفنا منها بكعبة الفضل طوافا واضح الاقبال والقبول وقلنا للمقاصد تباشري بالحظوه ولعيون الاقبال تاملي لها أحسن الكعبة في الكسوة ومررنا والخيل تجمز جمزا وجزنا بالصنمين فهمت أن تفخر بموالي خيلنا على اللات والعزى وصعدنا منزلة رأس الماء فكاد الطرب يهزه هزا ورأينا بينها وبين منزلة المغير أرضا قد اخضر جنابها وطرزت بآثار الطرف ثيابها فأمرت بالقول فقلت

سقى الله أرضا طرقها مثل طرزها * وسائرها برد من الوشي أخضر
تذكرت أحبابي بمثوى بريدها * فعيني رأس الما وجسمي المغير

ووافينا الحصين وقد راغت الخيل روغان أيمه وتلقتنا بالبشر والبشرى وجوه أهليه وسألونا أن نريح عندهم الركاب من الاين وعجلوا بالضيافة على الفتوح ولا يشكر تعجيل الفتوح للحصين ووجدنا هنالك فقيرا مغربيا حسن التلاوة قد عجز عن المسير وارتد طرف قصده عن القدس خاسئا وهو حسير فأمرت له الصدقات الصاحبية بمركوب ونفقة تعينه على السفر والاقامة ولحقه فى ذلك فقير عجمى ينشد لسان حاله فى مثل ما بك يا حمامه فلم أر مثلها صدقات تجود من الزاد والراحلة بالغيث والبرق ولا مثله متصدقا بمجالس لحظة واحدة فيركض نداه فى الغرب والشرق وجئنا بعجلون فحشر الناس لدى ضحى وجاء أهل المدينة يستبشرون فرحا وارتفعت الاصوات بالادعية الوافيه وأردنا أن نكتم دخولنا البلد وكيف تكتمنا وهى ذات عين صافيه ثم نزلنا بالخيام فى مرجتها الخضراء تحت قلعتها الغراء وهى فى معارج السحب صاعدة شائدة فى الجو كأنها فى السحر على عمود الصبح قاعدة مضيئة بين عقود الانجم كأنها درتها اليتيمة جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدين كأنها جذيمه فنظر فى المصالح وميز بالعدل بين الصالح والطالح وبجل من عجلون المسير فلم ينظر الغادى الذى هو رائح وأشرفنا على بركات القصد المنجية واقتحمنا الى الغور عقبه سهلها السعد فلا تقل ما أدراك ما العقبه واستفتحنا المزارات التى نوينا قصدها وطوينا غورها ونجدها بمشهد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فترامينا اليه بالعزم الفاخر وزار أمين هذه الامة الاول أمينها الآخر وأجرى أمر مشهده على سنن الصلاح ونظر فى مرتبه بعين العدل وأعانه بيد السماح وجعل والى الناحية عبيدة وما جعل لشاهده المعروف بالجراح وسلكنا جانب الغور المطور فاعجبنا ربا وروا وكانقطن الماء فيه غورا فوجدنا الغور ماء وخضنا فى حديثه وخاضت الخيل وتركنا عقباته كالمعلقة وملنا الى السهل كل الميل وتلقينا كل ذى قصد ببشر الصباح ولم نقل أهلك والليل ومازلنا كذلك لا نمر بواد الا أتت مع الابتهال بطول العمر رماله وأرامله ولا ببلاد الا قامت للدعاء رجاله وأطفاله وحلائله ولا بولاية الا ارتج غدرها ولا ببلدة الا زها على التى بين السماكين بدرها ولا ماش الا حمله المعروف ولا عابر سبيل الا آنسه من النعماء صنوف ولا جائز الا شملته مجائزه ولا منقطع بمفازة الا وعفباه فائزه ولا ظبية من ظبيات دمشق الا والمكارم تواليها وتواليها وتوجدها فى القفار كما توجدها أولياء الله فيها الى أن قدمنا القدس الشريف نحن والغمام وسبقنا اليه طرة الصبح تحت أذيال الظلام وخف بنا جناح الشوق والسوق حين دنت الخيام من الخيام وألقينا بباب حرمه عصا السفر وألقت هنالك رحالها كتائب المطر وزرنا باب الرحمة من الارض وزارنا باب الرحمة من السماء وصرنا من الصالحين عند زيارة الاقصى لمشينا على الماء وحمدنا الاوطان والاقطار واستمرت السحب حتى عادت الصخرة كحجر موسى تتفجر منها الانهار وأقمنا فى بيوت أذن الله أن يرفع شأنها ويسبح فيها بالغدو والآصال سكانها وكان معنا شخص يلقب بالخلد سكن بيتا حسنا وغمض عينه على الرفاق تغميضا بينا (فقال مولانا الصاحب) ما تقول فى بيته فقلت ما أقول فى جنة الخلد وشكى قوم عشرة هذا الرجل فكتبت

على

على ورقتهم اصبروا على ما يفعلون وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون (ثم) دخل الناس على الابواب الصاحبية افواجا وما ترك أحد منهم منها جاذا ناحية الا منهاجا ومكثنا فى البيوت الى ان صحا الافق من مدامة غمامه وحسر عن وجهه للابصار فضل لثامه وجئنا لبقية المشاهد قاصدين وانلك المبانى المعظمة شاهدين ومشاهدين فعاودنا الصخرة بقلوب قد لانت ونثرنا على مواطئ القدم دموعا عزت بلسماها ولا نقول هانت ونظرنا آثارا قديمة تذهل عيون النظاره وآثارا متجددة فى هذه الدولة القاهرة تقصر عنها العباره ومحاسن يقف فى طريق الزيارة متأملها ونقفه فى الطريق نصف الزياره لجنها ما هو مخصوص بالحرم الشريف نستلم كالحجاج اركانه ونقلب وجوهنا فى سماء سقف يكاد يعطر علينا الجبينه وعقيانه ونشاهد رخاما بلغ فى الحسن والمحل الاقصى فى الاقصى وتمت به فى بهجة المكان زيادة تخالف قول النحاة ان فى الترخيم نقصا فاما المياه التى تجرى فى الحرم على رأسها ونطوف على مواضع المنافع بقسها فتلك نعمة مقيمة يكافئ الله عنها فى دار المقامه وحسنة فى المعنى والصورة جارية الى يوم القيامه ومن المبانى المذكورة ما هو خصيص بمولانا ملك الامراء أعز الله انصاره وأبقاه سيفا يقف كل ذى قدر عند حده فلا يجاوز مقداره من مدرسة علم يدرس ولا يدرس معهده ودار حديث يروى فيروى الاسماع الظامئة مورده وخانقاه تضىء عليها أنوار البركات الكوامل ورباط ومكتب هما كما قيل * ثمال اليتامى عصمة للارامل *
وقلت فيهما

بنيت رباطا للنساء ومكتبا * يدير على الايتام سحب الفواضل
فلله من هذا وذلك كأنى * ثمال اليتامى عصمة للارامل

فجئنا من تلك المحاسن بساتين دانية القطوف وحظينا من الظلال السيفية جنة نشأت وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف وشرعت صدقات السر والجهر وقوبل السؤال ببحر لا يسمع عنده نهر وغص بفقرائهم المكان والطريق وجاؤا رجالا ونساء وعلى كل ضامر من العصى يأتين من كل فج عميق فوضع فى مواضعه النوال وقدرت الكساوى حتى على المستورين والاطفال هذا وكم ثياب صوف أعرض اشراقها عن مقال اللاحين واتخذ الفقراء والاغنياء من أصوافها أثاثا ومتاعا الى حين وجاءت الدراهم بعد التفاصيل بالجمل وقال جودها الحاتم هذى التى لا ناقة لك فيها ولا جمل (ومما قلت فى ذلك)

لله كم حال امرئ مقتر * قضيت فى القدس بتنفيسه
ودرهم ولى ولكنه * قد أخذ الاجر على كيسه

ثم تليت الختمات التى شرف الله تعالى ذكرها ومواعيد التفاسير والرقائق التى اجرت الاوقاف الصاحبية اجرها وشرع فى بناء الرواق على سطح الزاوية الصاحبية بباب الحرم الشريف واخذ رقم الرخام فى التوشيع والتفويف فيا لها الواحا كتب فيهما من الحسن كل شئ والمرداء رونقها فكان العين منها فى ماء وفىء وبالله رواقا شاق وصفه وراق ورفع محله فقال لسان المتصوف حبذا رفاعى الرواق ثم رتب للشيخ والفقراء ما يحتاجون اليه من كل نوع فريد وأصبح كل أحد وهو للنزول عند ذلك الشيخ مريد وبرزنا فى اليوم السابع

من الاقامة وقد قدمنا نقصد الخليل صلوات الله عليه بالنية الجليه وطربنا لتلك المنازل وكيف لا نطرب لها وهي الخليليه وزرنا قبر يونس عليه السلام في طريقنا ورفعنا الانواره الجفون وتملي عند الزيارة ذوا العين بذي النون ثم نزلنا من محل الخليل على محل القرى وحمدنا عند صباح ذلك الوجه السرى واستقبلنا بمقام ابراهيم امانا واستلمنا من ضريح شائد الركن ومن ضرائح أهله اركانا وأكلنا من شهي عدسه لونا ووجدنا من الهناء الوانا وقلنا لانفاس الشوق كوني بردا وسلاما على ابراهيم ووردنا موردا للقاء نشفي ظمأ ابراهيم وفرقت الهبات وتليت الختمات وجرت المواعيد على عوائدها المحكمات فقلت

قصدنا خليل الله في ظل صاحب * جلي العلى والمكرمات جليل

فهذا لدنيانا وهذا لديننا * فيا حبذا من صاحب وخليل

وسرنا في ظل الصاحب من الخليل وكادت دمشق تمد ايدى اعطافها الجاذبة ركابه ومصر تتضرع باصابع نيلها الطمعا في اقترابه وترضع ثدي هرمها داعية الى الله بعوده اليها وايابه وهم شبابك الوزارة ان يتلقى صاحب فتحه وصدر الخزائن ان يذاق مااعتاده من رأى عطفه ومنحه فانه ماجلس فيه أبهر روابحي من الطلعة الاميفيه باجماع الآملين المتأملين والخزائن التي كم قال لها تدبيره اني حفيظ عليم فقال الملك وانك لدينا مكين أمين ثم عطفتنا الاقدار الى جهة الرملة وجاءت الوفود كالرمل وخفت اكياس دراهم الصلات وثقلت أكياس دراهم الحمل واقمنا ثلاثة أيام نكاد ننشد

خرجنا على ان المقام ثلاثة * فطاب لنا حتى اقمنا بها عشرا

ورأينا مسجدا يعرف بالركني قد غير الزمان محاسنه الانيقه وهدم المحراب والموثر كنيه على الحقيقة فأمر مولانا الصاحب بعمارة مامنه اندثر ولحظت الآراء جارته المنقضة فتبين ان السعادة تلحظ الحجر ولقد صنع في هذه المنزلة من المعروف مالاصنع ذو الدهر الطويل مثله وبنى من المكرمات مابنت ولولا ابداع سعادته مابنت البناء فوق الرمله ورحلنا عن الرملة بنية الزيارة لمشهد زكريا ويحيى عليهما السلام فمررنا في طريقنا بجملة خير معترضه وبنية في وجهة القبول مبيضة تحتوى على قبر بنيامين أخي يوسف عليهما السلام فالحقناه بالزيارة بالخيه وتوكلنا على الله في القبول توكل أبيه وتيممنا بنيامين وقرعنا أبواب السماء بادعية فاتحة فقال النجح عقيب الفاتحة آمين وسرنا والصدور منشرحة والطريق الى خير الدارين منفتحة وجئنا المشهد وقد ظهرت عليه نضرة يحيى كريمين ببهجة الدين والدنيا وتلاقى ازهارها القادم انا نبشرك بيحيى وبتنا ليلة طيبة نحييها وغيبت النوم ونعصي بالسهر أمره بحاله سلطان على أعين القوم واصبحنا وقد امتلأت القلوب سرورا والاعين نورا وقوينا على قصد جنى الجنان واستقبلنا محاسن بيسان وختمنا الزيارة بمشهد معاذ بن جبل رضي الله عنه فانقلت أنواره القلوب من الهم أي انقاذ وكدنا نفتن بالانس حتى نقول افتان أنت يامعاذ وأمسكنا عنده من الدعاء بعروة لاتنفصم وأوينا من طوفان الذنوب الى جبل يحمي من به يعتصم وأمر بما يحتاج اليه من تجديد عمارة وانشاء طهاره والحق بكل مزار وردنا عليه في هذه السيارة فانا لانفارقه الا عن اقامة صلاة وصلات وتجديد آثار يزين به وجه

القبول كاتب الحسنات ثم نهضنا عن الغور نهوض لبنه الملبد وجزنا مبتسمين فما بكينا بكاء لبيد يوم فراقه أربد وانتشقنا من تلقاء طيبة الاسم أطيب العرف وسلكنا بحرف واديها مستبشرين فكانت طيبة الاسم والفعل والحرف ثم عاودنا المنازل التي قدمنا ذكرها ورجعنا كما تسترجع منازل الافق زهرها وتقسمنا أرواح دمشق حتى كدنا ننشق من ذيل الكسوة عطرها واستقبلنا الديار على هذا السعي الجليل وفاصلنا السفر على كل وجه للفضل جميل وقطعنا بالكسوة ليلا طالما ننادوه * كل ليل للعاشقين طويل * وفي تلك الليلة كان دخولنا الى دمشق المحروسة كدخولنا الى القدس الشريف فسائرين سرى النجوم في الليل سابقين لغرة الصباح بغرر الخيل موفرين لخواطر المتقين وهيهات وقد سال منهم السيل نازلين من دمشق جنة قد تبسمت لقدومنا عن ثغور الازهار وأجرت امام ركابنا الانهار ولبست من وشي البديع حللا لها من أوائل ما ادعقد من الثمار ازرار فائزين من الثناء والثواب بفوق الاراده داعين لمن فضله لنا جامع مترقبين لرتبته باب الزيادة وتمت هذه السفرة على أحسن ما يكون واشتملت من وجوه المحاسن على عيون قضيت المهمات بها بالنهار وقضيت في الليل المذاكره والتقطت من الفوائد الوزيرية ما كنت ارتقب جواهره وازاهره وأردت أن أذكرها في هذه الخطبة لانها جواهر وأضمنها بعض العلم في هذه الاوراق فانها أزاهر فكثرت على هذا اللفظ المسجوع واقتضى الحال ان أجمعها في سفر يقال فيه تلك رحلة وهذا تاريخ ومجموع وقد علم الله ان هذه النبذة من القول وردت من قريحة مسها فقد الولد بفرح وأي فرح وقال تفكرها الذى كان حائك الكلام لست اليوم من ذلك الطرح فليبسط الواقف على هذه الرحلة عذرى ويعلم السبب في كونها ليست عادة نظمي ونثرى واذا كانت القريحة في بقايا قرحها فليت شعرى أينهض سجعي وشعرى والله تعالى المسؤل ان يجعل في البقاء الصاحبي سلوة عن كل فقيد ويصل أسبابنا أبدا بحر بره الوافر وظله المديد ويرزقنا في شكر نعمه لسانا لفظه ذهب وذهنا بصره حديد (قلت) ذكرت برحلة الشيخ جمال الدين رحمه الله تعالى الى القدس الشريف صحبة الركاب الصاحبي الاميني رحلتي صحبة الركاب الشريف السلطاني المؤيدي سقى الله ثراه الى البلاد الرومية وبروز أمره الشريف بذكر الفتوحات بها وتسمية البلاد واستيعاب الرحلة الشريفة في البشارة المجهزة الى الديار المصرية وان لا يقرأها بالجوامع المطهرة غير مولانا شيخ الاسلام قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني الشافعي عظم الله شأنه فقرأها بالجامع المؤيدي والازهر في شهر رجب الفرد سنة ست عشرة وثمانمائة وقد عن لي ان اقرنها بالرحلة النباتية فانهما رحلتان (وهي) ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي ولا زالت طرف أخبارها السارة تسر خاطره وتشنف سمعه وترنحه بنسمات قربها وتجاور كريم سمعه ليأخذها بالشفعه وان حصل بينه وبين المسرة لبعدنا الطلاق فما تلنا الشريف يبشره بالرجعه (صدرت) هذه المكاتبة تهدي اليه من أوراقها ثمرات الفتح ليتفكه بالفواكه الفتحية وتعرب عما أبدته عربياتنا من شواهد التسهيل في فتح البلاد الرومية فانها رحلة مؤيدة تشد اليها الرحال وان كانت دول الاسلام حلة على أعطاف الدهر فهي لها من أطهر

الاذيال ونبدى لكريم علمه تجلى مخدرات الحصون بكل وجه حسن تحت عصابتها المؤيديه واستقرار سيس فى هذه الحلبة على قديم عادتها بين الجنائب الحلبيه وفتح قلعتها وقد حرك بابها مصراعى شفتيه وأعلن بسورة الفتح جهرا وتلت اقفاله بعد ماعسرت على الغير فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا وصعدت أنفاس الادعية من أفواه مراميها فرحا بنا وسرورا وبدلت صوامعها وتلك البيع بمساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا وأخلصت الطاعة اشيخ ملوك الارض طائفتها الارمنية وانقطعوا فى زوايا الطاعة مريدين لهذه المشيخة الشريعة الصوفية ورغب ابن رمضان فى طاعتنا الشريفة فجعلناه فى ربيع حلاوة الرغائب ورفعنا قواعد بيته الابراهيمى وادنيناه من أرمنة فدنا منها الى أعلى المراتب وتلمظت سيوفنا بحلاوة الفتح ورشفت بالسقتها فى كل قطر قطرها ففتحت اياس من بعيد لهذه الحلاوة ثغرها وانسجمت ابياتها لما انتظمت على بسيط الطاعة بحرها ومص حصن مصيصة من رحيق هذه الطاعة فامسى ثغره بافواه الشكر يقبل وبسط جبين جسره لمواطئ خيلنا فرحة وتهلل وجانس الفتح بين اياس وبانياس ولم ينتظم لبنى كندبيت بملطية يقام له وزن ويظهر منه اقتباس وانعكس هذا الاسم بعد الاستحالة وان كان مما لا يستحيل بالانعكاس وتسعر كافرهم وقد أضرم به النار فخاطبته بلسان جمر لا يفهم

وماهو الا كافر طال عمره * فجاءته لما استبطأته جهنم

وفر الى ملك عثمان فحكمنا بقتله فى تلك الارض علما ان الجهاد فى اعداء الدين عند العصابة المحمدية من الفرض وسمع العصاة بطرسوس زئير آسادنا من بعيد فادبر مقبلهم وتخيل ان الموت أقرب اليه من حبل الوريد وأعربت أبوابها بعد كسرة عن الفتح وقال أهلها ادخلوها بسلام آمنين وأوى العصاة الى جبل القلعة لما رأوا بعد القتال هذا الفتح المبين وصفق مقبلهم وجهه فبصقت فيه أفواه المدافع وحكم عليه القضاء بالاعتقال ولم يأت عند ذلك الحكم بدافع وشاهد القرغانيون من سيوفنا شدة القرم فخشى كل منهم ان يصير لحما على وضم ورأوا ألسن السهام فى أفواه تلك المرامى برأيتنا الصائب ناطقه وما أظهروا على سماء برج غيوم ستائر الا لمعت فيها من بوارق نفوطنا بارقه فخرقوا الاطواق من الخنق فطوقناهم بالحديد وأحيينا الفتح المأمونى برأينا الرشيد وماخفى عن كريم علمه وقوع انتقامنا الشريف فى الغادر ابن الغادر لما أدبر وقطع الله دابره وظهور السر الابراهيمى لما ادعى انه نمرود تلك الفئة الغادره كلمه بسيوفنا فاخرسه وتخبطه شيطان الرعب بمسه ورأى فيه تلك الهمة العالية فنجا من تلك الوقعة بفرسه ونفسه وأوى من قبل الى جبل ليعصمه . فقال له لا عاصم اليوم من أمر الله ورماه من شاهقه فى بحر عساكرنا بعد ماعض عليه بثناياه وسمع الرعد من سيف ابراهيم ففر وقد شاهد من أصيب بصواعقه من عصاة التركمان وصدقت فيه عزائم أتراكنا وماروى أحد فى ذلك اليوم من التركمان وسقوا أوعارة تلك الجبال من دمائهم فكادت أحجارها ان تورق وتخصب بعد المحل وجنوا بالعسال عسل النصر وغنموا من الانعام مازاد فى عدد أجناسه على النحل ونفرت عنهم أوانس تلك الظباء والمتيم ينشد لهو فى لظبية أنس منكم نفرت وانفطرت كبده لما رأى كواكب الحلى من أفلاك تلك الصدور

قد انتثرت وسن المقر الصارمي فيهم عزمه فقطع بهذا الصارم من عواتقهم أوصالا وحميت نار حربه فسبكت أوانيهم من الذهب والفضة تحت حوافر خيله نعالا ورخصت أنواع الديباج فكم من معدني صارم دفي لان قبورهم بعثرت وتلا لسان حال الكتب على السمور وغيره من اصناف الوبر واذا الوحوش حشرت وانقادت ركائبهم اليها وبدور مواطئها في بروج تلك الجبال قد أشرقت والناظر يتلو متعجبا أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت وكانت نار حرب القوم على المقر الابراهيمي بردا وسلاما فانه رفع قواعد بيته في ذلك اليوم وعلمنا ان الله قد جعل لابراهيم في هذا البيت الشريف مقاما ورقاه في عمر الابدار الى بروج الكمال فابدر فيها وسرى وأنشد لسان الحال بهذا المقال

وقد ظهرت فلا تخفى على أحد * الا على أكمه لا يعرف القمرا

وان كان شبلا فهو في المخبر كاسده ومصارع ليوث الحرب قد جعلها الله من صغره تحت يده ورفع له في هذا المبتدا وسيره في الآفاق خبرا وعلم الاعداء ان دمعهم يجري عند لقائه دما وكذا جرى وهذه المقابلة تليق بابن الغادر على قبح سريرته وغدره فانه أخرج أهل تلك البلاد من أرضهم بظلمه لا بسحره وسألنا قبل ذلك في ولده وقد كره العود اليه وألف أبوتنا الشريفة وتوطن فرددناه الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن عليه فخالف نص الكتاب ومشى في ظلم الطغيان ولم يعمل بقوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان فقابلته سطواتنا الشريفة على قوله وفعله وما حاق المكر السيئ الا باهله وحل ركابنا الشريف بالابلستين في العشرين من ربيع الآخر فجمعنا بحصنها الزاهر بين ربيعين وتممناها بعشر الاقامة لاستيفاء مالنا في ذمة جيرانها من الدين فرحبت بنا وبسطت بساطها الاخضر وقالت على الرأس والعين والقتنا الى درندة وما العيان من صنع الله في أخذها كالخبر وقرناصدع صخورها باختلاف الآلات فجاء ما قررناه نقشا على حجر وادعت ان صخرها أصم فاسمعناه من آذان المرامي تنقير المدافع وتحريك الوتر وطلعت في ظهر الجبل كدمل فطار كل جارح من سهامنا بريشه الى فتحها وظنت صون من بها لعلو ذلك السفح فطالت سيوفنا الى دماء القوم وسفحها وقرعنا جبلها بسبابات المدافع وكسرنا منه الثنية وامست حلق مراميها كالخواتم في أصابع سهامنا المستوية وخر بحرها طائعا فركبنا عليه سفن جسور على الزحف جاسره واقلعنا الى خشب سفينها المسندة فخرقنا قلوع سائرها وخربنا قريتها العامره هذا مع ان الملك خطبها لنفسه وأراد ان يعرج اليها فترفعت عليه ولم ترضه لنقص العرج ان يعلو لديها فرحل عنها ولم يحظ من ديوان وصلها بمسموح ولكن ساعة رؤيتها قالت بكارتها مرحبا بابي النصر وأبي الفتوح وتعلق سكانها باذيال الامان فامناهم ولكن كانوا في صدرها غلا فنزعناهم وجاءت مفاتيح جندروس قبل التخلص منها براعه فاحسنا الختام بدرندة والقينا كبير المدافع على حجرها الذي كان غير مكرم واحسنا التدبير في الصناعه وسمعت كرتبرت بذلك فالقت من بها من بئر معطلة وزهت فرحة بقصرها المشيد ووصلت مفاتيحها يوم هذا الفتح مهنئة بلسانها الحديد وغارت عروس بهنسا من ذلك فخطبتنا لجمالها البارع وجهزت كتابها يشهد لها بالخلو من الموانع وهي أيضا ممن خطبها الملك

انفسه فتمنعت وأرادا لسموالى افقها العالى فاستسفلته وترفعت وعوت كلابه فلقمتهم ماثقل وزنه من احجارها الثقال خلافا لمن أصبح الصخر عنده مثقال الاعتقال وعلم طغرق ان سهامنا فى كل عضو من اعضاء العصاة جارحه وافواه مدافعنا فى اعراض الصخور من سائر القلاع قادحه فثبت بداه عن المنع وجنح الى الاخلاص فسابقه باب القلعة ورفع صوته فى الفاتحه وضحك ناموس ملكنا الشريف على من ادّعى بختنا وكركر ولكن ابكتهم سهامنا دما جرى من محاجر القلعتين ولم يتعثر وقال حصن بختنا ان كانت قلعة نجم عصابا فى عقاب فالنسر الطائر يخفق تحت قادمتى باجنحته أو كان الهلال قلامة لاغملتها التى علاها من الاصيل خضاب فكف الخضيب يتيم ترب ويمسح بياض جبهته فانا الهيكل الذى ذاب قلب الاصيل على تذهيبه وود دينار الشمس ان يكون من تعاويذه والشجرة التى لولا سموفرعها اتفكهت به حبات الثريا وانتظمت فى سلك عناقيده وتشامخ هذا الحصن ورفع أنف جبله وتشامم فارمدنا عيون مراميه بدم القوم وامیال سهامنا على تكحيلها تتزاحم ووصل النقب بتنفيسه عن مقاتلهم الى الصواب وايقنوا ان بعده لم يضرب بيننا بسور له باب وكان منهل مائهم عذبا فاكثرنا على منبعه الزحام وتطفلوا على رضاع ثدى دلو فلم ترض أم المنع بغير الفطام وامسى دلوهم كدلو ابى زيد السروجى لا يرجع ببله ولا يجلب نقع غله وحكم المدفع الكبير على سور القلعة فقال له السور دائم النفوذ والاحكام وانقلبوا صاغرين الى الطاعة وقد قابلنا أنف جبلهم بالارغام ورجعوا عن خليلهم الكردى لما قام لهم على جهله الدليل وقالوا الطاعة السلطنة الشريفة ما راعى فيها من العصاة خليل وسألونا الصفح عن حديث جهلهم القديم وسلموا القلعة لرشا خو الحرنا الشريفة فجمعوا بذلك بين الرضا والتسليم وتنكرت اكراد كركر بسور القلعة فعرفناهم بلامات القسى والفات السهام وعطست أنوف مراميهم باصوات مدافعنا كأن بها زكام وتبرءوا من خليلهم الكردى لما شاهدوا الخطب جليلا وقال كل منهم ياليتنى لم اتخذ فلانا خليلا واورث عاديات المدافع بالقلعة قدحا فامست بالزلزلة مهدده وفروا من سطواتنا الشريفة الى البروج فادركهم الموت فى بروجهم المشيده وسألنا كرديهم فى جزيل ماله ليفدوا بنفسه الخبيثة ويروح فلم نرض منه على كفره الا بالمال والروح وسجناه فى قلعته وقد أيقن بالموت وارتفع النزاع وجهز المفتاح لتخليص دينه فحصل على سجنه الاجماع وأمسى بها * كريشة فى مهر الريح ساقطة * وتمام البيت معروف عند من له عليه اطلاع وجاءت مفاتيح كل من ديار بكر وقد أزهرت باسمنا الشريف اغصان منابرها وسألت قلعتها التشريف برسول يدوس بنعله محاجرها فاجبناها الى ذلك وأمست بنا بعد التنكر معرفه وصارت ابراجها بالنسبة المؤيدية مشرفه وجهز قرا عثمان مفاتيح الرها وآمد وسأل تشريفه بتشريفهما بتقليدين يرفعان لهما فى الشرف محلا فخلیناه بذلك وكان من العواطل فحلت المطابقة بالعاطل المحلى والتهب ابن الغادر بحرارة المعصية ففر الى برد الطاعة من غير قتره وهز جذع مراحمنا الشريفة واعترف انه جهل الفرق بين التمرة والجمره واقر بذنوبه وقال التوبة تجب ما قبلها ودوحة المراحم الشريفة قد مد الله على الخافقين ظلها وعلم انه ما أحسن البيان عن درنده فى تخليص ذلك

المقتاح وسأل ان يحظى من بيان عفونا الشريف باستجلاء عروس الافراح فاذقناه حلاوة
قربنا بعد ماذاق مرارة بينه والبسناه تشريفه بنيابة الابليستين فباس الارض وهو لا يصدق
انه يرى محاجر تلك العين بعينه وجهزنا ولده داود بدروع من الامن ليأمن بها من بداود
ويتفيأ بظلال جبرنا ويصير بعد حر المعصية فى ظل ممدود وقد تقدم سؤال قيسارية ان يقام بها
سوق الامان فاجبناها وسعرت بها نار الخوف بعد ما غلت فجهزنا اليها بضائع الامن
وارخصناها وأيقن أهلها انهم ان مشوا فى حدائق عدلنا على غير هذه الطريقة صار على
سوسنة كل سنان من دمائهم شقيقة فازلنا عنهم بايناس عدلنا الوحشه وأمست قياريتهم
فى أيامنا الزاهرة هشه وسجعت خطباء منابرها باسمنا الشريف والدهر يهتز فرحة ويترنم
ولم يخل من أسمائنا ثناء ودمنبر * ولم يخل دينار ولم يخل درهم * وتقارب الاشتقاق بين سيواس
وسيس فتجانسا للطاعه ومات العصيان بتلك البلاد فقالت ارزنكان الصلاة جامعة وصلت
لما نعته مع الجماعه فلا قلعة الا اقتضضنا بكارتها بالفتح وابتذلنا من ستائرها الحجاب ولا كاس
برج اترعوه بالتحصين الا توجنا رأسه من مدافعنا بالحباب حتى فصلت فى الروم لعساكرنا التى
هى عدد النمل قصص وعدنا فكان العود أحمد الم يبق بتلك البلاد ما تعده القدرة على الفتح
من الفرص وجاءت رسل ملوك الشرق بالاذعان لطاعتنا التى اتخذوها الشرف ما قبله وورد
كل منهم أن يحظى من جهات أعتابنا بقبله وتنوعوا من الهدايا باجناس صدفت من كل نوع
مقبول وبالغوا فى الرقة واهدوا من الرقيق ما قامت له عندنا سوق القبول وأسفر قرا يوسف من
الجمال اليوسفى ونور الطاعة عن بهجتين وأظهر كتاب الطهارة بتطهير الارض ممن نبذنا
اليه من أعداء الدولتين ودنت الديار من الديار فكانت سيوفنا فى القرب له حصنا وملاذا
ولم يباشر فى اخلاص الطاعة مما يقال له بسببه يوسف أعرض عن هذا وجاءت هداياه التى
هبت نسمات القبول على اقبالها وجنينا منها ثمار المحبه وجمل التفاصيل التى وشعها اسناء
الملك بهجة ولم يترك لابنه فى دار الطراز رتبه والنمورة التى يحجم ابن فهد عن وصفها اذا
قابل منها السواد والبياض بالمقلتين فانها جمعت لنا من ليلها الحالك ونهارها الساطع بين
الآيتين والجواد الذى تميز بأوصاف ما صاحب مجرى السوابق من الفحول التى تجاريها
فانه غرة فى جباه الخيل الذى قال قائد الغر المحجلين ان الخير معقود بنواصيها والسروج التى
سمت عندنا على السروجى بمقاماتها العاليه ورأيناها أهلة تغنى عن القمر فخضبنا كل سرج
منها بالغاشيه والجوارح التى خشى النسر الطائر ان يصير منها واقعا وصدق فيما تفرس
وخافت الشمس لما تسمت بالغزالة ولف سرحان الافق ذنبه على خيشومه ولم يتنفس والقوس
الذى أصاب به اغراض المحبة ونال منها أوفر سهم ونصيب وجاء عبارة عن رأى مهديه وكل
عندنا بحمد الله مصيب وهو من الاشياء التى وقعت فى محلها ونحن نقيم دلائل ذلك وبرهانه
لان القوس اذا عاذق سهامه بمصر علم أنه وصل الى الكنانه وبالغ المقر الجمالى فى نظم بديع
الهدايا وسجع الصفا بكثرة رقيقه وأدار من أوانى الصينى كؤسا اترعها الود بسلاف رحيقه
ودخلنا حلب المحروسة وأوصلناها ما استحقاها من ديون الفتح علينا ورددنا ما اغتصب منها

فقالت هذه بضاعتنا ردت الينا وقد آثرنا الجناب بكرامة هذه البشارة التى استبشر بها وجه الزمان بعد قطوبه وتبسم فانه ركن هذا البيت الشريف ونسيب مدحه المقدم فيأخذ منها حظه و يثلج صدرا ابرايا فقيها انهم بردو سلام ويرعاهم بعين الرعاية ليضوع فيهم عرف العدل و يصير مسكا لهذا الختام والله تعالى يمتعه فى ليله ونهاره من أخبارنا السارة بالاعياد والمواسم ويجعل له من صياغة أعماله ان شاء الله حسن الخواتم (قلت وذكرت بهذه الرحلة) أيضا رحلتى من الديار المصريه الى دمشق المحروسة المحميه سنة احدى وتسعين وسبعمائة والملك الناصر قد خرج من الكرك ونزل عليها وتصدى لحصارها وقد اجتمعت عليه العساكر المصرية والشامية وحدث بدمشق المحروسة ما حدث من القتال والحصار والحريق فكتبت الى المقر المرحومى الفخرى القاضى ابن مكانس فى شرح ذلك رسالة لم ينسج على منوالها ولم تسمح على غلبة الظن قريحة بمثالها (وهى) يقبل المملوك أرضا من يممها أو تيمم بثراها حصل له الفخر والمجد فلا برح هيام الوفود الى أبوابها أكثر من هيام العرب الى ربا نجد ولا زالت خيول الشعراء تطلق أعنة لفظها فتركض فى ذلك المضمار وتهيم بواديها الذى يجب أن ترفع فيه على اعمدة المدائح بيوت الاشعار وينهى بعد أشواق أمست الدموع بها فى محاجر العين معثره ولولم يقر انسانها بمرسلات الدمع لقلت قتل الانسان ما أكفره وصول المملوك الى دمشق المحروسة فيا ليته قبض قبل ما كتب عليه ذلك الوصول ودخوله اليها واقدوالله تمنى خروج الروح عند ذلك الدخول فنظر المملوك الى قبة يلبغا وقد طار بها الطير الحمام وجثت حولها تلك الاسود الضاريه فتطيرت فى ذلك الوقت من القبة والطير وتعوذت بالغاشيه ودخلت بعد ذلك الى القبيبات التى صغر اسمها الاجل التحبيب فوجدتها وقد خلا منها كل منزل كان آنسا بحبيبه فانشد به لسان الحال قفا نبك من ذكرى حبيب ونظرت بعد القباب الى المصلى وما فعلت به سكان تلك الخيام والتفت الجبديع بيوته التى حسن بناء تاسيسها وقد فسد منها النظام

فسال وقد وقفت عقيق دمعى * على أرض المصلى والقباب

ونظرت الى ذلك الوادى الفسيح وقد ضاق من الحريق بسكانه الفضا فتوهمت ان وادى المصلى قد تبدل بوادى الغضا •

فسقى الغضا والساكنيه وانهم * شبوه بين جوانح وقلوب

واصطليت النار وقد أرادت سبى ذلك النادى فشبت عليه من فوارس لهيبها الغاره وركضت فى ميدان الحصى فوجدت أركانه كما قال تعالى وقودها الناس والحجاره ودخلت قصر الحجاج وقدمت النار به من غير ضرورة فى موضع القصر وأصبح أهله فى خسر وكيف لا وقد صاروا عبرة لاهل العصر وتأملت تلك الالسن الجمرية وقد اذ لقت فى ثغور تلك الربوع تكلم السكان وتطاولت بالسنة الاسنة الابراك فاذهل أهل دمشق وقد كلموا بكل لسان ووصل المملوك بعد الفجر الى البلد وقد تلا بعد زخرفه فى سورة الدخان فوجب ان أجرى الدموع على وجيب كل ربع وأنشد وقد دخل صبرى بعد ان كان فى خبر كان * دمع جرى فقضى فى

الربع ماوجبا * ووقفت أندب عرصاتها التي جمعت بالبين فخابت من أهلها الظنون وكم داروا بقمحها خيفة من طاحون النار فلم يسلم فصدقت المثل بان القمح يدور ويجيء الى الطاحون وتطرقت بعد ذلك الى الحدادين وقد نادتهم النار بلسانها من مكان بعيد آتوني زبر الحديد ولقد كان يوم حر بقها يوما عبوسا قمطريرا أصبح المسلمون فيه من الخيفة وقد رأوا سلاسل وأغلالا وسعيرا هذا وكلما أصليت نار الحريق وشبت نار الحرب ذكرت ما أشار به مولانا على المملوك من الاقامة بمصر فانشدت من شدة الكرب

آه لمصر أين مصر وكيف لى * بديار مصر مراتعا وملاعبا
والدهر سلم كيفما حاولته * لا مثل دهرى فى دمشق محاربا

يا مولانا لقد لبست دمشق فى هذا المأتم السواد وطبخت قلوب أهلها كما تقدم على نارين وسلقوا من الاسنة بالسنة حداد ولقد نشفت عيونهم من الحريق واستسقوا فلم يسقوا رائحة الغاديه وكم روى فى ذلك اليوم وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حاميه وكم رجل تلا عند لهيب بيته تبت يدا أبى لهب وخرج هاربا وامرأته حمالة الحطب وشكا الناس من شدة الوهج وهم فى الشتاء وصاروا من هذا الامر يتعجبون فقال لهم لسان النار أتعجبون من الوهج والحريق وأنتم فى كانون ولعمرى لو عاش ابن نباته ورأى هذه الحال وما تم على أهل دمشق فى كانون لترك رثاء ولده عبد الرحيم وقال

يا لهف قلبى على وادى دمشق ويا * حزنى عليه ويا شجوى ويا دائى
فى شهر كانون وافاه الحريق لقد * أحرقت بالنار يا كانون احشائى

ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا أزفت الآزفة وستروا بروجها من الطارق بتلك الستائر وهم يتلون ليس لها من دون الله كاشفه واستجليت عروس الطارقة عند زفها وقد تجهزت للحرب وما لها غير الارواح مهر وعقدت على رأسها تلك العصائب وتوشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الابيض سوار النهر وغازلت بحواجب قسيها فرمت القلوب من عيون مراميها بالنبال وأهدت الى العيون من مكاحل نارها أكحالا كانت السهام لها أميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وسمح وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم فى رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بأن الطارقة عالية وتالله لقد حرست بقوم لم يتدرعوا بغير آية الحرس فى الاسحار وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم تنم أعينهم عن الاوتار فاعيذ رواسيها التى هى كالجبال الشامخة بمن أسس رواسى المجعوج وأحصنها قلعة بالسماء ذات البروج وتطاولت الى السور المشرف وقد فضل فى علم الحرب وحفظ أبوابه المقفلات لما وقفنا على باب الا وجدناه لم يترك خلفه لصاحب المفتاح تلخيصا لما أبداه من المشكلات وما أحقه بقول القائل

فضائله سور على المجد حائط * وبالعلم هذا السور أضحى مشرفا

كم حملوا عليه وظنوا فى طريق حملتهم نصرا ونصبوا دست الحرب ولم يعلموا بأنه قد طبع لهم على كل باب قدرا فلا وأبيك لو نظرته يوم الحرب وقد تصاعدت فيه أنفاس الرجال لقلت ونفخ فى

السور ذلك يوم الوعيد والى المحاصرين وقد جاؤا رجالا وفرسانا ليشهدوا القتال اقلت وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد والى كواكب الاسنة وقد انتثرت والى قبور الشهداء وهي من تحت أرجل الخيل قد بعثرت والى كر الفوارس وفرها اقلت علمت نفس ماقدمت وأخرت والى نار النفط وقد نفطت من غيضها والى ذكور السيوف وقد وضعت المنايا السود وتعذرت من شدة الدماء لكثرة حيضها

ومن العجائب ان بيض سيوفهم * تلد المنايا السود وهي ذكور

والى فارس الغبار وقد ركب صهوات الجو حتى بعنان السماء والى أهداب السهام وقد بكت لما تخضبت بالدماء والى كل هارب بسلب عقله وكيف لا وخصمه له تابع والى كل مدفع وماله عند حكم القضاء دافع والى قامات أقلام الخط وقد صار لها في طروس الاجسام مشق فاستصوبت عند ذلك رأي من قال عرج ركابك عن دمشق ونظرت بعد ذلك الى العشير وقد استحل في ذي الحجة المحرم وحمل كل قيسي يمانيا وتقدم فخرج النساء وقد أنكرن منهم هذا الامر العسير فقلت وغير بدع للنسا * اذا تنكرت العشير وتصفحت بعد ذلك فاتحة باب النصر فعوذته بالاخلاص وزدت لله شكرا وحمدا وتأملت أهل الباب وهم يتلون لاهل البلد في سورة الفتح والمحاصرين وجعلنا من بين أيديهم سدا كم طلبوا فتحه فلم يجدوا لهم طاقة وضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ونظرت الى ماتحت القلعة من أسواق التجار فوجدت كالا قد محت النار آثاره وأهله يتلون قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة فمنهم من هم شأنه على صاحبته وبنيه وآخر قد استغنى بشأن نفسه فهم كما قال الله لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه فوقفت أنشد في تلك الاسواق وقد سعرت * الا موت يباع فاشتريه * ونظرت الى المؤمنين الركع السجود وهم يتلون على من نزل في بيوتهم اخدودا من وقود النار وقعد لحربهم في ذلك اليوم المشهود قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود اذهم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود هذا وكم مؤمن قد خرج من دياره حذر الموت وهو يقول النجاة وطلب الفرار وكلما دعا قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاصطبار ويا قوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار ونظرت الى ضواحي البلد وقد استدت في وجوههم المذاهب ومالهم من الضيق مخرج وضاقت عليهم الارض بما رحبت لما اغلق في وجوههم باب الفرج فقلت اللهم اجعل لهم من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ولعدم أموالهم من كل عسر يسرا ولانهتاك مخدراتهم من كل فاحشة سترا ولقطع الماء عنهم الى كل خير سبيل فانت حسبنا ونعم الوكيل هذا وكم نظرت الى سماء ربع غربت شمسه بعد الاشراق فانشدت وقد ازددت كربا من شدة الاحتراق

فديناك من ربع وان زدتنا كربا * فانك كنت الشرق للشمس والغربا

وانتهيت الى الطواقيين وقد أسبل عليهم الحريق شدته فكشفوا الرؤس لعالم السرائر وكم ذات ستر خرجت بفرق مكشوف ورمت العصائب وبعلها بعينه دائر هذا وكم ناهدات

اسبلن من فوق النهود ذوائبا * فتركن حبات القلوب ذوائبا

ووصلت الى ظاهر الفراديس وقد قام كل الى فردوس بيته فاطلع فرآه في سواء الجحيم واندهشت لتلك الانفس التي ماتت من شدة الخوف وهي تستغيث للذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ونظرت الى ظاهر باب السلامة وقد أخفت النار اعلامه ولقد كان أهله من صحة اجسامهم ومن اسمه كما يقال بالصحة والسلامه والى الشلاحة وقد لبست ثياب الحزن وذابت من أجلها الكبود وقعدوا بعد تلك الربوع على أديم الارض ونضجت منهم الجلود واقعدوا والله عدمت لذة الحواس الخمس وضاقت على الجهات الست فلم ترق لى دمعه وأكلت الانامل من الاسف لما سمعت بحريق الطراف السبعه فاعيذ مابقي من السبعة بالسبع المثاني والقرآن العظيم فكم رأينا بها يعقوب حزن رأى سواد بيته فاصفر لونه وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم وتغربت الى ظاهر الباب الشرقي فتشرقت بالدمع من شدة الالتهاب فلقد كان أهله من دار عيشه وكرومه الكريمة في جنتين من نخيل واعناب وتوصلت الى ظاهر باب كيسان فانفقت كيس الصبر لما قفرت من دنانير تلك الازهار والدراهم رباها وسمعت بعد ذلك بالعين واستخدمت فقلت بسم الله مجراها وكابرت الى الطراف الباب الصغير فوجدت فاضل النار لم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فيا لهفي على عروس دمشق التي لم تذكر محاسنها اسماء ولا الجيداء لقد كانت ست الشام فاستعبدها ملك النار حتى صارت جارية سوداء ولقد وقفت بين ربوعها وقد التهبت احشاؤها بالاضطرام وفطم جنين نبتها عن رضاع ثدي الغمام فاستسقيت لها بقول ابن أسعد حيث قال

سقى دمشق وأياما مضت فيها * مواطر السحب ساريها وغاديها

ولا يزال جنين النبت ترضعه * حوامل المزن في أحشا أراضيها

لما نصاحبها قلبي لنسيرها * ولا قضى نحبه ودي لواديها

ولا تسليت عن سلسال ربوتها * ولا نسيت مبيتي جار جاريها

هذا وكم خائف قبل اليوم آوينا بها الى ربوة ذات قرار وكم كان بها مطرب طير خرج بعد ما كان يطرب على عود وطار وبطل الجنك لما انقطعت أوتار انهاره فلم يبق له مغنى وكسر الدف لما خرج نهر المغنية عن المغنى واستسمع الناس من قال

انهض الى الربوة مستمتعا * تجد من اللذات مايكفي

فالطير قد غنى على عوده * في الروض بين الجنك والدف

واصبحت أوقات الربوة بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيره ولقد كان أهلها في ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيره فعبس بعد ذلك ثغر روضها الباسم وضاع من غير توريه عطره الباسم ولم ينتظم لزهره المنثور على ذلك الوشي المرقوم رسالة من النسيم سحريه وكيف لا وقد محي سجع المطوق من طروس تلك الاوراق النباتيه هذا وكم عروس روض سور معصمها النقش فلما انقطع نهرها صاح انها كسرت السوار وكم دولاب نهر بطل غناؤه على تشبيب النسيم بالقصب وعطلت نوبته من تلك الادوار فوقفت اندب ذلك العيش الذي كان بذلك التشبيب موصولا وأنشد ولم أجد بعد تلك النوبة المطربة الى الى مغنى الربوة دخولا

لم لا اشبب بالعيش الذى انقرضت * أوقاته وهو باللذات موصول

ونقص بزيدفاحترق ولا ينكر ليزيد الحريق على صنعه وانقطع ظهر نوره فاهلك الحرث والنسل بقطعه وذاب بردى وحمى مزاجه لما شعر بالحريق ولم يبق فى ثغره الاشنب برد حبابه مايبل الريق وانقطع وقداعتل من غيضه بانياس ولم يظهر عند قطعه خلاف ولا بان آس وجرى الدم من شدة الطعن بالقنوات وكسرت قناة المرجة فذاقت مر العيش بعد حلاوة تلك القطوف الدانيات وكسر الخلخال لما قام الحرب على ساقه وسقط رأس كل غصن على الجبهة فهاجت البلابل على أوراقه وخرنهر حمص خاضعا وتكدر بعد ما كان يصفى لنا قلبه وافتقر أغنياء غصونه من حبات تلك الثمار فصاروا لايملكون حبه طالما كان أهله فاكهين ولكنهم اعترفوا بذنوبهم فقالوا وكنا نخوض مع الخائضين وذبلت عوارض تلك الجزيرة التى كانت على وجنات شطوطه مستديره فقلنا بعد عروس دمشق وحماتها لا حاجة لنا بحمص والجزيره فيالهفى على منازل الشرف وذلك الوادى الذى نعق به غراب البين ويا شوقى الى رأس تلك المرجة التى كانت تجلسنا قبل اليوم على الرأس والعين هذا وقد اسودت الشقراء فامست كاسفة لما حصل على ظهرها من الجولان وجانبها العكس فاضحت باكية على فراق الابلق واخضر ذلك الميدان يامولانا لقد بكى المملوك من الاسف بدمعة حمراء على ماجرى من أهل الشهباء فى الميدان على الشقراء حتى كذب الناس من قال

قل للذى قايس بين حلب * وجلق بمقتضى عيانها

ماتلحق الشهباء فى حلبتها * تعثر الشقراء فى ميدانها

(فقال) لسان الحال والله ما كذب ولكنه قد يخبو الزناد وقد يكبو الجواد وقد يصاب الفارس بالعين التى تغمز قناته غمزا (وأنشد)

ومن ظن ان يسلاقى الحروب * وان لا يصاب فقد ظن عجزا

ودخلت بعد ذلك الى البلد فوجدت على أهله من دروع الصبر سكينه فقلت يارب مكة والحرم انظر الى أحوال أهل المدينة ولكن مادخلت بها الى حمام الا وجدته قد ذاق لقطع الماء عنه حماما وعلم القوام والقاعدون بأرضه انها ساءت مستقرا ومقاما وتلى على بيت ناره قلنا يانار كونى بردا وسلاما (فحسن) ان أنشده قول ابن الجوزى (من كان وكان)

الحار عندك بارد * والنهر أمسى منقطع

والعين لاماء فيها * ماحيلة القوام

وأتيت بعد ذلك الى الجامع الاموى فاذا هو لاشتات المحاسن جامع وأتيته طالبا لبديع حسنه فظفرت بالاستضاءة والاقتباس من ذلك النور الساطع وتمسكت باذيال حسنه لما انشقت تلك النفحات السحريه وتشوقت الى النظم والنثر لما نظرت الى تلك الشذور الذهبية وآنست من جانب طوره نارا فرجع الى ضياء حسى واندهشت لذلك الملك السليمانى وقد زهى بالبساط والكرسى وقلت هذا الملك سعد من وقف فى خدمته خاشعا وشقى من لم يدس بساطه ويأته طائعا ولقد صدق من قال

أرى الحسن مجموعا بجامع جلق * وفى صدره معنى الملاحة مشروح
فان يتغالى بالجوامع معشر * فقل لهم باب الزيادة مفتوح

معبد له قصبات السبق ولكن كسرت عند قطع الماء قناته ورأيته فى القبلة من شدة الظما وقد قوبت من ضجيج المسلمين آناته وخفض النسر جناح الذل وود بأن يكون النسر الطائر وطمست مقل تلك المصابيح فاندهش لذلك الناظر هذا وكم نظرت الى جرم مكرم ليس له بعد الكسر الماء جابر واختفت نجوم تلك الاطباق التى كانت كالقلائد فى جيد الغسق ومرت حلاوة ثمارها بعد ماركبت طبقا عن طبق وأصبح دوحه وهو بعد تلك النضارة والنعيم ذابل وكادت قناديله وقد سلبت لفقد الماء ان تقطع السلاسل ولم تشر الناس باصابعها الى فصوص تلك الخواتم المذهبه ولم يبق على ذلك الصحن طلاوة بعد الماء وحلاوة سكبه الطيبه وتذكر المنبر عند قطع الماء أوقاته بالروضه وتكدرت أفراحه لما ذكر أيامه بتلك الغيضه وأنشد لسان حاله

لوان مشتاقا تكلف فوق ما * فى وسعه لسعى اليك المنبر

وودت العروس ان تكون مجاورة لحماتها لتبل ريقها برحيق الاهن اذا نظرت الى عاصى المحمدية وقد دخل جناتها ونظرت الى فوار ابى نواس وقد انقطع قلبه بعد ما كان يثب و يجرى وكاد أن ينشد من شعره لعدم الماء ألا فاسقنى خمرا ودخلت الى الكناسة وقد علاها غبار الحزن فتنهدت من الاسف على كل ناهده ورثيت للنساء وقد فقدن بعد تلك الانعام المائده واستطردت الى باب البريد فوجدت خيول الماء الجاريه قد انقطعت عن تلك المراكز ونظرت الى السراج الاكبر وقد انعقد لسانه لما شعر من ممدوح الماء بعدم تلك الجوائز ونظرت الى أهل الصلاة وعليهم فى هذه الواقعة من الصبر دروع وقد استعدوا بسهام من الادعية الطلقوها عن قسى الركوع مريشة بالهدب من جفن ساهر منصلة أطرافها بدموع ونظرت الى الربان من العلم وقد اشتد لفقد الماء ظماه وتبلد ذهنه حتى صار مايعرف من أين الطريق الى باب المياه ومشيت بحكم القضاء الى الشهود فوجدت كلا منهم قد راجع سهاده وطلق وسنه وتأملت أهل الساعات وقد صار عليهم كل يوم بسنه ونزلت فى ذلك الوقت من الساعات الى الدرج فى دقيقه فانتهيت الى مجاز طريق الفوار فوجدته كان لم يكن له حقيقه كم وردته وهو كأنه سنان يطعن فى صدر الظما أو شجرة كدناء تقول انها الطوبى لما ظهرت وأصلها ثابت وفرعها فى السما أو معترف بيد الماء وقد أفاض عليه عطاياه فيضا فرفع له لاجل ذلك فوق قناته راية بيضا أو عمود وفاء أشارت الناس اليه بالاصابع أو ملك طالب السماء بودائع حتى كان اكليل الجوزاء له من جملة الودائع أو أبيض طائر علا حتى قلنا انه يلتقط حبات النجوم الثواقب أو شجاع ذو همة عالية يحاول ثارا عند بعض الكواكب نخفض لفقد الماء مناره وخفى بعد ما كان به أشهر من علم وجدع انفه وطالما ظهر وفى عرنينه شمم فقلت

لست أنسى الفوار وهو ينادى * غيض مائى وعطل الدهر حالى

فتمنيت من لهيبي بأني * اشترى غيضه بروحي ومالي

فلا والله ما كانت الا أيسر مدة حتى رجع الماء الى مجاريه وابتسم ثغر دمشق عن شنب الري بعد ما ذاق فريقه في فيه هذا وقد خمدت نار الحرب وقعدت بعد ما قامت على ساق وقدم وبطلت آلتها التي كان لها على تحريك الاوتار وجس العيدان نغم واعتقل الرمح بسجن السلم وعلى رأسه لواء الحرب معقود وهجعت مقل السيوف في اجفانها لما علمت ان الزيادة في الحد نقص في المحدود وفاضت غدران الرحمة على رياض الامن فظهر لها من المسرة نبات حسن فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وبعد فالمعذرة من فهاهة هذه الرسالة التي هي في رياض الادب باقليه والصفح عن طولها وقصر بلاغتها بين يدى تلك المواقف السحبانيه وليكون محمولا على متن الحلم كلامها الموضوع فقد علم الله انها صدرت من قلب مكسور وفؤاد مصدوع وذهن ضعيف وليس لكثير ضعفه عاصم ولا نافع وراحلة فكر أمست وهي عند سيرها الى غايات المعاني ضالع

فسيروا على سيرى فاني ضعيفكم * وراحلتي بين الرواحل ضالع

(هذا) وكم تولد للمملوك في طريق الرمل من عقله وكم ذاق من قطاع الطريق انكادا حتى ظن انه لعدم النصرة ليس له الى الاجتماع وصله وكما زعق عليه غراب تألم لسهام البين وفقد مصر التي هي نعم الكنانه وأنشد وقد تحير في الرمل لفراق ذلك الجناب الذي أعز الله سلطانه

من زعقة الغراب بعد الملتقى * فارقت مصر او بها أحبابي

وفي طريق الرمل صرت حائرا * مروعا من زعقة الغراب

واستقبل المملوك بعد ذلك بلاد الشام فبئس الحال وبئس الاستقبال فوالرحمن ما وصل بها الى مكان الا وجده قد وقعت فيه الواقعة واشتد القتال وحصدوا سنبل الرشاد فدرست فلا أعيد لعيد هم بهم دروس وأداروا رحى الحرب بقلوب كالاحجار فطحنت عند ذلك الرؤس وأنشد لسان الحال

من كل عاد كعاد في تجبره * من فوق ذات عماد شاده ارم

لا يجمعون على غير الحرام اذا * تجمعوا كحباب الراح وانتظموا

وانتهت الغاية بالمملوك الى انه شلح بقصر الكسوة في الشتا وانتظرت ملك الموت وقد أمسيت

لي مهجة في النازعات وعبرة * في المرسلات وفكرة في هل أتى

(هذا) والليل قد اطفأت مصابيح أنواره وعسعس حتى أيقنت بموت الصبح وقلت لو كان في قيد الحياة تنفس فذهب المملوك وقد تزود عند قسم الغنيمة بسهم جرح ولم يجد له تعديلا ولكنه صبر على الالم بعد ما كاد يدمى من الوهم ولم يلق لمجبر الساقوى ألم الموضع فمنها الحيل الا أنه دخل تحت ذيل الليل فوصل الى البلد وقد ودّ يومه لو تبدل بالامس ولم يسلم له في رقعة الحرب غير الفرس والنفس ولكنه أنشد

ما تفعل الاعداء في جاهل * ما يفعل الجاهل في نفسه

فاعاذ الله مولانا وبلاده من هذه القيامة القائمة وبدأه في الدنيا ببراعة الامن وفي الآخرة بحسن الخاتمة (قلت قد استوعبت هنا تراجم كتاب الانشاء) ونبذة من فوائدهم ونبذة مما تخيرته من انشائهم وقد تعين ان أذكر بعد ذلك ما يحتاج اليه المنشئ الكامل الادوات من المحاسن اللائقة به وبالله المستعان (قال) أبو حيان التوحيدي يجب على المنشئ ان يكون حافظا لكتاب الله لينتزع من آياته الشريفة وان يعرف كثيرا من السنة والاخبار والتواريخ والسير ويحفظ كثيرا من الرسائل والكتب ويكون متناسب الالفاظ متشاكل المعاني عارفا بما يحتاج اليه ماهرا في نظم بديع الشعر نظيف الثوب لطيف المركب ظريف الغلام انيق الدواة حاد السكين متوددا الى الناس مخالطهم غير متكبر عليهم دمث الاخلاق رقيق الحواشي ترف الاطراف عذب السجايا حسن المحاضره مليح النادره غير قنف ولا متعجرف ولا متكلف الالفاظ الغريبة ولا متعسف اللغة العويصة (آداب الكتابة) روى الشعبي أنه قال كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كتب أولها باسمك اللهم فنزلت سورة هود وفيها بسم الله مجراها ومرساها فكتب بسم الله ثم نزلت سورة بني اسرائيل وفيها قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت سورة النمل وفيها انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم فكتبها (وروى) ان فصل الخطاب الذي أعطي داود عليه السلام أما بعد (وروى) ان أول من قالها كعب بن لؤي وهو أول من سمى يوم الجمعة (وعن) جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا كتب أحدكم كتابا فليتربه فان التراب مبارك وهو أنجح (وروى) عنه عليه الصلاة والسلام انه كتب كتابين الى قريتين فاترب أحدهما ولم يترب الآخر فاسلمت القرية التي أترب كتابها (وقال الحسن بن وهب) كاتب رئيسك بما يستحق ومن دونك بما يستوجب وكاتب صديقك بما تكاتب به حبيبك فان غزل المودة أرق من غزل الصبابة (ورأيت) في تذكرة الوداعي ان القاضي تاج الدين ابن بنت الاعز كان اذا كتب كتابا بدأ في ترسله بالبسملة لتعم بركتها اثر الكتاب ورمله ويحرز ذلك الرمل ويحترز عليه (وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما) في قوله تعالى اني ألقي الي كتاب كريم قال مختوم وفض الكتاب اذا كسر ختمه (والعنوان) فيه خمس لغات أفصحها عنوان وجمعه عناوين وعلوان وعلاوين والعنوان الاثر وهو أثر الكتاب ممن والى من هو كما قيل
*ضحوا باشمط عنوان السجود به * (والقلم) لا يقال له قلم الا اذا بري والا فهو انبوبة (ومن بديع ما سمعته في وصف القلم من النظم) قول الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين علي بن الآمدي منقول من خط الوداعي

تمشي البراعة والمداد وراءها * ظل على شمس الطروس ينوع
عوض الغواني لو تلوح لسلم * هذي المعاني راح وهو صريع
لولم تكن الفاظه خطبية * ما راح سرب اللفظ وهو منيع
ألفاظه رقت بوجنة طرسه * فكأنهن وقد جرين دموع

قلم مسيحى الخطاب لنطقه * فى المهد من يمناه وهو رضيع
وغدا كليميا وقد ضاهى العصا * فغدا يروق بفعله ويروع
بالنقط حاكته الشموع وبالضيا * حاكته فى حلك المداد شموع
قد لازم القرطاس وهو منور * والطل يهوى الروض وهو مريع
نور ونور خطه وكلامه * هذا يضىء به وذا يضوع

(وقال فيه وأجاد الى الغاية)

ليمناه ذو طرف كحيل اذا بكى * تبسم ثغر الخط من دمعه عجبا
وقد راح مشقوق اللسان متى جرى * بثغر الدوى المعسول أبدى الكلى العذبا

(وقلت من قصيدة رائية)

له يراع سعيد فى تقلبه * ان خط خطا أطاعته المقادير
محبرو بتحبير العلوم اذا * جرى يرى منه تحرير وتحبير
غصن عليه طيور العلم عاكفة * وجانس النور من أوراقه النور
وأشقر يده البيضاء غرته * له الى الرزق فوق الطرس تيسير
بل أسمر عينه السوداء تلحظنا * وهدب أجفانها تلك التشاعير
أو سهم علم بأطراف السطور غدا * مريشا وله فى الضد تأثير
كذا محابره سود العيون فان * دانت أياديه فهى الاعين الحور

(ويعجبنى قول الشيخ شمس الدين بن المزنى فى الدواة)

أنا دواة يحلث الجود من * بكاير اعى جل من قد براه
دلواعلى مثلى من شفه * داء من الفقر فانى دواه

(وقلت فيما يكتب على دواة فولاذ)

كأنة الفضل دواتى وانها * سهم يراعى نصله نفاذ
واسمر الخط لديها قاصر * لانها على الحمى فولاذ

(قلت) ويتعين بعد وصف اقلام المنشئين والدواة وصف السكين فانهم أنشأوا فى وصف السيف والقلم وما لوابها وهى أحق بذلك من غيرها لقربها من القلم وقد تقدم ان أبا طاهر كمال الدين اسمعيل بن عبد الرزاق الاصفهانى انفرد برسالة القوس والشيخ جمال الدين بن نباتة انفرد برسالة السيف والقلم وقد انفردت برسالة السكين (وهى) يقبل الارض التى قامت حدود مكارمها وقطعت عنا مكروه الفقر بمسنون عزائمها وينهى وصول السكين التى قطع بها أوصال الجفا وأضافها الى الادوية فحصل بها البرء والشفا وتالله ما غابت الا بلغت الاقلام من تعثرها الى الحفا زرقاء وكم شاهدت منها البيض الوان خرساء ومن العجائب أن لها لسانا لكل عنوان ماشاهدها موسى الا سجد فى محراب النصاب وذل بعدما خضعت له الرؤس والرقاب كم أيقظت طرف القلم بعدما خط وعلى الحقيقة ماروى مثلها قط وكم وجدبها الصاحب فى المضايق نفعا وحكم بصدق محبتها قطعا ماضية العزم قاطعة السن فيها حدة

الشباب من وجهين لانها بالباب والنصاب معلقة من الطرفين أنملة صبحة مصت بسواد الدجى ولسان برق امتد فى لهوات الليل فتنكرت اشعة الانجم حتى ماعرف منها سهيل هذا وتقطيعها موزون اذ لم يتجاوز فى عروض ضربها الحد ومعلوم ان السيف والرمح لم يعرفا غير الجزر والمد

من أجلنا تدخل فى مضايق * ليس لسيف قط فيها مدخل.
وكلما تفعله توجزه * والرمح فى تعقيده يطول

ان هجعت بجفنها كانت أمضى من الطيف وكم لها من خاصة جازت بها الحد على السيف تنسى حلاوة العسال فلا يظهر لطوله طائل وتغنى عن آلة الحرب بايقاع ضربها الداخل ان مرت بشكلها المحلى تركت المعادن عاطله ولم يسمع للحديد فى هذه الواقعة مجادله شهد الرمح بعدالته انها أقرب للصواب وحكم بصحة ذلك قبل ان يتكامل لها النصاب ماطال فى رأس القلم شعرة الا سرحتها باحسان ولا طالعت كتابا الا أزالت غلطه بالكشط من رأس اللسان تعقد عليها الخناصر لانها عدة وعده وتالله ماوضعت فى قبضة الا أطالت لسانها وكانت بحده ان أدخلت الى القراب كانت قد سبكت على الدخول أو أبرزت من غمده كان على طلعتها الهلالية قبول تطرف باشعتها الباهرة عين الشمس وباقامتها الحد حافظت الاقلام على مواظبة الخمس وكم لها من عجائب تركت جدول السيف وهو فى بحر غمده غريق ولو سمع بها من قبل ضربه ماحمل التطريق فلو عاصرها السكاك لعرك من قوسه الاذنين وقال له جددت رسالتك باذا القرنين فان جذبت الى مقاومتها كانت لك بمعتمد وصلت السكين منك العظم وصار عليك قطع وانتهى أمرك الى ذا الحد وهل تعاند السكين صورة ليس لها من تركيب النظم الاما حملت ظهورها أو الحوايا أوما اختلط بعظم ولو لحها الفاضل تحقق قوله ان خاطر سكينه كل أو أدركها ابن نباتة ماأقر برسالة السيف وذل وقال القلم رسالته أطلق لسانك بشكر مواليك واخلص الطاعة لمداريك ولم يقصد المملوك الايجاز فى رسالة السكين ونظمها الا لتكون مختصرة لحجمها لازالت صدقات مهديها تتحف بما يذبح نحر فقرى وتأتى فى كل وقت بما يبرئ من داء الاحتياج ويبرى (قلت وعلى ماوقع من الغريب فى رسالة السكين) يتعين ان نورد ماوقع من غريب النظم فى السيف فان الشيخ جمال الدين بن نباتة ذكر من نثره فى رسالة السيف بدائع ولكنها مشهورة لتنقيب الناس عنها والاقتباس منها (قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه) لعمرو بن معدى كرب كيف تقول فى الرمح قال أخوك وربما خانك فانقصف قال فالترس قال هو المجن وعليه تدور الدوائر قال فالنبل قال منه مايخطئ ومايصيب قال فما تقول فى الدرع قال مشغلة للراجل مشغلة للفارس وانها لحصن حصين قال فما تقول فى السيف قال هنالك لا أم لك يا أمير المؤمنين فعلاه عمر بالدرة وقال لم تقول لا أم لك قال الحمى أصرعتنى يا أمير المؤمنين (الشريف البياضى) شعر

وأنا اذا الارواح ذابت مخافة * فتحنا باشطان الرماح ركاياها
متى ما أردنا أن يذاق حديدنا * خلقنا بحد المشرفية أفواها

(وقال أبو العلاء المعري)

غراراه لسانا مشرفي * يقول غرائب الموت ارتجالا
ودبت فوقه حمر المنايا * ولكن بعدما مسخت نمالا
يذيب الرعب منه كل عضب * فلولا الغمد يمسكه اسالا

(وقال النامي)

ذو مدمع من غير ما مستعبر * وتبسم من ثغره متوالي
وبريك من لألائه متوقدا * حنق المنون به على الآجال

(وقال الغزوي)

كان على افرنده موج لجة * تقاطر في حافاته وتجول
حسام غذاه الروح حتى كأنه * من الله في قبض النفوس رسول

(وقال وحيد الدين بن الذروي)

فتشت بأجساد الاسود لواحظا * رنت للمنايا عن عيون الثعالب
وانطقت أفواها على فم العدا * بالسنة البيض الرقاق المضارب
بحيث الوغى روض تغني ذبابه * وسال على نور الطلا كالمذانب
وقد رشفت وردا لكلوم صغاره * وما شربت الادماء الترائب

وله سكران من شربه خمر الدماء فان * حياه نور الطلا غنى له ساهزجا

(لسان الدين بن الخطيب)

وخليج هند دراق حسن صفاته * حتى يكاد يعوم فيه الصيقل
عرفت بصفحته الثمار فاوشكت * تبغي النجاة فاوثقتها الارجل
فاصرح منه بمورد والصفح منه مورد والشط منه منهل

(القاضي الفاضل)

نمد الى الاعداء منها معاصما * فترجع من ماء الكلى باساور

وله من أخرى

ولربها نقعه دعتهم للوغى * جعلوا صليل المرهفات صداها
هي في بحار يديه أمواج ترى * ونفوس من قتلته من غرقاها

(وقال ابن قلاقس وأجاد)

اسهرتهم وشهرت الجموع هم * مذ احرمت في راحتيك حرام
وكلاهما جفن منعت قراره * لكن ذا عضب وذاك منام

(وقال ابن سناء الملك)

له منصل لا يقضي فرض حجه * فبالضرب لبى حين بالفتك أحرما
تنسك بالاسلام لكن رأيته * يحل له في الشرع أن يشرب الدما
فكم سال لما سل من بطن غمده * لسان دم من ضربة خلقت فما

(مجير الدين بن تميم)

لما فنيت من الصوارم اعوجا * يجري القضاء بنهره المتموج
جبت الفقار وما حملت أوانيا * للماء من تقى بنهر الاعوج

(وقال الغزي)

وقد سلب الطعن الاسنة لونها * فعصفر في اللبات ما كان أزرقا
واسيافنا في السابغات كانها * جداول تجري بين زهر تفتقا

(ابن خفاجة)

موسد تحت ظل السيف تحسبه * مستلقيا فوق شاطي جدول ثملا

(جمال الدين بن نباتة)

وصارم كعباب الموج ملتطم * يكاد يغرق رائيه و يحترق
لما غدا جدولا يسقى المنون به * أضحى يشف على حافاته العلق

(برهان الدين القيراطي)

قوم مناديلهم بيض فكم مسحت * رقاب أعدائهم تلك المناديل

(وقلت)

وسيف له في الحرب حسن تغزل * اذا ما رآني قد علوت على نهد
فكم خد خد افوق صدر مدرع * فبان احمرار الورد في ذلك الخد
وكم مال قد في الوغى ميل معجب * فقابله ذاك المهند بالقد
وكم أعجموا ألفاظهم ساعة اللقا * فكلمهم ذاك المهند بالهندي

(قلت) وقد وجب ان نذكر هنا ما وقع بعد السيف من غريب النظم في الرمح (ذكر القاضي الرشيدي) ابن الزبير في كتابه العجائب والطرف انه كان في خزانة السلاح أيام السفاح خمسون ألف درع وخمسون ألف سيف وثلاثون ألف جوشن ومائتا ألف رمح (وقال الفضل بن الربيع) لما ولي الامين الخلافة سنة ثلاث وتسعين ومائة أمرني ان أحصر ما في خزانة السلاح فكان فيها من السيوف المحلاة بالذهب عشرة آلاف وخمسون ألف سيف للشاكرية والغلمان ومائة وخمسون ألف رمح ومائة ألف قوس وألف درع محلاة وألف درع عامة وعشرون ألف بيضة وعشرون ألف جوشن ومائة ألف وخمسون ألف ترس وأربعة آلاف سرج محلاة بالذهب وثلاثون ألف سرج عامة انتهى (قلت ويعجبني قول القاضي الفاضل في بيت من قصيدة)

أمنصل الرمح الطويل بكوكب * من ذا يطاعن والسماك سنان

(ومثله في الحسن قول ابن سناء الملك)

ملوك يحوزون الغنائم عنوة * بسمر العوالي أو ببيض القواضب
رماح بأيديهم طوال كانما * أرادوا بها تنقيب در الكواكب

(ابن قلاقس وأجاد)

وقد كانت باميال العوالي * أساة الحرب أحداق الدروع

ونشب البأس نيران المواضى * وأسل غيث أمواه النجيع
فللفرسان من محل ووحل * حديث عن مصيف أو ربيع

ويعجبنى أيضا قول القاضى الفاضل من قصيدة

فيا عجبا للالف قرقراره * بمختلفات من قتال السواحر
طواعن اسرار القلوب نواظر * كانك قد نصلتها بخواطر

(ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب وأجاد)

و بكل أزرق ان شكت الحاظه * مرره العيون فبالجراحة تكحل
متأود أعطافه فى نشوة * مما يعل من الدماء و ينهل
عجبا له ان النجيع بطرفه * رمد ولا يخفى عليه مقتل

(السيد الفاضل شمس الدين ابن الصاحب موفق الدين بن الآمدى)

غصون بها طير النفوس تنافرت * وعهدى ان الطير للغصن يألف
فلا ورق الا من السمر حولها * ولا زهر الا من النصر يقطف

(ابن نباتة السعدى)

وولوا عليها يقدمون رماحنا * وتقدمها أعناقهم والمناكب
خلقنا باطراف القنا لظهورهم * عيونا لها وقع السيوف حواجب

(قلت) رسم كافل المملكة الشريفة الشامية وهو المقر المرحومى العلائى تغمده الله برحمته ورضوانه للفضلاء بدمشق المحروسة وغيرهم من الفضلاء بالبلاد الشامية ان ينظموا أبياتا تكتب على أسنة الرماح وتكون عدة الابيات أربعة (فنظم المقر المرحومى الفتحى ابن الشهيد قوله)

اذا الغبار علا فى الجو عثيره * فاظلم الجو ما للشمس أنوار
هذا سنانى نجم يستضاء به * كأنه علم فى رأسه نار
والسيف ان نام ملء الجفن فى غلق * فاننى بارز للحرب خطار
ان الرماح لأغصان وليس لها * سوى النجوم على العيدان أزهار

(ونظم الرئيس شمس الدين بن المزين)

أنا أسمر و الراية البيضاء لى * لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحل بى عيش العداة لاننى * نوديت يوم الجمع بالمران
واذا تفاهمت الكماة بجحفل * كلمتهم فيه بكل لسان
فتخالهم غنما تساق الى الردى * قهر المعظم سطوة الجوبان

(ونظم المقر المرحومى وهو اذ ذاك كاتب السر بحمص المحروسة)

عروس سنانى حين تجلى على العدا * وتظهر تبدى ما لهم من بواطن
وقد صبغ من هم فبين صدورهم * مجال له رحب فسيح المواطن
سيلقون يوم الجمع غبنا لموتهم * بطعنى و يوم الجمع يوم التغابن

وان شهدوا بالجورقى وعدلوا * فانى قد بينت فيهم مطاعنى

(ونظم قاضى القضاة صدر الدين بن الآدمى سامحه الله)

النصر مقرون بضرب أسنة * لمعانها كوميض برق يشرق
سبكت لتسبك كل خصم مارد * وتطرقت لمعاند يتطرق
زرق تفوق البيض فى الهيجاء اذ * يحمر من دمه العدو الازرق
ينسخن يوم الحروب كل كتيبة * تحت الغبار فنسخهن محقق

(وقلت)

أنا رمح ورامح الافق يخشى * من سموى اليه يوم الطعان
واذا أنكروا عداة قدى * يوم حكم جرحتهم بلسانى
وسنانى كالبرق بل صار منه * قلب سيف البروق فى خفقان
رمحه للردينى ينسب لكن * صاح لما علاه يا السنان

(مجير الدين بن تميم)

لو كنت تشهدنى وقد حمى الوغا * فى موقف ما الموت فيه بمعزل
لترى أنابيب القناة على يدى * تجرى دما من تحت ظل القسطل

(ابن شرف القيروانى)

وقد وخطت أرماحهم مفرق الدجى * فبان بأطراف الاسنة شائبا

(ذكر الثعالبى) فى لطائف المعارف ان أول من عمل السنان من حديد ذو يزن الحميرى واليه تنسب الرماح اليزنيه وانما كانت أسنة العرب من صياصى البقر (قلت) لم يبق بعد السيف والرمح غير القوس ولو أن رسالة القوس مشتملة بكمالها على اصابة الغرض لا نبتهاهنا ولكن جمع فى نظم عقدها بين الجوهر والعرض وبراعة استهلالها غاية لا تدرك (وهى) ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا انا مكناله فى الارض وآتيناه من كل شئ سببا فاتبع سببا (ومن) غاياتها بعد ذلك قوله منها صورة مركبة ليس لها من تركيب النظم الا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ومن أصاب الغرض بالغازه فى القوس الشهاب الاعزازى بقوله

ما عجوز كبيرة بلغت عمرا طويلا وتنقيها الرجال
قد علا جسمها اصفار ولم تشك سقاما ولا عراها هزال
ولها فى البنين سهم وقسم * وبنوها كبار قدر نبال

(صفى الدين الحلى ملغزا فيه)

وما اسم تراه فى البروج وانما * يحل به المريخ دون الكواكب
اذا قدر البارى عليه مصيبة * عدته وحلت فى صدور الكتائب

(الشيخ بدر الدين بن الصاحب)

لله مملوك اذا * ما قام فى الشغل اعترض
لكنه فى ساعة * يحصل لك الغرض

(ومن الغايات التي لا تدرك لغز قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي رحمه الله تعالى في الكشتوان)

ما رفيق وصاحب لك تلقا * ه معينا على بلوغ المرام
هو للعين واضح وجلي * وتراه في غاية الابهام

(قلت ومن نظمي في القوس)

قوسي اذا جذبته يطربني * بجس عوده وتحريك الوتر
ونجم ذاك السهم ان فوقته * يرى له في طارة البدر أثر

(الشيخ جمال الدين بن نباتة)

فديتك أيها الرامي بقوس * ولحظ بأضني قلبي عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب * وشبه الشئ منجذب اليه

(قلت) لم يبق بعد وصف آلة الحرب وصف غير الخيول المسومة التي لابد لفحول كتاب الانشاء من الجولان في ميدان وصفها وجري السوابق الذي جمعته في هذا الباب قد تقدم في الجزء الاول من بلوغ المراد ولكن اذا كنت منشئ دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية المحروسة يتعين علي ان أورد هنا لكتاب الانشاء من فقه هذا الفن ما يحتاجون الى معرفته (قلت) السجع مأخوذ من سجع الحمام واختلف فيه هل يقال في فواصل القرآن اسجاع أم لا فمنهم من منعه ومنهم من اجازه والذي منع تمسك بقوله تعالى كتاب فصلت آياته فقال قد سماه فواصل فليس لنا ان نتجاوز ذلك والسجع ينقسم الى أربعة أقسام المرصع والمطرف والمتوازي والمشطر (فالمرصع) عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو فقرة النثر بلفظة على وزنها ورويها وهو مأخوذ من مقابلة العقد في ترصيعه ومن أمثلته النثرية في الكتاب العزيز ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم (ومثله قوله تعالى) ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم (ومنه) قول الحريري في المقامات يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ويقرع الاسماع بزواجر وعظه (والمطرف) هو ان يأتي المتكلم في آخر كلامه أو في بعضه باسجاع غير متزنة بزنة عروضية ولا محصورة في عدد معين بشرط أن يكون روي الاسجاع روي القافية كقوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا (وكقولهم) جنابه محط الرحال ومخيم الآمال (ومن امثلته الشعرية قول ابي تمام

تجلى به رشدي واثرت به يدي * وفاض به ثمدي واورى به زندي

(الثالث المتوازي) وهو ان تتفق اللفظة الاخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي كقوله تعالى فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة (ومنه) قول النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا (ومنه) قول الحريري في المقامات وأودى بي الناطق والصامت ورثى لي الحاسد والشامت انتهى (القسم الرابع السجع المشطر) وهو ان يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتي النصف الآخر ولكن هذا القسم مختص بالنظم كقول أبي تمام يمدح أمير المؤمنين المعتصم رحمهما الله تعالى

تدبير معتصم بالله منتقم * لله مرتقب في الله مرتغب

انتهى

انتهى باب السجع قلت وقالت علماء هذا الفن ان قصر الفقرات فى الانشاء يدل على قوة المنشئ وأقل ماتكون من كلمتين كقوله تعالى يا أيها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر وأمثال ذلك كثيرة فى الكتاب العزيز لكن الزائد على ذلك هو الاكثر (وكان) بديع الزمان يكثر من ذلك كقوله كميت نهد كان راكبه فى مهد يلطم الارض بزبر وينزل من السماء بخبر لكن قالوا التذاذ السامع بما زاد على ذلك أكثر لتشوقه الى مايرد منه متزايدا على سمعه انتهى (وأما الفقر المختلفة) فالاحسن ان تكون الثانية أزيد من الاولى بقدر غير كثير لئلا يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة فان زادت القرائن على اثنتين فلا يضر لتساوى القرينتين الاوليين وزيادة الثالثة عليهما وان زادت الثانية على الاولى يسيرا والثالثة على الثانية فلا بأس لكن لا يكون أكثر من المثل مثاله فى القرينتين قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا فالثانية أطول من الاولى (ومثاله) فى الثالثة قوله تعالى وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا (ومن فوائد الانشاء) ان تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها فى المعنى لان اللفظ اذا كان من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى لم يحسن كقول الصاحب بن عباد فى وصف منهزمين طاروا واقين بظهورهم صدورهم وبأصلابهم نحورهم فالظهور بمعنى الاصلاب والصدور بمعنى النحور (ومنه قول الصابئ) يسافر رأيه وهو دان لا يبرح ويسير وهو باق لا ينزح فلا يبرح ولا ينزح بمعنى واحد ويسافر ويسير كذلك (ومن فوائد الانشاء) التى يتسع فيها المجال على المنشئ ان السجع مبنى على الوقف وكلمات الاسجاع موضوعة على ان تكون ساكنة الاعجاز موقوفا عليها لان الغرض ان يجانس المنشئ بين القرائن ويزاوج ولا يتم له ذلك الا بالوقف اذ لو ظهر الاعراب لفات ذلك الغرض وضاق المجال على قاصده فان قافية السجعة اذا كانت فى محل نصب وأختها فى محل رفع ساوى بينهما السكون وصار الاعراب مستترا فلو أثبتوا الاعراب فى قول من قال ما ابعد مافات وما أقرب ماهو آت للزم ان تكون التاء الاولى مفتوحة والثانية مكسورة منونة فيفوت غرض المنشئ (ومن ذلك) ان السجع مبنى على التغيير فيجوز ان يغير لفظ القافية الفاصلة لتوافق أختها فيجوز فيها حالة الازدواج مالا يجوز فيها حالة الانفراد (فمن ذلك) الامالة فقد يكون فى الفواصل ماهو من ذوات الياء وماهو من ذوات الواو فتمال التى هى من ذوات الواو وتكتب بالياء حملا على ماهو من ذوات الياء لاجل الموافقة (كقوله تعالى) والضحى فالضحى ميلت وكتبت بالياء حملا على مافى السورة الشريفة من ذوات الياء لاجل الموافقة (وكذلك) سورة والشمس وضحاها أميلت فيها ذوات الواو وكتبت بالياء حملا على مافيها من ذوات الياء (ومن) ذلك حذف المفعول نحو قوله تعالى ماودعك ربك وماقلى الاصل وماقلاك ولكن حذفت الكاف لتوافق الفواصل (ومن ذلك) صرف مالا ينصرف كقوله تعالى قوارير صرفه بعض القراء السبعة ليوافق فواصل السورة الشريفة ولو تتبع المتأمل ذلك فى الكتاب العزيز لوجده كثيرا (ومما جاء) من ذلك فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم اعيذه من الهامة والسامة ومن كل عين لامة الاصل عين

ماة (ومنه قوله) صلى الله عليه وسلم مأزورات غير مأجورات الاصل موزورات بالواو لانه من
الوزر ولكن همز ليوافق مأجورات (ومنه قوله) صلى الله عليه وسلم دعوا الحبشة ما ودعوكم
واتركوا الترك ما تركوكم الاصل ما وادعوكم ولكن حذفت الالف لتحصل الموافقة (قلت)
وهذا نوع من المشاكلة لان المشاكلة في اللغة هي المماثلة وهي في المصطلح ذكر الشيء بغير
لفظه لموافقة القرائن ومشاكلتها كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فالجزاء عن السيئة
في الحقيقة غير سيئة والاصل وجزاء سيئة عقوبة (ومنه قوله تعالى) تعلم ما في نفسي ولا أعلم
ما في نفسك والاصل تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك لان الحق تعالى وتقدس لا تستعمل لفظة
النفس في حقه الا انها استعملت هنا للمماثلة والمشاكلة كما تقدم (ومنه قوله تعالى) ومكروا
ومكر الله والاصل وأخذهم الله (وفي الحديث) قوله صلى الله عليه وسلم فان الله لا يمل حتى تملوا
الاصل فان الله لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا من مسئلته فوضع لا يمل موضع لا يقطع لاجل
المشاكلة وهو مما وقع فيه لفظ المشاكلة أولا (ومنه قول الشاعر)

قالوا اقترح شيأ نجد لك طبخه * قلت اطبخوا الى جبة وقميصا

أراد خيطوا لي جبة وقميصا وذكره بلفظ الطبخ لوقوعه في صحبة طبخه انتهى (قلت) ومن
غايات الانشاء البلاغة في المقاصد والبلاغة هي ان يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده مع ايجاز
بلا اخلال واطالة من غير املال (والفصاحة) خلوص الكلام من التعقيد وقيل البلاغة
في المعاني والفصاحة في الالفاظ يقال معنى بليغ ولفظ فصيح والفصاحة خاصة تقع في المفرد
يقال كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة ففصاحة المفرد خلوصه من التعقيد وتنافر الحروف
والفصاحة أعم من البلاغة لان الفصاحة تكون صفة الكلمة والكلام يقال كلمة فصيحة وكلام
فصيح والبلاغة لا يوصف بها الا الكلام فيقال كلام بليغ ولا يقال كلمة بليغة واشتركا في وصف
المتكلم بهما فيقال متكلم فصيح بليغ (فمن الانشاء البليغ الفصيح) قول عبد الحميد عند
ظهور الخراسانية بشعار السواد فانتوار يثما تنجلي هذه الغمرة وتصحوا من هذه السكرة
فسينضب السيل وتمحى آية الليل (ومثله) قول أبي نصر العتبي دب الفشل في تضاعيف
احشائهم وسرى الوهن في تفاريق اعضائهم فجيوب الاقطار عنهم مزروره وذيول الخذلان
عليهم مجروره (ومثله) قول الصابي نزغ به شيطانه وامتدت في الغي اشطانه (ومثله) قول
بديع الزمان كاني الى البحر وان لم أره فقد سمعت خبره والليث وان لم آلفه فقد تصورت خلقه
ومن رأى من السيف أثره فقد رأى أكثره (ومثله) قول القاضي الفاضل ووافينا قلعة نجم
وهي نجم في سحاب وعقاب في عقاب وهامة لها الغمام عمامه وانملة اذا خضبها الاصيل
كان الهلال لها قلامه (قلت) ويعجبني في هذا الباب من انشاء الشهاب محمود قوله في وصف
مقدم سرية كشف الازار في مقاصده أخف من وطأة ضيف وفي مطالبه أخفى من زورة
طيف وفي تنقله اسرع من سحابة صيف واروع للعدا من سله سيف (ومثله في الحسن) قوله
في صدر مثال شريف سلطاني اصدرناها والسيوف قد انفت من الغمود ونفرت من قربها
والاسنة قد طمئت الى موارد القلوب وتشوقت الى الارتواء من قلبها والحماة ما منهم الا من
اعتظهر بامكان قوته وقوة امكانه والابطال ليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه

(ومثله)

(ومثله فى الحسن) ما كتبت به جوابا عن مولانا السلطان الملك المؤيد سقى الله ثراه الى قرا يوسف ملك العراق يتضمن خطاب الايناس نظير ما خاطب فى مكاتبته (لحن) الجواب قولى وهذه الفة خولتنا فى نعم الله وزمام الاخوة منقادا الينا وقد تعين على القران يقول انا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا وقد سرتنا الاشارة الكريمة بالتمكين من أرض العدا ومطابقة الطول بالعرض وهذا الاسم قد شملته العناية قديما بقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض وأما قرا عثمان نقل سيوفنا ما غمضت عنه فى اجفانها وأنامل اسنتنا ماذكرت نوبته الاشرعت فى جس عيدانها وجوارح سهامنا ما برحت تنفض ريش أجنحتها للطيران اليه وان كان معنى سافلا فلابد لاجل القران نخيم عليه وينزل سلطان قهرنا بأرضه ويغرس فيها عيدان المران وان كانت من الاسماء التى ما أنزل الله بها من سلطان ولم يهمل الا لاشتغال الدولتين بالدخول فى تطهير الارض من الخوارج وايقاع الضرب الداخل من جس العيدان فى كل خارج وبدهمه من ابن أبى النصر ابناء حرب شرف فى انساب الوقائع جدهم وردا لجموع الصحيحة الى التكسير فردهم واذا كثرت الخدود وتوردت بالدماء عذرت بورق الحديد الاخضر مردهم واذا امتدوا الى آمد تلا لهم حصنها فى سورة الفتح قبل القتال فانهم مريدون ولهم شيخ منحه الله بكثرة الفتوح والاقبال واذا صرفوا الهمم المؤيدية لم تكن حصونهم عند ذلك الصرف مانعه ولم يسمع اسكانها لمجادلة اذا صدموا بالحديد وتلت حصونهم فى الواقعة وما خفى عن كريم علمه ما جمعه الناصر من الجموع التى فرقها الله أيدى سبا وكم سال سائل وقد رآهم فى المنازعات عن ذلك المصر بالنبا وقد أشار منشئ دولتنا الشريفة الى ذلك فى قصيد كامل بحره مديد والقصد هنا من أبيات ذلك القصيد (قوله)

ياحامى الحرمين والاقصى ومن * لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله ان الله نحوك ناظر * هذا ومالى العالمين مناظر
زحف على المخبون تظم عسكرا * والطاعه فى النظم بحر وافر
فانبت منه زحافه فى وقعة * يامن باحوال الوقائع شاعر
وجميع ها تيك البغاة باسرهم * دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة * فكان هاتيك السروج مقابر

(وما) خفى عن علمه الكريم أمر الذين نقضوا بيعتنا واشتروا الضلالة بالهدى ودعوا سيوفهم الصقيلة لما حاق بهم المكر السئ فأجابهم الصدى ولم يكن فى حرارة عزمنا الشريف عند عصيانهم البارد فتره حتى أظهرنا بالوان الشأم من دمائهم على تدبيج الدروع الوان البصره وأخذوا سريعا بشبان حرب ماشابت عوارضهم الا بغبار الوقائع وحكم برشدهم ولم يخرجوا من تحت حجر المعامع وقد أسبغ الله ظلال الملك وخيم به على الدولتين ولم يظهر لمحراب بهجة الا بهاتين القبلتين ولو صلت السيوف لغيرهما ما قبلت أو صرفت العوامل الى غير نحوهما ما عملت وقد فهمنا كريم الالتفات الى أن تدار كؤس الانشاء بيننا ممزوجة بصافى الموده وعلمنا أنها أحكام صحيحة فى شرع الاخوة ولهذه الاحكام عندنا عمده وقد سابق القصد اليوسفى بسهام مراده الى الغرض وقضى حاجة فى نفس يعقوب المحبة ليس عنها عوض ولم

يبق الا اتصال شمل الاوصال بكل رسالة سطورها فى رقاع الاخوة محققة
وتصديق ما يقصه فى كريم جوابه فان القصة اليوسفية ملرحت
مصدقه والله تعالى يمتع الابصار والاسماع بمشاهدة أمثلته
وطيب أخباره ويفكهما من بين أوراقها بشهى
ثماره ان شاء الله تعالى انتهى ما دنت
قطوفه من ثمرات الاوراق
وحلا فى الاذواق
السليمة
وراق

وهذا ذيل ثمرات الاوراق لابن حجة المذكور ضاعف الله لماوله الاجور وهى محاضرات لا يستغنى عنها وعليها يعول فلذلك ألحقت الاصل فى الطبع وجعلت تتمة للاول

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(يحكى) ان هارون الرشيد حج ماشيا وان سبب ذلك ان أخاه موسى الهادى كانت له جارية تسمى غادر وكانت احظى الناس عنده وكانت من أحسن النساء وجها وغناء فغنت يوما وهو مع جلسائه على الشراب اذ عرض له سهو وفكر وتغير لونه وقطع الشراب فقال الجلساء ما شأنك يا أمير المؤمنين قال قد وقع فى قلبى ان جاريتى غادر يتزوجها أخى هارون بعدى فقالوا يطيل الله بقاء أمير المؤمنين وكلنا فداؤه قال ما يزيل هذا ما فى نفسى وأمر باحضار هارون وعرفه ما خطر بباله فاستعطفه وتكلم بما ينبغى ان يتكلم به فى تطييب نفسه فلم يقنع بذلك وقال لا بد أن تحلف لى قال أفعل وحلف له بكل يمين يحلف بها الناس من طلاق وعتاق وحج وصدقة وأشياء مؤكدة فسكن ثم قام فدخل على الجارية فاحلفها بمثل ذلك ولم يلبث الا شهرا ثم مات فلما أفضت الخلافة الى هارون أرسل الى الجارية يخطبها فقالت يا سيدى كيف بايمانك وأيمانى فقال احلف بكل شئ حلفت به من الصدقة والعتق وغيرهما الا تزوجتك فتزوجها وحج ماشيا اليمينه وشغف بها أكثر من أخيه حتى كانت تنام فيضجع رأسها فى حجره ولا يتحرك حتى تنتبه فبينما هى ذات ليلة نائمة اذ انتبهت فزعة فقال لها مالك قالت رأيت أخاك فى المنام الساعة وهو يقول

أخلفت وعدك بعدما * جاورت سكان المقابر
ونسيتنى وحنثت فى * أيمانك الكذب الفواجر
فظللت فى أهل البلا * وغدوت فى الحور الغرائر
ونكحت غادرة أخى * صدق الذى سماك غادر
لا يهنك الالف الجديد ولا تدر عنك الدوائر

ولحقت في قبل الصبا * ح وصرت حيث غدوت سائر

والله يا أمير المؤمنين فكأنها مكتوبة في قلبي ما نسيت منها كلمة فقال الرشيد هذه اضغاث احلام فقالت كلا والله ما أملك نفسي وما زالت ترتعد حتى ماتت بعد ساعة (وحكى ابن أبي حجلة) في كتابه سلوك السنن الى وصف السكن اخبرني شمس الدين محمد بن فراج الحسيني أخبرنا شيخنا أثير الدين أبو حيان أنبأنا فتح الدين بن الدمياطية قال رأيت في المنام شيخا حسن الصورة والمشية وعليه فرجية وكأنا نمشي في طريق وأنا راكب دابة فقلت له رافقني فقال ليس الماشي برفيق الراكب فقلت اركب أنت وأمشي أنا فقال المسئلة بحالها ثم افضنا في الحديث فسألني ما صنعتك فقلت كاتب فقال كاتب احسان أو كاتب انشاء فقلت شئ من هذا وشئ من هذا فقال ما يدعي دعواك عبد الرحيم ولا عبد الحميد ثم قال هل تنظم الشعر قلت نعم قال أنشدني وكنت قد عملت قصيدة اجازيا وكنت استجيده فانشدته الى أن بلغت قولي

تركوا بماء النيل ماء سلسلا * وترشفوا ماء الثمار مكدرا

فقال لي لا شئ فقلت لم قلت ذلك وما عيب هذا البيت فقال لو قلت صافيا لكان حسنا وكان طباقا لان الكدر يقابله الصافي قلت له هذا حسن فمن أنت يرحمك الله قال أبو مرة قلت لا خير ولا مير قال بلى ثم بعد ذلك بشهر رأيته في المنام على الهيئة المتقدمة فسلم على سلام من يعرفني ثم قال هل تعرف من الشعر الميشوم شيأ قلت قال نعم قال فانشدني وكنت قد عملت قطعة شعر حال ضعفي بالنزلة فانشدته اياها

لله ما أشكوه من نزلة * قد ضرمها ضيق أنفاسي

ومن صداع ضقت ذرعا به * بانت يدي منه على راسي

فقال هذا والله الشعر ثم قال أضف اليهما

فاعجب الى داءين قد عززا * بثالث من داء افلاس

(وحكى في مرآة الزمان وغيرها في ترجمة شمس الدين توران شاه بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين) قال محمد بن علي الحكيم الاديب رأيت شمس الدولة بعد موته فمدحته بابيات فلف كفنه ورمى به الي وقال

لا تستقلن معروفا سمحت به * ميتا فامسيت منه عاري البدن

ولا تظنن جودا شانه بخل * من بعد بذلي ملك الشام واليمن

اني خرجت من الدنيا وليس معي * من كل ما ملكت كفي سوى الكفن

(حكى) أنه كان ببغداد شخص يعرف بأبي القاسم الطنبوري صاحب نوادر وحكايات وله مداس له مدة سنين كلما انقطع منه موضع جعل عليه رقعة الى أن صار في غاية الثقل وصار يضرب به المثل فيقال أثقل من مداس أبي القاسم الطنبوري فاتفق أنه دخل سوق الزجاج فقال له سمسار يا أبا القاسم قد وصل تاجر من حلب ومعه حمل زجاج مذهب قد كسد فابتعه منه وأنا أبيعه لك بعد مدة بمكسب المثل مثلين فابتاعه بستين دينارا ثم دخل سوق العطارين فقال سمسار آخر قد ورد تاجر من نصيبين بماء ورد في غاية الحسن والرخص ابتعه منه وأنا أبيعه لك بفائدة كثيرة فابتاعه بستين دينارا أخرى ثم جعله في الزجاج المذهب ووضعه على رف في صدر

البيت ثم دخل الحمام بفلس فقال له بعض أصدقائه يا أبا القاسم اشتهي أن تغير مداسك فانه في غاية الوحاشة وأنت ذو مال فقال السمع والطاعة ولما خرج من الحمام ولبس ثيابه وجد الى جانب مداسه مداسا جديدا فلبسه ومضى الى بيته وكان القاضي دخل الحمام يغتسل ففقد مداسه فقال الذي لبس مداسي ماترك عوضه شيأ فوجدوا مداس أبي القاسم فانه معروف فكبسوا بيته فوجدوا مداس القاضي عنده فاخذه منه وضرب أبو القاسم وحبس وغرم جملة مال حتى خرج من الحبس فاخذ المداس وألقاه في الدجلة فغاص في الماء فرمى بعض الصيادين شبكته فطلع فيها المداس فقال هذا مداس أبي القاسم والظاهر انه سقط منه فحمله الى بيت أبي القاسم فلم يجده فرماه من الطاق الى بيته فسقط على الرف الذي عليه الزجاج فتبدد ماء الورد وانكسر الزجاج فلما رأى أبو القاسم ذلك لطم على وجهه وصاح وافقراه أفقرني هذا المداس ثم قام يحفر له في الليل حفرة فسمع الجيران حس الحفرة فظنوا أنه نقب فشكوه الى الوالي فارسل اليه من اعتقله وقال له تنقب على الناس حائطهم فحبسوه ففعلوا فلم يخرج من السجن الى ان غرم جملة مال فاخذ المداس ورماه في مستراح الخان فسد قصبة المستراح وفاض فكشف الصناع ذلك حتى وقفوا على موضع السد فوجدوا مداس أبي القاسم فحملوه الى الوالي وحكوا له ماوقع فقال غرموه المصروف جملة فقال مابقيت أفارق هذا المداس وغسله وجعله على السطح حتى يجف فرآه كلب ظنه رمة فحمله وعبر به الى سطح آخر فسقط على امرأة حامل فارتجفت واسقطت ولدا ذكرا فنظروا ما السبب فاذا مداس أبي القاسم فرفع الى الحاكم فقال يجب عليه غرة فابتاع امهم غلاما وخرج وقد افتقر ولم يبق معه شئ فاخذ المداس وجاء به الى القاضي وحكى له جميع ما اتفق له فيه وقال اشتهي ان يكتب مولانا القاضي بيني و بين هذا المداس مبارأة بأنه ليس مني ولست منه واني برىء منه ومهما فعله يؤاخذ به ويلزمه فقد افقرني فضحك القاضي ووصله بشئ ومضى اه

﴿هذه قصيدة ليزيد بن معاوية وهي عزيزة الوجود﴾

وسرب كعين الديك ميل الى الصبا * روائع بالجادي سود المدامع
سمعن غناء بعدما عن نومة * من الليل يملهن فوق المضاجع
أيا دهر هل شرخ الشبيبة راجع * مع الخفرات البيض أم غير راجع
قنعت بزور من خيال بعثنه * وكنت بوصل منهم غير قانع
اذا رمت من ليلى على البعد نظرة * لتطفي جوى بين الحشا والاضالع
تقول رجال الحي تطمع ان ترى * لليلى وصالا من بداء المطامع
وكيف ترى ليلى بعين ترى بها * سواها وما طهرتها بالمدامع
اجلك ياليلى عن العين انما * أراك بقلب خاضع لك خاشع
وما سر ليلى ماحييت بذائع * وما عهد ليلى ان تماءت بضائع

(من غريب ما يحكى) ان عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان والدة يزيد بن عبد الملك بن مروان حرمت على اثني عشر من الخلفاء من بني أمية معاوية جدها و يزيد أبوها ومروان أبو زوجها والوليد وسليمان وهشام بنو عبد الملك أولاد زوجها والوليد بن يزيد ابن ابنها و يزيد بن

الوليد ابن زوجها وابراهيم بن مروان بن الوليد ابن زوجها أيضا ويزيد بن عبد الملك ابنها ومعاوية بن يزيد بن معاوية أخوها وزوجها عبد الملك بن مروان ولم يتفق ذلك لامرأة غيرها انتهى (وجد بخط قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر حافظ العصر) قال وجد بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى حجلة التلمسانى قال أنشدنى القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرى لنفسه فى الاهرام سنة خمس وخمسين وسبعمائة وأجاد

امبانى الاهرام كم من واعظ * صدع القلوب ولم يفه بلسانه
أذكرتنى قولا تقادم عهده * أين الذى الهرمان من بنيانه
هن الجبال الشامخات تكاد أن * تمتد فوق الافق عن كيوانه
لو أن كسرى جالس فى سفحها * لاجل مجلسه على ايوانه
ثبتت على حر الزمان وبرده * مددا ولم تأسف على حدثانه
والشمس فى احراقها والريح عند هبوبها والسيل فى جريانه
هل عابد قد خصها بعبادة * فبانى الاهرام من أوثانه
أو قائل يقضى برجعة نفسه * من بعد فرقته الى جثمانه
فاختارها لكنوزه ولجسمه * قبرا ليأمن من أذى طوفانه
أو انها للسائرات مراصد * يختار راصدها اعز مكانه
أو انها وضعت بيوت كواكب * احكام فرس الدهر أو يونانه
أو انهم نقشوا على حيطانها * علما يحار الفكر فى تبيانه
فى قلب رائيها العليم نقشها * فكر يعض عليه طرف بنانه

(يحكى) ان القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى كان يمر على الناس ولا يسلم عليهم فلامه بعض أصحابه فى ذلك فقال

يقولون لى فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل احجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم * ومن أكرمته عزة النفس اكرما
وانى اذا مافاتنى الامر لم أكن * أقلب كفى اثره متندما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما * بدا مطمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى * ولا كل من فى الارض أرضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى * ولكن نفس الحر تحتمل الظما
انهنهها عن بعض مالا يشينها * مخافة أقوال العدا فيم أولما
ولم ابتذل فى خدمة العلم مهجتى * لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرسا واجنيه ذلة * اذا فاتباع الجهل قد كان احزما
ولو ان أهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن اهانوه فهان ودنسوا * محياه بالاطماع حتى تجهما

قال شيخ الاسلام تاج الدين عبد الوهاب بن شيخ الاسلام تقى الدين السبكى الشافعى سقى الله عهده لقد صدق هذا القائل لو عظموا العلم عظمهم قال وأنا اقرأ قوله لعظما بفتح العين فان العلم اذا

عظام تعظم وهو فى نفسه عظيم ولكن اهانوه فهانوا ولكن الرواية فهان وعظم بضم العين والاحسن ما اشرت اليه انتهى (قال) الشيخ الامام العالم العلامة تاج الدين عبد الوهاب بن السبكى فى اجوبته عن الاعتراضات التى على جمع الجوامع ومن ظريف ما يستفاد قول أبى نواس

أباح العراقى النبيذ وشربه * وقال حرامان المدامة والسكر
وقال الحجازى الشرابان واحد * فحلت لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما * وأشربها لافارق الوازر الوزر

وقد سألنى الاديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى رحمه الله عن معنى هذه الابيات ومعناها ان العراقى وهو أبو حنيفة رحمه الله اباح النبيذ وحرم المدامة وهى الخمر اسكرت أم لم تسكر وحرم أيضا المسكر من كل شئ وان الحجازى وهو الشافعى رحمه الله قال الشرابان واحد فاخذ أبو نواس بالموجب فكأنه قال انهما واحد ولكن فى الحل لا فى الحرمة واليه الاشارة بقوله فحل لنا من بين قوليهما الخمر ثم هذا انما ذكره أبو نواس على عادة الشعراء فى الكيس والظرافة ولا يقصد حقيقته فانه لا يقول به احد ولعله اشار بقوله سآخذ من قوليهما طرفيهما الى آخره انه لا يعتقده بل هو شاعر كما يقول ولا يفعل كذلك لا يعتقد فهو على مازعم يشربها وان لم يعتقد الحل اذ كيف يعتقد مالم يقله مسلم وكيف يمكن ان يقال انه يعتقد الحل وقد قال لافارق الوازر الوزر فهذا ان شاء الله معنى هذه الابيات وهى على كل حال من كلمات الشعراء التى لا يحتج بها فى دين الله تعالى * اعتل ذو الرياستين الفضل بن سهل بخراسان مدة طويلة ثم ابل واستقبل وجلس للناس فدخلوا اليه وهنؤه بالعافية فأنصت لهم حتى انقضى كلامهم ثم اندفع فقال ان فى العلل لنعما لا ينبغى للعقلاء ان يجهلوها منها تمحيص الذنوب وثواب الصبر وايقاظ من الغفلة واذكار بالنعمة فى حال الصحة واستدعاء للتوبة وحض على الصدقة ورضاء بقضاء الله وقدره فانصرف الناس بكلامه ونسوا ما قاله غيره اه (حكى) عن ابن المبارك انه قال حججت الى بيت الله الحرام فبينما أنا فى الطواف اذ عييت فجلست استريح ووضعت رأسى على ركبتى فغلبنى النوم فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول يا ابن المبارك اذا أنت قضيت حجك وحللت عقدك ورجعت الى أرض العراق ودخلت دار السلام فاقصد المحلة التى بها بهرام المجوسى فاذا لقيته فاخبره ان النبى العربى محمدا صلى الله عليه وسلم يسلم عليك وهو يقول لك ابشر فان قصرك فى الجنة غدا من أقرب القصور الى قصرى قال عبد الله فانتبهت لذلك فزعا مرعوبا وتفكرت ساعة فغلبنى النوم ثانيا فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم أيضا يقول يا ابن المبارك لا تشك فى منامك فهو حق والشيطان لا يتمثل بصورتى قط فاذا قضيت حجك وحللت عقدك وانصرفت الى العراق فاطلب هذا المجوسى بهرام وبشره بما قلت لك فانتبهت أيضا فزعا مرعوبا واستعذت بالله واستغفرته وتفكرت ساعة فغلبنى النوم فنمت فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ثالث مرة وهو يقول يا ابن المبارك أنا محمد رسول الله فلا ترتبك فى ذلك وامتثل أمرى فهو حق فقلت يا رسول الله أريد بذلك علامة القاه بها فاخذ رسول الله كفى بيمينه ثم قال يا ابن المبارك هذا المجوسى شيخ زمن قد أتى عليه مائة وأربعون سنة وقد ضعف بصره وثقل سمعه وابيض شعره ودق عظمه ويبس عصبه وجلده

فاذا

فاذا أتيته وسلمت عليه و بشرته بما قلت لك وطلب منك علامة فامسح بيدك هذه التي أخذتها
بيمينى على رأسه وجهها على وجهه وسائر جسده وبدنه فانه يعود شابا و يرجع اليه بصره وسمعه
و يسود شعره و يطرى جسده ويقوى عصبه وتعود اليه قوته فانتبهت وأنا كالولهان فلما ان
قضيت حجى وحللت عقدى وانصرفت الى العراق ودخلت بغداد سألت عن دار المجوسى فقلت
ياغلام استأذن لى على مولاك فقال الغلام اغريب أنت قلت اجل قال ادخل ليس هنا من
يحجبك قال فدخلت الى دار لم أر مثلها واذا بكتبة ومجوس وصيارف قعود وهم يقتضون
الرهون و يعطون الدنانير والدراهم فقلت ياقوم افيكم بهرام فقيل ادخل الدار الثانية فدخلتها
فاذا ليس بينها و بين الدار الاولى نسبة بل تفاوت واذا بشيخ قاعد على دست ومرتبة على الصفة
التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله جماعة من الكتاب والحساب وبين أيديهم الدنانير
والدراهم كالبيادر الصغار وهم فى الحساب فسلمت كما أمرنى النبى صلى الله عليه وسلم فرد على
السلام وكان قد شد حاجبه بعصابة فرفعها عن عينه ثم قال من الرجل قلت عبد الله بن المبارك
فقال مرحبا بك لقد شممت بك رائحة زال بها الهم عن قلبى ادن منى فجلست الى جانبه فقال هل
لك من حاجة قلت نعم قال وما هى قلت أرى أن أخلو بك ساعة فقال نعم وأمر من هناك بالخروج
فتهيؤا ثم خرجوا فبقيت أنا وهو وثلاثة شبان قلت هؤلاء اصرفهم يا بهرام كم تعد من السنين قال
أعد مائة وأربعين سنة قلت فهل تعرف انك عملت شيأ استوجبت به من الله الجنة قال لا أدرى
الا انى رزقت ثلاثة بنين وثلاث بنات فزوجت بعضهم من بعض وأعطيت مهورهن من
عندى وأفردت لكل واحد منهم مالا ودارا وعقارا قلت لا تستوجب الجنة بل تستوجب النار
فهل عملت شيأ صالحا الآخرتك قال قسمت ليلى ثلاثة اجزاء أما الجزء الاول فانى أقعد للسامرة
وتقرأ على سير الاول فانفرج بذلك والجزء الثانى أعبد فيه النار واسجد لها من دون الله الواحد
القهار والجزء الثالث أتفكر فيه فى أمر معاشى ومعادى وامنع نفسى عن النوم فى ذلك الجزء
فان النوم فيه جهل وخمول ودماء الا لضرورة فقلت هل لك فعل غير هذا قال لا قلت يفعل الله
مايشاء ويحكم مايريد فبم استحققت يا بهرام الجنة قال ويحك يا ابن المبارك أتقطع لى بالجنة
وأنت عالم المسلمين من أخبرك بذلك قلت أخبرنى الصادق الأمين الذى لا ينطق عن الهوى قال
لما القصة فحدثته بالمنام الذى رأيته وبما قاله النبى صلى الله عليه وسلم مرارا فقال يا ابن المبارك
وهل لذلك علامة ظاهرة قلت نعم ادن منى فدنا فمسحت بيدى رأسه ووجهه وصدره وبدنه
وأولاده ينظرون فصار شابا حسنا طريا سميعا بصيرا واسود شعره وابيضت بشرته فلما عاين ذلك
قال امدد يدك ياشيخ أنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ثم قال ياشيخ أخبرك السبب
الذى أوجب الله لى به هذه المنزلة قلت نعم قال كنت من مدة قد أولمت وليمة عامة للمسلمين
والنصارى واليهود والمجوس على خاصة فاكلوا وانصرفوا وانقضت الوليمة فلما كان فى بعض
الليل طرق طارق الباب وقد هدأ الناس ونام الخدام لما أصابهم من التعب بسبب الوليمة وأنا
جالس منتبه فقلت من بالباب فقالت يابهرام أنا امرأة من جيرانك فاوقد لى هذا السراج قال
بهرام والمجوس لا ترى اخراج النار من بيوتهم ليلا فتحيرت فى أمرى وقت ولم أنبه أحدا
فاسرجت لها السراج فانصرفت واطفأت السراج وعادت وقالت يابهرام قد انطفأ فاسرجه لى

فلما أسرجته قالت يا بهرام والله ما جئتك لاجل سراج لكن جئتك من أجل ثلاث بنات
شممن روائح طعامك فهن ملقيات على وجوههن يتضاورون كالمرأة الثكلى أو كالحبة في المقلى
فان كان قد بقي في دارك فضل طعام فاعطني فانك ان شاء الله تملك بذلك الجنة فقلت حبا وكرامة
فاخذت منديلا كبيرا فجعلت فيه من كل شئ كان في البيت من الحلو والحامض وأخرجت كيسا
فيه ألف دينار وكيسا فيه ستة آلاف درهم وستة أثواب من ديباج وستة أثواب مروزية
وشددت الجميع وقلت احملي هذا الى عيالك واقسمي عليهم فمدت يدها فلم تطق حمله لضعفها
فقالت يا بهرام أعني أعانك الله على الوقوف بين يديه وخفف عليك الحساب في ذلك اليوم
الشديد فقلت يا هذه كيف افعل وأنا شيخ كبير وقد مضى على مائة ونيف وثلاثون سنة ثم تفكرت
لحظة وطاب لذلك قلبي فقلت لها شيلي على رأسي فشالته واستقل على رأسي فسال لذلك عرقي
حتى صرت في منزلها فحططت الطعام ووضعت الرزمة وجعلت القم البنات الى ان شبعن
ونشطن ثم قسمت عليهن الثياب والدراهم والدنانير ففرحن وتبسمن فلما أردت القيام قلن
باجمعهن يا بهرام أصلح الله لك أمورك وادام سرورك كما أصلحت أمورنا وأدمت سرورنا
وفرحك يوم القيامة كما فرحتنا وختم لك بخير وانزلك أقرب قصر من قصر نبينا محمد صلى الله
عليه وسلم في دار الجنان وأنا أقول آمين ومازلت أرجو استجابة دعائهن قلت يا بهرام ابشر فان
الله حقق لك ذلك ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تحقرن من المعروف شيأ ولو انك تفرغ من
دلوك في اناء أخيك ثم قال عبد الله بن المبارك فتصدق بهرام في ذلك بمائة ألف درهم وبمائة
ألف دينار وبمائة ألف ثوب مروزيات وبالفي ثوب ديباج وفرق سائر أمواله على أولاده وبناته
واسلموا جميعا وتفرق الاخوة عن الاخوات وزوج أولاده بالمسلمات وبناته بالمسلمين واسلم
في ذلك اليوم خلق كثير من المجوس ثم انفرد عن أهله ولزم المحراب يعبد الله فلم يلبث الا قليلا
حتى توفي رحمة الله عليه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (روى عن سعد بن
سعيد) انه قال كان في جوار معروف الكرخي رجل مجوسي من ابناء الاغنياء وجد الخليفة
عليه فصادره وأخذ منه ألف ألف دينار فافتقر بعد الغنى وذل بعد العز وكان له اعداء وحساد
فقالوا للخليفة انه قد بقي له مال جسيم فلا تظن انه عديم فامر بمصادرته ثانيا فلما علم المجوسي ذلك
دخل بيت النار وقصد ما كان يعبد من دون الجبار وقال ان لم تخلصني آمنت برب معروف فلم
يجبه أحد ولم ينتفع بسجوده للنار ولا للنور فلما جن عليه الليل اغتسل وأتى مسجد معروف
الكرخي فلم يجده في المسجد فرفع رأسه وقال يا اله ابراهيم وعيسى ومحمد واله معروف ويا من لا اله
الا هو تحققت ان ما عبدته من دونك باطل لا يضر ولا ينفع واني جئتك تائبا عما فعلت متبرئا عما
عبدت منفصلا عما اعتقدت موقنا بك شاهدا بان لا اله الا أنت اله الاولين والآخرين وأنت
المعبود الحق تفعل ما تشاء ولا يكون الا ما تريد انك على كل شئ قدير فاغفر لي ما تقدم من ذنبي
وجهلي واسرافي ولا تنظر الى سوء عملي ومعصيتي واصرف شر الخليفة واعوانه عني فقد وجهت
وجهي اليك ثم قال اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله يا محمد تشفعت بك الى الله
فاقبلني ثم سجد واطال سجوده وهو يناجي ربه ويبكي فاتى معروف المحراب فرآه كذلك فبقي
متفكرا في أمره لا يتحقق من هو واذا هو بغلام من خواص الخليفة قد دخل المسجد يسأل

عن المجوسي باسمه ونسبه فقال معروف بيته في موضع كذا وكذا فقال من هناك جئت وقيل لي انه في مسجد معروف فوالله لا بأس عليه فان الخليفة قد بعثني اليه برسالة لطيفة تسر قلبه وهو منتظره على ان يؤمنه ويرد عليه ما أخذ منه وكفى بالله شهيدا فقال معروف لست أرى في المسجد أحدا يشبه من تذكره الا هذا الساجد لله المناجي لربه فاصبر له حتى يرفع رأسه فوقف صاحب الخليفة على رأسه ساعة ثم قال يا هذا ارفع رأسك ولا تبك أمير المؤمنين قد قضى حاجتك وبعثني برسالة لطيفة لتصير اليه حتى يرد عليك ما أخذه منك فرفع رأسه واذا معروف واقف فقال يا معروف ما أكرم هذا الباب وما أحلم صاحبه وما أقربه الى من دعاه ثم قال يا معروف امدد يدك اني أشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله واني رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا وان القرآن كلام الله جاء به محمد بن عبد الله وأنا مؤمن بذلك كله ثم تبع الرسول وذهب معروف الكرخي معه فلما وصلوا الى دار الخليفة واذا به واقف على الباب فاستقبلهما وسلم عليهما وصافح كلا منهما ومشى معهما الى مجلسه وأقعدهما الى جانبه وأقبل يعتذر اليهما مما وقع منه وأمر بالاموال التي أخذت من المجوسي فأحضرت بين يديه عن آخرها ثم قال له تأمل هذه الاموال أليست هي التي أخذت منك قال نعم قال فخذها بارك الله لك فيها واجعلني في حل مما وقع مني واستغفر الله لي فقال يغفر الله لك ثم قال يا أمير المؤمنين أما الاموال فهي لك حلال بعد ان هداني الله الى دين الاسلام ولكن أعلمني ما الذي دعاك الى طلبي في هذا الوقت ورد هذا المال علي قال نعم كنت نائما واذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل علي ومعه صف من الملائكة وصف من الصحابة فسلم علي وقال ان الله تبارك وتعالى يقرئك السلام ويقول لك ان عبدنا فلانا المجوسي كان قد دعونا في الذر فأجابنا وكان في المجوسية مستترا ولنا معه عناية وقد جاء الآن الى تائبا وعما كان منه تائبا وهو في مسجد معروف الكرخي مستجير اجتنابا منك فابعث في طلبه ورد عليه ما أخذ منه ولا تقطع المعاملة بيننا فانتبهت مرعوبا فأرسلت في طلبك وها هو مالك قد رددناه عليك ودفعناه اليك فخر الرجل ساجدا لله تعالى ثم رفع رأسه وبكى وقال واندماه وا أسفاه والهفاه كيف تركت عبادة الرحمن الرحيم واشتغلت بعبادة النيران وضيعت العمر والزمان ثم قال يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في هذا المال خذه فهو حلال لك فقال أمير المؤمنين لا أرجع بشيء أمرني ربي باخراجه فقال يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في المال أشهدك اني قد جعلته صدقة في فقراء المسلمين لا حظ لي فيه ولا لاحد من أهلي فقال الخليفة يا معروف بقي الامر اليك فاحمل المال وتصدق به على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والايتام والارامل فدعا له معروف وأخذ بيد الرجل وحمل المال على البغال وصافحهما أمير المؤمنين وسأل الرجل ان يحالله عما وقع منه ولازم الرجل معروف الكرخي الى أن مات تغمده الله برحمته (وحكي عن معن بن زائدة الشيباني) ان شاعرا قصده فأقام مدة يريد الدخول اليه فلم يتهيأ له ذلك فلما أعياه ذلك قال لبعض خدمه اذا دخل الامير البستان فعرفني فلما دخل معن البستان عرفه الخادم عنه فكتب الشاعر بيتا من الشعر على خشبة وألقاها في الماء الداخل الى البستان فاتفق ان معنا كان جالسا في ذلك الوقت على رأس الماء فمرت به فأخذها فاذا فيها كتابة فقرأها وهي

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي * فمالى الى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه فدعى بالرجل فقال له كيف قلت فأنشد البيت فأمر له بمائة ألف درهم فأخذها وأخذ الامير الخشبة فوضعها تحت بساطه فلما كان اليوم الثانى قرأها ودعا بالرجل فدفع له مائة ألف درهم على العادة ثم دعاه ثالث مرة فقرأ البيت ودفع له مائة ألف درهم فلما أخذ الجائزة الثالثة خشى الشاعر أن يندم فيأخذ منه مادفع اليه فسافر فلما كان فى اليوم الرابع طلبه معن فلم يجده فقال معن حق على لو مكث لاعطينه حتى لا يبقى فى بيتى درهم ولا دينار (وحكى عنه أيضا) انه أتى بجملة من الاسرى فعرضهم على السيف فقال له بعضهم أصلح الله الامير نحن اسراك وبنا جوع وعطش فلا تجمع علينا الجوع والعطش والقتل فأمر لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا ومعن ينظر اليهم فلما فرغوا قال الرجل أصلح الله الامير كنا اسراك ونحن الآن أضيافك فانظر ماتصنع بأضيافك قال قد عفوت عنكم فقال الرجل أيها الامير ماندرى أى يوم أشرف يوم ظفرك بنا أو يوم عفوك عنا فأمر لهم بمال وكسوة (وحكى ان المنصور أهدر دم رجل) كان يسعى فى فساد دولته مع الخوارج من أهل الكوفة وجعل لمن دل عليه وجاء به مائة ألف درهم ثم انه ظهر ببغداد فبينما هو يمشى مختفيا فى بعض نواحيها اذ بصر به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأخذ بمجامع ثيابه وقال هذا بغية أمير المؤمنين فبينما الرجل على تلك الحالة اذ سمع وقع حوافر الخيل فالتفت فاذا معن بن زائدة فقال ياأبا الوليد اجرنى أجارك الله فوقف وقال للرجل المتعلق به ماشأنك قال بغية أمير المؤمنين الذى أهدر دمه وجعل لمن دل عليه وأتى به مائة ألف درهم فقال دعه ياغلام انزل عن دابتك واحمل الرجل عليها فصاح الرجل بالناس وقال أيحال بينى و بين من طلبه أمير المؤمنين فقال له معن اذهب اليه وأخبره انه عندى فانطلق الى باب المنصور فاخبره فأمر المنصور باحضار معن فلما أتى الرسول الى معن دعا أهل بيته ومواليه وقال أعزم عليكم لا يصل الى هذا الرجل مكروه وفيكم عين تطرف ثم سار الى المنصور فدخل عليه وسلم عليه فلم يرد عليه السلام وقال يامعن أتتجرأ على قال نعم ياأمير المؤمنين قال ونعم أيضا واشتد غضبه فقال ياأمير المؤمنين مضت أيام كثيرة قد عرفتم فيها حسن بلائى فى خدمتكم لما رأيتمونى أهلا ان يرهب الى رجل واحد استجار بى بين الناس وتوسم أنى عبد من عبيد أمير المؤمنين وكذلك انا فمر بما شئت ها أنا بين يديك فاطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقد سكن مابه من الغضب وقال قد أجرنا من أجرت يامعن قال فان رأى أمير المؤمنين أن يجمع بين الاجرين فيأمر له بصدقة فيكون قد أحياه وأغناه قال قد أمرنا له بخمسين ألف درهم قال ياأمير المؤمنين ان صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وان ذنب الرجل عظيم فأجزل له الصلة قال قد أمرنا له بمائة ألف درهم قال فعجلها ياأمير المؤمنين فان خير البر تعجيله فانصرف معن بالمال للرجل وقال له خذ صلتك والحق باهلك واياك ومخالفة خلفاء الله فى أمورهم (حكى الجاحظ) قال أخبرنى فتى من أصحاب الحديث قال دخلت ديرا فى بعض المنازل لما ذكر لى ان به راهبا حسن المعرفة باخبار الناس وأيامهم فصرت له لاسمع كلامه فوجدته فى حجرة معتزلة بالدير وهو على أحسن هيئة فى زى المسلمين فكلمته فوجدت عنده من المعرفة أكثر مما وصفوا فسألت عن سبب اسلامه فحدثنى ان جارية من

بنات الروم كانت فى هذا الدير نصرانيه كثيرة المال بارعة الجمال عديمة الشكل والمثال فأحبت غلاما مسلما خياطا وكانت تبذل له مالها ونفسها والغلام يعرض عن ذلك ولا يلتفت اليها وامتنع عن المرور بالدير فلما أعيتها الحيلة فيه طلبت رجلا ماهرا فى التصوير وأعطته مائة دينار على أن يصور لها صورة الغلام فى دائرة على شكله وهيئته ففعل المصور فلم تخطئ الصورة شيا منه غير النطق وأتى بها الى الجارية فلما أبصرتها أغمى عليها فلما أفاقت أعطت المصور مائة دينار أخرى وأخرج الراهب لى الصورة فرأيتها فكاد ان يزل عقلى فلما خلت الجارية بالصورة رفعتها الى حائط حجرتها ومازالت كل يوم تأتى الصورة وتقبلها وتلثم ما تحب منها ثم تجلس بين يديها وتبكى فاذا أمست قبلتها وانصرفت فما زالت على تلك الحال شهرا فمرض الغلام ومات فعملت الجارية مأتما وعزاء سار ذكره فى الآفاق وصارت مثلا بين الناس ثم رجعت الى الصورة وصارت تلثمها وتقبلها الى ان أمست فأتت الى جانبها فلما أصبحنا دخلنا عليها لنأخذ من خاطرها فوجدناها ميتة ويدها ممدودة الى الحائط نحو الصورة وقد كتب عليه هذه الابيات

يا موت حسبك نفسى بعد سيدها * خذها اليك فقد أودت بمانيها
أسلمت وجهى الى الرحمن مسلمة * ومت موت حبيب كان يعصيها
لعلها فى جنان الخلد يجمعها * بمن تحب غدا فى البعث باريها
مات الحبيب وماتت بعده كمدا * محبة لم تزل تشقى محبيها

قال الراهب فشاع الخبر وحملها المسلمون ودفنت الى جانب قبر الغلام فلما أصبحنا دخلنا حجرتها فرأينا تحت شعرها مكتوبا

أصبحت فى راحة مما جنته يدى * وصرت جارة رب واحد صمد
محا الاله ذنوبى كلها وغدا * قلبى خليا من الاحزان والكمد
لما قدمت الى الرحمن مسلمة * وقلت انك لم تولد ولم تلد
أثابنى رحمة منا ومغفرة * وأنعما باقيات آخر الابد

(قيل اجتمع الصوفية) الى أبى القاسم الجنيد وقالوا يا استاذ أنخرج ونسعى فى طلب الرزق قال لهم ان علمتم أين هو فاطلبوه قالوا فنسأل الله أن يرزقنا قال ان علمتم انه ينساكم فذكروه قالوا فنجلس اذا ونتوكل قال التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة (قيل) اجتمع أربعة من الائمة الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو ثور ومحمد بن الحكم رضى الله عنهم عند أحمد بن حنبل يتذاكرون فصلوا صلاة المغرب وقدموا الشافعى ثم مازالوا يصلون فى المسجد الى ان صلوا العتمة ثم دخلوا بيت أحمد بن حنبل ودخل أحمد على امرأته ثم خرج على أصحابه وهو يضحك فقال الشافعى مم تضحك يا أبا عبد الله قال خرجت الى الصلاة ولم يكن فى البيت لقمة من طعام والآن فقد وسع الله علينا قال الشافعى فما سببه قال أحمد قالت لى أم عبد الله انكم لما خرجتم الى الصلاة جاء رجل عليه ثياب بيض حسن الوجه عظيم الهيئة ذكى الرائحة فقال يا أحمد بن حنبل فقلنا لبيك فقال هاكم خذوا هذا فسلم الينا زنبيلا أبيض وعليه منديل طيب الرائحة وطبق مغطى بمنديل آخر وقال كلوا من رزق ربكم واشكروا له فقال الشافعى يا أبا عبد الله

لها في الزنبيل والطبق فقال عشرون رغيفا قد عجنت باللبن واللوز المقشور أبيض من الثلج وأذكى من المسك ما رأى الراؤن مثله وخروف مشوي مزعفر حار وملح في سكرجة وخل في قارورة على الطبق وبقل وحلواء متخذة من سكر طبرزد ثم أخرج الكل ووضعه بين أيديهم فتحيروا من شأنه وأكلوا ما شاء الله قال فلم تذهب حلاوة ذلك الطعام والحلواء مدة طويلة وكل من أكل من ذلك الطعام ما احتاج الى طعام غيره مدة شهر فلما ان فرغوا من الاكل حمل أحمد ما بقي منه وأدخله الى أهله فاكلوا وشبعوا وبقي منه شيء فأجمع رأيهم على ان الطعام كان من غيب الله وان الرسول كان ملكا من الملائكة قال صالح بن أحمد بن حنبل ما أصابتنا مجاعة قط ما دام ذلك الزنبيل في بيتنا وكان يأتينا الرزق من حيث لا نحتسب رضي الله عنهم وأعاد علينا من بركاتهم (قيل ان عبد الله بن معمر القيسي كان أميرا من امراء العرب) وكان بطلا شجاعا جوادا ذا مروءة وافرة قال حججت سنة من السنين الى بيت الله الحرام وصحبت مالا كثيرا ومتجرا عزيزا فلما قضيت حجي عدت لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فبينما أنا ذات ليلة بين القبر والمنبر في الروضة اذ سمعت أنينا عاليا وحسا باديا فأنصت اليه فاذا هو يقول

أشجاك نوح حمائم السدر * فأهجن منك بلابل الصدر
أم ذاد نومك ذكر غانية * أهدت اليك وساوس الفكر
في ليلة نام الخلي بها * وخلفت بالاحزان والذكر
يا ليلة طالت على دنف * يشكو الغرام وقلة الصبر
أسلمت من يهوى لحر جوى * متوقد كتوقد الجمر
فالبدر يشهد انني كلف * بجمال شيء مشبه البدر

قال ثم انقطع الصوت ولم أدر من أين جاء فبهت حائرا واذا به قد أعاد البكاء والنحيب وهو يقول

أشجاك من ريا خيال زائر * والليل مسود الذوائب عاكر
واعتاد مهجتك الهوى ما بادها * واهتاج مقلتك المنام الباتر
ناديت ليلى والظلام كأنه * يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسري في السماء كأنه * ملك تبدى والنجوم عساكر
واذا تعرضت الثريا خلتها * كأسا بها حث السلاف فدائر
وترى بها الجوزاء ترقص في الدجا * رقص الحبيب علاه سكر ظاهر
يا ليل طلت على محب ماله * الا الصباح موازر ومسامر
فاجابني مت حتف انفك واعلمن * ان الهوى لهو الهوان الحاضر

قال عبد الله فنهضت عند ابتدائه بالابيات أؤم الصوت فما انتهى الى آخرها الا وأنا عنده فرأيت غلاما جميلا قد نزل عذاره لكن قد علا محاسنه الاصفرار والدموع تجري على خده كالامطار فقال نعمت ظلاما من الرجل قلت عبد الله بن معمر القيسي فقال ألك حاجة يا أخي قلت اني كنت جالسا في الروضة فما راعني في هذه الليلة الا صوتك فبنفسي أقيك وبروحي أفديك وبمالي أواسيك ما الذي تجد قال ان كان ولا بد فاجلس فجلست فقال أنا عتبة بن الحباب ابن المنذر بن الجموح الانصاري غدوت الى مسجد الاحزاب ولم أزل فيه راكعا ساجدا ثم

اعتزلت غير بعيد فاذا انسوة يتهادين كأنهن القطا وفي وسطهن جارية بديعة الجمال في نشرها بارعة الكمال في عصرها نورها ساطع يتشعشع وطيبها عاطر يتضوع فوقفت علي وقالت ياعتبة ماتقول في وصل من طلب وصالك ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبرا ولا قفوت لها أثرا فانا حيران انتقل من مكان الى مكان ثم صرخ صرخة عظيمة واكب على الارض مغشيا عليه ثم أفاق بعد ساعة وكأنما صبغت ديباجة خده بورس وأنشد يقول

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة * تراكم تروني بالقلوب على بعد
فؤادي وطرفي يأسفان عليكم * وعندكم روحي وذكركم عندي
ولست ألذ العيش حتى أراكم * ولو كنت في الفردوس أو جنة الخلد

قال فقلت يا أخي تب الى ربك واستقل من ذنبك واتق هول المطلع وسوء المضجع فقال هيهات هيهات ما أنا مبال حتى يكون ما يكون ولم أزل به الى طلوع الصباح فقلت له قم بنا الى مسجد الاحزاب فلعل الله أن يكشف عنك ما بك قال أرجو ذلك ببركة طلعتك ان شاء الله فنزلنا الى ان وردنا مسجد الاحزاب فسمعته يقول

يا للرجال ليوم الاربعاء أما * ينفك يحدث لي بعد النهى طربا
ما ان يزال غزال فيه يظلمني * يهوى الى مسجد الاحزاب منتقبا
يخبر الناس ان الاجر همته * وما أتى طالبا للاجر محتسبا
لو كان يبغي ثوابا ما أتى ظهرا * مضمخا بفتيت المسك مختضبا

فجلسنا ثم حتى صلينا به الظهر فاذا النسوة أقبلن وما الجارية بينهن فلما بصرن به قلن ياعتبة وما ظنك بطالبة وصالك وكاسفة بالك قال وما لها قلن قد أخذها أبوها وارتحل بها الى السماوة فسألتهن عن الجارية فقلن هي ريا ابنة الغطريف السلمي فرفع الشاب رأسه اليهن وأنشد يقول

خليلي ريا قد أجد بكورها * وسار الى أرض السماوة عيرها
خليلي ماتقضي به ام مالك * علي فما يعدو علي أميرها
خليلي اني قد خشيت من البكا * فهل عندي غيري مقلة أستعيرها

فقلت ياعتبة طب قلبا وقر عينا فقد وردت الحجاز بمال جزيل وطرف وتحف وقماش ومتاع أريد به أهل السفر ووالله لابذلنه امامك و بين يديك وفيك وعليك حتى أوصلك الى المنى وأعطيك الرضا وفوق الرضا فقم بنا الى مجلس الانصار فقمنا حتى أشرفنا على ناديهم فسلمت فأحسنوا الرد ثم قلت أيها الملا الكرام ما تقولون في عتبة وأبيه قالوا خيران من سادات العرب قلت فانه قد رمي بفؤاده الجوى وما أريد منكم الا المعونة فركبنا وركب القوم حتى أشرفنا على منازل بني سليم من السماوة فقلنا أين منزل الغطريف فخرج بنفسه مبادرا فاستقبلنا استقبال الكرام وقال حييتم بالاكرام والرحب والانعام قلنا وأنت حييت ثم حييت انا لك أضيافا فقال نزلتم أفضل معقل ثم نادى يامعشر العبيد أنزلوا القوم وسارعوا الى الاكرام ففرشت في الحال الانطاع والنمارق والزرابي فنزلنا وأرحنا ثم ذبحت الذبائح ونحرت النحائر وقدمت الموائد فقلنا ياسيد القوم لسنا بذائقين لك طعاما أو تقضي حاجتنا وتردنا بمسرتنا قال وما حاجتكم أيها السادة

قلنا نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر الطيب العنصر العالي المفخر فأطرق وقال يا اخوتاه ان التي تخطبونها أمرها الى نفسها وها أنا ادخل اليها أخبرها ثم نهض مغضبا فدخل على ريا وكانت كاسمها فقالت يا أبتاه اني أرى الغضب بينا عليك فما الخبر قال لها ورد الانصار يخطبونك مني قالت سادات كرام وأبطال عظام استغفر لهم النبي صلى الله عليه وسلم فلمن الخطبة منهم قال لفتى يعرف بعتبة بن الحباب قالت بالله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفي بما وعد ويدرك اذا قصد ويأكل ما وجد ولا يأسف على ما فقد قال الغطريف اقسم بالله لا أزوجك به أبدا فقد نما الي بعض حديثك معه فقالت ما كان ذلك ولكن اذا قسمت فان الانصار لا يردون مردا قبيحا فاحسن لهم الرد وادفع بالتي هي أحسن قال بأي شئ أقول قالت اغلظ لهم المهر ما استطعت فانهم يرجعون ولا يجيبون وقد أبررت قسمك وبلغت مأربك وراعيت أضيافك قال ما أحسن ما قلت ثم خرج مبادرا فقال يا اخوتاه ان فتاة الحي قد أجابت ولكن أريد لها مهر مثلها فمن القائم قال عبد الله فقلت أنا القائم بما تريد فقال أريد ألف مثقال من الذهب الاحمر قلت لك ذلك قال وخمسة آلاف درهم من ضرب هجر قلت لك ذلك قال ومائة ثوب من الابراد والحبر قلت لك ذلك قال وعشرين ثوبا من الوشي المطرز قلت لك ذلك قال وأريد خمسة أكرشة من العنبر قلت لك ذلك قال وأريد مائة نافجة من المسك الاذفر قلت لك ذلك قال فهل أجبت قال أجل ثم أجل قال عبد الله فانفذت نفرا من الانصار أتوا بجميع ما ضمنته وذبحت النعم والغنم واجتمع الناس لا كل الطعام فأقمنا هنالك نحو أربعين يوما على هذا الحال ثم قال الغطريف يا قوم خذوا فتاتكم وانصرفوا صاحبين السلامة ثم حملها في هودج وجهز معها ثلاثين راحلة عليها التحف والطرف ثم ودعنا ورجع فسرنا حتى اذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة وأحسب أنها من بني سليم فحمل عليها عتبة بن الحباب فقتل منها عدة من رجالها وردها وانحرف راجعا وبه طعنة تفور دما حتى سقط الى الارض فلم يلبث عتبة أن قضى نحبه فقلنا واعتباه فسمعت الجارية فألقت نفسها عليه وجعلت تقبله وتصيح بحرقة وتقول

تصبرت لا أني صبرت وانما * أعلل نفسي أنها بك لاحقه
ولو أنصفت نفسي لكانت الى الردى * امامك من دون البرية سابقه
فما احد بعدي وبعدك منصف * خليلا ولا نفس لنفس مصادقه

ثم شهقت شهقة واحدة قضت فيها نحبها فاحترنا لهما مكانا وجدثا وواريناهما فيه ورجعت الى ديار قومي وأقمت سبع سنين بعدها ثم عدت الى الحجاز ووردت الى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقلت والله لاعودن الى قبر عتبة فأزوره فأتيت الى القبر فاذا عليه شجرة نابتة عليها أوراق حمر وصفر وخضر وبيض فقلت لارباب الجهة ما يقال لهذه الشجرة فقالوا شجرة العروسين فأقمت عند القبر يوما وليلة وانصرفت (حكى) ان شخصا جاء الى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي سلطان العلماء فقال رأيتك في المنام تنشد

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة * ورجل رمى فيها الزمان فشلت

قال فسكت ثم قال أعيش ثلاثا وثمانين سنة فان هذا الشعر لكثير عزة وقد نظرت فلم أجد بيني وبينه نسبة فاني سني وهو شيعي وطويل وهو قصير وشاعر ولست بشاعر وأنا اسلمي وهو خزاعي وشامي وهو حجازي فلم يبق الا السن فأعيش مثله فكان كذلك انتهى (ومن ظرف مايحكى) ان الجاحظ قال عبرت يوما على معلم كتاب فوجدته في هيئة حسنة وقماش مليح فقام الي وأجلسني معه ففاتحته في القرآن فاذا هو ماهر ففاتحته في شيء من النحو فوجدته ماهرا ثم اشعار العرب واللغة فاذا به كامل في جميع مايراد منه فقلت قد وجب على تقطيع دفتر المعلمين فكنت كل قليل اتفقده وازوره قال فأتيت بعض الايام الى زيارته فوجدت الكتاب مغلقا فسألت جيرانه فقالوا مات عنده ميت فقلت أروح أعزيه فجئت الى بابه فطرقته فخرجت الي جارية وقالت ماتريد قلت مولاك فقالت مولاي جالس وحده في العزاء مايعطي لاحد الطريق قلت قولي له صديقك فلان يطلب يعزيك فدخلت وخرجت وقالت بسم الله فعبرت اليه فاذا هو جالس وحده فقلت أعظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة وهذا سبيل لابد منه فعليك بالصبر ثم قلت أهذا الذي توفي ولدك قال لا قلت فوالدك قال لا قلت فاخوك قال لا قلت لمن قال حبيبتي فقلت في نفسي هذا أول المناحس وقلت له سبحان الله تجد غيرها وتقع عينك على أحسن منها فقال وكأني بك وقد ظننت اني رأيتها فقلت في نفسي هذه منحسة ثانية ثم قلت وكيف عشقت من لا رأيته فقال اعلم اني كنت جالسا واذا رجل عابر يغني وهو يقول

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة * ردي على فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي لولا ان أم عمرو هذه مافي الدنيا مثلها ما كان الشعراء يتغزلون فيها فلما كان بعد يومين عبر علي ذلك الرجل وهو يغني ويقول

اذا ذهب الحمار بام عمرو * فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها وقعدت في العزاء منذ ثلاثة أيام فقال الجاحظ فعادت عزيمتي وقويت على كتابة الدفتر لحكاية أم عمرو (ومن غريب مايحكى) ماحكاه القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة ان منارة صاحب الخلفاء قال رفع الى هارون الرشيد ان رجلا بدمشق من بقايا بني أمية عظيم المال كثير الجاه مطاع له في البلدان جماعة وأولاد ومماليك وموال يركبون الخيول ويحملون السلاح ويغزون الروم وانه سمح جواد كثير البذل والضيافة وانه لا يؤمن من فتق يبعد رتقه فعظم ذلك على الرشيد قال منارة وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة في بعض حججه في سنة ١٨٦ وقد عاد من الموسم وبايع للامين والمأمون والمؤتمن أولاده فدعاني وهو خال وقال اني دعوتك لامر يهمني وقد منعني النوم فانظر كيف تعمل ثم قص علي خبر الاموي وقال اخرج الساعة فقد أعددت لك الجائزة والنفقة والآلة ويضم اليك مائة غلام واسلك البرية وهذا كتابي الى أمير دمشق وهذه قيود فادخل فابدأ بالرجل فان سمع وأطاع فقيده وجئني به وان عصى فتوكل به أنت ومن معك وانفذ هذا الكتاب الى نائب الشام ليركب في جيشه ويقبضوا عليه وجئني به وقد أجلتك للذهاب ستا وللجيئة ستا وهذا محمل تجعله في شقة اذا قيدته وتقعد أنت في الشق الآخر ولا تكل حفظه

الى غيرك حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك فاذا دخلت داره فتفقدها وجميع
ما فيها وأهله وولده وحشمه وغلمانه وقدر النعمة والحال والمحل واحفظ ما يقوله الرجل حرفا
بحرف من ألفاظه من حين وقوع طرفك عليه الى أن تأتيني به واياك ان يشذ عنك شئ من
أمره انطلق قال منارة فودعته وخرجت وركبت الابل وسرت أطوى المنازل أسير الليل
والنهار ولا أنزل الا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس الناس قليلا الى ان وصلت دمشق في
أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة فكرهت الدخول ليلا فنمت بظاهر البلد الى أن
فتح الباب فدخلت على هيئتي حتى أتيت دار الرجل وعليه صف عظيم وحاشية كثيرة فلم
أستأذن ودخلت بغير اذن فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض غلماني فقالوا هذا منارة رسول
أمير المؤمنين الى صاحبكم فلما صرت في صحن الدار نزلت ودخلت مجلسا رأيت فيه قوما جلوسا
فظننت ان الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بي فقلت أفيكم فلان قالوا لا نحن أولاده وهو في الحمام
فقلت استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والاحوال والحاشية فوجدتها قد
ماجت باهلها موجا شديدا فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد ان طال واستربت به واشتد قلقي
وخوفي من ان يتوارى الى ان رأيت شيخا بزي الحمام يمشي في الصحن وحواليه جماعة كهول
واحداث وصبيان وهم أولاده وغلمانه فعلمت انه الرجل فجاء حتى جلس فسلم علي سلاما
خفيا وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته فاخبرته كما وجب وما قضى كلامه حتى
جاؤا باطباق فاكهة فقال تقدم يا منارة فكل معنا فقلت مالي الى ذلك من حاجة فلم يعاودني
وأقبل يأكل هو ومن عنده ثم غسل يديه ودعا بالطعام فجاؤا بمائدة عظيمة لم أر مثلها الا
للخليفة فقال تقدم يا منارة فساعدنا على الاكل لا يزيدني على ان يدعوني باسمي كما يدعوني
الخليفة فامتنعت عليه فما عاودني وأكل هو ومن عنده وكانوا تسعة من أولاده فتأملت أكله
في نفسه فوجدتها كل الملوك ووجدت جاشه رابضا وذلك الاضطراب الذي في داره قد سكن
ووجدتهم لا يرفعون من بين يديه شيأ قد وضع على المائدة الا نهبا وقد كان غلمانه أخذوا لما
نزلت الدار جمالي وجميع غلماني بالمنع من الدخول فما أطاقوا ممانعتهم وبقيت وحدي ليس
بين يدي الا خمسة أو ستة غلمان وقوف على رأسي فقلت في نفسي هذا جبار عنيد وان امتنع
على من الشخوص لم أطق اشخاصه بنفسي ولا بمن معي ولا أطيق حفظه الى ان يلحقني أمير
البلد فجزعت جزعا شديدا ورابني منه استخفافه بي في الاكل ولا يسألني عما جئت به ويأكل
مطمئنا وأنا مفكر في ذلك فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا ببخور فتبخر وقام الى الصلاة فصلى
الظهر وأكثر من الدعاء والابتهال فرأيت صلاته حسنة فلما انفتل من المحراب أقبل
علي وقال ما اقدمك يا منارة فقلت أمر لك من أمير المؤمنين وأخرجت الكتاب ودفعته اليه
فقرأه فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك انه يريد ان يوقع بي
فلما تكاملوا ابتدأ فحلف أيمانا غليظة فيها الطلاق والعتاق والحج وأمرهم ان ينصرفوا
ويدخلوا منازلهم ولا يجتمع منهم اثنان في مكان واحد ولا يظهروا الى أن يظهر لهم أمر
يعملون عليه وقال هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالتوجه اليه ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة

واحدة

واحدة فاستوصوا بهن وراني من الحرم خيرا ومالي حاجة من ان يصحبني غلام هات قيودك يا منارة فدعوت بها وكانت في سفط واحضرت حدادا فحد سا فيه فقيدته وأمرت غلماني بحمله في المحمل وركبت في الشق الآخر وسرت من وقتي ولم آلق أمير البلد ولا غيره فسرت بالرجل ليس معنا احد الى أن صرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدثني بانبساط حتى انتهينا الى بستان حسن في الغوطة فقال لي ترى هذا قلت نعم قال انه لي وقال ان فيه من غرائب الاشجار كيت وكيت ثم انتهى الى آخر فقال لي مثل ذلك ثم انتهى الى مزارع حسان وقرى سنية وقال هذه لي فاشتد غيظي منه فقلت له اعلم اني شديد التعجب منك قال ولم تعجب قلت أليس تعلم ان أمير المؤمنين قد أهمه أمرك حتى أرسل اليك من انتزعك من بين اهلك ومالك وولدك وأخرجك عن جميع مالك فريدا وحيدا مقيدا ما تدري الى ما يصير اليه أمرك ولا كيف يكون وأنت فارغ القلب من هذا تصف ضياعك وبساتينك هذا وقد رأيتك وقد جئت وأنت لا تعلم فيم جئت وأنت ساكن القلب قليل الفكر لقد كنت عندي شيخا فاضلا فقال لي مجيبا انا لله وانا اليه راجعون أخطأت فراستي فيك لظننتك رجلا كامل العقل وانك ما حللت من الخلفاء هذا المحل الا بعد ان عرفوك بذلك فاذا والله رأيت عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم والله المستعان أما قولك في أمير المؤمنين وازعاجه واخراجه اياي الى بابه على صورتي هذه فاني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصيتي ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا الا باذن الله ومشيئته ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه وبعد فاذا عرف أمري وعلم سلامتي وصلاح ناحيتي وأن الحسدة والاعداء رموني عنده بما ليس في وتقولوا علي الاباطيل الكاذبة لم يستحل دمي وتحلل من أذى وازعاجي وردني مكرما وأقامني ببابه معظما وان كان سبق في علم الله عز وجل انه يبدر الي منه بادرة سوء وقد حضر أجلي وكان سفك دمي على يده فلو اجتمعت الانس والجن والملائكة وأهل الارض وأهل السماء على صرف ذلك عني ما استطاعوه فلم اتعجل الغم واتسلف الفكر فيما قد فرغ الله منه واني حسن الظن بالله عز وجل الذي خلق ورزق وأحيا وأمات وأحسن وأجمل وان الصبر والرضا والتفويض والتسليم الى من يملك الدنيا والآخرة أولى وقد كنت أحسب انك تعرف هذا فاذ قد عرفت مبلغ فهمك فاني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى تفرق حضرة أمير المؤمنين بيننا ان شاء الله تعالى قال ثم أعرض عني فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح أو حاجة أو ما يجري مجراها حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر والنجب قد استقبلتني على فراسخ من الكوفة يتجسسون خبري فحين رأوني رجعوا عني بالخبر الى أمير المؤمنين فانتهينا الى الباب في آخر النهار فحططت ودخلت على الرشيد فقبلت الارض بين يديه ووقفت فقال هات ما عندك يا منارة واياك ان تغفل منه لفظة واحدة فسقت الحديث من أوله الى آخره حتى انتهيت الى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور والصلاة وما حدثت به نفسي من امتناعه والغضب يظهر في وجه الرشيد ويتزايد حتى انتهيت الى فراغ الاموي من الصلاة والتفاته ومسئلته عن سبب قدومي ودفعي الكتاب اليه ومبادرته الى احضار ولده وأهله وحلفه عليهم ان لا يتبعه أحد

منهم وصرفه اياهم ومد رجليه حتى قيدتم فما زال وجه الرشيد يسفر حتى انتهيت الى ما خاطبني
به عند توبيخي اياه لما ركبنا المحمل قال صدق والله ما هذا الا رجل محسود على النعمة مكذوب
عليه ولعمري لقد ازعجناه وآذيناه وروعنا أهله فبادر بنزع قيوده عنه وائتني به قال فخرجت
فنزعت قيوده وادخلته الى الرشيد فما هو الا ان رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد
فسأله عن حاله ثم قال بلغنا عنك فضل هيئة وأمور احببنا معها ان نراك ونسمع كلامك ونحسن
اليك فاذكر حاجتك فاجاب الاموي جوابا جميلا وشكر ودعا فقال مالي الا حاجة واحدة قال
مقضية ماهي قال يا أمير المؤمنين تردني الى بلدي وأهلي وولدي قال نحن نفعل ذلك ان شاء الله
تعالى ولكن سل ما تحتاج اليه في مصالح جاهك ومعاشك فان مثلك لا يخلو أن يحتاج الى شئ
من هذا فقال عمال أمير المؤمنين منصفون وقد استغنيت بعدله عن مسئلته فاموري منتظمة
وأحوالي مستقيمة وكذلك امور أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين فقال الرشيد
انصرف محفوظا الى بلدك واكتب الينا بامر ان عرض لك فودعه فلما ولى خارجا قال
الرشيد يا منارة احمله من وقتك وسر به راجعا الى أهله كما جئت به حتى اذا أوصلته الى محله
الذي أخذته منه فدعه فيه وانصرف ففعلت والله أعلم (وحكى في الكتاب المذكور)
قال حدثني أبو الربيع سليمان بن داود قال كان في جوار القاضي قديما رجل انتشرت عنه
حكاية وظهر في يده مال جليل بعد فقر طويل وكنت اسمع ان أبا عمر حماه من السلطان فسألته
عن الحكاية فاطرق طويلا ثم حدثني قال ورثت مالا جزيلا فاسرعت في اتلافه وأتلفته حتى
أفضيت الى بيع أبواب داري وسقوفها ولم يبق لي حيلة وبقيت مدة لا قوت لي الا من بيع
والدتي اما تغزله وتطعمني وتأكل منه فتمنيت الموت فرأيت ليلة في منامي كان قائلا يقول لي
غناك بمصر فاخرج اليها فبكرت الى دار أبي عمر القاضي وتوسلت اليه بالجوار وبالخدمة
وكان أبي قد خدمه أياما وسألته أن يزودني كتابا الى مصر لاتصرف فيها ففعل وخرجت فلما
حصلت بمصر أوصلت الكتب وسألت التصرف فسد الله علي باب الرزق حتى لم أظفر بتصرف
ولا لاح لي شغل ونفدت نفقتي فبقيت متفكرا في أن أسأل الناس فلم استبح المسئلة ولم يحملني
الجوع عليها وأنا ممتنع الى ان مضى من الليل صدر صالح فلقيني الطائف فقبض علي ووجدني
غريبا فانكر حالي فسألني فقلت رجل ضعيف فلم يصدقني وبطحني وضربني مقارع فصحت
وقلت أنا أصدقك فقال هات فقصصت عليه قصتي من أولها الى آخرها وحديث المنام فقال
ما رأيت أحمق منك والله لقد رأيت منذ كذا وكذا سنة في النوم كأن رجلا يقول لي ببغداد في
الشارع الفلاني في المحلة الفلانية قال فذكر شارعي ومحلتي وأصغيت فتمم الشرطي الحديث
فقال دار يقال لها دار فلان فذكر داري واسمي وفيها بستان وفيه سدرة تحتها مدفون ثلاثون
ألف دينار فامض وخذها فما فكرت في هذا الحديث ولا التفت اليه وأنت يا أحمق فارقت
وطنك وجئت الى مصر بسبب منام قال فقوي قلبي وأطلقني الطائف فبت في مسجد وخرجت
من الغد من مصر وقدمت بغداد فقلعت السدرة وأثرت مكانها فوجدت جرابا فيه ثلاثون
ألف دينار فاخذتها وأمسكت يدي ودبرت أمري وأنا أعيش من تلك الدنانير ومن فضل

ما انتفعته منها من ضيع وعقار الى الآن (وحكى القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي في كتابه
اخبار المذاكرة ونشوان المحاضرة) قال حدثني أبو محمد يحيى بن محمد بن فهد قال حدثني بعض
الكتاب قال سافرت أنا وجماعة من أصدقائي نريد مصر للتصرف فلما حصلنا بدمشق وكان معنا
عدة بغال عليها ثقل غلمان لنا ونحن على دوابنا اقبلنا نخترق الطرق لا ندري أين ننزل فاجتزنا
برجل شاب حسن الوجه جالس على باب دار شاهقة وبناء فسيح وغلمان بين يديه فقام الينا وقال
أظنكم سفرا وردتم الآن فقلنا نحن كذلك قال فتنزلون علينا والح علينا فاستحيينا من محله وحسن
ظاهره وهيئته فحططنا على بابه ودخلنا واقبل أولئك الغلمان يحملون ثقلنا ويدخلونه
الدار ولا يدخلون احدا من غلماننا يخدمنا حتى حملوه بأسره في أسرع وقت وجاؤنا بالطسوت
والاباريق فغسلنا وجوهنا وأجلسونا في مجلس حسن مفروش بانواع الفرش التي لم نر مثلها
واذا الدار في نهاية الحسن والفخر والكبر وفيها دور وبستان عظيم وصاحب يخدمنا بنفسه
وعرض علينا الحمام فقلنا نحن اليه محتاجون فادخلنا الى الحمام في الدار في غاية السرور ودخل
الينا غلامان أمردان وصبيان في نهاية الحسن فخدمونا بدلا من القيم واخرجنا من الحمام الى
غير ذلك المجلس فقدم الينا مائدة حسنة جليلة عليها من الحيوان وفاخر الطعام والالوان ونادر
الخبز وغريب البوادر من كل شيء واذا بغلامين أمردين في نهاية الحسن والزي قد دخلوا الينا
فغمزوا أرجلنا فلحقنا من ذلك مع الغربة وطول العهد بالجماع عنت فأمرناهم بالانصراف
وفينا من لم يستحل التعرض لهم وتعففنا عن ذلك لنزولنا على صاحبهم ثم انتهينا الى مجلس في
بستان حسن وأخرج الينا من آلات النبيذ كل ظريف وأحضر من الانبذة كل شيء طيب
حسن وشربنا أقداحا يسيرة ثم ضرب بيده على ستارة ممدودة واذا جوار خلفها فقال غنين
فغنت الجواري اللواتي كن خلفها أحسن غناء واطيبه فلما توسطنا الشرب قال ما هذا
الاحتشام لاضيافنا أعزهم الله اخرجن وهتك الستارة قال فخرج علينا جوار لم ير قط أحسن
ولا أملح ولا أظرف منهن ما بين عوادة وطنبورية وزامرة وصناجة ورقاصة ودفافة بفاخر الثياب
والحلي فغنيننا واحتطن بنا في المجلس فاشتدت محبتنا ولكن ضبطنا أنفسنا فلما كدنا أن
نسكر ومضى قطعة من الليل أقبل صاحب الدار علينا وقال يا سادة ان تمام الضيافة وحقها
الوفاء بشرطها وان يقوم المضيف بحق الضيف في جميع ما يحتاج اليه من طعام وشراب
وجماع وقد أنفذت اليكم نصف النهار الغلمان فأخبروني بعفافكم عنهم فقلت هم اصحاب نساء
فأخرجت هؤلاء فرأيت من انقباضكم عن ممازحتهن والخلوة بهن كانت الصورة واحدة
لما هذا فقلنا يا سيدي اجلالك عن تبذل ما في دارك وفينا من لم يستحل الحرام فقال هؤلاء
مماليكي وهن أحرار لوجه الله تعالى ان كان بد من ان يأخذ كل واحد منكم بيد واحدة يتمتع بها
ليلة فمن شاء زوجته بها ومن شاء غير ذلك فهو أبصر لا كون قد قضيت حق الضيافة فلما سمعنا
بهذا وقد انتشينا طربا أخذ كل واحد منا بيد واحدة فأجلسها الى جانبه واقبل يقبلها ويقرصها
ويمازحها فتزوجت أنا بواحدة منهن وغيري ممن رغب في ذلك وبعضنا لم يفعل وجلس معنا
بعد ذلك ساعة ثم نهض فاذا بخدم قد جاؤا فادخلوا كل واحد وصاحبته الى بيت في نهاية الحسن

والطيب مفروش بفاخر الفرش الوطيئة فبخرونا عليها ونمنا والجوارى الى جنوبنا وتركوا معنا شمعة فى البيت وما نحتاج اليه من آلة المبيت وأغلقوا علينا وانصرفوا فبتنا فى أرغد عيش ليلتنا فلما كان السحر بادر الخدم فقالوا ما رأيكم فى الحمام فقد أصلح فقمنا ودخلنا ودخل المردان معنا لخنا من أطلق نفسه معهم فيما كان امتنع منه بالامس وخرجنا فبخرنا بالند الفتيق وأعطينا الماورد والمسك والكافور وقدمت الينا المرآة المحلاة وأخبرنا غلماننا ان صورتهم فى ليلتهم كصورتنا وانهم أتوا بجوارى الخدمة الروميات فوطئوهن فاقبل بعضنا على بعض يعجب من قضيتنا وبعضنا يقول هذا فى النوم نراه ونحن فى الحديث اذ أقبل صاحب الدار فقمنا اليه وعظمناه فأكبر ذلك وأخذ يسألنا عن ليلتنا فوصفناها له وسألناه عن خدمة الجوارى لنا فاجبناه بحسنها فقال أيما أحب اليكم الركوب الى بعض البساتين للتفرج الى ان يدرك الطعام أو اللعب بالشطرنج والنرد أو النظر فى الدفاتر فقلنا أما الركوب فلا نؤثره ولكن الشطرنج والنرد والدفاتر فأحضر لنا ذلك وتشاغل كل منا بما اختاره ولم يكن الا ساعتان أو ثلاث من النهار حتى أحضر لنا مائدة كالمائدة الامسية فأكلنا وقمنا الى الفرش وجاء المردان فغمزونا وغمزهم منا من كان يدخل فى ذلك وزالت المراقبة فلما انتبهنا حملنا الى الحمام وخرجنا فبخرنا وجلسنا فى مجالسنا بالامس وجاء أولئك الجوارى ومعهن غيرهن ممن هو أحسن منهن وقصدت كل واحدة صاحبها بالامس بغير احتشام وشربنا الى نصف الليل وحملوا معنا الى الفراش وكانت هذه حالنا مدة الاسبوع فقلت لاصحابي ويحكم أرى الامر متصلا ومن المحال ان يقول لنا الرجل ارتحلوا عنى وقد استطبتم أنتم مواضعكم وانقطعتم عن سفركم فى هذا فقالوا ما ترى فقلت أرى ان نستأنس الرجل فننظر أى شئ هو فان كان ممن يقبل هدية أو براعملنا على تكرمته وارتحلنا عنه وان كان بخلاف ذلك كنا معتقدين له المكافأة فى وقت ثان وسألنا أن يحضر لنا من نكرى منه ورحلنا فتقرر رأينا على ذلك فلما جلسنا تلك الليلة على الشرب قلنا له قد طال مقامنا عندك وما أضاف أحد أحدا أحسن مما أضفتنا ونريد الرحيل الى مصر لما أردناه من طلب التصرف وأنا فلان بن فلان فعرفته نفسي والجماعة وقد حملتنا من أياديك ومننك ما لا يسعنا معه ان نجهلك ونحب ان تعرفنا بنفسك لنأتي بشكرك ونقضي حقك ونعمل على الرحيل فقال انا فلان بن فلان أحد أهل دمشق فلم نعرفه فقلنا ان رأيت تزيدنا فى الشرح فقال جعلت فداءكم ان لقيامى فى خبرا أظرف مما شاهدتموه فقلت ان رأيت ان تخبرنا فقال نعم أنا رجل كان أبى تاجرا عظيم النعمة والاموال وانتهت النعمة اليه وكان ممسكا مكثرا ونشأت له فكنت متخرقا مبذرا محبا للفساد والنساء والمغنيات والشراب فاتلفت مالا عظيما من مال أبى الا انه لم يؤثر فى ماله لعظمه ثم اعتل وأيس من نفسه فدعانى فقال يا بنى انى قد خلفت لك النعمة وقيمتها مائة ألف دينار بعد ان أتلفت على خمسين ألف دينار وان الانفاق لا آخر له اذا لم يكن بازائه داخل ولو أردت ان اتلف هذا المال عليك فى حياتى أو الآن حتى لا تصل الى شئ منه لفعلت ولكن هوذا أتركه عليك فاقضى حقى بحاجة تقضيها الى لا ضرر عليك فيها فقلت افعل فقال أنا اعلم انك ستتلف المال فى مدة يسيرة فعرفنى

اذا افتقرت ولم يبق معك شئ أتقتل نفسك ولا تعيش فى الدنيا فقلت لا قال فعرفنى من أين تعيش قال ففكرت ساعة فلم يقع لى الا أن قلت أصير [illegible] اقال فبكى ساعة ثم مسح عينيه وقال لست بصارف عنك هذه الصناعة فانها ما جرت على لسانك الا وقد دارت فى فكرك ولا دارت فى فكرك الا وأنت لا تنصرف عنها أبدا بعدى ولكن اخبرنى كيف يتم لك المعاش منها فقلت قد تدبرت بكثرة دعواتى القحبات والمغنيات ومعاشرتى لشراب النبيذ فاجمعهم على الرسم فيقيمون فى بيتى ويعملون ما يريدون وآخذ انا منهم الدراهم وأعيش بها فقال اذا يبلغ السلطان خبرك فى جمعة فيحلقون رأسك ولحيتك وينادى عليك ويفرق جمعك ويبطل معاشك ويقول أهل بلدك انظروا الى فلان كيف ينادى عليه وقد صار بعد موت أبيه قوادا ولكن اذا أردت هذه الصناعة فانا أعلمك وان كنت لا أحسنها فلا تستغنى فيها ولا تفتقر ولا يتطرق عليك السلطان بشئ فقلت افعل قال اذا انا مت فاعمل على انك قد أنفقت جميع مالك وافتقرت وتكون قوادا ولك ضياع وعقار واثاث ودور وجوار وآلة وقماش وخدم وجاه وتجارات واعمل على ما كان فى نفسك ان تعمله اذا افتقرت فاعمله وأنت مستظهر على زمانك بما معك وهبه عند اخوانك واعمل انك قد انفقته واجعل معيشتك ما تريد ان تجعله اذا افتقرت فانك تستفيد بذلك أمورا منها انك تبتدئ أمرك بهذا فلا ينكر عليك فى آخره ومنها انك تفعل ذلك بجاه وعقار وضياع وأحوال قوية فلا يطمع فيك سلطان وان طمع فيك سلطان بذلت وأعطيت من نوالك فتخلصت فقلت كيف أفعل قال تجلس اذا أنا مت ثلاثة أيام للعزاء الى ان تنقضى المصيبة فاذا انقضت نفذت وصيتى وتجملت بذلك عند الناس وقضيت حقى ثم تظهر انك قد تركت اللعب وانك تريد حفظ مالك مع ضرب من اللذة ثم تبتدئ فتشترى من الجوارى المغنيات والسرارى كل لون ومن الغلمان المردان والخدم السود والبيض ما تحتاج اليه وتشتهيه ودارك كما تحب فى السرور وتتوفر على سرور من تريد أن تعاشره ولا تداخل الا الامير والعاقل وادعهما مرة فى شهر أو شهرين وهادهما ايام الاعياد بالالطاف الحسنة والقهما فى كل أسبوع مرة واجتهد ان تعاشرهما على النبيذ فى دورهما والقهما بالسلام وقضاء الحاجة واتخذ فى كل يوم مائدة حسنة وادع القوم ومن يتفق معهم وليكن ذلك بعقل وترتيب فان ذلك أولا لا يظهر مدة فاذا ظهر صدق به أعداؤك وكذب به اخوانك وقالوا هذه على سبيل المجون والشهوة على طريق التخالع أو مسامحة الاخوان والا فاى لذة له فى ذلك وليس هو مجنونا ولا مخنثا ولا فقيرا ولا محتاجا الى هذا فيبقى الخلاف فيك مدة أخرى وقد اتصلت مع سلطانك ولعل العشرة بينكما قد وقعت فيستدعى مغنياتك ويسمعهن فى منزله فيصير لك بمنادمته رسم وجاهك باق بلا فاقة لهم فهم يحتاجون اليك وسيحافظ عليك الامير فتصير فى مراتب ندمائه وفى جملته وتصير قيادتك نفعا عليك بغير ضرر وتخرج عن حد القواد المحض الذين يؤذون وتكبس منازلهم قال فاعتقدت فى الحال ان الصواب ما قاله ومات فى علته فجلست ثلاثة أيام ثم انفذت وصيته وفرقتها كما أمرنى ثم بيضت الدور وهى هذه وزدت فيها ما اشتهيت واستزدت فى الآلات والفرش والابنية كما أردت وابتعت هذه الجوارى والغلمان والخدم من

بغداد ودبرت أمري على ما قاله في من غير مخالفة لشيء منه وأنا أفعل هذا منذ سنين كثيرة ما لحقني منه ضرر ولا خسران ولا فيه أكثر من [illegible] سقاط المروءة وقلة الاكتراث بالعيب وأنا أعيش أطيب عيش وأهنأه أمر معاشي عليهم ودخلي بهم أكثر من خرجي ونعمتي الموروثة باقية بأسرها ما بعت منها شيئاً بحبة فما فوقها وقد اشتريت من هذه الصناعة عقاراً جليلاً أضفته الى ما خلف علي وأمري يمشي كما ترون فقلنا يا هذا افترحت والله عنا وأريتنا طريقاً الى قضاء حقك وأخذنا نمازحه ونقول فضلك في هذه الصناعة غير مدفوع لانك قواد ابن قواد وما كان الشيخ ليدبر لك هذا الامر الا وهو بالقيادة أحذق منك فضحك وضحكنا وكان الفتى أديباً خفيف الروح وبتنا ليلتنا على تلك الحالة فلما كان من الغد جمعنا له من بيننا ثلثمائة دينار وحملناها اليه ورحلنا عنه (وحكى أحمد بن يحيى بن فضل العمري) في كتابه المسمى مسالك الابصار في ممالك الامصار في ترجمة صفي الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الموسيقي قال ذكر العم حسن الاربلي في تاريخه قال جلست مع صفي الدين عبد المؤمن بالمدرسة المستنصرية وجرى ذكر واقعة بغداد فاخبرني ان هلاكو طلب رؤساء البلد وعرفاءه وطلب منهم ان يقسموا دروب بغداد ومحالها وبيوت ذوي يسارها على امراء دولته فقسموها وجعلوا كل محلة أو محلتين أو سوقين باسم أمير كبير فوقع الدرب الذي كنت اسكنه في حصة أمير مقدم على عشرة آلاف فارس اسمه نانونوين وكان هلاكو قد رسم لبعض الامراء ان يقتل و يأسر وينهب مدة ثلاثة أيام ولبعضهم يومين ولبعضهم يوماً واحداً على حسب طبقاتهم فلما دخل الامراء الى بغداد كان أول درب جاء اليه الامير الدرب الذي أنا ساكنه وقد اجتمع فيه خلق كثير من ذوي اليسار واجتمع عندي نحو خمسين جارية من أرباب المغاني وذوات الحسن والجمال فوقف نانونوين على باب الدرب وهو متترس بالاخشاب والتراب وطرقوا الباب وقالوا افتحوا لنا وادخلوا في الطاعة ولكم الامان والا أحرقنا الباب وقتلناكم ومعه النجارون وخلافهم وأصحابه بالسلاح قال صفي الدين عبد المؤمن فقلت السمع والطاعة أنا أخرج اليه ففتحت الباب وخرجت اليه وحدي وعلي أثواب وسخة وأنا أنتظر الموت فقبلت الارض بين يديه فقال للترجمان قل له أنت كبير هذا الدرب فقلت نعم فقال ان أردتم السلامة من الموت فاحملوا لنا كذا وكذا وطلب شيئاً كثيراً فقبلت الارض مرة ثانية وقلت كل ما طلبه الامير يحضر وصار كل ما في هذا الدرب بحكمك ومن تريد من خواصك فانزل لاجمع لك كل ما طلبت فشاور أصحابه ونزل في نحو ثلاثين رجلاً من خواصه فأتيت به داري وفرشت له الفرش الخليفية الفاخرة والسرر المطرزة بالزركش واحضرت له في الحال أطعمة فاخرة وشواء وحلواء وجعلتها بين يديه فلما فرغ من الاكل عملت له مجلساً ملوكياً وأحضرت الاواني المذهبة من الزجاج الحلبي وأواني فضة فيها شراب مروق فلما دارت الاقداح وسكر قليلاً أحضرت عشر مغنيات كل واحدة تغني بملهاة غير ملهاة الاخرى فغنين كلهن فارتج المجلس وطرب وانبسطت نفسه فضم واحدة من المغنيات أعجبته فواقعها في المجلس ونحن نشاهده وأتم يومه في غاية الطيبة فلما كان وقت العصر وحضر أصحابه بالنهب والسبايا قدمت له ولاصحابه الذين كانوا معه تحفاً جليلة من أواني الذهب والفضة ومن النقد

ومن

ومن الاقمشة الفاخرة شيئا كثيرا سوى العليق ووهبت له الغواني التي كن بين يديه واعتذرت
من التقصير وقلت جاء الامير على غفلة لكن غدا ان شاء الله تعالى أعمل للامير دعوة أحسن
من هذه فركب وقبلت ركابه ورجعت فجمعت أهل الدرب من ذوي النعمة واليسار وقلت لهم
انظروا لانفسكم هذا الرجل غدا عندي وكذا بعد غد وكل يوم أزيد أضعاف اليوم المتقدم
فجمعوا الي من بينهم ما يساوي خمسين ألف دينار من أنواع الذهب والاقمشة الفاخرة والسلاح
فما طلعت الشمس الا وقد وافاني فرأى ما أذهله وجاء في هذا اليوم ومعه نساؤه فقدمت له
ولنسائه من الذخائر والذهب النقد ما قيمته عشرون ألف دينار وقدمت له في اليوم الثالث
لآلئ نفيسة وجواهر ثمينة وبغلة جليلة بآلات خليفية وقلت هذه من مراكب الخليفة
وقدمت لجميع من معه وقلت هذا الدرب صار بحكمك وان تصدقت على أهله بارواحهم
فيكون لك وجه أبيض عند الله وعند الناس فما بقي عندهم سوى أرواحهم فقال قد عرفت
ذلك من أول يوم ووهبتهم أرواحهم وما حدثتني نفسي بقتلهم ولا سلبهم لكن أنت تجهز معي الى
حضرة الامير فقد ذكرتك وقدمت له شيئا من المستظرفات التي قدمتها الي فأعجبته ورسم
بحضورك فخفت على نفسي وعلى أهل الدرب وقلت هذا يخرجني الى خارج بغداد ويقتلني
وينهب الدرب فظهر علي الخوف وقلت يا خوند هلاكو ملك كبير وأنا رجل حقير مغن أخشى
منه ومن هيبته فقال لا تخف ما يصيبك الا الخير فانه رجل يحب أهل الفضائل فقلت في ضمانك
أنه ما يصيبني مكروه قال نعم فقلت لاهل الدرب ما عندكم من النفائس فأتوني بكل ما تقدرون
عليه فأخذت معي من المغنيات الجليلة ومن النقد الكثير من الذهب والفضة وهيأت مآكل
كثيرة طيبة وشرابا كثيرا عتيقا فائقا وأوان فاخرة كلها من الفضة المنقوشة بالذهب وأخذت
معي ثلاث جوار مغنيات من أجل من كان عندي وأنفسهن للضرب ولبست بدلة من القماش
الخليفي وركبت بغلة جليلة كنت أركبها اذا رحت الى الخليفة فلما رآني نانونوين بهذه الحالة
قال لي أنت وزير قلت لا أنا مغني الخليفة ونديمه لكن لما خفت منك لبست القماش الوسخ ولما
صرت من رعيتك أظهرت نعمتي وأمنت وهذا الملك هلاكو ملك عظيم وهو أعظم من الخليفة
فما ينبغي أن أدخل عليه الا بالحشمة والوقار فأعجبه مني هذا وخرجت معه الى مخيم هلاكو
فدخل عليه وأدخلني معه وقال لهلاكو هذا الرجل الذي ذكرته لك وأشار الي فلما وقعت عين
هلاكو علي قبلت الارض وجلست على ركبتي كما هو من عادة التتار فقال نانونوين هذا كان
مغني الخليفة وقد فعل معي كذا وكذا وقد أتاك بهدية فقال قد قبلتها فقبلت الارض مرة ثانية
ودعوت له وقدمت له ولخواصه الهدايا التي كانت معي فكلما قدمت شيئا منها يفرقه ثم فعل
بالمأكول كذلك ثم قال لي أنت مغني الخليفة فقلت نعم فقال أي شئ أجود ما تعرف قلت
أحسن أن أغني غناء اذا سمعه الانسان ينام فقال غن لي الساعة حتى أنام فندمت وقلت ان
غنيت له ولم ينم قال هذا كذاب وربما قتلني ولا بد من الخلاص منها بحيلة فقلت يا خوند
الطرب باوتار العود لا يطيب الا بشرب الخمر ولا باس بأن يشرب الامير قدحين أو ثلاثة حتى يقع
الطرب في موقعه فقال انا مالي في الخمر رغبة لانه يشغلني عن مصالح ملكي ولقد أعجبني من

نبيكم فحربيه ثم شرب ثلاثة أقداح كبار فلما احمر وجهه أخذت عودا وغنيته وكان من مغنية اسمها صبا لم يكن في بغداد أحسن منها صورة ولا أطيب صوتا فاصلحت انغام العود وضربت ضربا جالبا للنوم مع زمر رخيم الصوت وغنيت فلم أتم النوبة حتى رأيته قد نعس فقطعت الغناء بغتة وفويت ضرب الاوتار فانتبه فقبلت الارض وقلت نام الملك فقال صدقت تمن على فقلت أتمنى على الملك أن يطلق لي على السمكية قال وأي شئ هي السمكية قلت بستان للخليفة فتبسم وقال لاصحابه هذا مسكين مغن قصير الهمة وقال للترجمان قل له لم لا تمنيت قلعة أو مدينة أي شئ هذا البستان فقبلت الارض وقلت يا ملك العالم هذا البستان يكفيني وأنا ما يجيء مني صاحب قلعة ولا صاحب مدينة فرسم لي بالبستان وبجميع ما كان لي من الراتب في أيام الخليفة وزادني علوفة تشتمل على خبز ولحم وعليق دواب تساوي دينارين وكتب بذلك فرمانا مكمل العلائم وخرجت من بين يديه وأخذ لي نانونوين أميرا بخمسين فارسا ومعهم علم أسود وكان علم هلاكو الخاص به برسم حماية داري فجلس الامير على باب الدرب ونصب العلم الاسود على أعلى باب الدرب فبقي الامر كذلك الى أن رحل هلاكو عن بغداد قال الاربلي فقلت له كم نابك من المغارم في الثانية قال أكثر من ستين ألف دينار وذهب أكثرها عمن كان انزوى الى دربي من ذوي اليسار والباقي من نعم موفرة كانت عندي من صدقات الخليفة فسألته عن المرتب والبستان فقال البستان أخذه مني أولاد الخليفة وقالوا هذا ارث من أبينا والعلوفة قطعها عني الصاحب شمس الدين الجويني وعوضني عنها وعن البستان في السنة مائة ألف درهم (وقال) كان بمدينة السلام مغن يعرف بالغيور وكان عنده من الجواري عدد كثير ذوات حسن وكان خبره فاشيا يقصده المتصون وغيره فبلغ رجلا من الكتاب المشهورين خبره فتشوقت نفسه الى قصده ثم تجنبته لما شهر به فحمل نفسه على ان جعل بينه وبين الرجل حالا بان دعاه وبره ووصله وكان قصد الناس منزله آ ثر عندهم من دعاء من يدعونه من جواريه لما يجتمع لهم فيه قال الكاتب فكان يسألني المصير اليه واقشعر لشناعة لقبه الى ان لقيني بالقرب من منزله فحلف على ان لا افارقه فكان ذلك صادف مني موافقة فمضيت معه فرأيت أحسن منزل وآلة فلما استقر بنا الجلوس قال لغلماني اذا كان في غد بكروا فجيئوا بالدواب فاستوحشت وقلت بلى يقيم بعضهم عندي ويعودوا الباقون ليلا للانصراف الى منزلي فأبى وحلف فاتبعت ما أراد فاحضر أحسن طعام وألطفه وأكلنا وأتى بأنواع الاشربة والفواكه والرياحين وأخذنا في أمرنا وخرجت وجوه كالشموس وكنت عند دخولي الى الدار قد رأيت على بعض الابواب طبلا معلقا فظننته لبعض الجواري فلم أسأل عنه فلما صرنا على حالنا وأخذ النبيذ منا احضر عمودا فجعله بين يديه فاوحشني جدا وقلت رجل غيور كما لقب وجوار حسان ونبيذ شديد ولست آمن ان اعبث بهن فيضربني بالعمود قال اخبرك يا اخي اني رجل غيور كما قد بلغك ويحضر منزلي قوم معهم سوء أدب فما هو الا أن تغني الجارية حتى أرى الواحد منهم قد لاحظها وضحك في وجهها وضحكت في وجهه فاقول أقوم بهذا العمود فانما هي ضربة له وضربة لها فاقتلهما واستريح الا اني على ماترى رجل معي تان شديد فاقول

شرب الرجل فسر وضحك ولعله بعد يعرفها وتعرفه فضحكت اليه وضحكت اليها قال فلما ذكر هذا الحديث طابت نفسي وأصغيت الى حديثه فقلت ثم ماذا قال ثم ان الامر يزيد حتى أراه قد دنا فسارها وسارته فتقوم على القيامة وأقول ضحكت اليها وضحكت اليه لأمر فقلما وضع السر ثم أهم بالعمود وأتأنى الذى فى يقول لعله طالبها بصوت تغنيه فامسك فلا يطول الامر بينهما حتى أراه قد أدخل يده فى ثوبها فقرصها وعبث بثديها فقد دخلني الغيرة وأقول مابعد ذا شئ وأهم بضربهما بالعمود لكن على ماترى عندى تأن فاقول بعد لم يبلغ الامر بهما الى القتل وهى أوائل وسيكون لها أواخر فان أتى بما يوجب القتل قتلتهما فاسترحت فامسك فيطول الامر حتى أرى الواحدة قد قامت وقام الرجل فى أثرها فيدخلان ذلك البيت وبابه وثيق جدا فاسعى خلفهما بهذا العمود لاقتلهما البتة فيسبقاني فيغلقان الباب وابقى أنا خارجه وأنا غيور كما قد علمت فاقول متى علمت حركتهما مت أو قتلت نفسي فلا يكون والله يا أخي لى اعتصام الابذلك الطبل المعلق فاتناوله واضعه فى عنقي فلا ازال أضرب ابدا حتى يخرجا قال فما قمت والله وأنا أرى أوفى منه قولا وفعلا (قال صلاح الدين الصفدى فى الجزء الخامس والثلاثين من التذكرة) ومن خطه نقلت حجت جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبى محمد بن حمدان أخت أبى ثعلب سنة ست وثمانين وثلثمائة فسقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج واستصحبت البقول المزروعة فى المراكب وعلى الجمال وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ولم تستصبح عندها وفيها الا بشموع العنبر واعتقت ثلثمائة عبد ومائتي جارية واغنت الفقراء والمجاورين وحج عبد الله بن جعفر ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات فاعتق ثلاثين مملوكا وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفا وقال اعتقهم لله لعل الله ان يعتقني من النار وكان حكيم بن حزام رضى الله عنه يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت ويقول لا اله الا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الاله أحبه ملخشاه (عمر بن زر الهمدانى) لما قضى مناسكه أسند ظهره الى الكعبة الشريفة ثم قال مودعا للبيت مازلنا نحل لك عروة ونشد أخرى ونصعد أكمة ونهبط واديا ونخفض أرضا ونرفع أخرى حتى أتيناك غير محجوبين فليت شعرى بم يكون منصرفنا أبذنب مغفور فاعظم بها من نعمة أم بعمل مردود فاعظم بها من مصيبة فيامن اليه خرجنا واليه قصدنا ويحرمه انخنا ارحم أملاق الوفد لغنائك فقد أتيناك بعيسنا معراة جلودها ذابلة أسنمتها نقبة أخفافها وان أعظم الرزية ان ترجع وقد اكتنفتنا الخيبة اللهم وان للزائرين حقا فاجعل حقنا غفران ذنوبنا فانك جواد ماجد لا ينقصك نائل ولا يبخلك سائل (ونقلت من خط الشيخ صلاح الدين الصفدى) من الجزء الثامن والثلاثين من تذكرته ما صورته نقلت من خط شيخنا الشيخ الامام الحافظ علم الدين البرزالى رحمه الله تعالى ما صورته قرأت فى بعض الكتب الواردة من القاهرة المحروسة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادى الآخرة فى سنة اثنين وسبعمائة ظهرت دابة عجيبة من بحر النيل الى أرض المنوفية صفة لونها لون الجاموس بلا

شعر وآذانها كآذان الجمال وعيناها وفرجها مثل الناقة يغطى فرجها ذنب طوله شبر ونصف طرفه كذنب السمكة ورقبتها مثل غلظ التبن المحشو تبنا وفمها وشفاهها مثل الكربال ولها أربعة أنياب اثنان من فوق واثنان من أسفل طول الواحد دون الشبر وعرض اصبعين وفى فمها ثمانية وأربعون ضرسا وسنا مثل بيادق الشطرنج وطول يديها من باطنها الى الارض شبران ونصف ومن ركبتها الى حافرها مثل بطن الثعبان أصفر مجعد ودور حافرها مثل السكرجة بأربعة أظافير مثل أظافير الجمل وعرض ظاهرها مقدار ذراعين ونصف وطولها من فمها الى ذنبها خمسة عشر قدما وفى بطنها ثلاث كروش ولحمها أحمر وزفرته مثل السمك وطعمه كطعم الجمل وغلظ جلدها أربعة أصابع ما تعمل فيه السيوف وحمل جلدها على خمسة جمال فى مقدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل واحضروه الى القلعة المعمورة بحضرة السلطان وحشوه تبنا وأقاموه بين يديه (ونقلت منه أيضا) كتب الى زين الدين الرحبي انه وجد بالقاهرة بالقرب من المشهد كلبة ميتة وابها جروان يرضعان مقدار عشرين يوما بعد موتها والمعبان حولها واللبن يخرج من ابزازها من الجانب الاعلى وأما الجانب الاسفل فانه يبس وكان الناس يمرون بها ويتعجبون فسبحان من لا يعجزه شئ وهو على كل شئ قدير (وذكر الشيخ فى حوادث سنة ٧٣٦) قال قال شيخنا علم الدين رحمه الله تعالى نقلت من خط الصدر بدر الدين الفرازى قال فى السابع من ذى الحجة سنة (٧٣١) أخبرنى شخص ان كلبة ولدت بالقاهرة ثلاثين جروا وانها أحضرت بين يدى السلطان فلما رآها أعجب من أمرها وسأل المنجمين عن ذلك فاعترفوا انهم ليس لهم علم بذلك (يحكى) أن المهدى خرج يتصيد فلقيه الحسين بن مطير الاسدى فانشده

أضحت يمينك من جود مصورة * لا بل يمينك منها صورة الجود
من حسن وجهك تضحى الارض مشرقة * ومن بنانك يجرى الماء فى العود

فقال المهدى كذبت يافاسق وهل تركت فى شعرك موضعا لاحد مع قولك فى معن بن زائدة

ألما بمعن ثم قولا لقبره * سقتك الغوادى مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن كنت أول حفرة * من الارض خطت للمكارم مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده * وقد كان منه البر والبحر مترعا
ولكن حويت الجود والجود ميت * ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
وما كان الا الجود صورة وجهه * فعاش ربيعا ثم ولى فودعا
فلما مضى معن مضى الجود والندى * وأصبح عرنين المكارم اجدعا

فاطرق الحسين وقال يا أمير المؤمنين وهل معن الا حسنة من حسناتك فرضى عنه وأمر له بألفى دينار (قال سعيد بن مسلم) لما ولى المنصور معن بن زائدة اذربيجان قصده قوم من أهل الكوفة فلما صاروا ببابه استأذنوا عليه فدخل الآذن فقال أصلح الله الامير وفد من أهل العراق قال من أى أهل العراق قال من الكوفة قال ائذن لهم فدخلوا عليه فنظر اليهم معن فى هيئة زرية فوثب على اريكته وأنشد يقول

اذا نوبة نابت صديقك فاغتنم * ترقبها فالدهر بالناس قلب
فاحسن ثوبيك الذى هو لابس * وافره مهريك الذى هو راكب
وبادر بمعروف اذا كنت قادرا * زوال اقتدار فهو عنك بعقب

قال فوثب اليه رجل من القوم فقال أصلح الله الامير الا أنشدك أحسن من هذا قال لمن قال لابن عمك هرمة قال هات فأنشد يقول

وللنفس تارات تحل بها العرى * وتسخو عن المال النفوس الشحائح
اذا المرء لم ينفعك حيا فنفعه * أقل اذا ضمت عليك الصفائح
لأية حال يمنع المرء ماله * غدا فغدا والموت غاد ورائح

فقال معن أحسنت والله وان كان الشعر لغيرك يا غلام أعطهم أربعة آلاف يستعينون بها على أمورهم الى ان يتهيأ لنا فيهم ما نريد فقال الغلام أجعلها دنانير أم دراهم فقال معن والله لا تكون همتك أرفع من همتي (مدح) مطيع بن اياس معن بن زائدة فقال له معن ان شئت مدحتك وان شئت أثبتك فاستحى من اختيار الثواب وكره اختيار المدح فقال

ثناء من أمير خير كسب * لصاحب مغنم وأخي ثراء
ولكن الزمان برى عظامي * وما مثل الدراهم من دواء

فأمر له بالف دينار (ولما) قدم معن بن زائدة أتاه الناس فأتاه ابن أبي جفنة فاذا المجلس غاص باهله فدق بعصاه الباب ثم قال

وما أحجم الاعداء عنك تقية * عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا
له راحتان الجود والحتف فيهما * أبى الله الا أن يضر وينفعا

فقال معن احتكم يا أبا السمط فقال عشرة آلاف فقال معن ونزيدك ألفا (أتى) اعرابي الى معن بن زائدة ومعه قطع فيه صبي حين ولد فاستأذن عليه فلما دخل جعل الصبي بين يديه وقال

سميت معنا بمعن ثم قلت له * هذا سمى فتى فى الناس محمود
أنت الجواد ومنك الجود نعرفه * ومثل جودك فينا غير معهود
أمست يمينك من جود مصورة * لا بل يمينك منها صورة الجود

قال كم الابيات قال ثلاثة قال أعطوه ثلثمائة دينار ولو كنت زدتنا لزدناك قال حسبك ما سمعت وحسبي ما أخذت (أخبرنا) الشيخ الجليل العدل الاصيل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن غانم بن وافد المهدى قال أخبرنا المشايخ الثلاثة الامام فخر الدين أبو الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد البخارى وأبو العباس أحمد بن شيبان بن ثعلب الشيباني وأم حبيبة زينب بنت مكى بن على بن كامل الحرانى قالوا أخبرنا أبو حفص عمر بن عمر بن محمد بن أبي نصر الحميدى قال أنشدنى أبو غالب محمد بن سهل النحوى الواسطى المعروف بابن شيران بواسط قال أنشدنى الامير أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين قال أنشدنى على بن زريق الكاتب البغدادى لنفسه هذه القصيدة الى آخرها وقد أنشدنيها جماعة بالمغرب وقال لى أبو محمد على بن أحمد بن سعيد وغيره يقال من تختم بالعقيق وقرأ لابي عمرو وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل

الظرف وهي

لا تعذليه فان العذل يوجعه * قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حدا أضربه * من حيث قدرت ان اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا * من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعا بالبين يحمله * فضلعت بخطوب البين اضلعه
يكفيه من لوعة التفنيد ان له * من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر الا وأزعجه * رأى الى سفر بالرغم يتبعه
كانما هو في حل ومرتحل * موكل بفضاء الارض يذرعه
اذا الزماع أراه بالرحيل غنى * ولو الى السد اضحى وهو يزمعه
تأبى المطامع الا ان تجشمه * للرزق كدا وكم ممن يودعه
وما مجاهدة الانسان واصلة * رزقا ولا دعة الانسان تقطعه
والله قسم بين الناس رزقهم * لم يخلق الله مخلوقا يضيعه
لكنهم ملئوا حرصا فلست ترى * مسترزقا وسوى الغايات تقنعه
والحرص في المرء والارزاق قد قسمت * بغي الا ان بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه * حقا ويطمعه من حيث يمنعه
استودع الله في بغداد لي قمرا * بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني * طيب الحياة واني لا أودعه
كم قد تشفع بي ان لا أفارقه * وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى * وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق * عني برقته لكن أرقعه
اني أوسع عذري في جنايته * بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته * كذا من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا * شكر عليه فان الله ينزعه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته * كاسا تجرع منها ما أجرعه
كم قائل لي ذنب البين قلت له * الذنب والله ذنبي لست أدفعه
الا أقمت مكان الرشد أجمعه * لو انني يوم بان الرشد اتبعه
اني لاقطع أيامي وانفدها * بحسرة منه في قلبي تقطعه
بمن اذا هجع النوام بت به * بلوعة منه ليلي لست اهجعه
لا يطمئن بجنبي مضجع وكذا * لا يطمئن له مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعني * به ولا أن بي الايام تفجعه
حتى جرى البين فيما بيننا بيد * عسراء تمنعني حظي وتمنعه
وكنت من ريب دهري جازعا فرقا * فلم أوق الذي قد كنت اجزعه

بالله يا منزل الانس الذى درست * آثاره وعفت مذ بنت اربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا * أم الليالى التى امضت ترجعه
فى ذمة الله من أصبحت منزله * وجاد غيث على مغناك يمرعه
من عنده لى عهد لا يضيع كما * عندى له عهود لا أضيعه
ومن يصدع قلبى ذكره واذا * جرى على قلبه ذكرى يصدعه
لاصبرن لدهر لا يمتعنى * به ولانى فى حال يمتعه
علما بان اصطبارى معقب فرجا * فاضيق الامر ان فكرت أوسعه
عسى الليالى التى أضنت بفرقتنا * جسمى ستجمعنى يوما وتجمعه
وان تنل أحدا منا منيته * لما الذى بقضاء الله يصنعه

(يحكى) أنه وقع فى ليلة الجمعة خامس عشر المحرم سنة (٨٣١) ان حضرت صلاة العشاء بالجامع النورى بحماة فتقدم امامه للصلاة بعد الاقامة وكبر تكبيرة الافتتاح وقرأ دعاء الافتتاح والفاتحة ثم قرأ الم السجدة ولما أتى على آية السجدة سجد ثم أتمها الى آخرها وركع وسجد السجدتين ثم قام الى الركعة الثانية وقرأ الفاتحة ثم قرأ سورة النحل وبنى اسرائيل والكهف ومريم وجانبا من طه فارتج عليه فركع ثم اعتدل واقفا ثم سجد السجدتين وتشهد وسلم على رأس الركعتين (حكى) الدينورى فى المجالسة فى ترجمة أبى عبد الله سعيد بن يزيد البناجى قال سمعت أبى يقول قال خالى أحمد بن محمد بن يوسف سمعت محمد بن يوسف يقول كان أبو عبد الله البناجى مجاب الدعوة وله آيات وكرامات بينما هو فى بعض أسفاره اماحاجا واما غازيا على ناقة وكان فى الطريق رجل عائن قلما نظر الى شئ الا أتلفه واسقطه وكانت ناقة أبى عبد الله ناقة فارهة فقيل له احفظها من العائن فقال أبو عبد الله ليس له الى ناقتى سبيل فأخبر العائن بقوله فتحين غيبة أبى عبد الله فجاء الى رحله وعان ناقته فاضطربت وسقطت تضطرب فأتى أبو عبد الله فقيل قد عان ناقتك وهى كما تراها تضطرب قال دلونى على العائن فدل عليه فقال بسم الله حبس حابس وحجر يابس وشهاب قابس رددت عين العائن عليه وعلى أحب الناس اليه فى كليته رشيق وفى ماله يليق فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير فخرجت حدقة العائن وقامت الناقة لا بأس بها وله فى أسماء الولائم

ولمة اعراس وخرس ولادة * عقيقة مولود نقيعة قادم
وضيمة حزن والبناء وكيرة * عذيرة ختن مأدبات المكارم

(وله أيضا فى أسماء أيام العجوز على الترتيب)

بصن وصنبر وو بر معلل * بمطفى جمر آمر نعم مؤتمر
تولت عجوز ثم أعقب بعدها * شباب ربيع زهره يانع نضر

(ولغيره فى اسماء خيل الحلبة)

سبق المجلى والمصلى والمسلى بعد تاليه ترى المرتاحا
وبعاطف وبفسكل وحظيه * حلب اللطيم على السكميت صباحا

(لابى العلاء المعرى)

سألن فقلت مقصدنا سعيد * فكان اسم الامير لهن فالا
اذا ما الغيم لم يمطر بلادا * فان له على يدك اتكالا
ولو ان الرياح تهب غربا * وقلت لها هلا هبت شمالا
واقسم لو غضبت على ثبير * لازمع عن محلته ارتحالا

(نبذة لغوية يفتقر كل متأدب اليها) البلج هو ان ينقطع الحاجبان فلا يكون بينهما تضام للشعر وكانت العرب تمدح البلج ويقال رجل أبلج وامرأة بلجاء (ثم العين) فجملة العين المقلة وهي الشحمة التي تجمع البياض والحدقة والناظر وهو موضع البصر وفيه الانسان والانسان ليس بخلق له جسم والجسم ما وجدت مسه والعين كالمرآة اذا استقبلتها بشئ رأيت شخصه فيها وفيها الناظران وهما عرقان على حرفي الالف يسيلان من الموقين الى الوجه وفيها الاجفان وهي غطاء المقلة من أعلى وأسفل وفيها الاشفار وهي حروف الاجفان التي تلتقي عند الغمض الواحد شفر والشفر الذي ينبت فيه الهدب الواحد هدبة فاذا طالت الاهداب قيل رجل أهدب وامرأة هدباء ورجل أوطف وامرأة وطفاء وكذلك أذن هدباء اذا كانت كثيرة الشعر ووطفاء والكل دليل على الطول والمحجر ما خرج من النقاب من الرجل والمرأة من الجفن الاسفل وفي العين الحماليق والواحد حملاق والحماليق النواحي وفيها اللحاظ وهي مؤخرها الذي يلي الصدغ والموق طرفها الذي يلي الانف وهو مخرج الدمع وفي العين الحوص وهو ضيق في مؤخرها يقال رجل احوص وامرأة حوصاء وفيها النجل وهو سعة العين وعظم المقلة وكثرة البياض وفيها الخفش وهو ضعف في النظر وفيها الكحل وهو سواد العين بين الحمرة والسواد والدعج السواد في العين بين الحمرة والسواد والشهل أن يشوب سوادها زرقة يقال رجل أشهل وامرأة شهلاء ويقال نظر الى شزرا وذلك اذا نظر عن يمينه أو عن شماله ولم يستقبله بنظره وفي النظر الاغضاء وهو ان يطبق جفنه على حدقته فيقال رأيته مغضيا (ثم الفم) وفي الفم الثنايا والرباعيات والضواحك والارحاء والنواجذ فالضواحك أربعة اضراس تلي الانياب الى جنب كل ناب من أسفل الفم وأعلاه ضاحك وأما الارحاء فهي ثمانية أضراس من أسفل الفم وأعلاه وفي الاسنان الظلم ساكن وهو ماء الاسنان وفي الاسنان الشنب وهو برد وعذوبة في المذاقة والفلج تباعد ما بين الاسنان (ثم اللثة) وهو اللحم ينبت فيه الاسنان وفي اللثة اللحمي وهو سمرة تضرب الى سواد وكذلك الحوة واللهاة اللحمة الحمراء المعلقة على الحنك (نقلت من الجزء الثالث والعشرين من التذكرة للصفدي) ان شهاب الدين أحمد الحموي النقاش ورد الى القاهرة سنة ٧٣٢ وكتب الختمة الشريفة على خوصة من أولها الى آخرها مفصلة الاجزاء والسور أخبرني بذلك الموالي السادة الموقعون بالباب الشريف وقدمها لمولانا السلطان الملك الصالح وسألته عن مولده فقال في سنة ٦٩٩ وله نظم رائق (عن علي بن أبي طالب) رضي الله عنه عشر تورث النسيان كثرة الهم والحجامة في النقرة والبول في الماء الراكد وأكل التفاح الحامض وأكل الكسفرة وأكل سؤر الفأرة وقراءة الواح القبور والنظر الى المصلوب والمشي بين القطارين والقاء القملة حية والله أعلم هذا آخر التذييل

﴿وهذا تذييل آخر﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أما بعد حمد الله على نعمائه والصلاة والسلام على خير أنبيائه فيقول العبد الفقير الى عفو مولاه الكريم ابراهيم بن الحاج على الاحدب قد رأيت أن اذيل الثمرات بما جنيته من الثمار الدانية والفوائد العالية وبالله التوفيق (فمن ذلك ما يحكى) ان الصاحب بدر الدين وزير اليمن كان له أخ بديع الجمال وكان شديد الحرص عليه فأتى له بشيخ ذى دين وعفة وهيبة وعقل ليعلمه فاسكنه فى منزل قريب منه فاقام على ذلك مدة ثم ان الشيخ امتحن بمحبة ذلك الشاب وقوى غرامه فيه فشكا بوماله حاله فقال له ما حيلتى وانا لا أستطيع مفارقة أخى لا ليلا ولا نهارا أما الليل فان سريرى بجانب سريره وأما النهار فكما ترى تلازمنا فقال الشيخ ان منزلى ملاصق لداركم فيمكن اذا غمضت عين أخيك ان تقوم لتستعمل ماء فتأتى الى الحائط وأنا أتناولك من وراء الجدار فتجلس عندى لحظة لطيفة من غير ان يشعر أخوك بشئ فقال السمع والطاعة وتواعدا على ليلة فهيأ له الشيخ من التحف والظرف ما يليق بمقامه فلما نام الصاحب واستغرق فى النوم وأمن انتباهه قام الشاب وتمشى خطوات وفتح بابا يتوصل منه الى الحائط فوجد شيخه واقفا ينتظره فتناوله وصار عنده فى المنزل وكانت ليلة البدر وتنادما ودارت بينهما كؤس الشراب ممزوجة ببرد الرضاب وانتشى الشيخ وأخذ فى الغناء وقد رمى القمر جرمه عليهما وانتبه الصاحب فلم يجد أخاه فقام فزعا مرعوبا ووجد الباب الذى استطرق منه أخوه مفتوحا فقال من ههنا جاء الشر فدخل منه وصعد الحائط فوجد نورا ساطعا من البيت ونظر فرآهما على هذه الحالة والكاس بيد الشيخ وهو ينشد بأحسن صوت

سقانى خمرة من ريق فيه * وحيا بالعذار وما يليه

وبات معانقى خدا بخد * غزال فى الانام بلا شبيه

وبات البدر مطلعا علينا * سلوه لا ينم على أخيه

فكان من لطافة الصاحب ان قال والله لا أنم عليكما وتركهما وانصرف اهـ (ومن بديع ذلك ما حكاه ابن خلكان فى تاريخه) فى ترجمة شرف الدين المعروف بابن المستوفى قال قد وصل الى اربل بعض الشعراء وهو الشريف عبد الرحمن بن أبى الحسين بن عيسى بن على بن يعرب فى سنة ثمان وعشرين وستمائة وشرف الدين يومئذ وزير فسير له مثلوما على يد شخص كان فى خدمته يقال له الكمال بن الشعار الموصلى صاحب التاريخ والمثلوم عبارة عن دينار يقطع منه قطعة صغيرة وقد جرت عادتهم فى العراق وتلك البلاد ان يفعلوا مثل هذا لانهم يتعاملون بالقطع الصغار ويسمونها القراضة ويتعاملون أيضا بالمثلوم وهذا كثير الوجود بايديهم فجاء الكمال الى ذلك الشاعر وقال له الصاحب يقول لك أنفق الساعة هذا حتى يجهز لك شيأ فتوهم الشاعر ان الكمال يكون قد قرض القطعة من الدينار وان شرف الدين ما سيره الا كاملا وقصد استعلام الحال من جهة شرف الدين فكتب اليه

يا أيها المولى الوزير ومن به * فى الجود حقا تضرب الامثال

أرسلت بدرا التم عند كماله * حسنا فوافى العبد وهو هلال

ماغاله النقصان الا انه * بلغ الكمال كذلك الآجال

فاعجب شرف الدين بهذا المعنى وحسن الاتفاق وأجاز الشاعر وأحسن اليه اه (ومنه ماحكى) ان ابراهيم بن سهل الاشبيلى كان يهوديا فاسلم وحسن اسلامه حتى انه مدح النبى صلى الله عليه وسلم قبل ان يسلم وكان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم وكان يحب يهوديا اسمه موسى وأكثر شعره فيه فلما أسلم أحب شابا اسمه محمد وترك هوى اليهودى فقيل له فى ذلك فانشد

تركت هوى موسى بحب محمد * هديت ولولا الله ما كنت اهتدى
وما عن قلى تركى هواه وانما * شريعة موسى عطلت بمحمد

وكان ابراهيم هذا شاعرا مجيدا اتفق له فى صباه ان الهيثم نظم قصيدة مدح بها المتوكل على الله ابن يوسف بن هود ملك الاندلس وقد كانت اعلامه سودا لانه كان بايع الخليفة ببغداد فارسل اليه بالتولية والالوية والنيابة ولا يعلم أحد من ملوك الاندلس قبله ولا بعده بايع بنى العباس قط فوقف ابراهيم بن سهل والهيثم ينشد قصيدته لبعض أصحابه فقال ابراهيم للهيثم زد بين البيت الفلانى والبيت الفلانى

اعلامه السوداعلام بسودده * كأنهن بخد الملك خيلان

فقال الهيثم أهذا البيت شئ ترويه أم نظمته فقال بل نظمته الساعة فقال الهيثم ان عاش هذا الغلام فسيكون اشعر أهل الاندلس (ومنه ما اتفق) سنة ثمان وستمائة ان الملك المعظم عيسى سار الى أخيه الملك الاشرف فاستعطفه على أخيه الكامل محمد وكان فى نفسه موجدة عليه فازالها وسارا جميعا نحو الديار المصرية لمعاونة الكامل على الافرنج الذين قد أخذوا دمياط واستحكم أمرهم هناك من سنة أربعة عشر بعد حروب كثيرة يطول شرحها حتى عرض عليهم فى بعضها ان يرد عليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه فى الساحل و يتركوا دمياط فامتنعوا من ذلك فقدر الله سبحانه وتعالى ان شاعت عليهم مراكب فيها ميرة لهم فاخذتها مراكب المسلمين وأرسلت من أراضى دمياط المياه من كل ناحية فلم يمكن الافرنج ان ينصرفوا بانفسهم وحصرهم المسلمون من الجهة الاخرى حتى اضطروهم الى أضيق الاماكن فعند ذلك أنابوا الى المصالحة من غير مفاوضة فجاء مقدمهم الى الملك الكامل وعنده اخواه المذكوران وكانا قائمين بين يديه وكان يوما مشهودا وأمرا محمودا فوقع الصلح على ما أراد الكامل محمد وملوك الافرنج والعساكر كلها واقفة بحضرته ومد سماطا عظيما اجتمع عليه المؤمن والكافر والبر والفاجر فقام المحلى الشاعر وأنشد

هنيئا فان السعد راح مخلدا * وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحا به المنى * مبينا وانعاما وعزا مؤيدا
تهلل وجه الارض بعد قطوبه * وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغا البحر الخضم باهله الطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه * صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم ينج الا كل شلو مجدل * ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الارض رافعا * عقيرته فى الخافقين منشدا

أعباد عيسى ان عيسى وقومه * وموسى جميعا يخدمون محمدا

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة بلغني انه وقت الانشاد أشار عند قوله عيسى الى المعظم وعند قوله موسى الى الاشرف وعند قوله محمد الى الكامل وهذا من أحسن الاتفاق انتهى (ومنه ماحكى عن جمال الدين) كاتب سر الملك المعظم عيسى انه كان بينه وبين السلطان مداعبة ومنادمة فاتفق انه حضر في بعض الليالي عنده فلما رجع الى منزله قالت له زوجته أين انعام السلطان فقال ماأنعم علي الليلة بشئ فقالت أنا أعوض عنه وقامت اليه هي وجواريها في الحال وتناولته بالخفاف الثقال الى ان ألانت أعطافه وأدارت في حافة الصفع سلافه فكتب للمعظم رقعة في ذلك منها

وتحالفت بيض الاكف كأنها الـ * ـمتصفيق عند مجالس الاعراس

وتتابعت سود الخفاف كأنها * وقع المطارق من يدي نحاس

وقال أجب عنها فأجابه بما في آخره

فاصبر على أخفافهن ولا تكن * متخلقا الا بخلق الناس

واعلم ان اختلفت عليك بانه * مافي وقوفك ساعة من باس

وشهنه أبو جعفر الاندلسي فقال

ومورد الوجنات دب عذاره * فكأنه خط على قرطاس

لما رأيت عذاره مستعجلا * قد رام يخفي الورد منه بآس

ناديته قف كي أودع ورده * مافي وقوفك ساعة من باس

(ومن البديع مايحكى) ان الشيخ ابن كثير صاحب التاريخ كان له صفة على باب داره يجلس ويطالع فيها استئناسا بالمارة لسآمة الوحدة والى جواره جار له رث الثياب وكان اذا رأى الشيخ جالسا على الصفة يجيء ويركب أكتافه فتفوح له رائحة فيتأذى منها ويستحيي أن يصرفه فاشتد غيظه يوما فقال له ياشيخ أما تستحي كلما تراني جالسا تجيء تركب أكتافي وأنت لست تعرف ما أطالعه ولا لك شعور به فلما أخجله بهذا التعنيف قال له ياسيدي الشيخ ماهذا الذي تطالع فيه من العلوم فقال شئ في الاقتباس فقال له انشدني منه شيأ فافتكر ابن كثير ساعة واقتبس في مطالعة الحال وقال

كيد حسودي وهنا * ولي سرور وهنا

الحمد لله الذي * أذهب عنا الحزنا

فلما فرغ من انشاده قال له هذا الذي أفكرت فيه وتتكثر به اسمع ماأقول فأنشد ارتجالا من غير وقفة

قلبي الى الرشد يسير * وعنده النظم يسير

الحمد لله الذي * فضلنا على كثير

فقام الشيخ له اجلالا وأجلسه واعتذر له فقال له اياك ان تزدري بأحد فان مواهب الله تعالى في الصدور لا في الثياب اه (ومن اللطائف ماحكي) ان بعض الملوك حاصر ملكا وأطال في حصاره فلما اشتدت به المحاصرة استدعى بوزرائه فقال ماترون وقد تأخرنا بهذه الحال هل

نسله أم نخرج عليه ليلا ويفعل الله بنا ما يشاء فقال بعض وزرائه قد بدا لى رأى أرى انهم ينصرفون به عنا من غير قتال فقال ما هو قال يجمع مولاى ما فى خزائنه من الذهب ويحضره فلما أحضره استدعى بالصياغ وأمرهم ان يصيغوه جميعه سهاما زنة كل سهم قدر معلوم فعملت على الامر المذكور فكتب الوزير على كل نصل سطرين ثم أمر ان تركب السهام فلما ركبت أمر حاشية الملك بأن يأخذ كل واحد سهما وأمرهم ان يرموها عن قوس واحد على العسكر المحتاط بهم فتلألأ لمعان نصالها حتى أدهش العيون فأمر الملك ان تجمع فلما جمعت بين يديه أمر ان يقرأ ما عليها فاذا هو مكتوب

ومن جوده يرمى العفاة بأسهم * من الذهب الابريز صيغت نصولها
لينفقها مجروحها فى دوائه * ويشترى الاكفان منها قتيلها

فلما سمع ذلك أمر بالرحيل من ساعته وقال مثل هذا لا يحاصر ولا يقاتل (ومن ذلك ما يحكى) ان الشيخ شمس الدين المعروف بالدجوى رحمه الله تعالى كان يتعشق مليحا فرآه بعد مدة وهو يتوجع من دمل طلعت فى دبره فسأله فقال دمل فى ذلك المحل فضحك الشيخ ضحكا شديدا وقال ما رأيت أعجب من هذا الدمل فقال له الشاب ولم قال الدمامل تطلع فى اضيق المواضع وهذا على غير القياس جاء فى أوسع المواضع فتبسم الشاب خجلا ومضى اه (لطيفة) يحكى أن نقيب الاشراف ببغداد كان يهوى غلاما اسمه صدقة فأخذه ابن المنير الطرابلسى يوما وأضافه وجلس فى طبقة له فذهب اليهم على خفية وقال

يا من هم فى الطبقه * هل عندكم من شفقه
لسائل متيم * يطلب منكم صدقه

فأجابه ابن المنير ارتجالا فى الحال بقوله

يا من أتانا سرقه * بهيبة مخترقه
جدك يا ذا المجز * أخذك منا صدقه

فخجل الشريف وذهب اه (ومن المستعذب ما يحكى) عن الفضل قال دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد وعنده جارية ماردية وكانت تحسن الشعر والادب مع الحسن والجمال فقال يا فضل قل فى هذا الورد فانشدته بديها

كانه فم محبوب يقبله * فم المحب وقد أبدى به خجلا

فقال الرشيد ما تقولين يا مارية فأنشدته

كأنه لون خدى حين تدفعنى * كف الرشيد لامر يوجب الغسلا

فقال الرشيد قم يا فضل فقد هيجتنى هذه الماجنة فقمت وقد أرخيت الستور اه (ومن الغايات التى لا تدرك) ما حكاه الشريف المقرى فى شرح بديعيته ان صائغا نصرانيا اسمه نجم صاغ خاتما لبعض أولاد وزراء بيت المقدس وكان اسمه يحيى فنقش عليه نجم عشق يحيى ودفعه له فلما قرأه طاش عقله وامتلأ غيظا وذهب الى أبيه وقال له اقرأ ما على هذا الخاتم فلما قرأه حصل فى نفسه تأثير فأرسل خلفه وعقد مجلسا لدى القاضى وأراد قتله فلما حضر أعلم بذلك فقال ما ذنبى وأنتم تروون عن نبيكم من قتل ذميا كنت خصمه يوم القيامة فقيل له أو تتكلم

وحطك

وخطك يشهد عليك كيف تكتب نجم عشق يحيى فقال والله ما كتبت الا ما تتبركون به في كتابكم فكتبت نجم عشق يحيى فطرب المجلس لذلك واستحسنوا ذكاءه وأشاروا عليه بالاسلام فهذا من الاتفاق العجيب اه (ومثل ذلك قول أبي نواس يهجو خالصة جارية الرشيد)

لقد ضاع شعري على بابكم * كما ضاع در على خالصه

فلما بلغ الرشيد أنكر عليه وهدده فقال لم أقل الا ضاء فاستحسن مواربته وقال بعض من حضر هذا البيت قلعت عينه فأبصر اه (حكي عن أبي العيناء انه قال) رأيت جارية مع النخاس وهي تحلف ان لا ترجع لمولاها فسألتها عن ذلك فقالت يا سيدي انه يواقعني من قيام ويصلي من قعود ويشتمني باعراب ويلحن في القرآن ويصوم الخميس والاثنين ويفطر رمضان ويصلي الضحى ويترك الفرض فقلت لا أكثر الله مثله في المسلمين اه (وقيل) زنى رجل بجارية فأحبلها فقيل له يا عدو الله هلا اذ ابتليت بفاحشة عزلت قال قد بلغني ان العزل مكروه قالوا فما بلغك ان الزنا حرام (وقيل لاعرابي) كان يتعشق قينة ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها قال فمن لي اذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد (وحكي) ان علية بنت المهدي كانت تهوى غلاما خادما اسمه طل فحلف الرشيد ان لا تكلمه ولا تذكره في شعرها فاطلع الرشيد يوما عليها وهي تقرأ في سورة البقرة فان لم يصبها وابل فالذي نهى عنه أمير المؤمنين (قيل) دخلت امرأة على هرون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت يا أمير المؤمنين اقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت فقال لها من تكونين أيتها المرأة فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم فقال أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره وأما المال فمردود اليك ثم التفت الى الحاضرين من اصحابه فقال أتدرون ما قالت المرأة فقالوا ما نراها قالت الا خيرا قال ما أظنكم فهمتم ذلك أما قولها أقر الله عينك أي اسكنها عن الحركة واذا أسكنت العين عن الحركة عميت وأما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر

اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا فتعجبوا من ذلك (وحكي ان المأمون) ولى عاملا على بلاد وكان يعرف منه الجور في حكمه فارسل اليه رجلا من أرباب دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر له انه قدم في تجارة في نفسه ولم يعلمه ان أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن اليه وسأله ان يكتب كتابا الى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتابا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذا بالعزم عاملا بالحزم قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الاولاد واذهب ما بينهم من الضغائن والاحقاد وعمر منهم المساجد الداثره وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخره يعني ان الكل صاروا فقراء لا يملكون شيأ من الدنيا يريدون النظر الى وجه أمير المؤمنين أي

ليشكوا حالهم وما نزل بهم فلما جاء الكتاب الى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره (وحكى) ان بعض الملوك طلع يوما الى أعلى قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار الى جانب قصره لم ير الراؤن احسن منها فالتفت الى بعض جوار يه فقال لها لمن هذه فقالت يا مولاى هذه زوجة غلامك فيروز قال فنزل الملك وقد خامره حبها وشغف بها فاستدعى بفيروز وقال له خذ هذا الكتاب وامض به الى البلد الفلانية واتنى بالجواب فاخذ فيروز الكتاب وتوجه الى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه فلما أصبح ودع أهله وسار طالبا لحاجة الملك ولم يعلم بما قد دبره الملك فانه لما توجه فيروز قام مسرعا وتوجه مختفيا الى دار فيروز فقرع الباب قرعا خفيفا فقالت امرأة فيروز من بالباب قال أنا الملك سيد زوجك ففتحت له فدخل وجلس فقالت له أرى مولانا اليوم عندنا فقال جئت زائرا فقالت أعوذ بالله من هذه الزيارة وما اظن فيها خيرا فقال لها ويحك انني أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتني فقالت يا مولاى لقد علمت انك الملك ولكن سبقتك الاوائل فى قولهم

سأترك ماءكم من غير ورد * وذلك لكثرة الورّاد فيه
اذا سقط الذباب على طعام * رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الاسود ورود ماء * اذا كان الكلاب ولغن فيه
ويرتجع الكريم خميص بطن * ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاى قول الشاعر

قل للذى شفه الغرام بنا * وصاحب الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائل أبدا * قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت أيها الملك تاتى الى موضع شرب كلبك تشرب منه فاستحى الملك من كلامها وخرج وتركها فنسى نعله فى الدار هذا ما كان من الملك وأما فيروز فانه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه فى رأسه فتذكر انه نسيه تحت فراشه فرجع الى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره فوجد نعل الملك فى الدار فطاش عقله وعلم ان الملك لم يرسله فى هذه السفرة الا لامر يفعله فسكت ولم يبد كلاما وأخذ الكتاب وسار الى حاجة الملك فقضاها ثم عاد اليه فانعم عليه بمائة دينار فمضى فيروز الى زوجته فسلم عليها وقال لها قومى الى زيارة بيت أبيك قالت وماذاك قال ان الملك انعم علينا وأريد ان تظهرى لاهلك ذلك قالت حبا وكرامة ثم قامت من ساعتها الى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها فاقامت عند أهلها مدة شهر فلم يذكرها زوجها ولا الم بها فأتى اليه أخوها وقال له يا فيروز اما ان تخبرنا بسبب غضبك واما أن تحاكمنا الى الملك فقال ان شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها على حقا فطلبوه الى الحكم فأتى معهم وكان القاضى اذذاك عند الملك جالسا الى جانبه فقال أخو الصبية أيد الله مولانا قاضى القضاة انى أجرت هذا الغلام بستانا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة وأشجار مثمرة فأكل ثمره وهدم حيطانه وأخرب بئره فالتفت القاضى الى فيروز وقال له ما تقول يا غلام فقال فيروز أيها القاضى قد استلمت هذا البستان وسلمته اليه أحسن ما كان فقال القاضى هل سلم اليك البستان كما كان قال نعم ولكن أريد منه السبب لرده قال القاضى ما قولك قال

والله

والله يامولاى ماردت البستان كراهية فيه وانما جئت يوما من الايام فوجدت فيه أثر الاسد فخفت أن يغتالني فحرمت دخول البستان اكراما للاسد قال وكان الملك متكئا فاستوى جالسا وقال يافيروز ارجع الى بستانك آمنا مطمئنا فوالله ان الاسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرا ولا التمس منه ورقا ولا ثمرا ولا شيأ ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس ووالله ما رأيت مثل بستانك ولا أشد احترازا من حيطانه على شجره قال فرجع فيروز الى داره ورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشئ من ذلك اه (وحكى) ان الحجاج سأل يوما الغضبان ابن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها ان قال له من أكرم الناس قال أفقههم في الدين وأصدقهم لليمين وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهانين وأطعمهم للمساكين قال فمن الأم الناس قال المعطى على الهوان المقتر على الاخوان الكثير الالوان قال فمن شر الناس قال أطولهم جفوة وأدومهم صبوة وأكثرهم خلوة وأشدهم قسوة قال فمن أشجع الناس قال أضربهم بالسيف واقراهم للضيف واتركهم للحيف قال فمن أجبن الناس قال المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف المرتعش عند الوقوف المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف قال فمن أثقل الناس قال المتفنن في الملام الضنين بالسلام المهذار في الكلام المقبقب على الطعام قال فمن خير الناس قال أكثرهم احسانا وأقومهم ميزانا وأدومهم غفرانا وأوسعهم ميدانا قال لله أبوك فكيف يعرف الرجل الغريب احسيب هو أم غير حسيب قال أصلح الله الامير ان الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله و بشاشته وحسن مداراته على أصله فالعاقل البصير بالاحساب يعرف شمائله والنذل الجاهل يجهله فمثله كمثل الدرة اذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها واذا نظر اليها العقلاء عرفوها وأكرموها فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة عظيمة فقال الحجاج لله أبوك فما العاقل والجاهل قال أصلح الله الامير العاقل الذى لا يتكلم هذرا ولا ينظر شزرا ولا يضمر غدرا ولا يطلب عذرا والجاهل هو المهذار في كلامه المنان بطعامه الضنين بسلامه المتطاول على امامه الفاحش على غلامه قال لله أبوك فمن الحازم الكيس قال المقبل على شأنه التارك لما لا يعنيه قال فمن العاجز قال المعجب بآرائه الملتفت الى ورائه قال هل عندك من النساء خبر قال أصلح الله الامير انى بشأنهن خبير ان شاء الله ان النساء من أمهات الاولاد بمنزلة الاضلاع ان عدلتها انكسرت ولهن جوهر لا يصلح الا على المداراة فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه ومن شاورهن كدرن عيشته وتكدرت عليه حياته وتنغصت لذاته فاكرمهن اعفهن وأفخر أحسابهن العفة فاذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة فقال له الحجاج ياغضبان انى موجهك الى ابن الاشعث وافدا فماذا أنت قائل له قال أصلح الله الامير أقول مايرديه و يؤذيه و يضنيه فقال انى أظنك لا تقول له ماقلت وكأنى بصوت خلاخلك تجلجل في قصرى هذا قال كلا أصلح الله الامير سأحدد له لسانى وأجريه في ميدانى فعند ذلك أمره بالمسير الى كرمان فلما توجه الى ابن الاشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينا عليه أى جاسوسا وكان يفعل ذلك مع جميع رسله فلما قدم الغضبان على ابن الاشعث قال له ان الحجاج قدهم بخلعك وعزلك فخذ حذرك وتغده قبل ان يتعشى بك فأخذ حذره عند ذلك ثم أمر للغضبان بجائزة سنية وخلع فاخرة فأخذها وانصرف

راجعا فاتى الى رملة كرمان فى شدة الحر والقيظ وهى رملة شديدة الرمضاء فضرب قبته فيها وحط عن رواحله فبينما هو كذلك اذا باعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدا نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة وقد ظمئ ظمأ شديدا فقال السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال الغضبان هذه سنة وردها فريضة فاز قائلها وخسر تاركها ما حاجتك يا اعرابى قال أصابتنى الرمضاء وشدة الحر والظمأ فتيممت قبتك أرجو بركتها قال الغضبان فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم قال أيتهن تعنى قال قبة الامير ابن الاشعث قال تلك لا يوصل اليها قال ان هذه امنع منها فقال الاعرابى ما اسمك يا عبد الله قال آخذ فقال وما تعطى قال أكره ان يكون لى اسمان قال بالله من أين أنت قال من الارض قال فأين تريد قال امشى فى مناكبها فقال الاعرابى وهو يرفع رجلا ويضع أخرى من شدة الحر اتقرض الشعر قال انما يقرض الشعر الفأر فقال أفتسجع قال انما تسجع الحمامة فقال يا هذا ائذن لى ان ادخل قبتك قال خلفك أوسع لك فقال قد احرقتنى الشمس قال مالى عليها من سلطان فقال الرمضاء أحرقت قدمى قال بل عليها تبرد فقال انى لا أريد طعامك ولا شرابك قال لا تتعرض لما لا تصل اليه ولو تلفت روحك فقال الاعرابى سبحان الله قال نعم من قبل أن تطلع أضراسك فقال الاعرابى ما رأيت رجلا أقسى منك اتيتك مستغيثا فحجبتنى وطردتنى هلا أدخلتنى قبتك وطارحتنى القريض قال مالى بمحادثتك من حاجة فقال الاعرابى بالله ما اسمك ومن أنت فقال أنا الغضبان بن القبعثرى فقال اسمان منكران خلقا من غضب قال قف متوكئا على باب قبتى برجلك هذه العوجاء فقال قطعها الله ان لم تكن خيرا من رجلك هذه الشلاء فقال الغضبان لو كنت حاكما لجرت فى حكومتك لان رجلى فى الظل قاعدة ورجلك فى الرمضاء قائمة فقال الاعرابى انى لاظنك حروريا قال اللهم اجعلنى ممن يتحرى الخير ويريده فقال انى لاظن عنصرك فاسدا قال ما اقدرنى على اصلاحه فقال الاعرابى لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى وهو يقول

لا بارك الله فى قوم تسودهم * انى أظنك والرحمن شيطانا

أتيت قبته أرجو ضيافته * فاظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين الاشعث وبين الاعرابى قال له الحجاج يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان قال أصلح الله الامير أرضا يابسة الجيش بها ضعاف هزلاء ان كثروا جاعوا وان قلوا ضاعوا فقال له الحجاج ألست صاحب الكلمة التى بلغتنى انك قلتها لابن الاشعث تغد بالحجاج قبل ان يتعشى بك فوالله لاحبسنك عن الوساد ولانزلنك عن الجياد ولاشهرنك فى البلاد قال الامان أيها الامير فوالله ما ضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له فقال له ألم أقل لك كانى بصوت خلاخلك تجلجل فى قصرى هذا اذهبوا به الى السجن فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله ثم ان الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فاعجب بها فقال لمن حوله كيف ترون قبتى هذه وبناءها فقالوا أيها الامير انها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة قليل عيبها كثير خيرها قال لم لم تخبرونى بنصح قالوا لا يصفها لك الا الغضبان فبعث الى الغضبان فاحضره وقال له كيف ترى قبتى هذه وبناءها قال أصلح الله الامير بنيتها

في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بباق فقال الحجاج قد صدق الغضبان ردوه الى السجن فلما حملوه قال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين فقال أنزلوه فلما أنزلوه قال رب انزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين فقال اضربوا به الارض فلما ضربوا به الارض قال منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى فقال جروه فاقبلوا يجرونه وهو يقول بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم فقال الحجاج ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاء وخبثا ثم عفا عنه وانعم عليه وخلى سبيله (وقيل بينما) كثير عزة مار بالطريق يوما اذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي فقال لها تنحي عن الطريق فقالت له ويحك ومن تكون قال انا كثير عزة قالت قبحك الله وهل مثلك يتنحى له عن الطريق قال ولم قالت ألست القائل

وما روضة بالحسن طيبة الثرى * يمج الندى جثجاثها وعرارها
باطيب من أردان عزة موهنا * اذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها ألا قلت مثل سيدك امرئ القيس

وكنت اذا ما جئت بالليل طارقا * وجدت بها طيبا وان لم تطيب

فقطعته ولم يرد جوابا (حكى عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى) قال خرجت حاجا الى بيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في الطريق اذ أنا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فاذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت سلام قولا من رب رحيم قال فقلت لها رحمك الله ما تصنعين في هذا المكان قالت ومن يضلل الله فلا هادي له فعلمت انها ضالة عن الطريق فقلت لها اين تريدين قالت سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى فعلمت انها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس فقلت لها أنت منذ كم في هذا الموضع قالت ثلاث ليال سويا فقلت ما أرى معك طعاما تاكلين قالت هو يطعمني ويسقيني فقلت فبأي شئ تتوضئين قالت فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا فقلت لها ان معي طعاما فهل لك في الاكل قالت ثم أتموا الصيام الى الليل فقلت قد ابيح لنا الافطار في السفر قالت وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون فقلت لم لا تكلميني مثل ما اكلمك قالت ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فقلت فمن أي الناس أنت قالت ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا فقلت قد اخطأت فاجعليني في حل قالت لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم فقلت فهل لك ان احملك على ناقتي فتدركي القافلة قالت وما تفعلوا من خير يعلمه الله قال فأنخت الناقة قالت قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم فغضضت بصري عنها وقلت لها اركبي فلما أرادت ان تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم فقلت لها اصبري قالت سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون قال فاخذت بزمام الناقة وجعلت اسعى واصيح فقالت واقصد في مشيك واغضض من صوتك فجعلت أمشي رويدا رويدا وأترنم بالشعر فقالت فاقرؤا ما تيسر من القرآن فقلت لها لقد أوتيت خيرا كثيرا قالت وما يذكر الا أولوا الالباب

فلما مشيت بها قليلا قلت ألك زوج قالت يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم فسكت ولم أكلمها حتى ادركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها فقالت المال والبنون زينة الحياة الدنيا فعلمت ان لها أولادا فقلت وما شأنهم فى الحج قالت وعلامات وبالنجم هم يهتدون فعلمت انهم ادلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها قالت واتخذ الله ابراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما يا يحيى خذ الكتاب بقوة فناديت يا ابراهيم يا موسى يا يحيى فاذا أنا بشبان كأنهم الاقمار قد اقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يدى فقالت كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية فقلت الآن طعامكم علىّ حرام حتى تخبرونى بامرها فقالوا هذه امنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم الا بالقرآن مخافة ان تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء فقلت ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (قيل ان معن بن زائدة) دخل على المنصور فقال له هيه يا معن تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على قوله

معن بن زائدة الذى زادت به * شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين انما أعطيته على قوله

ما زلت يوم الهاشمية معلنا * بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه * من وقع كل مهند وسنان

فقال أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع (ووفد ابن أبى محجن على معاوية) فقام خطيبا فاحسن فحسده معاوية فقال له أنت الذى أوصاك أبوك بقوله

اذا مت فادفنى الى جنب كرمة * تروّى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة فاننى * أخاف اذا مامت ان لا اذوقها

قال بل انا الذى يقول أبى

لا تسأل الناس ما مالى وكثرته * وسائل الناس ما جودى وما خلقى
أعطى الحسام غداة الروع حصته * وعامل الرمح أرويه من العلق
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض * وأكتم السر فيه ضربة العنق
ويعلم الناس انى من سراتهم * اذا سما بصر الرعديد بالفرق

فقال له معاوية أحسنت والله يا ابن أبى محجن وأمر له بصلة وجائزة (وقيل) دخل مجنون الطاق يوما الى الحمام وكان بغير مئزر فرآه أبو حنيفة رضى الله عنه وكان فى الحمام فغمض عينيه فقال له المجنون متى اعماك الله قال منذ هتك سترك (ومن ذلك ما يحكى) ان الحجاج خرج يوما متنزها فلما فرغ من نزهته انصرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فاذا هو بشيخ من بنى عجل فقال له من أين أيها الشيخ قال من هذه القرية قال كيف ترون عمالكم قال شر عمال يظلمون الناس ويستحلون أموالهم قال فكيف قولك فى الحجاج قال ذاك ما ولى العراق شر منه قبحه الله وقبح من استعمله قال أتعرف من أنا قال لا قال أنا الحجاج قال جعلت فداءك أوتعرف من أنا قال لا قال أنا فلان بن فلان مجنون بنى عجل اصرع فى كل يوم مرتين قال فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة (وحكى

ابو

أبو محمد الحسين بن محمد الصالحي) قال كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فانتبه منزعجا وقال يا خدم فأسرعنا الجواب فقال ويلكم أعينوني والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرا في سفينة فارغة فاقبضوا عليه وائتوني به ووكلوا بالسفينة من يحفظها فأسرعنا فوجدنا ملاحا في سفينة فجئنا به المعتضد فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال أصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم والا ضربت عنقك فتلعثم وقال نعم كنت سحرا في الشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلي كثير وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فاها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها في الماء ولم أجسر على حمل سلبها الى داري لئلا يفشو الخبر علي فعولت على الهروب والانحدار الى واسط فصبرت الى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين فأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني اليك فقال وأين الحلي والسلب قال في صدر السفينة تحت البواري قال المعتضد علي به الساعة فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادي ببغداد من خرجت له امرأة الى المشرعة الفلانية سحرا وعليها ثياب فاخرة وحلي فليحضر فحضر في اليوم الثاني أهلها وأعطوا صفاتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك اليهم قال فقلت يا مولاي من أعلمك أو حي اليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية فقال بل رأيت في منامي رجلا شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التي قتلها اليوم ظلما وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك فكان ما شهدتم (وحكي ان بهرام الملك) خرج يوما للصيد فانفرد عن أصحابه فرأى صيدا فتبعه طامعا في لحاقه حتى بعد عن عسكره فنظر الى راع تحت شجرة فنزل عن فرسه ليبول وقال للراعي احفظ علي فرسي حتى أبول فعمد الراعي الى العنان وكان ملبسا ذهبا كثيرا فاستغفل بهرام وأخرج سكينا فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذي عليه فرفع بهرام نظره اليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه الى الارض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعي قدم الي فرسي فانه قد دخل في عيني من سافي الريح فلا أقدر على فتحهما فقدمه اليه فركب وسار الى أن وصل الى عسكره فقال لصاحب مراكبه ان أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحدا (قيل) مرض أحمد بن أبي دواد فعاده المعتصم وقال نذرت ان عافاك الله تعالى ان أتصدق بعشرة آلاف دينار فقال له أحمد يا أمير المؤمنين فاجعلها في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الاسعار شدة فقال نويت ان أتصدق بها على من ههنا وأطلق لاهل الحرمين مثلها فقال أحمد متع الله الاسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين فانك كما قال النميري لابيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه

ان المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث تجتمع

من لم يكن بأمين الله معتصما * فليس بالصلوات الخمس ينتفع

(ومن محاسن الاخلاق) ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال كنت نائما ذات ليلة عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص علي نومي فرأيته قد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة

خطوة فأخذ منها كوزا فشرب ثم رجع على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه فخطى خطوات خائفا لئلا ينبهني حتى صار الى فراشه ثم رأيته آخر الليل قام يبول وكان يقوم في أول الليل وآخره فقعد طويلا يحاول ان أتحرك فيصيح بالغلام فلما تحركت وثب قائما وصاح يا غلام وتأهب للصلاة ثم جاءني فقال لي كيف أصبحت يا أبا محمد وكيف كان مبيتك قلت خير مبيت جعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الانبياء وأحب لك سيرتهم فهنأك الله تعالى بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لي بألف دينار فأخذتها وانصرفت (قال) وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال حتى غلبه فسعل وأكب على الارض لئلا يعلو صوته فانتبه (وكنت) معه يوما في بستان ندور فيه فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان اصلح هذا الحوض ولا تغرس في هذا الحوض شيأ من البقول قال يحيى ومشينا في البستان من أوله الى آخره وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل فكان يجذبني ان أتحول أنا في الظل ويكون هو في الشمس فامتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان فلما رجعنا قال يا يحيى والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي فقلت والله يا أمير المؤمنين لو قدرت ان اقيك يوم الهول بنفسي لفعلت فلم يزل بي حتى تحولت الى الظل وتحول هو الى الشمس ووضع يده على عاتقي وقال بحياتي عليك الا وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فانه لا خير في صحبة من لا ينصف اهـ (وحكى) ان أحمقين اصطحبا في طريق فقال أحدهما تعال نتمن على الله فان الطريق تقطع بالحديث فقال أحدهما أنا أتمنى قطائع غنم انتفع بلبنها ولحمها وصوفها وقال الآخر أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيأ قال ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة فتصايحا واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالاطواق ثم تراضيا على ان أول من يطلع عليهما يكون حكما بينهما فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ثم قال صب الله دمي مثل هذا العسل ان لم تكونا أحمقين (وقال الاصمعي) بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة اذ رأيت شابا متعلقا باستار الكعبة وهو يقول

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم * يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا * وأنت يا حي يا قيوم لم تنم
أدعوك ربي حزينا هائما قلقا * فارحم بكائي بحق البيت والحرم
ان كان جودك لا يرجوه ذو سفه * فمن يجود على العاصين بالكرم

ثم بكى بكاء شديدا وأنشد يقول

الا أيها المقصود في كل حاجة * شكوت اليك الضر فارحم شكايتي
الا يا رجائي أنت تكشف كربتي * فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة * وما في الورى عبد جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى * فأين رجائي ثم أين مخافتي

ثم سقط على الارض مغشيا عليه فدنوت منه فاذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن

أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين فرفعت رأسه في حجري وبكيت فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال من هذا الذي يهجم علينا قلت عبيدك الاصمعي سيدي ما هذا البكاء والجزع وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة أليس الله تعالى يقول انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا قال هيهات هيهات يا أصمعي ان الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا أليس الله تعالى يقول فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون انتهى (وكان أبو العباس السفاح) يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضا فحضر عنده ذات ليلة ابراهيم بن مخرمة الكندي وخالد بن صفوان بن الاهيم فخاضوا في الحديث وتذاكروا مضر واليمن فقال ابراهيم ابن مخرمة يا أمير المؤمنين ان أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكا ورثوا الملك كابرا عن كابر وآخرا عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصبا وليس من شيء له خطر الا اليهم ينسب ان سئلوا أعطوا وان نزل بهم ضيف اقروه فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة فقال أبو العباس ما أظن التميمي رضي بقولك ثم قال ما تقول أنت يا خالد قال ان أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت قال تكلم ولا تهب احدا قال اخطأ المقتحم بغير علم ونطق بغير صواب وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الانام وأكرم الكرام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فلله المنة به علينا وعليهم فمنا النبي المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور وزمزم والحطيم والمقام والحجابة والبطحاء ومالا يحصى من المآثر ومنا الصديق والفاروق وذو النورين والوصي والولي وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرفوا الدين وأتاهم اليقين فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه ثم أقبل خالد على ابراهيم فقال أتعلم بلغة قومك قال نعم قال فما اسم العين عندكم قال الجمجمة قال فما اسم السن قال الميدن قال فما اسم الاذن قال الصنارة قال فما اسم الاصابع قال الشناتير قال فما اسم الذئب قال الكنع قال أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل قال نعم قال فان الله تعالى يقول انا أنزلناه قرآنا عربيا وقال بلسان عربي مبين وقال تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه فنحن العرب والقرآن بلساننا انزل ألم تر ان الله تعالى قال والعين بالعين ولم يقل والجمجمة بالجمجمة وقال تعالى والسن بالسن ولم يقل والميدن بالميدن وقال تعالى والاذن بالاذن ولم يقل والصنارة بالصنارة وقال تعالى يجعلون أصابعهم في آذانهم ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم وقال تعالى فأكله الذئب ولم يقل فأكله الكنع ثم قال لابراهيم اني أسألك عن أربع ان اقررت بهن قهرت وان جحدتهن كفرت قال وما هن قال الرسول منا أو منكم قال منكم قال والقرآن أنزل علينا أو عليكم قال عليكم قال المنبر فينا أو فيكم قال فيكم قال فالبيت لنا أو لكم قال لكم قال فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنت الا سائس قرد او دابغ جلد أو ناسج برد قال فضحك أبو العباس وأقر لخالد وحباهما جميعا (وحكي ان الحجاج) أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه وارغب السجان واستماله وهرب

هو والسجان وقصد الشأم الى سليمان بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب الى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن اليه وأقامه عنده فكتب الحجاج الى الوليد يعلمه ان يزيد هرب من السجن وانه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وان أمير المؤمنين أعلى رأيا فكتب الوليد الى اخيه سليمان بذلك فكتب سليمان الى أخيه يقول يا أمير المؤمنين انى ما اجرت يزيد بن المهلب الالانه هو وأبوه واخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجر عدوا لامير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلما ثم طالبه بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار الى واستجار بي فأجرته وانا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم فان رأى أمير المؤمنين ان لا يخزيني في ضيفي فليفعل فانه أهل الفضل والكرم فكتب اليه الوليد انه لابد ان ترسل الى يزيد مغلولا مقيدا فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده ثم شد قيد هذا الى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعا بغلين وأرسلهما الى أخيه الوليد وكتب اليه أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت اليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممت ان أكون ثالثهما فان هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانيا واجعلني اذا شئت ثالثا والسلام فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال لقد أسأنا الى أبي أيوب اذ بلغنا به هذا المبلغ فاخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد ما نحتاج الى الكلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج ثم انه أحضر حدادا وأزال عنهما الحديد واحسن اليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما الى سليمان وكتب كتابا الى الحجاج يقول له لا سبيل لك على يزيد بن المهلب فاياك ان تعاودني فيه بعد اليوم فسار يزيد الى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في اعلى المراتب وأرفع المنازل اه (وحكى أبو علي المصري) قال كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوما حدثني بأعجب ما رأيت من الموتى فقال جاءني شاب في بعض الايام مليح الوجه حسن الثياب فقال لي أتغسل لنا هذا الميت قلت نعم فتبعته حتى أوقفني على باب فدخل هنيهة فاذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها فقالت أنت الغاسل قلت نعم قالت بسم الله ادخل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فدخلت الدار واذا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت وروحه في لبته وقد شخص بصره وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه فلم أجلس اليه حتى قبض فقلت سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته فاخذت في غسله وأنا ارتعد فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته فقبلته وقالت أما اني سألحق بك عن قريب فلما أردت الانصراف شكرت لي وقالت أرسل الى زوجتك ان كانت تحسن ما تحسنه أنت فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها الى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت بسم الله تدخل زوجتك فدخلت زوجتي فاذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت فغسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما

أأحبابنا بنتم عن الدار فاشتكت * لبعدكم آصالها وضحاها

وفارقتم الدار الانيسة فاستوت * رسوم مبانيها وفاح كلاها
كانكم يوم الفراق رحلتم * بنومي فعيني لا تصيب كراها
وكنت شحيحا من دموعي بقطرة * فقد صرت سمحا بعد كم بدماها
يراني بساما خليلي يظن بي * سرورا واحشائي السقام ملاها
وكم ضحكة في القلب منها حرارة * يشب لظاها لو كشفت غطاها
رعى الله أياما بطيب حديثكم * تقضت وحياها الحيا وسقاها
لها اثلت ايها بعدها لسامر * من الناس الا قال قلبي آها

قيل لقيس بن سعد هل رأيت قط أسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له انه نزل بنا ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال شأنكم فلما كان من الغد جاء باخرى فنحرها وقال شأنكم فقلنا ما أكلنا من التي نحرت البارحة الا القليل فقال اني لا أطعم ضيفاني الفائت فبقينا عنده اياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة اعتذري لنا اليه ومضينا فلما ارتفع النهار اذا برجل يصيح خلفنا قفوا فوقفنا فلما دنا منا قال خذوا دنانيركم فاني لا آخذ على اكرامي ثمنا وان لم تاخذوها طعنتكم برمحي هذا فاخذناها وانصرفنا (وكان) يزيد بن المهلب من الاجواد الاسخياء وله اخبار في الجود عجيبة من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه قال لما أراد يزيد بن المهلب الخروج الى واسط أتيته فقلت أيها الامير ان رأيت ان تأذن لي فاصحبك قال اذا قدمت واسطا فائتنا ان شاء الله تعالى فسافر وأقمت فقال لي بعض اخواني اذهب اليه فقلت كان جوابه فيه ضعف قال أتريد من يزيد جوابا أكثر مما قال فسرت حتى قدمت عليه فلما كان في الليل دعيت الى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري فالتفت الى يزيد وقال ايه يا عقيل فقلت

افاض القوم في ذكر الجواري * فاما الاعزبون فلن يقولوا

قال انك لا تبقى عزبا فلما رجعت الى منزلي اذا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم وفي الليلة الثانية كذلك فمكثت عشر ليال وأنا على هذه الحالة فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر فقلت أيها الامير قد والله أغنيت وأقنيت فان رأيت ان تأذن لي في الرجوع فاكبت عدوي واسر صديقي فقال انما اخيرك بين خلتين اما ان تقيم فنوليك أو ترحل فنغنيك فقلت أولم تغنني أيها الامير قال انما هذا آثاث المنزل ومصلحة القدوم فنالني من فضله مالا اقدر على وصفه (وحدث أبو اليقظان) عن أبيه قال حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقا يحلق رأسه فجاؤه بحلاق فحلق رأسه فامر له بخمسة آلاف درهم فتحير الحلاق ودهش وقال آخذ هذه الخمسة آلاف وامضي الى أم فلان أخبرها اني قد استغنيت فقال أعطوه خمسة آلاف اخرى فقال امرأته طالق ان حلقت رأس أحد بعدك (وقيل) ان الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم فجمعت له وهو في السجن فجاءه الفرزدق يزوره فقال للحاجب استأذن لي عليه فقال انه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه فقال الفرزدق انما أتيت متوجعا لما هو فيه ولم آت ممتدحا فاذن له فلما أبصره قال

أباخالد ضاقت خراسان بعدكم * وقال ذو والحاجات اين يزيد
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة * ولا اخضر بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزك بهجة * وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب ادفع اليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه مايشاء فقال الحاجب للاعرابي خذ هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه فأخذها وانصرف (ومر يزيد بن المهلب) عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عنزا فقال لابنه ما معك من النفقة قال مائة دينار قال ادفعها اليها فقال هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك قال ان كان يرضيها اليسير فأنا لا ارضى الا بالكثير وان كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي (وقال أبو العيناء) تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية وعلى البرامكة في الدولة العباسية ثم اتفقوا على ان أحمد بن داود أسخى منهم جميعا وأفضل (وسئل) اسحق الموصلي عن سخاء أولاد يحيي بن خالد فقال أما الفضل فيرضيك فعله وأما جعفر فيرضيك قوله وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد وفي يحيي يقول القائل

سألت الندى هل أنت حر فقال لا * ولكنني عبد ليحيي بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة * توارثني عن والد بعد والد

وفي الفضل يقول القائل

اذا نزل الفضل بن يحيي ببلدة * رأيت بها غيث السماحة ينبت
فليس بسعال اذا سيل حاجة * ولا بمكب في ثرى الارض ينكت

وفي محمد يقول القائل

سألت الندى والجود مالي أراكما * تبدلتما عزا بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما * فقالا أصبنا بابن يحيي محمد
فقلت فهلا متما بعد موته * وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالا أقمنا كي نعزى بفقده * مسافة يوم ثم نتلوه في غد

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه من كانت له الي حاجة فليرفعها الي في كتاب لاصون وجهه عن المسئلة (وجاءه) رضي الله عنه اعرابي فقال له يا أمير المؤمنين ان لي اليك حاجة الحياء يمنعني ان أذكرها فقال خطها في الارض فكتب اني فقير فقال ياقنبر اكسه حلتي فقال الاعرابي

كسوتني حلة تبلى محاسنها * فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه * كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به * كل امرئ سوف يجزى بالذي فعلا

فقال ياقنبر زده مائة دينار فقال يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لاصلحت بها من شأنهم فقال رضي الله عنه صه ياقنبر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اشكروا لمن اثنى عليكم

وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه (وسئل اسحق الموصلى) عن المخلوع فقال كان أمره كله عجبا كان لا يبالى أين يقعد مع جلسائه وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر كان عنده سليمان بن أبى جعفر يوما فأراد الرجوع الى أهله فقال له سفر البر أحب اليك أم سفر البحر قال البحر الذى على فقال أوقروا له زورقه ذهبا وأمر له بألف ألف درهم وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان موسى بن شهوان الى سليمان بن عبد الملك وقال قد هجانى يا أمير المؤمنين فاستحضره سليمان وقال لا أم لك اتهجو سعيدا قال يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر عشقت جارية مدنية وأتيت سعيدا فقلت انى أحب هذه الجارية وان مولاتها أعطيت فيها مائتى دينار وقد أتيتك فقال لى بورك فيك قال فاتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالى فقال يا جارية هاتى مطرفا فاتته بطرف خز فصر لى فى زاويته مائتى دينار فخرجت وأنا أقول

أبا خالد أعنى سعيد بن خالد * أخا العرف لا أعنى ابن بنت سعيد
ولكننى أعنى ابن عائشة الذى * أبو أبويه خالد بن أسيد
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى * فان مات لم يرض الندى بعقيد
ذروه ذروه انكم قد رقدتموا * وما هو عن احسانكم برقود

فقال سليمان قل ما شئت وكتب كلثوم بن عمر الى بعض الكرماء رقعة فيها

اذا تكرهت ان تعطى القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلته * فكل ما سد فقرا فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث اليه بنصف خاتمه وفرد نعله (ودخل) طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوما فوافق فيه الفرزدق فقال يا أبا فراس اختر عشرا من الابل ففعل فقال ضم اليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة فقال هى لك فقال

يا طلح أنت أخو الندى وعقيده * ان الندى ما مات طلحة ماتا
ان الندى ألقى اليك رحاله * فحيث بت من المنازل باتا

(ووفد أبو الشمقمق) الى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه الى منزله فوجده فى دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع فلما رآه محمد قال

ولقد قدمت على رجال طالما * قدم الرجال عليهم فتمولوا
اخنى الزمان عليهم فكأنما * كانوا بأرض اقفرت فتحولوا

فقال أبو الشمقمق

الجود أفلسهم وأذهب مالهم * فاليوم ان راموا السماحة بخلوا

قال فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما اليه فكتب بذلك مستوفى الخراج الى الخليفة فوقع الى عامله باسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام تلك السنة واسقاط ما عليه من البقايا وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروءته (وحكى عن أبى العيناء انه قال) حصلت لى ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائى فدخلت يوما على يحيى بن اكثم القاضى فقال ان أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصص فهل لك فى الحضور قلت نعم فمضيت معه الى دار أمير المؤمنين فلما دخلنا

عليه أجلسه وأجلسني ثم قال يا أبا العيناء بالالفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة فانشدته

لقد رجوتك دون الناس كلهم * وللرجاء حقوق كلها تجب
ان لم يكن لي أسباب أعيش بها * ففي العلا لك اخلاق هي السبب

فقال يا سلامة انظر أي شئ في بيت مالنا دون مال المسلمين فقال بقية من مال قال فادفع له مائة ألف درهم وابعث له بمثلها في كل شهر فلما كان بعد أحد عشر شهرا مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه فدخل عليه بعض أولاده فقال يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فانشأ أبو العيناء يقول

شيآن لو بكت الدماء عليهما * عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما * فقد الشباب وفرقة الاحباب

(وقال الاعمش) كانت عندي شاة فمرضت وفقدت الصبيان لبنها فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتي لبد أجلس عليه فكان اذا خرج يقول خذ ما تحت اللبد حتى وصل الي من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت ان الشاة لم تبرأ (وحكى أبو القدامة العشيري) قال كنا مع يزيد بن مزيد يوما فسمع صائحا يقول يا يزيد بن مزيد فطلبه فأتى به اليه فقال ما حملك على هذا الصياح قال فقدت دابتي ونفدت نفقتي وسمعت قول الشاعر

اذا قيل من للجود والمجد والندى * فناد بصوت يا يزيد بن مزيد

فامر له بفرس الذي كان تحته وبمائة دينار وخلعة سنية فأخذها وانصرف (ومن الغرائب ما حكي) ان قوما من العرب جاؤا الى قبر بعض اسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له هل لك ان تبيعني بعيرك بنجيبي وكان الميت قد خلف نجيبا وكان للرائي بعير سمين فقال نعم وباعه في النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر الى البعير فنحره في النوم فانتبه الرائي من نومه فوجد الدم يسيح من نحر بعيره فقام واتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوه ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم منهم شاب فنادى هل فيكم فلان بن فلان فقال صاحب البعير نعم ها أنا فلان بن فلان فقال هل بعت من فلان الميت شيأ قال نعم بعته بعيري بنجيبه في النوم فقال هذا نجيبه فخذه وأنا ولده وقد رأيته في النوم وهو يقول ان كنت ولدي فادفع نجيبي الى فلان فانظر الى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته (قيل ان شاعرا) قصد خالد بن يزيد فانشد شعرا يقول فيه

سألت الندى والجود حران انتما * فقالا يقينا اننا لعبيد
فقلت ومن مولاكما فتطاولا * الي وقالا خالد ويزيد

فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فانشد يقول

كريم كريم الامهات مهذب * تدفق كفاه الندى وشمائله

هو البحر من أي الجهات أتيته * فلجته المعروف والجود ساحله
جواد بسيط الكف حتى لو انه * دعاها القبض لم تجبه أنامله

فقال يا غلام اعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فأنشد يقول

تبرعت لي بالجود حتى نعشتني * وأعطيتني حتى حسبتك تلعب
وأنبت ريشا في الجناحين بعدما * تساقط مني الريش أو كاد يذهب
فانت الندى وابن الندى وأخو الندى * حليف الندى ما للندى عنك مذهب

فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فقال حسب الامير ما سمع وحسبي ما أخذت وانصرف (وجاء الى خالد بن عبد الله) بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو فقال له اني قلت فيك بيتين من الشعر فقال في مثل هذا الحال قال نعم فقال هاتهما فانشد يقول

يا واحد العرب الذي * ما في الانام له نظير
لو كان مثلك آخر * ما كان في الدنيا فقير

فقال يا غلام اعطه عشرين ألف دينار فاخذها وانصرف (وحيث ذكرنا نبذة من أخبار الكرماء فلنذكر نبذة من أخبار البخلاء) فمن ذلك ان رجلا من البخلاء اشترى دارا وانتقل اليها فوقف ببابه سائل فقال له فتح الله عليك ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك ثم التفت الى ابنته فقال لها ما أكثر السؤال في هذا المكان فقالت يا أبت ما دمت متمسكا لهم بهذه الكلمة فما تبالي كثروا ام قلوا (والأم اللئام وأبخلهم) حميد الارقط الذي يقال له هجاء الاضياف وهو القائل في ضيف له يصف أكله من قصيدة

ما بين لقمته الاولى اذا انحدرت * وبين أخرى تليها قيد اظفور

وقال فيه أيضا

تجهز كفاه ويحدر حلقه * الى الزور ما ضمت عليه الانامل

(وأكل اعرابي مع أبي الاسود) رطبا فأكثر ومد أبو الاسود يده الى رطبة ليأخذها فسبقه الاعرابي اليها فسقطت منه في التراب فأخذها أبو الاسود وقال لا ادعها للشيطان يأكلها فقال الاعرابي والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا من السماء ما تركتها (وقال اعرابي) لتريل نزل به نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور فأقم بعدم أو ارحل بندم (ولبعضهم مدوني)

رأيت أبا زرارة قال يوما * لحاجبه وفي يده الحسام
لئن وضع الخوان ولاح شخص * لاختطفن رأسك والسلام
فقال سوى أبيك فذا الشيخ * بغيض ليس يردعه الكلام
فقام وقال من حنق عليه * بيت لم يرد فيه القيام
أبي وابنا أبي والكلب عندي * بمنزلة اذا حضر الطعام
وقال له أبن لي يا ابن كلب * على خبزي اصادر او اضام
اذا حضر الطعام فلا حقوق * على لوالدي ولا ذمام

فما في الارض أقبح من خوان * عليه الخبز يحضره الزحام

(و يعجبني قول بعضهم)

زففت الى نبهان من صفو فكرتي * عروسا غدا بطن الكتاب لها صدرا

فقبلها عشرا وهام بحبها * فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

(ومن أخبار البخلاء) ما حكاه بعضهم قال كنت في سفر فضللت الطريق فرأيت بيتا في الفلاة فأتيته فاذا به اعرابية فلما رأتني قالت من تكون قلت ضيف قالت أهلا ومرحبا بالضيف انزل على الرحب والسعة قال فنزلت فقدمت لي طعاما فأكلت وماء فشربت فبينما أنا على ذلك اذ اقبل صاحب البيت فقال من هذا فقالت ضيف فقال لا اهلا ولا مرحبا ما لنا وللضيف فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتا في الفلاة فقصدته فاذا فيه اعرابية فلما رأتني قالت من تكون قلت ضيف قالت لا أهلا ولا مرحبا بالضيف ما لنا وللضيف فبينما هي تكلمني اذ اقبل صاحب البيت فلما رآني قال من هذا قالت ضيف قال مرحبا وأهلا بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مر بي بالامس فتبسمت فقال مم تبسمك فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الاعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته فقال لا تعجب ان تلك الاعرابية التي رأيتها هي اختي وان بعلها اخو امرأتي هذه فغلب على كل طبع أهله (وقال عمر بن ميمون) مررت ببعض طرق الكوفة فاذا أنا برجل يخاصم جاره فقلت ما بالكما فقال أحدهما ان صديقا لي زارني فاشتهى راسا فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري اتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس انه هو الذي اشترى الرأس (وقال رجل من البخلاء) لاولاده اشتروا لي لحما فاشتروه فامر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده الا العظمة وعيون أولاده ترمقه فقال ما أعطي أحدا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها فقال ولده الاكبر امشمشها يا أبت وامصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلا قال لست بصاحبها فقال الاوسط الوكها يا أبت والحسها حتى لا يدري أحد أ لعام هي أم لعامين قال لست بصاحبها فقال الاصغر يا أبت امصها ثم أدقها وأسفها قال انت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزما (وقيل خرج اعرابي) قد ولاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة فلما كان في بعض الايام ورد عليه اعرابي من حيه فقدم اليه الطعام وكان اذ ذاك جائعا فسأل عن أهله وقال ما حال ابني عمير قال على ما تحب قد ملأ الارض والحي رجالا ونساء قال فما فعلت أم عمير قال صالحة أيضا قال فما حال الدار قال عامرة بأهلها قال وكلبنا ايقاع قال قد ملأ الارض نباحا قال فما حال جملي زريق قال على ما يسرك قال فالتفت الى خادمه وقال ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الاعرابي ثم أقبل عليه يسأله وقال يا مبارك الناصية أعد علي ما ذكرت قال سل عما بدا لك قال فما حال كلبي ايقاع قال مات قال وما الذي أماته قال اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات قال أومات جملي زريق قال نعم قال وما الذي أماته قال كثرة نقل الماء الى قبر أم عمير قال أوماتت أم عمير قال نعم قال وما الذي أماتها قال كثرة بكائها على عمير قال أومات عمير قال نعم قال وما الذي أماته قال سقطت عليه الدار قال أوسقطت

الدار

الدار قال نعم قال فقام له بالعصا فصار بافولى من بين يديه هاربا (وقال دعبل) كنا عند سهل بن هارون فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع فقال ويلك ياغلام آتنا غداءنا فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل فتأمل الديك فرآه بغير رأس فقال لغلامه وأين الرأس فقال رميته فقال والله انى لأكره من يرمى برجله فكيف برأسه ويحك أما علمت ان الرأس رئيس الاعضاء ومنه يصيح الديك ولولا صوته ما أريد وفيه فرقه الذى يتبرك به وعينه التى يضرب بها المثل فيقال شراب كعين الديك ودماغه عجيب لوجع الكلية ولم نر عظما أهش تحت الاسنان من عظم رأسه وهبك ظننت أنى لا آكله ما قلت عنده من يأكله انظر فى أى مكان رميته فائتنى به فقال لا أعرف أين رميته فقال لكنى أنا أعرف أين رميته قد رميته فى بطنك الله حسيبك (واشتكى رجل مروزى) صدره من سعال فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء فبينما هو يماطل الايام ويدفع الآلام أتاه بعض اصدقائه فوصف له ماء النخالة وقال له انه يجلو الصدر فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها فجلى صدره ووجده يعصم فلما حضر غداؤه أمر به فرفع الى العشاء وقال لامرأته اطبخى لاهل بيتنا النخالة فانى وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر فقالت لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة (وعن خاقان بن صبيح) قال دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا فاذا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة وقد علق فيها عود الخيط فقلت له ما بال هذا العود مربوطا قال قد شرب الدهن واذا ضاع ولم نحفظه احتجنا الى غيره فلا نجد الا عودا عطشان ونخشى ان يشرب الدهن قال بينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية اذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر الى العود فقال للرجل يا فلان لقد فررت من شئ ووقعت فيما هو شر منه أما علمت ان الريح والشمس يأخذان من سائر الاشياء وينشفان هذا العود لم لا اتخذت مكان هذا العود ابرة من حديد فان الحديد املس وهو مع ذلك عسر نشاف والعود أيضا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها فقال له الرجل الخراسانى أرشدك الله ونفع بك فلقد كنت فى ذلك من المسرفين (وقال الهيثم بن عدى) نزل على أبى حفصة الشاعر رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه فى هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج اليه ثم رجع وكتب له

يا أيها الخارج من بيته * وهاربا من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له * فارجع وكن ضيفا على الضيف

(وكان أبو العتاهية ومروان بن أبى حفصة) بخيلين يضرب ببخلهما المثل قال مروان ما فرحت بشئ أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لى المهدى فوزنتها فرجحت درهما واشترى لحما بدرهم فلما وضعه فى القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين فجعل القصاب ينادى على اللحم ويقول هذا لحم مروان واجتاز يوما باعرابية فأضافته فقال ان وهب الى أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهما فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوانق (ومن الموصوفين بالبخل آل مرو) يقال ان من عادتهم اذا ترافقوا فى سفر ان يشترى كل واحد

منهم قطعة لحم و يشبكها فى خيط ويجمعون اللحم كله فى قدر و يمسك كل واحد منهم طرف خيطه فاذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق (وكان عمر بن يزيد الاسدى بخيلا جدا) أصابه القولنج فى بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما فى بطنه فى الطست فقال لغلامه اجمع الدهن الذى نزل من الحقنة وأسرج به (وكان المنصور) شديد البخل جدا مر به مسلم الحادى فى طريقه الى الحج فحدا له يوما بقول الشاعر

اغر بين الحاجبين نوره * يزينه حياؤه وخيره

ومسكه يشوبه كافوره * اذا تغدى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل وقال يا ربيع أعطه نصف درهم فقال نصف درهم يا أمير المؤمنين والله لقد حدوت لهشام فأمر لى بثلاثين ألف درهم فقال تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع وكل به من يستخلص منه هذا المال قال الربيع فما زلت أمشى بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه ان يحدو له فى ذهابه وايابه بغير مؤنة وأخبار البخلاء كثيرة وفيما أوردناه كفاية (نادرة) قيل لابى الحرث ما تقول فى الفالوذجة قال وددت لو أنها وملك الموت اختصما فى صدرى والله لو أن موسى لقى فرعون بالفالوذجة لآمن به ولكنه لقيه بعصا (ودخل ابن قزعة يوما) على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال ما بال مولانا ليس يدعونى الى الموز بأكل الموز فقال صفه حتى أطعمك منه فقال ما الذى اصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبدا وعسلا أطيب الثمر كأنه مخ الشحم سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس فى الحلقوم ثم مد يده وأكل (وسمع) رجلا يذم الزبد فقال له ما الذى ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه (وقيل) له ما تقول فى الباذنجان قال أذناب المحاجم و بطون العقارب وبزور الزقوم قيل له انه يحشى باللحم فيكون طيبا فقال لو حشى بالتقوى والمغفرة ما أفلح (وصنع الحجاج وليمة) واحتفل فيها ثم قال لزاذان هل عمل كسرى مثلها فاستعفاه فأقسم عليه فقال اولم عبد عند كسرى فأقام على رؤس الناس ألف وصيفة فى يد كل واحدة ابريق من ذهب فقال الحجاج أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفا (وقال معاوية) لرجل على مائدته خذ الشعرة من لقمتك فقال وانك تراعينى مراعاة من يرى الشعرة فى لقمتى لا أكلت لك طعاما أبدا (وحضر اعرابى على مائدة بعض الخلفاء) فقدم جدى مشوى فجعل الاعرابى يسرع فى أكله منه فقال له الخليفة أراك تأكله بحرد كان أمه نطحتك فقال أراك تشفق عليه كان أمه أرضعتك (ودعت أبا الحرث صبية له) فحادثته ساعة فجاع فطلب الاكل فقالت له أما فى وجهى ما يشغلك عن الاكل قال جعلت فداءك لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما فى وجه صاحبه وافترقا (وقال الشمردل) وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز الى وقال يا شمردل ما عندك ما تطعمنى قلت عندى جدى كاعظم ما يكون سمنا قال عجل به فأتيته به كانه عكة سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى اذا لم يبق منه الا فخذا قال هلم يا أبا جعفر فقال انى صائم فأكله ثم قال

يا شمردل ويلك أما عندك شئ قلت ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام فأتيته بهن فأتى عليهن ثم قال يا شمردل أما عندك شئ قلت سويق كأنه قراضة الذهب فأتيته به فعبه حتى أتى عليه ثم قال يا غلام أفرغت من غدائنا قال نعم قال ما هو قال نيف وثلاثون قدرا قال ائتني بقدر قدر فأتاه بها ومعه الرقاق فأكل من كل قدر ثلثه ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا ووضع الخوان وأكل مع الناس (ونزل رجل بصومعة راهب) فقدم اليه الراهب أربعة أرغفة وذهب ليحضر اليه العدس فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب وأتى بخبز فوجده قد أكل العدس ففعل معه ذلك عشر مرات فسأله الراهب أين مقصدك قال الى الاردن قال لماذا قال بلغني ان بها طبيبا حاذقا أسأله عما يصلح معدتي فاني قليل الشهوة للطعام فقال له الراهب ان لى اليك حاجة قال وما هي قال اذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك من ههنا (يحكى) ان زيادا أمر بضرب عنق رجل فقال أيها الامير ان لى بك حرمة قال وما هي قال ان أبي جارك بالبصرة قال وما أبوك قال يا مولاى انى نسيت اسم نفسي فكيف لا أنسى اسم أبي فرد زياد كمه على فمه وضحك وعفا عنه (وحكى) عن جعفر الصادق رضي الله عنه ان غلاما له وقف يصب الماء على يديه فوقع الابريق من يد الغلام فى الطست فطار الرشاش فى وجهه فنظر جعفر اليه نظر مغضب فقال يا مولاى والكاظمين الغيظ قال قد كظمت غيظي قال والعافين عن الناس قال عفوت عنك قال والله يحب المحسنين قال اذهب فأنت حر لوجه الله الكريم (وقيل) لما قدم نصر بن منيع بين يدى الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه قال يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمات أقولهن قال قل فأنشأ يقول

زعموا بأن الصقر صادف مرة * عصفور برساقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه * والصقر منقض عليه يطير
انى لمثلك لا أتمم لقمة * ولئن شويت فانني لحقير
فتهاون الصقر المدل بصيده * كرما وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلى سبيله (وكتب) عبد الملك بن مروان الى الحجاج يأمره ان يبعث اليه برأس عباد بن أسلم البكرى فقال له عباد أيها الامير أنشدك الله لا تقتلنى فوالله انى لأعول أربعا وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى فرق لهن واستحضرهن فاذا واحدة منهن كالبدر فقال لها الحجاج ما أنت منه قالت أنا ابنته فاسمع يا حجاج منى ما أقول ثم قالت

أحجاج اما أن تمن بتركه * علينا واما أن تقتلنا معا
أحجاج لا تفجع به ان قتلته * ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج لا تترك عليه بناته * وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة (وحكى) ان رجلا زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع تتضمن انه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها الى وكيل الفضل فلما وقف الوكيل عليها لم يشك انها خط الفضل فشرع فى ان يبذل له الالف دينار واذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمرهم فلما جلس أخبره الوكيل بامر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر فى وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل

فأطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل أتدري لم أتيتك في هذا الوقت قال لا قال حتى لا تستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل اعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيرا في أمره فالتفت اليه الفضل وقال له طب نفسا فقال له سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة ثم أخذ المال ومضى (ومن اللطائف والغرائب الدالة على الوفاء بالذمم ما حكاه بعض خدم أمير المؤمنين المأمون قال) طلبني أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي خذ معك فلانا وفلانا وسماهما أحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم واذهب مسرعا لما أقول لك فانه قد بلغني ان شيخا يحضر ليلا الى دور البرامكة وينشد شعرا ويذكرهم ذكرا كثيرا ويندبهم ويبكي عليهم ثم ينصرف فامض الآن أنت وعلي ودينار حتى ترواهذه الخرابات فاستتروا في بعض الجدران فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيأ فائتوني به قال فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات واذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي جديد واذا بشيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول

ولما رأيت السيف جندل جعفرا * ونادى مناد للخليفة في يحيي

بكيت على الدنيا وزاد تأسفي * عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها وردها فلما قبضنا عليه وقلنا له أجب أمير المؤمنين فزع فزعا شديدا وقال دعوني حتى أوصي وصية فاني لا أوقن بعدها بحياة ثم تقدم الى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها الى غلامه ثم سرنا به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره وقال له ومن أنت وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها فقال يا أمير المؤمنين ان للبرامكة عندي ايادي خطيرة أفتأذن لي ان أحدثك حديثي معهم قال قل قال يا أمير المؤمنين انا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال فلما ركبني الدين واحتجت الى بيع مسقط رأسي ورؤس أهلي أشاروا علي بالخروج الى البرامكة فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبي وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد فدعوت بثويبات لي كنت قد أعددتها لاستمنح بها الناس فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شيء عندهم ودخلت شوارع بغداد اسائل عن دور البرامكة فاذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لانها لم تكن صناعتي واذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيي بن خالد ودخلت معهم واذا بيحيي جالس على دكة له في وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده واذا بغلام أمرد قد عذر خداه أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام الى جنب يحيي ثم قال يحيي للقاضي تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا فخطب القاضي وزوجه وشهد أولئك الجماعة واقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك

وا لعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت فاذا نحن في المكان ما بيني والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلا فخرج الينا مائة واثنا عشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في اكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الاول حتى بقيت وحدي بين يدي يحيي لا اجسر على أخذ الصينية فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي واخذت الصينية في يدي وقمت وجعلت التفت الى ورائي مخافة ان أمنع من الذهاب بها فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيي يلحظني اذ قال للخادم ائتني بذلك الرجل فرددت اليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي ثم أمرني بالجلوس فجلست فقال لي ممن الرجل فقصصت عليه قصتي فقال للخادم ائتني بولدي موسى فأتى به فقال يا بني هذا رجل غريب فخذه اليك واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى على يدي وادخلني الى دار من دوره فأكرمني غاية الاكرام واقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش واتم سرورا فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال ان الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه اليك وأكرمه ففعل ذلك وأكرمني غاية الاكرام فلما كان من الغد تسلمني أخوه ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولونني عشرة أيام لا اعرف خبر عيالي وصبياني أفي الاموات هم أم في الاحياء فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا لي قم فاخرج الى عيالك بسلام فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج الى عيالي على هذه الحالة انا لله وانا اليه راجعون فرفع الستر الاول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع فلما رفع الخادم الستر الاخير قال لي مهما كان لك من الحوائج فارفعها الي فاني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك واذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج وحمل الي ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التي كنت اخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس امن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطفوني فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل اجحفني عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به فلما تحامل على الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم فاندبهم وأذكر حسن صنيعهم الي وأشكرهم على احسانهم فقال المأمون علي بعمرو بن مسعدة فلما أتي به قال له يا عمرو أتعرف هذا الرجل قال نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة قال كم ألزمته في ضيعتيه قال كذا وكذا قال رد له كل ما استاديته منه في مدته ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده قال فعلا نحيب الرجل وبكاؤه فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له يا هذا لقد أحسنا اليك فلم تبكي قال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة اذ لو لم آت خراباتهم واندبهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين ففعل بي ما فعل فمن أين كنت اصل الى أمير المؤمنين قال ابراهيم بن ميمون فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك واياهم فاشكر ولهم فأوف ولاحسانهم فاذكر (ومن ذلك انه) خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد

ابن المهلب في بعض جبانات الشام فاذا امرأة جالسة على قبر تبكي قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فحكت شمسا عن متون غمامة فوقفنا متحيرين ننظر اليها فقال لها يزيد بن المهلب يا أمة الله هل لك في أمير المؤمنين فنظرت الينا ثم انشأت تقول

فان تسألاني عن هواي فانه * يحول بهذا القبر يا فتيان
واني لاستحييه والترب بيننا * كما كنت استحييه وهو يراني

(ومن ذلك ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم) قال ان أحمد بن طولون وجد عند سقاية طفلا مطروحا فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فاخذه اليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الامير أبو الجيش اليه وقال له أنت عندي بمكانة أرعاك بها ولكن عادتي اني آخذ العهد على كل أحد اعرفه ان لا يخونني في شيء فعاهده ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام والامير أبو الجيش بن طولون يحسن ليه فلما رأى أحواله متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن اليه واعتمد في أمور بيوته عليه فقال له يوما أحمد امض الى الحجرة الفلانية ففي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائتني بها فمضى أحمد فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الامير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هم من الامير بمحل قريب فلما رأياه خرج الفتى وجاءت الجارية الى أحمد وعرضت نفسها عليه ودعته الى قضاء وطره فقال لها معاذ الله ان أخون الامير وقد أحسن الي وأخذ العهد علي ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف الى الامير وسلمها اليه وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعد ما أخذ السبحة وخرج من الحجرة لئلا يذكر حالها للامير فاقامت أياما لم تجد من الامير ما غيره عليها ثم اتفق ان الامير اشترى جارية وقدمها على حظاياه وغمرها بعطاياه واشتغل بها عمن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها وكان أولا مشغولا بتلك الجارية الخائنة العاهرة فلما أعرض عنها اشتغالا بالجارية الجديدة وصرف اليها بهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه عن ملاعبة أترابها وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف ضرب اضرابها وكانت تلك الجارية الاولى لحسنها متأمرة على تامره لا تخاف من وليه ولا نصيره كبر عليها اعراضه عنها ونسبت ذلك الى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها فدخلت على الامير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها واعلنت بالبكاء بين يديه لاتمام كيدها ومكرها وقالت ان أحمد اليتيم راودني عن نفسي فلما سمع الامير ذلك استشاط غضبا وهم في الحال بقتله ثم عاوده حاكم عقله وتأنى في فعله واستحضر خادما يعتمد عليه وقال له اذا أرسلت اليك انسانا ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكا فاقتل ذلك الانسان واجعل رأسه في الطبق وأحضره مغطى ثم ان الامير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواص وادناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء فلما مثل بين يدي الامير وأخذ منه الشراب شرع في التدبير فقال يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به الى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا

الطبق

الطبق مسكا فاخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء والخواص فقاموا اليه وسألوه الجلوس معهم فقال أنا ماض في حاجة الامير أمرني باحضارها في هذا الطبق فقالوا له أرسل من ينوب عنك في احضارها وخذها أنت وادخل بها على الامير فادار عينيه فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية فاعطاه الطبق وقال له امض الى فلان الخادم وقل له يقول لك الامير املأ هذا الطبق مسكا فمضى ذلك الفراش الى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق واقبل به فناوله لاحمد اليتيم فاخذه وليس عنده علم من باطن الامر فلما دخل به على الامير كشفه وتامله وقال ماهذا فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من انفاذ الطبق وارساله مع الفراش وانه لا علم عنده غير ماذكر قال أتعرف لهذا الفراش خبرا يستوجب به ماجرى عليه فقال أيها الامير ان الذى تم عليه بما ارتكبه من الخيانة وقد كنت رأيت الاعراض عن اعلام الامير بذلك وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وماجرى له من حديث الجارية من أوله الى آخره لما أنفذه لاحضار السبحة الجوهر فدعا الامير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها فاقرت بصحة ماذكره أحمد فاعطاه اياها وأمره بقتلها ففعل وازدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه وضاعف احسانه اليه وجعل أزمة جميع مايتعلق به بيديه (قلت ويقرب من ذلك ماحكى) ان ملكا من ملوك الفرس يقال له ازدشير وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير وكان ذا باس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الاردن بالجمال البارع وان هذه البنت بكر ذات خدر فسير ازدشير من يخطبها من أبيها فامتنع من اجابته ولم يرض بذلك فعظم ذلك على أزدشير وأقسم بالايمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة وليمثلن بهما أخبث مثلة فسار اليه أزدشير في جيشه فقاتله فقتله أزدشير وقتل سائر خواصه ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت اليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنا وجمالا وقدا واعتدالا فبهت أزدشير من رؤيته اياها فقالت له أيها الملك انى ابنة الملك الفلانى ملك المدينة الفلانية وان الملك الذى قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل ان تقتله أنت وانه اسرني في جملة الاسارى وأتى بي في هذا القصر فلما رأتني ابنته التى أرسلت تخطبها احبتني وسألت اباها ان يتركني عندها لتأنس بي فتركني لها فكنت أنا وهي كانسان وحيد في جسد واحد فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فارسلها الى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك فقال أزدشير وددت لو انى ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ثم انه تامل الجارية فرآها فائقة في الجمال فمالت نفسه اليها فاخذها للتسرى وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني باخذها ثم انه واقعها وازال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق انها تحدثت معه يوما وقد رأته منشرح الصدر فقالت له أنت غلبت أبي وأنا غلبتك فقال لها ومن أبوك فقالت له هو ملك بحر الاردن وأنا ابنته التى خطبتها منه وانى سمعت انك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت والآن هذا ولدك في بطني فلا يتهيأ لك قتلي فعظم ذلك على أزدشير اذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه فانتهرها وخرج من عندها مغضبا وعول على قتلها ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها خشي ان

يتحدث الملوك عنه بمثل هذا وانه لا يقبل فيها شفاعة شافع فقال أيها الملك ان الرأى هو الذى خطر لك والمصلحة هى التى رأيتها أنت وقتل هذه الجارية فى هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لانه أحق من ان يقال ان امرأة قهرت رأى الملك وحنثته فى يمينه لاجل شهوة النفس ثم قال أيها الملك ان صورتها مرحومة وحمل الملك معها وهى أولى فى الستر ولا أرى فى قتلها أهون ولا أستر عليها من الغرق فقال له الملك نعم ما رأيت خذها غرقها فاخذها الوزير ثم خرج بها ليلا الى بحر الاردن ومعه ضوء ورجال واعوان فتحيل الى ان طرح شيأ فى البحر أوهم من كان معه انها الجارية ثم انه اخفاها عنده فلما أصبح جاء الى الملك فاخبره انه غرقها فشكره على فعله ثم ان الوزير ناول الملك حقا مختوما وقال أيها الملك انى نظرت مولدى فرأيت اجلى قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس فى النجوم وان لى أولادا وعندى مال قد ادخرته من نعمتك تأخذه اذا مت ان رأيت وهذا الحق فيه جوهر اسأل الملك ان يقسمه بين أولادى بالسوية فانه ارثى الذى قد ورثته من أبى وليس عندى شئ اكتسبته منه الا هذا الجوهر فقال الذى له الملك يطول الرب فى عمرك ومالك لك ولاولادك سواء كنت حيا أو ميتا فالح عليه الوزير ان يجعل الحق عنده وديعة فاخذه الملك وودعه عنده فى صندوق ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولدا ذكرا جميلا حسن الخلقة مثل القمر فلاحظ الوزير جانب الادب فى تسميته فرأى انه ان اخترع له اسما وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الادب وان هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك فسماه شاه بور ومعناه بالفارسية ابن ملك فان شاه ملك وبور ابن ولغتهم مبنية على تاخير المتقدم وتقديم المتاخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة ولم يزل الوزير يلاطف الجارية بتربية الولد الى أن بلغ الولد حد التعليم فعلمه كل ما يصلح لاولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية وهو يوهم انه مملوك له اسمه شاه بور الى أن راهق البلوغ هذا كله وازدشير ليس له ولد وقد طعن فى السن وأقعده الهرم فمرض وأشرف على الموت فقال للوزير أيها الوزير قد هرم جسمى وضعفت قوتى وانى أرى انى ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه بعدى من قضى له به فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولى بعده الملك ثم ذكره بامر بنت ملك بحر الاردن وبحملها فقال الملك لقد ندمت على تغريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكرا فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال أيها الملك انها عندى حية وقد ولدت ذكرا من أحسن الغلمان خلقا وخلقا فقال الملك احق ما تقول فاقسم الوزير ان نعم ثم قال أيها الملك ان فى الوالد روحانية تشهد بابوة الاب وفى الولد روحانية تشهد ببنوة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبدا وانى آتى بهذا الغلام بين عشرين غلاما فى سنه وهيئته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلا أباه وانى أعطى كل واحد منهم صولجانا وكرة وآمرهم ان يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا ويتامل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم فكل من مالت اليه نفسك وروحانيتك فهو هو فقال الملك نعم التدبير الذى قلت فاحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدى الملك فكان الصبى فيهم اذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة ان يتقدم ليأخذها الا شاه بور فانه كان اذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فاخذها ولا تاخذه الهيبة منه فلاحظ أزدشير ذلك منه مرارا فقال أيها الغلام ما اسمك قال شاه بور فقال له صدقت أنت ابنى حقا ثم ضمه اليه وقبله

بين عينيه فقال له الوزير هذا ابنك أيها الملك ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فاثبت لكل
صبي منهم والده بحضرة الملك فتحقق الصدق في ذلك ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها
وجمالها فقبلت يد الملك فرضي عنها فقال الوزير أيها الملك قد دعت الضرورة في الوقت الى
احضار الحق المختوم فأمر الملك باحضاره ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فاذا فيه ذكر الوزير
وانثياه مقطوعة مضمنة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولا من الحكماء
وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بان هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم
الجارية بليلة واحدة قال فدهش الملك ازدشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في
الخدمة وشدة نصحه فزاد سروره وتضاعف فرحه باصابته الجارية واثبات نسب الولد ولحوقه
به ثم ان الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور
بابنه الى أن حضرته الوفاة ورجع الملك الى ابنه شابور بعد موت أبيه وصار ذلك الوزير يخدم
ابن الملك ازدشير وشابور يحفظ مقامه ويرى منزلته حتى توفاه الله تعالى (قلت ومن بديع
ما جاء في المكافأة على الصنيع) ما حكي عن الحسن بن سهل قال كنت عند يحيى بن خالد البرمكي
وقد خلا في مجلسه لاحكام أمر من أمور الرشيد فبينما نحن جلوس اذ دخل عليه جماعة من
أصحاب الحوائج فقضاها لهم ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياما أحمد بن أبي خالد الاحول
فنظر يحيى اليه والتفت الى الفضل ابنه وقال يا بني ان لابيك مع أبي هذا الفتى حديثا فاذا فرغت
من شغلي هذا فاذكرني أحدثك به فلما فرغ من شغله قال له ابنه الفضل أعزك الله يا أبي
أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد الاحول قال نعم يا بني لما قدم أبوك من العراق أيام
المهدي كان فقيرا لا يملك شيئا فاشتد بي الامر الى أن قال لي من في منزلي انا قد كتمنا حالنا وزاد
ضررنا ولنا ثلاثة أيام ما عندنا شيء نقتاته قال فبكيت يا بني لذلك بكاء شديدا وبقيت ولهان
حيران مطرقا مفكرا ثم تذكرت منديلا كان عندي فقلت لهم ما حال المنديل فقالوا هو باق
عندنا فقلت ادفعوه الي فأخذته ودفعته الى بعض أصحابي وقلت له بعه بما تيسر فباعه بسبعة
عشر درهما فدفعتها الى أهلي وقلت انفقوها الى أن يرزق الله غيرها ثم بكرت من الغد الى باب
أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي فاذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه فخرج عليهم
راكبا فلما رآني سلم علي وقال كيف حالك فقلت يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالامس
منديلا بسبعة عشر درهما فنظر الي نظرا شديدا وما أجابني جوابا فرجعت الى أهلي كسير
القلب وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد فقالوا بئس والله ما فعلت توجهت الى رجل كان
يرتضيك لامر جليل فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك فازريت عنده بنفسك
وصغرت عنده منزلتك بعد ان كنت عنده جليلا لا يراك بعد اليوم الا بهذه العين فقلت قد
قضي الامر الآن بما لا يمكن استدراكه فلما كان من الغد بكرت الى باب الخليفة فلما بلغت
الباب استقبلني صاحب أبي خالد فقال لي أين تكون قد أمرني أبو خالد باجلاسك الى أن
يخرج من عند أمير المؤمنين فجلست حتى خرج فلما رآني دعاني وأمر لي بمركوب فركبت
وسرت معه الى منزله فلما نزل قال علي بفلان وفلان الحناطين فأحضرا فقال لهما ألم تشتريا مني
غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم قالا نعم قال ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما قالا بلى

قال هو هذا الرجل الذى اشترطت شركته لكما ثم قال لى قم معهما فلما خرجنا قالا لى ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون لك فيه الربح الهنى فدخلنا مسجدا فقالا لى انك تحتاج فى هذا الامر الى وكلاء وامناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شئ فهل لك ان تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به ويسقط عنك التعب والكلف فقلت لهما وكم تبذلان لى فقالا مائة ألف درهم فقلت لا أفعل فما زالا يزيدانني وأنا لا أرضى الى أن قالا لى ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا فقلت حتى أشاور أبا خالد قالا ذلك لك فرجعت اليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما هل وافقتماه على ما ذكر قالا نعم قال اذهبا فاقبضاه المال الساعة ثم قال لى أصلح امرك وتهيأ فقد قلدتك العمل فاصلحت شأنى وقلدنى ما وعدنى به فما زلت فى زيادة حتى صار أمرى الى ما صار ثم قال لولده الفضل يا بنى فما تقول فى ابن من فعل بأبيك هذا الفعل وما جزاؤه قال حق لعمرى وجب عليك له فقال والله يا ولدى ما أجد له مكافأة غير أن أعزل نفسى وأوليه ففعل ذلك وهكذا تكون المكافأة (ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المامون) قال دخلت يوما الى مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآنى قال لى يا عباس قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال خذ هذا اليك فاستوثق منه واحتفظ وبكر به الى فى غد واحترز عليه كل الاحتراز قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر ان يتحرك فقلت فى نفسى مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب الا ان يكون معى فى بيتى فأمرتهم فتركوه فى مجلس لى فى دارى ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو فقال من دمشق فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيرا فمن أنت من أهلها قال وعمن تسأل قلت أتعرف فلانا قال ومن أين تعرف ذلك الرجل فقلت وقع لى معه قضية فقال ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه فقال ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى ان الوالى تدلى فى زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت فى جملة القوم فبينما أنا هارب فى بعض الدروب واذا بجماعة يعدون خلفى فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت أغثنى أغاثك الله قال لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت فقالت زوجته ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت الا وقد دخل الرجال معه يقولون هو والله عندك فقال دونكم الدار فتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف فقالت المرأة اجلس لا بأس عليك فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال لا تخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت الى الامن والدعة ان شاء الله تعالى فقلت له جزاك الله خيرا فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها وافرد لى مكانا فى داره ولم يحوجنى الى شئ ولم يفتر عن تفقد احوالى فأقمت عنده أربعة اشهر فى أرغد عيش واهنئه الى ان سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها فقلت له أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى فلعلى أقف منهم على خبر فأخذ على المواثيق بالرجوع فخرجت وطلبت غلمانى فلم أر لهم أثرا فرجعت اليه واعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفنى ولا يسألنى ولا يعرف اسمى ولا يخاطبنى

الا

الا بالكنية فقال لي عـلام تعزم فقلت قد عزمت على التوجه الى بغداد فقال ان القافلة بعد
ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد اعلمتك فقلت له انك قد تفضلت عليّ هذه المدة ولك عليّ عهد الله انى
لا أنسى لك هذا الفضل ولا وفينك مهما استطعت قال فدعا غلاما له أسود وقال له أسرج الفرس
الفلانى ثم جهز آلة السفر فقلت فى نفسى أظن انه يريد ان يخرج الى ضيعة له أو ناحية من
النواحى فاقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب فلما كان يوم خروج القافلة جاءنى فى السحر وقال لى
يافلان قم فان القافلة تخرج الساعة وأكره ان تنفرد عنها فقلت فى نفسى كيف أصنع وليس معى
ما اتزود به ولا ما أكرى به مركوبا ثم قمت فاذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين
جديدين وآلة السفر ثم جاءنى بسيف ومنطقة فشدهما فى وسطى ثم قدم بغلا فحمل عليه
صندوقين وفوقهما فرش ورفع الى نسخة مافى الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم الىّ
الفرس الذى كان جهزه وقال اركب وهذا الغلام الاسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل
هو وامرأته يعتذران الى من التقصير فى أمرى وركب معى يشيعنى وانصرفت الى بغداد وأنا
أتوقع خبره لأفى بعهدى له فى مجازاته ومكافاته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ ان أرسل اليه
من يكشف خبره فلهذا أنا أسال عنه فلما سمع الرجل الحديث قال لقد أمكنك الله تعالى من
الوفاء له ومكافاته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت وكيف
ذلك قال انا ذلك الرجل وانما الضر الذى أنا فيه غير عليك حالى وما كنت تعرفه منى ثم لم يزل
يذكر لى تفاصيل الاسباب حتى أثبت معرفته فما تمالكت ان قمت وقبلت رأسه ثم قلت له
فما الذى آل بك الى ما أرى فقال هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك فنسبت
الىّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش فاصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت الى أن أشرفت على الموت
وقيدت وبعث بى الى أمير المؤمنين وأمرى عنده عظيم وخطبى لديه جسيم وهو قاتلى لامحالة
وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف الى أهلى بخبرى وهو
نازل عند فلان فان رأيت ان تجعل من مكافاتك لى ان ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما
أريد فاذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافاة وقمت لى بوفاء عهدك قال العباس قلت يصنع
الله خيرا ثم أحضر حدادا فى الليل فك قيوده وأزال ما كان فيه من الانكال وأدخله حمام داره
وألبسه من الثياب ما احتاج اليه ثم أرسل من أحضر اليه غلامه فلما رآه جعل يبكى ويوصيه
فاستدعى نائبه وقال على بالفرس الفلانى والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة ومن
الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل وأحضر لى بدرة
عشرة آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه فى الشرط خذ هذا الرجل
وشيعه الى حد الانبار فقلت له ان ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم وخطبى جسيم وان أنت
احتججت بانى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فارادوا قتلى فقال لى انج بنفسك
ودعنى أدبر أمرى فقلت والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم مايكون من خبرك فان احتجت
الى حضورى حضرت فقال لصاحب الشرطة ان كان الامر على ما يقول فليكن فى موضع كذا
فان أنا سلمت فى غداة غد أعلمته وان أنا قتلت فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك الله ان
لا يذهب من ماله درهم وتجتهد فى اخراجه من بغداد قال الرجل فاخذ فى صاحب الشرطة

وصيرني في مكان آتي به وتفرغ العباس لنفسه وتحفظ وجهزله كفنا قال العباس فلم أفرغ من صلاة الصبح الا ورسل المأمون في طلبي يقولون يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم قال فتوجهت الى دار أمير المؤمنين فاذا هو جالس عليه ثيابه وهو ينتظرنا فقال أين الرجل فسكت فقال ويحك أين الرجل فقلت يا أمير المؤمنين اسمع مني فقال لله علي عهد لئن ذكرت انه هرب لاضربن عنقك فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك وما تريد ان تفعله في أمري فقال قل فقلت يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته انني أريد ان أوفي له وأكافئه على ما فعله معي وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين اما ان يصفح عني فأكون قد وفيت وكافأت واما ان يقتلني فافيه بنفسي وقد تحنطت وها كفني يا أمير المؤمنين فلما سمع المأمون الحديث قال ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيرا انه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير هلا عرفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له فقلت يا أمير المؤمنين انه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي فان احتجت الى حضوره حضر فقال المأمون وهذه منة أعظم من الاولى اذهب الآن اليه فطيب نفسه وسكن روعه وائتني به حتى أتولى مكافأته قال العباس فأتيت اليه وقلت له ليزل خوفك ان أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه منه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه اعمال دمشق فاستعفى فأمر له المأمون بعشرة افراس بسروجها ولجمها وعشرة بغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم وكتب الى عامله بدمشق بالوصية به واطلاق خراجه وأمره بمكاتبته باحوال دمشق فصارت كتبه تصل الى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم (ومن عجائب هذا الاسلوب وغرائبه) ما أورده محمد بن القاسم الانباري رحمه الله تعالى ان سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال انصرفت يوما من دار الخليفة المهدي فلما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي فأمرت به فرفع ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها واشتغل بها فلم تطب نفسي فدخل وقت القائلة فلم يأخذني النوم فنهضت وأمرت ببغلة لي فأسرجت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي ومعه مال فقلت ما هذا فقال ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد قلت أمسكها معك واتبعني وأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت في شارع دار الرقيق حتى انتهيت الى الصحراء ثم رجعت الى باب الانبار وانتهيت الى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقينيه قال نعم ثم دخل واحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولني فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب فصليت فيه فلما قضيت صلاتي اذا أنا بأعمى يلتمس فقلت ما تريد يا هذا قال اياك أريد قلت فما حاجتك فجاء حتى جلس الى جانبي وقال شممت منك رائحة طيبة فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشيء فقلت قل قال الا ترى الى باب هذا القصر قلت نعم قال هذا قصر كان

لابي فباعه وخرج الى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التي كنا فيها وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيت صاحب هذه الدار لاسأله شيئا يصلني به وأتوصل الى سوار فانه كان صديقا لابي فقلت ومن أبوك قال فلان بن فلان فعرفته فاذا هو كان من أصدق الناس الى فقلت له ياهذا ان الله تعالى قد أتاك بسوار منعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فاقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فاخذت الدراهم منه فدفعتها اليه وقلت له اذا كان الغد فسر الى منزلي ثم مضيت وقلت ما احدث أمير المؤمنين بشئ أطرف من هذا فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لي فأعجبه ذلك وأمر لي بألفي دينار فأحضرت فقال ادفعها الى الاعمى فنهضت لاقوم فقال اجلس فجلست فقال أعليك دين قلت نعم قال كم دينك قلت خمسون ألفا فحادثني ساعة وقال امض الى منزلك فمضيت الى منزلي فاذا أنا بخادم معه خمسون ألفا وقال يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك قال فقبضت منه ذلك فلما كان من الغد أبطأ على الاعمى وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته فقال قد فكرت البارحة في أمرك فقلت يقضي دينه ثم يحتاج الى القرض أيضا وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى قال فقبضتها وانصرفت فجاء في الاعمى فدفعت اليه الالفي دينار وقلت له قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على احسان أبيك وكافأني على اسداء المعروف اليك ثم أعطيته شيئا آخر من مالي فاخذه وانصرف والله سبحانه وتعالى أعلم (ومن ذلك ما حكاه القاضي يحيى بن اكثم) رحمة الله تعالى عليه قال دخلت يوما على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر فقال لي أتعرف قائل هذا البيت الخير أبقى وان طال الزمان به * والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت يا أمير المؤمنين ان لهذا البيت شانا مع عبيد بن الابرص فقال علي بعبيد فلما حضر بين يديه قال له أخبرني عن قضية هذا البيت فقال يا أمير المؤمنين كنت في بعض السنين حاجا فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة الحقت أولها بآخرها فسألت عن القصة فقال لي رجل من القوم تقدم تر ما بالناس فتقدمت الى أول القافلة فاذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء البعير فهالني أمره وبقيت لا أهتدي الى ما اصنع في أمره فعدلنا عن طريقه الى ناحية أخرى فعارضنا ثانيا فعلمت انه لسبب ولم يجسر احد من القوم ان يقربه فقلت أفدي هذا العالم بنفسي وأتقرب الى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا فأخذت قربة من الماء تقلدتها وسللت سيفي وتقدمت فلما رآني قربت منه سكن وبقيت متوقعا منه وثبة يبتلعني فيها فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة في فيه وصببت الماء كما يصب في الاناء فلما فرغت القربة تسيب في الرمل ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك وحططنا في منزلتنا تلك في ليلة مظلمة مدلهمة فاخذت شيئا من الماء وعدلت الى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتي ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتني عيني فنمت مكاني فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسا وقد ارتحلوا وبقيت منفردا لم أر أحدا ولم اهتد الى ما افعله واخذتني حيرة وجعلت اضطرب فاذا بصوت هاتف اسمع صوته ولا أرى شخصه يقول

يا أيها الشخص المضل مركبه * ما عنده من ذي رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه * وبكرك الميمون حقا تجنبه
حتى اذا ما الليل غاب غيهبه * عند الصباح في الفلا تسيبه

فنظرت فاذا أنا ببكر قائم عندي وبكري الى جانبي فانخته وركبته وجنبت بكري فلما سرت قدر عشرة اميال لاحت لي القافلة وانفجر الفجر ووقف البكر فعلمت انه قد حان نزولي فتحولت الى بكري وقلت

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب * ومن هموم تضل المدلج الهادي
الا تخبرني بالله خالقنا * من الذي جاء بالمعروف في الوادي
وارجع حميدا فقد أبلغتنا مننا * بوركت من ذي سنام رائح غادي

فالتفت البكر الي وهو يقول

أنا الشجاع الذي الفيتني رمضا * والله يكشف ضر الحائر الصادي
فجدت بالماء لما ضن حامله * تكرما منك لم تمنن بانكاد
فالخير يبقى وان طال الزمان به * والشر اخبث ما اوعيت من زاد
هذا جزاؤك مني لا امن به * فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادي

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والابيات فكتبت عنه وقال لا يضيع المعروف أين وضع

(موعظة) حكى انه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الاندلسي وكان شيخا لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين الف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات فخرج في بعض السنين الى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق قال الشبلي فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى الى أن وصلنا قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد فجعلنا ندور بتلك القرية واذا نحن بكنائس وبها شماسة وقساقسة ورهبان وهم يعبدون الاصنام والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم ثم انصرفنا الى بئر في آخر القرية واذا نحن بجوار يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها وفي عنقها قلائد الذهب فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال هذه ابنة من فقيل له هذه ابنة ملك هذه القرية فقال الشيخ فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء فقيل له أبوها يفعل ذلك بها حتى اذا تزوجها رجل أكرمته وخدمته ولا تعجبها نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحدا غير انه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه ولا يدرون ما يصنعون قال الشبلي فتقدمت اليه وقلت له يا سيدي ان أصحابك ومريديك يعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحدا قال فأقبل علينا وقال يا قوم اعلموا أن الجارية التي رأيتها بالامس قد شغفت بها حبا واشتغل قلبي بها وما بقيت أقدر أفارق هذه الارض قال الشبلي فقلت له يا سيدي أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد في سائر الآفاق وعدد مريديك اثنا عشر ألفا فلا تفضحنا واياهم بحرمة الكتاب العزيز فقال يا قوم جرى القلم بما حكم ووقعت في بحار العدم وقد انحلت مني عرى الولاية وطويت اعلام الهداية ثم انه بكى بكاء شديدا وقال

ياقوم انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر فتعجبنا من أمره وسألنا الله تعالى ان يجيرنا من مكره
ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ثم انصرفنا عنه راجعين الى بغداد فخرج الناس الى لقائه
ومريدوه في جملة الناس فلم يروه فسألونا عنه فعرفناهم بما جرى فمات من مريديه جماعة كثيرة
حزنا عليه وجعل الناس يبكون ويتضرعون الى الله تعالى ان يرده عليهم وأغلقت الرباطات
والزوايا والخوانق ولحق الناس حزن عظيم فاقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابي نكشف
خبره فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا انه في البرية يرعى الخنازير قلنا وما السبب في
ذلك قالوا انه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجها الا ممن هو على دينها ويلبس العباءة
ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله وها هو في البرية يرعى الخنازير
قال الشبلي فانصدعت قلوبنا وانهملت بالبكاء عيوننا وسرنا اليه واذا به قائم قدام الخنازير فلما
رآنا نكس رأسه واذا عليه قلنسوة النصارى وفي وسطه زنار وهو متوكئ على العصا التي كان
يتوكأ عليها اذا قام في الخطبة فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا يا شيخ ماذا وماذا وما هذه
الكروب والهموم بعد تلك الاحاديث والعلوم فقال يا اخواني ليس لي من الامر شيء سيدي
تصرف في كيف شاء وحيث أراد ابعدني عن بابه بعد ان كنت من جملة احبابه فالحذر الحذر
يا أهل وداده من صده وابعاده والحذر الحذر يا أهل المودة والصفا من القطيعة والجفا ثم
رفع طرفه الى السماء وقال يا مولاي ما كان ظني فيك هذا ثم جعل يستغيث ويبكي ونادى يا شبلي
اتعظ بغيرك فنادى الشبلي باعلى صوته بك المستعان وأنت المستغاث وعليك التكلان اكشف
عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك قال فلما سمعت الخنازير بكاءهم
وضجيجهم أقبلت اليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دويت منها
الجبال قال الشبلي فظننت ان القيامة قد قامت ثم ان الشيخ بكى بكاء شديدا قال الشبلي فقلنا له
هل لك ان ترجع معنا الى بغداد فقال كيف لي بذلك وقد استرعيت الخنازير بعد ان كنت أرعى
القلوب فقلت يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيأ فقال
نسيته كله الا آيتين فقلت وما هما قال قوله تعالى ومن يهن الله فما له من مكرم ان الله يفعل
ما يشاء والثانية قوله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل فقلت يا شيخ
كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل تحفظ منها شيأ قال
حديثا واحدا وهو قوله صلى الله عليه وسلم من بدل دينه فاقتلوه قال الشبلي فتركناه وانصرفنا
ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام واذا به امامنا قد تطهر من نهر وطلع وهو يشهد شهادة
الحق ويجدد اسلامه فلما رأينا لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر الينا وقال يا قوم
اعطوني ثوبا طاهرا فاعطيناه ثوبا فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا له الحمد لله الذي ردك علينا
وجمع شملنا بك فصف لنا ما جرى لك وكيف كان أمرك فقال يا قوم لما وليتم من عندي سألته
بالوداد القديم وقلت له يا مولاي أنا المذنب الجاني فعفا عني بجوده وبستره غطاني فقلنا له بالله
نسألك هل كان لمحنتك من سبب قال نعم لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس
قلت في نفسي ما قدر هؤلاء عندي وأنا مؤمن موحد فنوديت في سري ليس هذا منك ولو شئت
عرفناك ثم احسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الايمان قال الشبلي ففرحنا

به فرحا شديدا وكان يوم دخولها يوما عظيما مشهودا وفتحت الزوايا والربا طات والخوانق ونزل
الخليفة للقاء الشيخ وأرسل اليه الهدايا وصار يجتمع عنده اسماع علمه أربعون ألفا واقام
على ذلك زمانا طويلا واورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث وزاده على ذلك فبينما
نحن جلوس عنده في بعض الايام بعد صلاة الصبح اذا بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من
الباب فاذا شخص ملتف بكساء أسود فقلت له ما الذي تريد فقال قل لشيخكم ان الجارية
الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية فقد جاءت لخدمتك قال فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه
وارتعد ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديدا فقال لها الشيخ كيف مجيئك ومن
اوصلك الى ههنا قالت ياسيدي لما وليت من قريتنا جاءني من أخبرني بك فبت ولم يأخذني قرار
فرأيت في منامي شخصا وهو يقول ان أحببت ان تكوني من المؤمنات فاتركي ما أنت عليه
من عبادة الاصنام واتبعي ذلك الشيخ وادخلي في دينه فقلت وما دينه قال دين الاسلام قلت وما
هو قال شهادة أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فقلت كيف لي بالوصول اليه قال اغمضي
عينيك واعطيني يدك ففعلت فمشى قليلا ثم قال افتحي عينيك ففتحتهما فاذا أنا بشاطئ دجلة
فقال امضي الى تلك الزاوية واقرئي الشيخ مني السلام وقولي له ان أخاك الخضر يسلم عليك قال
فادخلها الشيخ الى جواره وقال تعبدي ههنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم
الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها
الشيخ فقالت قولوا للشيخ يدخل على قبل الموت فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رأته بكت
فقال لها لا تبكي فان اجتماعنا غدا في القيامة في دار الكرامة ثم انتقلت الى رحمة الله تعالى
فلم يلبث الشيخ بعدها الا اياما قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه قال الشبلي فرأيته في المنام
وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما
اه فليتأمل العاقل في ذلك ولا يرى له فضلا على أحد من خلق الله تعالى فهو الفاعل المختار
يعطي من يشاء ويمنع فالكل منه واليه (موعظة) قيل عشش ورشان في شجرة في دار رجل
فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخ ذلك الورشان ففعل ذلك
مرارا وكلما خرج الورشان أخذ أفراخه فشكا الورشان ذلك الى سليمان عليه السلام وقال
يارسول الله أردت ان يكون لي ولد يذكرون الله تعالى من بعدي فاخذها الرجل بامر امرأته
ثم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان لشيطانين اذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين
فلما أراد الرجل ان يصعد الشجرة اعترضه سائل فاطعمه كسرة من خبز شعير ثم صعد وأخذ
الافراخ على عادته فشكا الورشان ذلك الى سليمان عليه السلام فقال للشيطانين ألم تفعلا
ما أمرتكما به فقالا اعترضنا ملكان فطرحانا في الخافقين اه (وكان الحسن بن صالح) اذا جاء
سائل فان كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فان لم يكن عنده من ذلك شئ اعطاه دهنا
أو غيره مما ينتفع به فان لم يكن عنده شئ أعطاه كحلا أو اخرج ابرة وخيطا فرقع بهما ثوب
السائل (وحكى) ان رجلا جلس يوما يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية فوقف
سائل ببابه فخرج اليه وانتهره فذهب فاتفق بعد ذلك ان الرجل افتقر وزالت نعمته وطلق

زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها في بعض الايام وبين أيديهما دجاجة مشوية
واذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته ادفعي اليه هذه الدجاجة فخرجت بها اليه فاذا
هو زوجها الاوّل فدفعت اليه الدجاجة ورجعت وهي باكية فسألها زوجها عن بكائها فاخبرته
ان السائل كان زوجها وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الاوّل فقال لها
أنا والله ذلك السائل (ومما وقفت عليه) ما حكي ان بعضهم قال دخلت البادية فاذا أنا بعجوز
بين يديها شاة مقتولة والى جانبها جرو ذئب فقالت أتدري ما هذا فقلت لا قالت هذا جرو ذئب
أخذناه صغيرا وأدخلناه بيتنا وربيناه فلما كبر فعل بشاتي ماترى وأنشدت

بقرت شويهتي وفجعت قومي * وأنت لشاتنا ابن ربيب
غذيت بدرّها ونشأت معها * فمن انباك ان أباك ذيب
اذا كان الطباع طباع سوء * فلا أدب يفيد ولا أديب

(قيل) مر عمرو بن عبيد بجماعة وقوف فقيل ما هذا قيل السلطان يقطع سارقا فقال لا اله الا
الله سارق العلانية يقطع سارق السر (ومن ذلك ما حكي) ان رجلا من العرب دخل على
المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه وصار يدخل على حريمه من غير استئذان وكان له وزير حاسد
فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه ان لم احتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير
المؤمنين وأبعدني منه فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به الى منزله فطبخ له طعاما وأكثر فيه من
الثوم فلما أكل البدوي منه قال له احذر ان تقرب من أمير المؤمنين فيشم منك رائحة الثوم
فيتأذى من ذلك فانه يكره رائحته ثم ذهب الوزير الى أمير المؤمنين فخلا به وقال يا أمير المؤمنين
ان البدوي يقول عنك للناس ان أمير المؤمنين ابخر وهلكت من رائحة فمه فلما دخل البدوي
على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة ان يشم منه رائحة الثوم فلما رآه أمير المؤمنين كتب
كتابا الى بعض عماله يقول له فيه اذا وصل اليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوي
ودفع اليه الكتاب وقال له امض به الى فلان وائتني بالجواب فامتثل البدوي ما رسم به أمير
المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده فبينما هو بالباب اذ لقيه الوزير فقال أين تريد قال
أتوجه بكتاب أمير المؤمنين الى عامله فلان فقال الوزير هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد
مال جزيل فقال له يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك
ألفي دينار فقال له أنت الكبير وأنت الحاكم ومهما أردت افعل فقال أعطني الكتاب فدفعه
اليه فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب الى المكان الذي هو قاصده فلما قرأ العامل
الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي وسأل عن الوزير فاخبر
بان له أياما ما ظهر وان البدوي بالمدينة مقيم فتعجب من ذلك وأمر باحضار البدوي فحضر
فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أوّلها الى آخرها فقال له أنت قلت
للناس عني اني ابخر فقال يا أمير المؤمنين انا اتحدث بما ليس لي به علم انما كان ذلك مكرا منه
وحسدا وأعلمه كيف دخل به الى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه فقال أمير المؤمنين قاتل
الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه ثم اتخذ البدوي وزيرا وراح الوزير بحسده اهـ (وحكي) ان
معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لما مرض مرضه الذي مات فيه دخل عليه بعض بني هاشم

ليعوده فلما استأذن عليه قام وجلس وأظهر القوة والتجلد وأذن للهاشمي فدخل عليه ثم قال متمثلا بقول أبي ذؤيب الهذلي من قصيدة رثى بها أولاده ماتوا بالطاعون

وتجلدي للشامتين أريهم * أني لريب الدهر لا أتضعضع

فأجابه الهاشمي على الفور من القصيدة المذكورة بعينها

وإذا المنية أنشبت أظفارها * ألفيت كل تميمة لا تنفع

(ومما يشاكل ذلك) ما حكاه لي سيدي ومولاي عمدة العلماء الاعلام ونتيجة قضايا الادباء الفخام الشيخ عبد الغني افندي الرافعي حفظه الله تعالى انه حكى له عبد الله افندي ابن قاضي الموصل ان بعض علماء بغداد وفد على دار الخلافة العلية في أيام السلطان سليم بن السلطان عثمان خان ونزل في دار صاحب المشيخة العظمى اذ ذاك فاتفق له ان رأى السلطان سليما في القائق بين أسكي دار واسلامبول فمر قائق الشيخ بالقرب من قائق السلطان فلما وقع عليه نظر الملك ورأى عليه سيما أهل العلم أحب ان يداعبه فقال عندما دناه

فيم اقتحامك لج البحر تركبه * وأنت يكفيك منه مصة الوشل

فاجابه على الفور من القصيدة

أريد بسطة كف استعين بها * على قضاء حقوق للعلا قبلي

فعند ذلك ساله عن مكانه فاخبر انه نزيل شيخ الاسلام ثم مر كل منهما بقائقه وبعد أيام اجتمع السلطان سليم بشيخ الاسلام وساله عن الشيخ وذكر له صفته ثم أمره ان يساله عن مراده فساله من غير ان يعلمه ان ذلك عن أمر الملك فقال بغيتي القرية الفلانية في محل كذا ان أقطعنيها كفتني ولا أريد سواها فاخبر الملك بذلك فاقطعه القرية وعاد وقد ربحت تجارته ببضاعة أدبه (ومن هذا القبيل) ما وقع في عصرنا العوض بيك الاسعد رحمه الله تعالى انه حين بدا تغير ابراهيم باشا سر عسكر الدولة المصرية على بكوات عكا وكان جالسا على دكان في سوق العقادين من طرابلس الشام وكان أحد امراء الالايات جالسا على دكان يقابله فكتب له أمير الالاي يهدده ضمنا بقول عنترة من قصيدة وأرسل يقول له انظر خطي وهو

لي النفوس وللطير اللحوم وللوحش العظام وللخيالة السلب

فاجابه بقوله من القصيدة بعينها وأرسل يقول له انظر خطا من أحسن

ان كنت تعلم يا نعمان ان يدي * قصيرة عنك فالاحوال تنقلب

(وكتب العلامة زين الدين بن الوردي) الى قاضي القضاة الكمال البارزي وقد كان عزله من منصب القضاء وولى أخاه

حملتني وأخي تباريح البلا * وتركتنا ضدين مختلفين

يا حي عالم عصرنا وزماننا * ألك التصرف في دم الاخوين

فاجابه بقوله

أبا عمر انزجر عن مثل هذا * فاحمد بالولاية مطمئن

فان يك فيك معرفة وعدل * فاحمد فيه معرفة ووزن

(قال صاحب التالد والطريف) واذكر لك هنا حكاية لطيفة فيها الفظ أمرع من كلام الخصيب

أبي محمد أغرب فيه وأبدع كنت أقرأ عليه زمن الحداثة فذكر له اني أوزن الشعر فأخبرني بكلام هذا نصه أدام الله عزك ان بيني و بينك ماشددت عليه من بعد ذلك راحتي ويحق ذاكم علينا فاعلوا من وذا أمرع والحمد لله وقال لي أخرج من هذا الكلام بيتين تامين فقلت له هذا الشعر من بحر الوافر وآخر البيت الاول حرف العين من بعده وآخره أمرع فقال أحسنت اه (وذكر ابن خلكان في تاريخه) انه كان بين الملك العادل نور الدين وبين أبي الحسن سنان صاحب قلاع الاسماعيلية ومقدم الفرق الباطنية مكاتبات ومحاورات فكتب اليه نور الدين كتابا يهدده فيه ويتوعده بسبب اقتضى ذلك فشق على سنان فكتب جوابه نثرا وأبياتا منها

يا ذا الذي بقراع السيف هددني * لاقام مصرع جنبي حين تصرعه

قام الحمام الى البازي يهدده * واستيقظت لاسود البر أضبعه

وقفنا على تفصيله وجمله وعلمنا ماهددنا به من قوله وعمله فيالله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل وبعوضة تعض في التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان لهم ناصرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وهي عجيبة طويلة غريبة (قال صاحب التالد والطريف) أنشدت بعض الاخوان الظرفاء بيتي ذي القرنين بن حمدان الحمداني يهما

اني لاحسد لافي اسطر الصحف * اذا رأيت اعتناق اللام للالف

وما أظنهما طال اعتناقهما * الالما لقيا من شدة الشغف

فلما سمعهما قال وقد وقع لي في هذين البيتين حكاية لطيفة غريبة ظريفة وهي اني كنت أحب غلاما لطيفا أديبا ظريفا فكتبت له صورة لام ألف لا وقصدت بها ماقاله الشاعر في البيتين فكتب لا ا مفترقين هكذا وقصد أذيتي بها وأرسلها الي كأنه يقول لا املك من عناقي أبدا فكتبت له لفظ لام هكذا وأردت مقلوب ذلك فكتب لا متصلة هكذا وأرسلها الي "نعلمت بذلك رضاه وتعجبت من فهمه وحذقه فلما اجتمعنا عتب علي" وقال عميت الامر علي" وأتعبتني قلت مثلك يصلح للمنادمة والمجالسة اه (قلت) وهذه الحكاية تشبه أن تكون عن أبي زيد السروجي أو من باب التجريد (قلت) ومثل هذين البيتين المتقدمين قول القائل

يا من اذا قرأ الانجيل ظل به * قلب الحنيف عن الاسلام منحرفا

اني رأيتك في نومي تعانقني * كما تعانق لام الكاتب الالفا

وقولي من قصيدة

ان تنأ عمن يعاني فيك كل عنا * فحسبه صوب دمع للنوى وكفا

بالحب صبرت لاما قامتي أترى * يوما تعانق من أعطافك الالفا

وما أرق قول بعضهم في المعنى

حكت قامتي لاما وقامة منيتي * حكت ألفا للوصل قلت مسائلا

اذا اجتمعت لامي مع الالف التي * حكتك فتوا ما يصير فقال لا

(ذكر ابن خلكان في تاريخه) انه اجتمع الامام أبو بكر محمد بن الامام داود الظاهري وأبو

العباس بن شريح في مجلس الوزير الجراح فتناظرا فقال له ابن شريح أنت الذي تقول من كثرت لحظاته دامت حسراته أنا أبصر منك بالكلام فقال له أبو بكر لئن قلت ذلك فاني أقول

أنزه في روض المحاسن مقلتي * وامنع نفسي ان تنال المحرما
وأحمل من ثقل الهوى مالوانه * يصب على الصخر الاصم تهدما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري * فلولا اختلاسي رده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم * فما ان أرى حبا صحيحا مسلما

فقال له ابن شريح ولم تفتخر علي ولو شئت أنا أيضا لقلت

ومسامر بالغنج من لحظاته * قد بت أمنعه لذيذ سناته
ضنا بحسن حديثه وغنائه * واكرر اللحظات في وجناته
حتى اذا ما الصبح لاح عموده * ولى بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر يحفظ الوزير عليه ذلك حتى يقيم شاهدي عدل انه ولى بخاتم ربه فقال أبو العباس بن شريح يلزمني من ذلك ما يلزمك في قولك

أنزه في روض المحاسن مقلتي * وامنع نفسي ان تنال المحرما

فضحك الوزير وقال جمعتما لطفا وظرفا وفهما وعلما اه (وذكر أبو بكر الخطيب) انه كان في مدينة بغداد محلة تسمى باب الطاق كان بها سوق الطير يزعمون انه من عسر عليه أمر أطلق طيرا فيتيسر امره لمر عبد الله بن طاهر وقد طال مكثه في بغداد ولم يأذن له الخليفة بالذهاب فمر بذلك السوق فرأى قمرية تنوح فأمر بشرائها فامتنع صاحبها فدفع له بها خمسمائة درهم فاشتراها وأطلقها في ذلك السوق وأنشد يقول

ناحت مطوقة بباب الطاق * فجرت سوابق دمعي المهراق
كانت تغرد بالاراك وربما * كانت تغرد في فروع الساق
فرمى الفراق بها العراق فأصبحت * بعد الاراك تنوح في الاسواق
فجعت بافراخ فاسبل دمعها * ان الدموع تبوح بالاشواق
تعس الفراق وبت حبل متينه * وسقاه من سم الاساود ساقي
ماذا أراد بقصده قمرية * لم تدر ما بغداد في الآفاق
بي مثل ما بك يا حمامة فاسألي * من فك اسرك ان يحل وثاقي

قيل انه في ثاني يوم أطلق ورجع الى بلاده (وحكي عن خالد الكاتب) انه قال جاءني يوما رسول ابراهيم فسرت اليه فوجدته على فرش قد غاص فيها فاستجلى وقال أنشدني من أجود شعرك فأنشدته

رأت منه عيني منظرين كما رأت * من الشمس والبدر المنير على الارض
عشية حياني بورد كأنه * خدود أضيفت بعضهن الى بعض
ونازعني كأسا كان حبابها * دموعي لما صد عن مقلتي غمضي

وراح

وراح فكل الراح فى حركاته * كفعل نسيم الريح فى الغصن الغض
فزحف حتى صار فى ثلثى الفراش وقال يافتى شبهوا الخدود بالورد وأنت شبهت الورد بالخدود فزدنى فأنشدته

عاتبت نفسى فى هوا * ك فلم أجدها تقبل
وأطعت داعيها اليـ * ـك ولم أطع من يعذل
لا والذى جعل الوجو * ه بحسن وجهك تمثل
لا قلت ان الصبر عنـ * ـك من الصبابة أجمل

فزحف حتى انحدر من الفراش واستخف طربا ثم قال للخادم كم معك لنفقتنا قال ثمانمائة وخمسون درهما فقال له اقسمها بينى و بين خالد فدفع لى نصفها وانصرفت (لطيفة) جاز بعض الطفيلية على باب دار فعزمه شيخها وأدخله عنده وأجلسه فى المكان منفردا ثم استدعى بجاريتين احداهما صفراء والاخرى سوداء ودفع لكل واحدة مزهرا وقال لهما اضرباه عليهما وغنيا وشاغلاه ثم ذهب الشيخ وبقى الضيف والجاريتان فلما اشتد به الجوع ومضى النهار ولم ير للطعام رائحة كتب فى مكان الشيخ هذين البيتين

يادعوة كانت علينا دعوة * عز الطعام بها وغيض الماء
سودا وصفرا كلما غنين لى * لعبت بى السوداء والصفرا

(يحكى) ان الشهاب الدين الخفاجى المصرى شرب الدخان هو وجماعة فاعترض عليهم شيخى زاده فكتب له الشهاب بقوله

اذا شرب الدخان فلا تلمنا * وجد بالعفو يا روض الامانى
تريد مهذبا لاعيب فيه * وهل عود يفوح بلا دخان

فأجابه شيخى أفندى بقوله

اذا شرب الدخان فلا تلمنى * على لومى لابناء الزمان
أريد مهذبا من غير ذنب * كريح المسك فاح بلا دخان

(ويحكى) عن شرف الدين بن الشريحى أنه اجتمع هو وشهاب الدين فى ليلة أنس عند الملك الناصر فاتفق ان قام شرف الدين الى الطهارة وعاد فامره الناصر بالاشارة ان يصفع شهاب الدين فلما صفعه أمسك التلعفرى بذقن شرف الدين وأنشد سريعا وذقنه بيده

قد صفعنا بذا المحل الشريف * وهو ان كان يرتضى تشريفى
فارث للعبد من مصيف طباع * يا ربيع الندى والاحرى فى

فانقلب المجلس ضحكا (وروى) ان ابن القطان الشاعر البغدادى دخل ذات يوم على الوزير الرضى وعنده الحيص بيص الشاعر المشهور فقال ابن القطان قد نظمت بيتين لا يمكن أن يعمل لهما ثالث لانى قد استوفيت المعنى فيهما فقال له الوزير هما فانشده

زار الخيال بخيلا مثل مرسله * فما شفانى منه الضم والقبل
مازارنى قط الا كى يوافقنى * على الرقاد فينفيه ويرتحل

فقال الوزير الحيص بيص

ومادرى ان نومى حيلة نصبت * لطيفه حين أعيا اليقظة الحيل

(ومما يشاكل ذلك) ما اتفق للوزير القوصى وقد أنشد ابن المرصص بيتين بين يديه نظمهما فى جارية حسناء كاملة المعانى والاوصاف وزعم انه لا ثالث لهما وهما

تبدت فهذا البدر منكسف بها * وحقك مثلى فى دجا الليل حائر

وماست فشق الغصن غيظا ثيابه * ألست ترى أوراقه تتناثر

فاطرق الوزير يسيرا وقال

وفاحت فألقى العود فى النار نفسه * كذا نقلت عنه الحديث المجامر

وقالت فغار الدر واصفر لونه * كذلك مازالت تغار الضرائر

وكان فى المجلس النواجى الشاعر فأنشد ارتجالا

وغنت فظل الجنك يطرق نفسه * وجادت لها بالروح منها المزاهر

ومن لحظها الهندى فى غمده اختفى * وظبى الفلا فى اثقفة وهو نافر

ومن وجنتيها الورد راح بخجلة * ألست تراه أحمرا وهو فاتر

ومن ريقها الصهبا شكت نار شوقها * فاطفأها بالماء ساق مساهر

(ذكر ابن شاكر الكتبى) فى تاريخه فى ترجمة شمس الدين بن عفيف الدين التلمسانى ان جماعة من أهل الادب اجتمعوا وعملوا سماعا وفيهم غلمان حسان فبعثوا منهم غلاما مليحا الى الشيخ عفيف الدين يطلبون شمس الدين للحضور فلما جاء الرسول كتب عفيف الدين على يده

أرسلتمالى رسولا فى رسالته * حلو المراشف والاعطاف والهيف

وقد تمادى يسيرا اذا انكا * أوقدتما النار فى أحشاء ذى دنف

فلما حضر والده شمس الدين وأخبر بالقضية كتب الى والده

مولاى كيف اتتنى عنك الرسول ولم * تسكن لوردة خديه بمقتطف

جاءتك من بحر ذاك الحسن لؤلؤة * فكيف ردت بلا ثقب الى الصدف

(ومما تضمن التاريخ المذكور) ان علية بنت المهدى العباسية أخت أمير المؤمنين هارون الرشيد كانت من أحسن خلق الله وجها وأظرف النساء واعقلهن ذات صيانة وأدب بارع تزوجها موسى بن عيسى العباسى وكان الرشيد يبالغ فى اكرامها واحترامها ولها ديوان شعر عاشت خمسين سنة وتوفيت سنة عشر ومائتين وكان سبب موتها ان المامون سلم عليها وضمها الى صدره وجعل يقبل رأسها ووجهها مغطى فشرقت من ذلك وماتت بعد أيام يسيرة وكانت تتغزل بشعرها فى خادمين اسم الواحد طل والآخر رشا فمن قولها فى طل وصحفت اسمه

أياسروة البستان طال تشوقى * فهل لى الى ظل لديك سبيل

متى يلتقى من ليس يقضى خروجه * وليس لمن يهوى اليه وصول

فبلغ الرشيد ذلك فحلف أنها لا تذكره أبدا ثم تسمع عليها الرشيد يوما فوجدها وهى تقرأ فى آخر سورة البقرة حتى بلغت قوله تعالى فان لم يصبها وابل فقالت فان لم يصبها وابل فالذى نهى

(قوله فقال الوزير بيتا ربما الخ هكذا بالاصل وفى غيره من الكتاب ان الذى قال البيت الثالث هو الحيص بيص اه)

عنه أمير المؤمنين فدخل الرشيد وقبل رأسها وقال لها قد وهبتك طلا ولا منعتك بعد هذا عما تريدين وكانت من أعف الناس كانت اذا طهرت لازمت المحراب وان لم تكن طاهرة غنت ولما خرج الرشيد الى الري أخذها معه فلما وصل الى المرج نظمت قولها

ومغترب بالمرج يبكى لشجوه * وقد غاب عنه المسعدون على الحب
اذا ما أتاه الركب في نحو أرضه * تنشق يستسقي برائحة الركب

وغنت بهما فلما سمع الرشيد الصوت علم انها قد اشتاقت الى العراق وأهلها فأمر بردها ومن شعرها

انى كثرت عليه في زيارته * فمل والشئ مملول اذا كثرا
ورابني منه أني لا ازال أرى * في طرفه قصرا عني اذا نظرا

اه (لطيفة) يحكى ان عبد الملك بن مروان جمع عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة وجميل بثينة وأحضر لهم ناقة موقرة دراهم وقال ينشد كل واحد منكم بيتا في الغزل فأيكم كان أبدع فهي له بما عليها فقال جميل

ولو ان راقي الموت يرقي جنازتي * بمنطقها في العالمين حييت

وقال كثير

وسعى الى بعيب عزة نسوة * جعل الاله خدودهن نعالها

وقال عمر بن أبي ربيعة

فليت الثريا في المنام ضجيعتي * لدى الجنة الخضراء او في جهنم

فقال له عبد الملك خذها يا صاحب جهنم والثريا هي بنت علي بن عبد الله الاموية تزوجها سهل ابن عبد الرحمن بن عوف الزهري فقال فيه عمر

أيها المنكح الثريا سهيلا * عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية اذا ما استقلت * وسهيل اذا استقل يماني

وكان يتشبب بذكرها كثيرا حتى أنها واعدته يوما فجاءت في الوقت الذي وعدته به فصادفت أخاه الحرث قد نام مكانه فلم يشعر الحرث الا والثريا قد ألقت نفسها عليه فانتبه وجعل يقول اعزبي عني فلست بالفاسق أخزاكما الله فانصرفت فلما جاء عمر أخبره الحرث بذلك فاغتم لفواتها وقال له أيم الله لا تمسك النار أبدا وقد ألقت نفسها عليك فقال له الحرث عليك وعليها لعنة الله ومات عمر بعد ان تاب وأحسن التوبة وقد عاش ثمانين سنة ويقال انه تغزل أربعين سنة ونسك أربعين سنة رحمه الله تعالى (روى) أنه عرضت جارية على الرشيد ليشتريها فطلب بها البائع مبلغا جليلا فقال الرشيد أنا أعرض عليها بيتا ان أجابت عنه أعطيتك ما تقول وزدتك والتفت اليها وقال

ماذا تقولين فيمن شفه أرق * من أجل حبك حتى صار حيرانا

فقالت بديها

اذا رأينا محبا قد أضر به * أمر الصبابة أوليناه احسانا

فأعجبه جوابها واشتراها (ومن اللطائف) ما حكى عن الشيخ يحيى الساتخي انه لما قدم دمشق

الشأم وقرأ في الجامع الاموى نظر الى غلام بديع الجمال فوقع حبه في قلبه فافتتن به فسأل عنه فأخبر عن أبيه وكان ممن يتردد الى الشيخ فاجتمع معه وقال له لم لا تحضر ولدك يتعلم عندى العلم فقال له انه يحضر علم الحساب عند بعض المشايخ فقال أنا أقرأ قبل شيخه فاذا حضر عندى يكون محصلا للفضيلتين فاجابه لذلك وأمر ابنه بما ذكر فتوجه الغلام عند الشيخ يحيي فاجلسه بجانبه وأطال القراءة في ذلك اليوم أكثر من الايام الماضية فلما انقضى الدرس وأراد الغلام الانصراف لقراءة علم الحساب دفع له الشيخ يحيي رقعة وقال ادفعها الى شيخك فلما حضر قال له ما أبطأك عن الحضور فاخبره بالقصة ودفع له الرقعة فاذا فيها

ياجاعلا علم الحساب وسيلة * تصطاد فيه فاتن الالباب
ان كنت في علم الحساب رزقته * فالله يرزقنا بغير حساب

فكتب له على ظهر الرقعة وأمره أن لا يحضر عنده بعدها فأخذ الغلام الرقعة ودفعها للشيخ يحيي فاذا فيها

لهوت به ظبيا اغر يرامه فهفا * ومذ صار قيد ابعته للسالحى

(ومما نقلناه) ان أحد امراء العرب كان عنده جماعة من أجلاء العرب فقام صاحب المنزل الى الطهارة وعاد وهو قابض بيده على شئ من تحت ثوبه كهيئة المستبرئ من البول ودخل على الجماعة وهو على تلك الصفة وقال من يأخذ الذى سدى الى زوجته فاطرق القوم خجلا فقام رجل منهم وقال زوجتى أولى به يا أمير العرب فاطلق الامير يده وقال هولك خذه واذا بعقد بجوهر في يده فبهت القوم وحسدوا الرجل فقال الامير للرجل ما أجرأك على ذلك قال ثقتى انه لا يظهر منك الا الكمال فدفع له ألف دينار (ذكر ابن خلكان) في تاريخه في ترجمة يحيي بن أكثم ما ذصه رأيت في بعض المجاميع انه أى يحيي بن أكثم مازح الحسن بن وهب وهو يومئذ صبى ثم جمشه فغضب الحسن فانشد يحيي

أيا قمرا جمشته فتغضبا * واصبح لى من تيهه متجنبا
اذا كنت للتجميش والعض كارها * فكن أبدا ياسيدى متنقبا
ولا تظهر الاصداغ للناس فتنة * وتجعل منها فوق خديك عقربا
فتقتل مشتاقا وتفتن ناسكا * وتترك قاضى المسلمين معذبا

(قال صاحب التالد والطريف) أنشد الشيخ أبو اسحق الشيرازى امام الشافعية لنفسه

جاء الربيع وحسن ورده * ومضى الشتاء وقبح برده
فاشرب على وجه الحبيب ووجنتيه وحسن خده

قال ابن السمعانى قال لى المظفر شعيب بن الحسين القاضى أنشدنى الشيخ أبو اسحق الشيرازى هذين البيتين لنفسه ثم بعد مدة كنت جالسا عند الشيخ فذكر بين يديه ان هذين البيتين أنشدا عند القاضى عين الدولة حاكم صور بلد على ساحل بحر الروم فقال لغلامه أحضر ذاك الشأن يريد الشراب فقد افتانا به الامام أبو اسحق فبكى الشيخ ودعا على نفسه وقال ليتنى لم أقل هذين البيتين ثم قال لى كيف نردهما من أفواه الناس فقلت يا سيدى هيهات قد سارت بهما

الركبان أورد ذلك ابن النجار في تاريخه واسمه محمد ويلقب محب الدين اهـ (لطيفة) حكى الصفدي بالوافي بالوفيات ان أبا الحسين الجزار رحمه الله ساله طلبته يوما التنزه فقالوا له ياسيدي أنت اجدر بشراء اللحم منا فتقدم للجزار وأطلعه من مكانه ووقف هو وأخذ السكين وقطع قطعا ثم انه قطع قطعة رديئة فقالوا له ياسيدي هذه ليست جيدة فقال الشيخ معتذرا والله يا أولادي لما وقفت خلف القرمة أدركني لؤم الجزارين (قصد ابن عيينة) قبيصة المهلبي واستماحه فلم يسمح له بشيء فانصرف مغضبا فتوجه اليه داود بن زيد بن حاتم فترضاه وأحسن اليه فقال في ذلك

داود محمود وأنت مذمم * عجبا لذاك وانتما من عود
ولرب عود قد يشق لمسجد * نصفا وباقيه لحش يهودي
فالحش أنت له وذاك بمسجد * كم بين موضع مسلح وسجود

وله هجاء في خالد

أبوك لنا غيث نعيش بوبله * وأنت جراد لست تبقي ولا تذر
له أثر في المكرمات يسرنا * وأنت تعفي دائما ذلك الاثر

(ولما قتل) جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس فقيل له اتبكي على جعفر وأنت هجوته فقال كان ذلك لركوبه الهوى وقد بلغه والله اني قلت

ولست وان أطنبت في وصف جعفر * باول انسان خرى في ثيابه

فكتب يدفع اليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه (ودخل أبو دلامة على المهدي) وعنده اسمعيل بن علي وعيسى بن موسى والعباس بن محمد وجماعة من بني هاشم فقال له المهدي والله ان لم تهج واحدا من في هذا البيت لاقطعن لسانك فنظر الى القوم وتحير في أمره وجعل ينظر الى كل واحد فيغمزه بان عليه رضاه قال أبو دلامة فازددت حيرة فما رأيت أسلم لي من أن اهجو نفسي فقلت

الا ابلغ لديك أبا دلامه * فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامة وجمعت لوما * كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
اذا لبس العمامة قلت قرد * وخنزيرا اذا نزع العمامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد الا أجازه (وكان لاعرابي) امرأتان فولدت احداهما جارية والأخرى غلاما فرقصته أمه يوما وقالت معيرة لضرتها

الحمد لله الحميد العالي * انقذني اليوم من الجوالي
من كل شوهاء كشن بالي * لاتدفع الضيم عن العيال

فسمعتها ضرتها فاقبلت ترقص ابنتها وتقول

وما علي ان تكون جاريه * تغسل رأسي وتكون الفاليه
وترفع الساقط من خماريه * حتى اذا ما بلغت ثمانيه
أزرتها بنقبة يمانيه * انكحتها مروان أو معاويه

* أسهار صدق ومهور غاليه *

قال فسمعها مروان فتزوجها على مائة ألف مثقال وقال ان أمها حقيقة ان لا يكذب ظنها ولا يخان عهدها فقال معاوية لولا مروان سبقنا اليها لاضعفنا لها المهر ولكن لا نحرم الصلة فبعث اليها بمائة ألف درهم (قيل) ان رجلا قال لولده وهو في المكتب في أي سورة أنت فقال لا أقسم بهذا البلد ووالدي بلا ولد فقال لعمري من كنت ولده فهو بلا ولد (وأرسل رجل ولده) يشتري له رشاء للبئر طوله عشرون ذراعا فوصل الى نصف الطريق ثم رجع فقال يا أبت عشرون ذراعا في عرض كم قال في عرض مصيبتي فيك يا بني (وكان لرجل من الاعراب) ولد اسمه حمزة فبينما هو يوما يمشي مع أبيه اذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله فلم يجبه ذلك الشاب فقال ألا تسمع فقال يا عم كلنا عبيد الله فأي عبد الله تعني فالتفت أبو حمزة اليه وقال يا حمزة فقال حمزة ابن الاعرابي كلنا حمير الله فأي حمزة تعني فقال أبوه أعنيك يا من أخمد الله به ذكر أبيه (ويعجبني قول الصفدي)

لولا شفاعة شعره في صبه * ما كان زار ولا أزال سقاما
لكن تنازل في الشفاعة عنده * وغدا على أقدامه يترامى

وقول ابن الصائغ

ثنى غصنا ومد عليه فرعا * كحظي حين أطلب منه وصلا
وبلبله على الارداف منه * فلم أر مثل ذالك الفرع أصلا

وقول الآخر

بدت ثريا قرصها وشعرها * متصل بكعبها كما ترى
يا عجبا لشعرها لما ابتدى * من الثريا فانتهى الى الثرى

وقول ابن نباتة

وبمهجتي رشأ يميس قوامه * فكأنه نشوان من شفتيه
شغف العذار بخده ورآه قد * نعست لواحظه فدب عليه

وقوله أيضا مضمنا

وضعت سلاح الصبر عنه لحاله * يغازل بالالحاظ من لا يغازله
وسال عذار فوق خديه سائل * على خده فليتق الله سائله

ولبعضهم في ذم العذار

غدا لما التحى لبلابهما * وكان كأنه قمر منير
وقد كتب السواد بعارضيه * لمن يقرا وجاء كم النذير

وللآخر

مازال ينتف ريحانا بعارضه * حتى استطال عليه صار يحلقه
كأنما طور سينا فوق عارضه * طول الزمان لموسى لا يفارقه

برهان الدين القيراطي

شبه السيف والسنان بعيني * من لقتلي بين الانام استحلا
فأبى السيف والسنان وقالا * حدنا دون ذاك حاشا وكلا

ابن الصائغ

لمثلي من لواحظها سهام * لها في القلب فتك أي فتك
اذا رامت تشك به فؤادا * يموت المستهام بغير شك

الصلاح الصفدي

يا عاذلا لي على عين محجبة * خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفي
وخذ فؤادي ودعه نصب مقلتها * لا ترم نفسك بين السهم والهدف

آخر

أنفقت كنز مدامعي في ثغره * وجمعت فيه كل معنى شارد
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة * فمضى وراح تغزلي في البارد

عز الدين الموصلي

كالزرد المنظوم أصداغه * وخده كالورد لما ورد
بالغت في اللثم وقبلته * في الخد تقبيلا يفك الزرد

ابن نباتة

انسية في مثال الجن تحسبها * شمسا بدت بين تشريق وتغميم
شقت لها الشمس ثوبا من محاسنها * فالوجه للشمس والعينان للريم

آخر

بصدرها كوكبا در كأنهما * ركنان لم يدنسا من لمس مستلم
صانتهما بستور من غلائلها * فالناس في الحل والركنان في الحرم

الصلاح الصفدي

تقول له الاغصان مذ هز عطفه * أتزعم ان اللين عندك ما قوى
فقم نحتكم للروض عند نسيمه * ليقضي على من مال منا الى الهوى

وكأنه ينظر الى قول السراج

ومهفهف عني يميل ولم يمل * يوما الي فصحت من ألم الجوى
لم لا تميل الي يا غصن النقا * فأجاب كيف وأنت من جهة الهوى

(أراد ملك الروم ان يباهي أهل الاسلام) فبعث الى معاوية رجلين أحدهما طويل والثاني قصير شديد القوة فدعا الطويل بقيس بن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ورمى بها اليه فلبسها الطويل فبلغت ثدييه فلاموا قيسا على نزع السراويل فقال

أردت لكي ما يعلم الناس انها * سراويل قيس والوفود شهود
وكيلا يقولوا غاب قيس وهذه * سراويل عادي نمته ثمود
واني من القوم اليمانين سيد * وما الناس الا سيد ومسود

ثم دعا معاوية للرجل الشديد القوة بمحمد بن الحنفية فخيره بين ان يقعد فيقيمه أو يقوم فيقعده فغلبه في الحالتين وانصرف مغلوبين (وحكى الجاحظ) ما أخجلني قط الا امرأة مرت بي الى صائغ فقالت له اعمل مثل هذا فبقيت مبهوتا ثم سألت الصائغ فقال هذه امرأة أرادت ان

أعمل لها صورة شيطان فقلت لا أدري كيف أصوره فأتت بك الى لاصوره على صورتك وفي
الجاحظ يقول بعضهم

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا * ما كان الا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه * وهو القذى في عين كل ملاحظ
ولو ان مرآة جلت تمثاله * ورآه كان له كاعظم واعظ

(قيل انه قدم تاجر الى المدينة) يحمل من خمر العراق فباع الجميع الا السود فشكا الى الدارمي
وقد تنسك وتعبد فعمل بيتين وأمر من يغني بهما في المدينة وهما

قل للمليحة في الخمار الاسود * ماذا فعلت بزاهد متعبد
قد كان شمر للعبادة ذيله * حتى وقفت له بباب المسجد

فشاع الخبر في المدينة ان الدارمي رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الاسود فلم تبق في
المدينة مليحة الا اشترت لها خمارا أسود فلما أنفذ التاجر ما كان معه رجع الدارمي الى تعبده
وعمد الى ثياب نسكه فلبسها (ومر رجل أشمط) بامرأة بحيية في الجمال فقال يا هذه ان كان
لك زوج فبارك الله لك فيه والا فأعلمينا فقالت كأنك تخطبني قال نعم فقالت ان في عيبا قال
وما هو قالت شيب في رأسي فثنى عنان دابته فقالت على رسلك فلا والله ما بلغت عشرين سنة
ولكني أحببت ان أعلمك اني أكره منك مثل ما تكره مني (وقال عبد الله الماجشون) وهو
من فقهاء المدينة قال لي المهدي يوما يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك قال قلت يا أمير
المؤمنين

لله باك على أحبابه جزعا * قد كنت أحذر هذا قبل ان يقعا
ما كان والله شؤم الدهر يتركني * حتى يجرعني من بعدهم جرعا
ان الزمان رأى الف السرور لنا * فدب بالبين فيما بيننا وسعى
فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهدا * فلا زيادة شئ فوق ما صنعا

فقال والله لاغنينك وأعطاه عشرة آلاف دينار (وحكى بعضهم) قال دخلنا الى دير هرقل
فنظرنا الى مجنون في شباك وهو ينشد شعرا فقلنا له أحسنت فأومأ بيده الى حجر ليضربنا به وقال
لمثلي يقال أحسنت ففررنا منه فقال أقسمت عليكم الا ما رجعتم حتى أنشدكم فان أنا أحسنت
فقولوا أحسنت وان أنا أسأت فقولوا أسأت فرجعنا اليه فأنشد يقول

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهم * وحملوها وسارت بالدمى الابل
وقلبت بخلال السجف ناظرها * ترنو الي ودمع العين ينهمل
وودعت ببنان زانها عنم * ناديت لا حملت رجلاك يا جمل
يا حادي العيس عرج كي أودعهم * يا حادي العيس في ترحالك الاجل
اني على العهد لم انقض مودتهم * يا ليت شعري لطول البعد ما فعلوا

فقلنا له ماتوا فقال وأنا والله أموت ثم شهق شهقة فاذا هو ميت (قيل لما وفد المهدي من الري)
الى العراق امتدحه الشعراء فقال أبو دلامة

اني نذرت لئن رأيتك قادما * أرض العراق وأنت ذو وفر

لتصلين على النبي محمد * ولتملان دراهما حجرى

فقال المهدى صلى الله على محمد فقال أبودلامة ما أسرعك للاولى وابطأك عن الثانية فضحك وأمر ببدرة فصبت فى حجره (وتزوج مغن) بمغنية فسمعها تقول اللهم أوسع لنا فى الرزق فقال لها ياهذه انما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطر فى ذلك فان كان فرح دعوني وان كان حزن دعوك (وكان عروة بن الزبير صبورا حين يبتلى) حكى انه خرج الى الوليد بن يزيد فوطئ عظما فما بلغ الى دمشق حتى بلغ به كل مذهب فجمع له الوليد الاطباء فاجمع رأيهم على قطع رجله فقالوا له اشرب مرقدا فقال ما أحب ان أغفل عن ذكر الله تعالى فاحمى له المنشار وقطعت رجله فقال ضعوها بين يدى ولم يتوجع ثم قال لئن كنت ابتليت فى عضو فقد عوفيت فى أعضاء فبينما هو كذلك اذ أتاه خبر ولده انه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها فمات فقال الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحدا لقد أبقيت جماعة (وقدم) على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى وعيالى ولا أعلم عبسيا يزيد ماله على مالى فعرسنا فى بطن واد فطرقنا سيل فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبى صغير وبعير فشرد البعير فوضعت الصغير على الارض ومضيت لآخذ البعير فسمعت صيحة الصغير فرجعت اليه فاذا رأس الذئب فى بطنه وهو يأكل فيه فرجعت الى البعير فحطم وجهى برجليه فذهبت عيناى فاصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل فقال الوليد اذهبوا به الى عروة ليعلم ان فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه (ومما نقلته) ما حكى عن مسلم ابن الوليد انه قال كنت يوما جالسا عند خباء الى بازاء منزلى فمر بى انسان اعرفه فقمت اليه وسلمت عليه وجئت به الى منزلى لاضيفه وليس معى درهم بل كان عندى زوج اخفاف فارسلتهما مع جارية لى لبعض معارفى فباعهما بتسعة دراهم واشترى بها ما قلته لها من الخبز واللحم فجلسنا نأكل واذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب واذا بانسان يسأل هذا منزل فلان ففتحت الباب وخرجت فقال أنت مسلم بن الوليد قلت نعم واستشهدت له بالضيف على ذلك فاخرج لى كتابا وقال هذا من الامير يزيد بن مزيد فاذا فيه قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون فى منزلك وثلاثة آلاف درهم تتحمل بها القصد ومثل علينا فادخلته الى دارى وزدت فى الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا فأكلنا ثم وهبت لضيفى شيئا يشترى به هدية لاهله وتوجهنا الى باب يزيد بالرقة فوجدناه فى الحمام فلما خرج استؤذن لى عليه فدخلت فاذا هو جالس على كرسى وبيده مشط يسرح به لحيته فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال ما الذى اقعدك عنا قلت ذات اليد وانشدته قصيدة مدحته بها قال أتدرى لم أحضرتك قلت لا ادرى قال كنت عند الرشيد منذ ليال احادثه فقال لى يا يزيد من القائل فيك هذه الابيات

سل الخليفة سيفا من بنى مضر * يمضى فيخترق الاجسام والهاما

كالدهر لا ينثنى عما يهم به * قد أوسع الناس انعاما وارغاما

فقلت والله لا ادرى يا أمير المؤمنين فقال سبحان الله أيقال فيك مثل هذا ولا تدرى من قاله فسألت فقيل لى هو مسلم بن الوليد فارسلت اليك فانهض بنا الى الرشيد فسرنا اليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبلنا الارض وسلمت فرد على السلام فانشدته مالى فيه من شعر فامر لى بمائتى

ألف درهم وأمر لي بزيد بما ئة وتسعين ألف درهم وقال ما ينبغي لي ان أساوي أمير المؤمنين في العطاء اه (نادرة) قيل ترافق رجلان في طريق فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر قد صار لي عليك حق واني رجل من الجان ولي اليك حاجة قال وما هي قال اذا وصلت الى المكان الفلاني من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك فاشتره منها واذبحه فقال له الآخر وأنا أيضا لي اليك حاجة قال وما هي قال اذا ركب الجني انسانا ما يعمل له قال تشد ابهاميه بسير من جلد اليحمور وتقطر في أذنيه من ماء السذاب أربعا وفي اليسرى ثلاثا فان الراكب له يموت ثم تفرقا ودخل الانسي ففعل ما أمره به الجني من شراء الديك وذبحه فلم يشعر بعد أيام الا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له أنت ساحر ومن حين ذبحت الديك سلبت صبية عندنا عقلها فلا نفلتك الا الى صاحب المدينة قال فقلت لهم ائتوني بسير من جلد اليحمور وقليل من ماء السذاب ودخلت على الصبية فربطت ابهاميها وقطرت ماء السذاب في أذنيها فسمعت صوتا يقول آه علمتك على نفسي ثم مات من ساعته وشفى الله تلك الشابة واليحمور دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر وقيل هو كالايل يلقي قرنيه كل سنة وهما صامتان وقال الجوهري هو الحمار الوحشي (ومن اللطائف ما حكاه أبو الفرج في كتاب النساء) وابن السكرديوس في الاكتفاء قالا كانت عند أبي العباس السفاح أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله المخزومي وكان قد أحبها حبا شديدا ووقعت في قلبه موقعا عظيما فحلف لها ان لا يتخذ عليها سرية ولا يتزوج عليها امرأة فوفى لها بذلك فخلا به خالد بن صفوان يوما وقال له يا أمير المؤمنين فكرت في أمرك وسعة ملكك وانك قد ملكت نفسك امرأة واقتصرت عليها فاذا مرضت مرضت واذا حاضت حضت وحرمت نفسك التلذذ بالسراري واستظراف الجواري ومعرفة اختلاف حالاتهن وأجناس التمتع بما تشتهي منهن فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء والعبيقة الادماء والزهية السمراء والمولدات المغنيات اللواتي يفتن بحلاوتهن ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمراء واللعساء من مولدات البصرة والكوفة وذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والثدي النواهد المحققة وحسن زيهن وشكلهن لرأيت فتنا ومنظرا حسنا وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الاحرار والنظر الى ما عندهن من الحياء والتخفر والدلال والتعطر ولم يزل خالد يجيد في الوصف ويكثر في الاطناب بحلاوة لفظه وجودة كلامه فلما فرغ قال له أبو العباس ويحك والله ما سلك مسامعي قط كلام أحسن مما سمعته منك فاعده علي فاعاده عليه وزاد فيه ثم انصرف خالد وابقى العباس متفكرا مغموما فدخلت عليه أم سلمة وكانت تبره كثيرا وتتحرى مسرته وموافقته في جميع ما أراده فقالت له مالي أراك مغموما يا أمير المؤمنين فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك أمر ارتعت له قال لم يكن شئ من ذلك قالت فما قصتك فجعل يكتم عنها فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد قالت فما قلت لابن الفاعلة قال سبحان الله ينصحني وتشتمينه فخرجت من عنده وأرسلت الى خالد عبيدا وأمرتهم بضربه والتنكيل به قال خالد وانصرفت الى منزلي مسرورا بما رأيت من اصغاء أمير المؤمنين الى كلامي واعجابه بما ألقيت اليه وأنا لا اشك في الصلة فلم ألبث ان جاء العبيد فلما رأيتهم أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة فوقفوا علي وسألوا عني فعرفتهم نفسي فاهوى الى أحدهم

بعمود كان فى يده فبادرت الى الدار وأغلقت الباب ومكثت أياما لا أخرج من منزلى وطلبنى أمير المؤمنين طلبا شديدا فلم أشعر ذات يوم الا بقوم هجموا على فقالوا أجب أمير المؤمنين فأيقنت بالموت وقلت لم أر دم شيخ أضيع من دمى وركبت فلم أصل الى الدار حتى استقبلنى عدة رسل فدخلت على أمير المؤمنين فوجدته جالسا فأومأ الى بالجلوس فثاب الى عقلى وفى المجلس باب عليه ستور وقد أرخيت وخلفه حركة فقال لى يا خالد مذ ثلاث لم أرك قلت كنت عليلا يا أمير المؤمنين قال انك وصفت فى آخر دخلة لى من أمر النساء والجوارى مالم يطرق سمعى قط كلام أحسن منه فأعده على قال نعم يا أمير المؤمنين أعلمك ان العرب انما اشتقت اسم الضرة من الضرر وان أحد الم يك عنده امرأتان الا كان فى ضرر وتنغيص قال ويحك لم يكن هذا فى حديثك قلت نعم يا أمير المؤمنين ان الثلاث من النساء كأثافى القدر تغلى عليها أبدا وان الاربع شر مجموع لصاحبه يمرضنه ويسقمنه ويضعفنه وان أبكار الاماء رجال ولكن لا خصى لهن قال فقال أبو العباس برئت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان سمعت منك من هذا شيأ قط قال خالد بلى والله يا أمير المؤمنين وعرفتك ان بنى مخزوم ريحانة قريش وان عندك ريحانة الرياحين وأنت تطمح بعينك الى الاماء والسرارى قال خالد فقال لى أبو العباس ويحك أتكذبنى قلت أفتقتلنى يا أمير المؤمنين قال فسمعت ضحكا من وراء الستر وقائلا يقول صدقت والله يا عماه هذا الذى حدثته ولكنه بدل وغير ونطق على لسانك بما لم تنطق به قال خالد فقمت عنهما وتركتهما يتراوضان فى أمرهما فما شعرت الا برسل أم سلمة معهم المال وتخوت ثياب فقالوا الى تقول لك أم سلمة اذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا انتهى (ومن البدائع ما يحكى) ان السلطان الملك الكامل أصبح متمرضا فأشار عليه الاطباء باستعمال شراب ليمون شتوى فأمر بعض الخدام باحضاره فمضى الخادم وأحضر شراب ليمون سائل فقال الطبيب ما طلبت الاشتويا وهذا سائل ردوه فقال الامير صلاح الدين والله ما من عادة مولانا السلطان أن يرد سائلا فقال السلطان والله ما أرد سائلا هاتوه أحسنت والله يا صلاح الدين فأكله وكان الشفاء فيه (ونظير ذلك ما حكى) انه كان بالقاهرة شاب حسن الوجه يسمى بركن الدين وله معلم اسمه ابراهيم وكان ربما يتهم به وكان بعض الادباء يميل الى هذا الصبى وله فيه غزل حسن قال الناقل فركبت يوما مع الامير صلاح الدين فمررنا على باب ذلك الصبى فوجدت ذلك الاديب قريبا من الباب فقلت له أى شئ تصنع ههنا فقال أطوف بالبيت فلعلى استلم الركن أو أصل الى مقام ابراهيم فاستحسنت ذلك منه وسألنى الامير صلاح الدين ما معنى ذلك فغالطته فى الجواب فاقسم ان لا بد ان أخبره فأخبرته فاستحسن ذلك منه وأمر باحضاره الى مجلسه ونال منه راحة (ذكر ابن الجوزى فى كتاب تلقيح فهوم الادباء) عن محمد بن عثمان بن أبى خيثمة السلمى عن أبيه عن جده قال بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف ذات ليلة فى سكك المدينة اذ سمع امرأة تقول

هل من سبيل الى خمر فأشربها * أم من سبيل الى نصر بن حجاج

الى فتى ماجد الاعراق مقتبل * سهل المحيا كريم غير ملجاج

تنميه اعراق صدق حين تنسبه * أخى وفاء عن المكروب فراج

فقال عمر رضي الله عنه لا أدري معي بالمدينة رجل تهتف به العواتق في خدورهن علي بنصر ابن حجاج فلما أصبح أتي بنصر بن حجاج فاذا هو من أحسن الناس وجها وأحسنهم شعرا فقال عمر عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك فأخذ من شعره فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر فقال له اعتم فاعتم فافتتن الناس بعينيه فقال له عمر والله لا تساكني في بلدة أنا فيها فقال يا أمير المؤمنين ما ذنبي قال هو ما أقول لك ثم سيره الى البصرة وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع ان يبدر من عمر اليها شيء فدست اليه أبياتا وهي

قل للامام الذي تخشى بوادره * مالي وللخمر أو نصر بن حجاج

لا تجعل الظن حقا ان تبينه * ان السبيل سبيل الخائف الراجي

ان الهوى زم بالتقوى لتحبسه * حتى يقر بالجام واسراج

قال فبكى عمر رضي الله عنه وقال الحمد لله الذي زم الهوى بالتقوى قال وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة فخرجت أمه يوما بين الاذان والاقامة متعرضة لعمر فاذا هو قد خرج في ازار ورداء وبيده الدرة فقالت يا أمير المؤمنين والله لاقفن أنا وأنت بين يدي الله تعالى وليحاسبنك الله أيبيتن عبد الله وعاصم الى جنبيك وبيني وبين ابني الفيافي والاودية فقال لها ان ابني لم تهتف بهما العواتق في خدورهن ثم ارسل عمر الى البصرة بريدا الى عتبة فقال عتبة من أراد أن يكتب الى أمير المؤمنين فليكتب فان البريد خارج فكتب نصر بن حجاج بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد فاسمع مني هذه الابيات

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني * وما نلت من عرضي عليك حرام

فأصبحت منفيا ملوما بمنية * وبعض أماني النساء غرام

ظننت بي الظن الذي ليس بعده * بقاء ومالي جرمه فألام

فيمنعني مما تقول تكرمي * وآباء صدق سالفون كرام

ويمنعها مما تقول صلاتها * وحال لها في قومها وصيام

فهاتان حالانا فهل أنت راجعي * فقد جب مني كاهل وسنام

قال فلما قرأ عمر رضي الله عنه هذه الابيات قال أما ولي السلطان فلا وأقطعه دارا بالبصرة في سوقها فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة اه (قيل دخل بعض الشعراء) على الاديب جمال الدين بن نباتة فرأى في نواحي منزله نملا كثيرا فأنشد يقول

مالي أرى منزل المولى الاديب به * نمل تجمع في ارجائه زمرا

فأجابه ابن نباتة بقوله

لا تعجبن اذن من نمل منزلنا * فالنمل من شأنها ان تتبع الشعرا

هذا آخر ما أردت ايراده في هذا الذيل مما وقفت عليه من المستظرف والنكات المفتخرة والزند الواري والنادر الطريف وغير ذلك والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(هذا كتاب تأهيل الغريب للامام تقي الدين بن حجة)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي هدانا لتأهيل الغريب فأكرمنا مثواه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله فله الحمد على هذه النعمة التي هي عن كثير من الناس بمعزل اذ غريب الادب لم ينأ أهل بقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بل وقر في صدور هبت عليها نسمات الالهام فتكاملت بالنفس العالي (وأعرضت عن)

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والحشف البالي

(ولكنها خيمت على)

سموت اليها بعدما نام أهلها * سمو حباب الماء حالا على حال

نعم هذا البيت نعم السكن لتأهيل الغريب فدعني بالله من سقط اللوى وذكرى حبيب فنكرر الحمد على علو الدرجات من فهم هذه الدقائق في كل ساعه (ونشهد) أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة معترف بجابر الالهام في تدبير هذه الصناعه (ونشهد) أن محمدا عبده ورسوله الذي أدبه ربه فأدبنا بحسن تأديبه وأرشدنا جزاه الله تعالى عنا خيرا الى معرفة بديع الادب وغريبه (فصلى) الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تأدبوا بآدابه وثبتوا أوتاد سوقه من غير فاصلة وتمسكوا بأسبابه وسلم تسليما كثيرا (وبعد) فان غريب الادب قد فرقه الشتات أيدي سبا ونظمه بعد تأهيل غربته في اسلاك الغربا وقد هزتني حمية الادب الى لم شمله واجتماعه بالنسيب من أهله (ولما) جعلت لهذا الكتاب جامعا صلت أقلام التأليف في قبلته (وقد سميته تأهيل الغريب) والمرجو من الله حسن المطابقة في تسميته اذ غريب الادب قد صار في هذا العصر من العنقاء أغرب وكثرت عليه الغارة متأدب ولم يتأدب (ولما) حصل في بديعه هذه البدعه ابتدأ بما لبه وأخرج من بيوته وعزت مطالبه الرجعه (ولهذا قال المصابي)

أحب الشعر يبتدع ابتداعا * وأكره منه مبذولا مشاعا

(وقد) أنفت ان افتح باب بيت عقده البذل وان كان بديعا ولم ارض من هذا النحو بغير التسهيل اليه بالاعراب عنه مرفوعا (فقد قال بديع الزمان) قد يوحش اللفظ وكله ود ويكره الشيء وليس منه بد (والعرب) تقول لا أبا لك ولا يقصدون الذم وويل امه لامر اذا اهم (قلت) وهذا الشمل ما أظن أحدا قبلي لمه في كتاب ولا نحا هذا النحو ولا أعرب هذا الاعراب ماذا قدمت متأخرا وأخرت متقدما ولم أرتب الانواع فالقصد انني اذا ظفرت بغريب أهلته على الفور وأضعت نشره بعد ما ضاع اذ رب الجمال في كل محل يظهر الحسن تجميله وعلى كل حال أم عمرو جميله (والله تعالى) يؤلف قلوب أهل الذوق على حلاوة تأليفه ويعين على جمع أصناف المحاسن في تصنيفه بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى (ذكر الاصمعي) ان أغرب بيت نظم في اغزال العرب (قول جميل)

خليلي فيما عشتما هل رأيتما * قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

(ومن هنا) أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة وقال

أبكي اشتياقا اليها وهي قاتلتي * يا من رأى قاتلا يبكيه مقتول

(ومن غريب) الاغزال المحمسة (قول عنترة)

ولقد ذكرتك والرماح نواهل * مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لانها * لمعت كبارق ثغرك المتبسم

(هذا النوع) سماه علماء البديع الافتنان لاشتماله على فني الغزل والحماسة (كقول أبي دلف)

أحبك يا ظلوم فانت مني * مكان الروح في صدر الجبان

ولواني أقول مكان روحي * خشيت عليك بادرة الطعان

(وأبدع منه وأغرب قول الارجاني)

كم طعنة نجلاء تعرض بالحمى * من دون نظرة مقلة نجلاء

فتصد ثائرا نحول قبابها * سمر الرماح يملن للاصغاء

(الذي) يظهر لي ان الصاحب فخر الدين بن مكانس من هنا ولد معنى شجرة السرح (وقال)

مالت على النهر اذ جاش الخرير به * كأنها أذن مالت لاصغاء

(شيخ شيوخ حماة المحروسة)

ونحن معاشر نلقى الدنايا * ونلبس من صوان العرض سردا

نعانق من رماح الخط بانا * وننشق من سيوف الهند وردا

(وقال مهيار في بيت واحد وأجاد)

وأتعب من حاولت يا قلب وصله * حبيب سنان السمهري رقيبه

(وممن) تفنن بين رقة الغزل وفخامة الحماسة ابراهيم بن محمد الانصاري المنبوز بطويجن (لحسن ذلك) قوله الذي أجاد فيه الى الغاية

خطرت كمياد القنا المتأطر * ورنت بالحاظ الغزال الاعفر

وأتت لك بين تطاعن وتداعن * في فتك قسورة وعطفة جؤذر

ويلعب الصدغين مطردو جنة * زحفت عليه كتائب ابن المنذر

(ومثله في الحسن قوله)

زارت وفي كل مرمى لحظ محترس * وحول كل كناس لحظ محترس

وان تلاحظها الزاهي الضحى نطقت * سيوف آبائها عن آية الحرس

(ابن الساعاتي وأجاد)

يهوى قوام الرمح وهو مهفهف * والسيف في وجناته توريد

فكانما سمر الرماح معاطف * والهام فوق صدورهن نهود

(ويعجبني هنا قول نصر الله بن قلاقس)

عقدوا الشعور معاقد التيجان * وتقلدوا بصوارم الاجفان

ومشوا وقد هزوا الرماح قدودهم * هز الكماة عوالي المران

وتدرعوا زردا تخلت أراقما * جعلت ملابسها على الغزلان

(ومن)

(ومن) لطائف المتأخرين في هذا الباب أعني الغزل المحمس قول الوداعي

لقيتني بصدرها فتوهمت عناقاً أهدى الى اللقاء

وعدانى ياقوم ان العوالى * عند اشراعها اراق الدماء

(ومن بديع الفاضل وغريبه)

تلقى عروس المنايا وهي حاسرة * وخدها فيه من فيض الدما خفر

والضرب بالبيض من آثاره عكن * والطعن بالسمر من آثاره سرر

(ومثله قوله في ضرب ممدوحه بالسيوف)

تمد الى الاعداء منها معاصما * فترجع من ماء الكلا باساور

(ومثله قوله سقى الله ثراه)

وخدود الارض مشرقة * من دم والخيل خيلان

(ابن قلاقس وأجاد)

وغزال لدن المعاطف كالخو * ط رقيق الخدود كالجريال

عسكري يصول في معرك الحب بما فيه من سلاح الجمال

(ومثله قول مجير الدين بن تميم)

بروحي من الاتراك ظبي تخافه * اذا ماسطا أسد الشرى وتحاذره

لها حيلتي فيمن اذا رمت وصله * ثنى طرفه نحو الحسام يشاوره

(قال ث هذا التضمين يعد من المرقص والمطرب (ومثله قول سبط التعاويذي)

بين السيوف وعينيه مشاكلة * من أجلها قيل للاغماد أجفان

(ومن ناصح ابن قلاقس هنا قوله)

ثقفوها من القدود رماحا * وانتضوها من الجفون صفاحا

يالها حالة من السلم حالت * فاستحالت من بعد ذاك كفاحا

صح اذ وردت العيون دماء * انهم أثخنوا القلوب جراحا

(وما أحلى ما قال بعده)

يافؤادي وقد أخذت أسيرا * اقتطرت أم وضعت السلاحا

(ومن مدائحه في الملك المعظم قوله)

ولقد أشمت الثغر منك مهندا * خلناه ذاك العضب رد لغمده

فكأن ثغرك اقحوانة ثغره * وكأن باسك جلنارة خده

(صفوان المريسي وأجاد)

يرى اعتناق العوالي في الوغى غزلا * لان خرصانها من فوقها مقل

(وقلت) من قصيدتي التي كتبت بها جوابا عن صاحب تونس الى صاحب الاندلس

وسال عذار السيف فوق خدودهم * فأظهر بعد الشيب خدا امردا

وكم زرد قد فك فوق مسبله * الى ان رأيناه عذارا مزردا

(انتهى) ما أوردته من تأهيل الغريب في الغزل المحمس ولم أكثر منه الا لانه عزيز الوجود

جداغير انى أعرضت فى هذا الكتاب عن كثير من البديع الغريب المختلف الانواع والغيته لعقادة وحدتها فى تركيبه وسفالة فى ألفاظه (كقول) عنترة فى معلقته يصف روضة بديعة رأى فيها (ذبابا)

وخلا الذباب بها فليس ببارح * غردا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه * قدح المكب على الزناد الاجذم

(فهذا) التشبيه معدود من التشابيه العقم وهذا مسلم غيران عقادة التركيب هنا فى تقديم الالفاظ وتأخيرها اسفرت عن أقطع يحك ذراعه بذراعه (وقول امرئ القيس فى معلقته)

وتعطو برخص غير شثن كأنه * أسارِيع ظبي أو مساويك اسحل

(فغاية) امرئ القيس انه هنا شبه أنامل محبوبته باسارِيع وهى دواب تكون فى الرمل ظهورها ملس ومساويك اسحل والاسحل شجر أغصانه ناعمة (أين هذا من قول الراضى بالله)

قالوا الرحيل فأنشبت اظفارها * فى خدها وقد اعتقلن خضابا

فكانها بأنامل من فضة * غرست بارض بنفسج عنابا

(فالتشابيه) التى تقادم عهدها للعرب رغب المولدون عنها فانها مع عقادة التركيب وخشونة الالفاظ لم تسفر عن معنى بديع الا فيما قل وندر (وقال أبو محجن الثقفى فى وصف قينة)

ترجع الصوت أحيانا وتخفضه * كما يطن ذباب الروضة الغرد

قال ابن رشيق خولفت العرب فى كثير من الشعر الى ماهو أليق منه وأمس بالوقت وأليق باهله فان القينة الجميلة لم ترض ان تشبه نفسها بالذباب كما قال ابو محجن (قلت) والعرب عذرها واضح فى ذلك فانه لم يسعها أن تذكر غير ما وجدته فى المهامه المقفرة من الذباب والاساريع وشجر الاسحل وما أشبه ذلك ومن أين للعرب أن تقول (كقول ابن المعتز فى الهلال)

فانظر اليه كزورق من فضة * قد أثقلته حمولة من عنبر

(وهى) عن الزورق والعنبر وعن كثير من ذلك بمعزل (قلت) وأين وصف عنترة لروضته بالذباب والاجذم من وصف العلامة يحيى بن هذيل المغربى لروضته الاريضة حيث أتى ببديع الغريب وقال

نام طفل النبت فى حجر النعاما * لاهتزاز الطل فى مهد الخزاما

وسقى الوسمى أغصان النقا * فهوت تلثم أفواه الندامى

كحل الفجر لهم جفن الدجا * وغدا فى وجنة الصبح لثاما

تحسب البدر محيا ثملا * قد سقته راحة الصبح مداما

حوله الزهر كؤس قد غدت * مسكة الليل عليهن ختاما

(ومثله فى الحسن والغرابة)

وتحدث الماء الزلال مع الحصا * فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى

فكأن فوق الماء وشيا ظاهرا * وكأن تحت الماء درا مضمرا

(ويعجبنى هنا قول الشيخ محمد الارموى)

كم للنسيم على الربا من نعمة * وفضيلة بين الورى لن تجحدا

فازارها وشكت اليه فاقة * الا وهز لها الشمائل بالندى

ومن بديع القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وغريبه

وبطحاء في واد يروقك روضها * ولا سيما ان جاد غيث مبكر
بها فاض نهر من لجين كأنه * صفائح أضحت بالنجوم تسمر
فكم غازلته للغزالة مقلة * تسارق أوراق الغصون فتظهر
تلاحظها عين تفيض بأدمع * ترقرقها منه هنالك محجر
اذا ما خرته الريح ولت عليلة * باذيال كثبان الربا تتعثر
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا * به الروض يحيي وهو لا شك جعفر

قلت) التورية جاءت هنا في الفضل والربيع ويحيي وجعفر فهو غريب لا عن قصد في التأليف اذا القصد في الغرابة في المعنى وربما ينتظم معي في هذا السلك جانب لغرابة المعاني وأما) مجرد التورية وأقسامها وأنواعها فتجده في كتابي المسمى بكشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام (ومن بديع الغريب قول أبي اسحق ابراهيم بن خفاجة)

وقد نظرت شمس الاصيل الى الربا * باضعف من طرف المريب وأفتر
ولاح على بلوره من غديرها * شعاع شراب كالعشية أصفر
وصفرة مسواك الاصيل تروقني * على لعس من مسقط الشمس أحمر

(قلت ومن الاستعارات التي تحصل النشوة بغريبها قول القائل)

والشمس لا تشرب خمر الندى * في الروض الا بكؤس الشقيق

(ونظير هذه الاستعارة في الحسن قول ابن رشيق)

باكر الى اللذات واركب لها * سوابق اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى * ريق الغوادي من ثغور الاقاح

ومن مرقص الاستعارات ومطربها قول القائل

بحيرة جدول وسماء آس * وأنجم نرجس وشموس ورد
ورعد مثالث وسحاب كاس * وبرق مدامة وضباب ند

(ومن الغايات أيضا في هذا الباب قول مجير الدين بن تميم)

وليلة بت أسقى في غياهبها * راحا تسل شبابي من يد الهرم
ما زلت أشربها حتى نظرت الى * غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

(ومن ذلك قول ابن قلاقس وأجاد)

وفي طي أبراد النسيم خميلة * باعطافها نور المنى يتفتح
تضاحك في مسرى المعاطف عارضا * فمدامعه في وجنة الروض تسفح
وتوري به كف الصبا زند بارق * شرارته في فحمة الليل تقدح

(وتلطف هنا مجد الاربلي بقوله في الاستعارة المرشحة)

أصغي الى قول العذول بجملتي * مستفهما عنكم بغير ملال
لتلقط زهرات ورد حديثكم * من بين شوك ملامة العذال

(ونظيره قول مجير الدين بن تميم هنا)

كيف السبيل للثم من أحببته * من بعد ما نامت عيون الحرس
وأصابع المنثور تومئ نحونا * حسدا وتغمزها عيون النرجس

(وقال محيي الدين بن قرناص في الاستعارة المرشحة وأجاد)

قد أتينا الرياض حين تجلت * وتحلت من الندى بجمان
ورأينا خواتم الزهر لما * سقطت من أنامل الاغصان

(ومنه قول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي)

هلم يا صاح الى روضة * يجلو بها العاني صدا همه
نسيمها يعثر في ذيله * وزهرها يضحك في كمه

(ويعجبني هنا قول ابن النبيه)

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر * ودب عذار الظل في وجنة النهر

(ومن البديع الغريب في هذا الباب قول ابن سناء الملك)

سرى طيفه لا بل سرى لي سرابه * وقد طار من وكر الظلام غرابه
أتت مع نفس الليل صفحة وجهه * فقلت حبيب قد أتاني كتابه

(ومنه قوله)

بشوك القنا يحمون شهد رضابها * ولا بد دون الشهد من ابر النحل

(ومنه قوله)

ألقى حبائل صيد من ذوائبه * فصاد قلبي بأشراك من الشعر

(وأبدع منه وأغرب قوله)

خصر اديرعليه معصم قبلة * فكان تقبيلي له تعنيق

(والغاية التي لا تدرك في هذا الباب قوله)

بعثت لي على فم الطيف قبلة * فاتاني بعض المسرة جمله

(ومن الاستعارات الحسنة قول شمس الدين بن العفيف في مديح النبي صلى الله عليه وسلم)

حياك يا تربة الهادي الرسول حيا * بمنطق الرعد باد من فم السحب

(وقال ابن قلاقس وأجاد)

هدتنا السرور نجوم راح * بها قذفت شياطين الهموم
وكف الصبح يلقط ما تبدى * بجيد الليل من درر النجوم

(قلت) ويعجبني في الاستعارات المرشحة قول ابن أسعد الموصلي يتشوق الى دمشق المحروسة ويذكر أيامه بها

سقى دمشق وأياما مضت فيها * مواطر السحب ساريها وغاديها
ولا يزال جنين النبت ترضعه * حوامل المزن في أحشا أراضيها

(ومن بديع الاستعارات قول ابن زيدون من قصيدته المشهورة)

سران في خاطر الظلماء يكتمنا * حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

(قد تقدم) ما صدرنا به من كلام العرب في الغزل ولكن الميل الى زخارف المتأخرين أطلق عنان القلم الى هذا الاستطراد (وقد تعين) ان نشرع في تكميل ما سبقوا اليه إذ هم ولاة هذا الشأن والسابقون الى حلبة هذا الميدان ثم بعد ذلك نذكر ما زخرفه المتأخرون بعدهم من بديع الغريب في كل نوع لا أتقيد بنوع واحد ولا بتقديم متأخر وتأخير متقدم قيل أمدح بيت قالته العرب (قول أبي الطمحان القيني)

أضاءت لهم احسابهم ووجوههم * دجا الليل حتى نظم الجذع ثاقبه

(وقيل بل قول جرير)

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح

(وقال الاصمعي بل قول حسان بن ثابت)

يغشون حتى ما تهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبل

(قلت) واحشم المدائح قول حسان بن ثابت في النبي صلى الله عليه وسلم

ما ان مدحت محمدا بمقالتي * لكن مدحت مقالتي بمحمد

(ومن بديع مدائح العرب وغريبها قول العرندس أحد بني بكر بن كلاب)

لا ينطقون عن الفحشاء ان نطقوا * ولا يمارون ان ماروا باكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم * مثل النجوم التي يسري بها الساري

(ومنه قول الحطيئة)

كسوب ومتلاف اذا ما سألته * تهلل واهتز اهتزاز المهند
متى تأته تعشو الى ضوء ناره * تجد خير نار عندها خير موقد

(الاخينس الطائي)

نزلت على آل المهلب شاتيا * غريبا عن الاوطان في زمن محل
فما زال بي اكرامهم وافتقادهم * وبرهم حتى حسبتهم أهلي

(زهير بن أبي سلمى)

فما كان من خير أتوه فانما * توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجه * وتغرس الا في منابتها النخل

(وقال يمدح هرم بن سنان المري وأجاد)

أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله * ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه اذا ما جئته متهللا * كانك معطيه الذي أنت سائله

(وقال آخر وأجاد)

قوم اذا اشتجر القنا * جعلوا الصدور لها مسالك
اللابسين قلوبهم * فوق الدروع لدفع ذلك

(ولبعضهم)

يبيتون في المشتى خماصا وعندهم * من الزاد فضلات تعد لمن يقري
اذا ضل عنهم ضيفهم رفعوا له * من النار في الظلماء ألوية حمرا

(قال ابن الاعرابي وقول أبي نواس أمدح شعر قاله المحدثون حيث قال)

أنت الذي تأخذ الايدي بحجزته * اذا الزمان على أنيابه كلحا
وكلت بالدهر عينا غير غافلة * من جود كفك تأسو كلما جرحا

(مسلم بن الوليد)

أعطى فأناى المنى أدنى عطيته * وأرهق الوعد نجحا غير مكدود
يجود بالنفس ان ضن البخيل بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(ومن هنا ولد القائل وهو أبو تمام)

ولو ان مافي كفه غير نفسه * لجاد بها فليتق الله سائله

(البحتري) ومصعد في هضاب المجد يقرعها * كأنه لسكون الجاش منحدر
مازال يسبق حتى قال حاسده * له طريق الى العلياء مختصر

(أبو نواس يمدح الفضل بن الربيع)

قولا لهارون امام الهدى * عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على ما بك من قدرة * فلست مثل الفضل بالواجد
أوجده الله فما مثله * لطالب ذاك ولا ناشد
وليس لله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

(مسلم بن الوليد يمدح المأمون وأجاد)

بأبي وأمي أنت ما أندى يدا * وأبر ميثاقا وما أزكالك
يغدو عدوك خائفا فاذا رأى * ان قد قدرت على العقاب رجالك

(أشجع السلمي يمدح الرشيد)

وعلى عدوك يا ابن عم محمد * رصدان ضوء الصبح والاظلام
فاذا تنبه رعته واذا غفا * سلت عليه سيوفك الاحلام

(العكوك يمدح أبا دلف)

انما الدنيا أبو دلف * بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

(وقال فيه أيضا)

الله أجرى من الارزاق اكثرها * على يديك بعلم يا أبا دلف
ماخط لا كاتباه في صحيفته * كما تخطط لا في سائر الصحف
بارى الرياح فأعطى وهي جارية * حتى اذا وقفت أعطى ولم يقف

(ابن شرف وأجاد)

لمختلفي الحاجات جمع ببابه * فهذا له فن وهذا له فن
فللخامل العليا وللمعدم الغنى * وللمذنب العتبى وللخائف الامن

(وقال يمدح علي بن أبي الرجال الكاتب وأجاد)

جاور عليا ولا تحفل بحادثه * اذا ادرعت فلا تسأل عن الاسل

سل عنه وانطق به وانظر اليه تجد * مل ء المسامع والافواه والمقل

(المهلب بن الزبير وأجاد)

ومن عجب ان السيوف لديهم * تحيض دماء والسيوف ذكور

واعجب من ذا انها فی اكفهم * تؤجج نارا والاكف بحور

(الواوا الدمشقی يمدح سيف الدولة بن حمدان)

من قاس جدواك بالغمام لما * انصف فی الحكم بين شكلين

أنت اذا جدت ضاحك أبدا * وهو اذا جاد دامع العين

(أبو بكر بن اللبانة وأجاد)

أراشوا جناحی ثم بلوه بالندى * فلم أستطع من أرضهم طيرانا

(أبو الطيب المتنبی)

هم المحسنون الكر فی حومة الوغى * وأحسن منهم كرهم فی المكارم

ولولا احتقار الاسد شبهتها بهم * ولكنها معدودة فی البهائم

قلت قول بديع الزمان أبدع فی هذا المعنى وأكثر فوائد (وهو)

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا * لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا

والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت * والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

(السرى الموصلی)

نسب أضاء عموده فی رفعة * كالبدر فيه ترفع وضياء

وشمائل شهد العداة بفضلها * والفضل ما شهدت به الاعداء

(أبو الفتح كشاجم)

يا سيد العرف اسرارا واعلانا * ومتبع البر والاحسان احسانا

اقلع سحابك قد غرقتنی مننا * ما أدمن الغيث الا كان طوفانا

(وأحسن منه قول ابن نباتة السعدی)

ان كنت ترغب فی بذل النوال لنا * فاخلق لنا رغبة أولا فلا تنل

لم يبق جودك لی شيأ أؤمله * تركتنی أصحب الدنيا بلا أمل

(واختصره أبو العلاء فی بيت واحد وأجاد)

لو اختصرتم من الاحسان زرتكم * والعذب يهجر للافراط فی الخصر

(ولله در القائل)

فتى دفع ابخل الزمان بجوده * ولا طيب الا دفعك الضد بالضد

(السلامی يمدح عضد الدولة وقد تقدم بما قاله على من تقدم واعجز والله من تأخر)

اليك طوى عرض البسيطة جاعل * قصار المطايا ان يلوح لها قصر

و بشرت آمالی بملك هو الورى * ودار هی الدنيا ويوم هو الدهر

(وقد) أخذ القاضی ناصح الدين الارجانی هذا المعنى وسبكه فی قوله

يا سائلی عنه لما طلت أمدحه * هذا هو الرجل العاری من العار

لو زرته لرأيت الناس في رجل * والدهر في ساعة والارض في دار

(فالارجاني أخذ) المعنى بكماله ولكنه قصر عن رشاقة بيت السلامي وطلاوته (وقد) استعمل أبو الطيب المتنبي أيضا هذا المعنى ولكن لم يكمله حيث قال

هي الغرض الاقصى ورؤيتك المنى * ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

(وكان عضد الدولة يقول) اذا رأيت السلامي في مجلسي ظننت ان عطاردا قد نزل من الفلك ووقف بين يدي (أبو الحسن البديهي وأجاد)

عممت الورى بالبر حتى كأنما * ترد عليهم من لهاك غصوب

وعرفتهم طرق الثناء فكلهم * على طبقات شاعر وخطيب

رأى المزن ما تعطى فضم على الاسى * فؤادا كأن البرق فيه لهيب

وكم لاح برق وابتسمت اشائم * فكنت صدوق الوعد وهو كذوب

(أبو الفتح البستي وأجاد)

مدحتك فالتامت قلائد لم يفز * بأمثالها صيد الملوك الاعاظم

لانك بحر والمعالي لآلئ * وطبعي غواص وشعري ناظم

(وقال وأجاد أيضا)

لا تظنن بي وبرك حي * ان شكري كشكر غيري موات

انا أرض وراحة الشيهاء * والايادي وبل وشكري نبات

(مهيار الديلمي وأجاد)

واذا الاباء ألم قال لك انتقم * قالت خلائقك الكرام لك احلم

شرع من المجد انفردت بدينه * وفضيلة لسواك لم تتقدم

حتى لقد ودالبرىء بأنه * ادلى اليك بفضل جاه المجرم

(واعجبني من حماسة أبي تمام قول القائل الى الغاية)

لمست بكفي كفه ابتغي الغنى * ولم أدر ان الجود من كفه يعدى

فلا انا منه ما أفاد ذو الغنى * أفدت وأعداني فأتلفت ما عندي

(قلت) واعجبني أيضا من حماسة أبي تمام قول الفرزدق حين قال الشامي لهشام بن عبد الملك عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم وقد دخل الحرم من هذا الذي أعظمه الناس وفرجوا له عن استلام الحجر الاسود فقال لا أدري (فقال) الفرزدق لله دره أنا أعرفه فقال الشامي من هذا يا أبا فراس (فقال الفرزدق)

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم * هذا التقي النقي الطاهر العلم

اذا رأته قريش قال قائلهم * الى مكارم هذا ينتهي الكرم

يكاد يمسكه عرفان راحته * ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

ما قال لا قط الا في تشهده * لولا التشهد كانت لاؤه نعم

أي القبائل ليست في رقابهم * لا ولية هذا أوله نعم

بكفه خيزران ريحه عبق * بكف أروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضى من مهابته * فما يكلم الا حين يبتسم

(الارجاني يمدح المسترشد بالله)

ملك يقود جنودا من ملائكة * في طاعة الله لا يعصون ما أمرا
قوم اذا غرسوا بين الضلوع قنا * عادت حوامل من هام العدا ثمرا

(وقال مثله وأجاد)

وأريتهم أعجاز يوم حفيظة * لم يبق صدق الضرب فيهم مطعنا
زرع الطعان فقبلت في ساعة * من هامهم وشعورهم سمر القنا

(ومن غرائب القاضي الفاضل هنا)

الله جارك والآجال كاشرة * من القواضب في عضل الثنيات
وقد تداعت بها الابطال واعترفت * والطعن بينهم مثل التحيات
وقد تهادت سيوف الهند اذ خضبت * كالشرب حين تهادى بالزجاجات

(ومن بديع غريبه قوله)

أهذه سير في المجد او سور * وهذه أنجم في السعد أم غرر
وأنمل أم بحار والسيوف لها * موج وافرندها في لجها درر
وأنت في الارض أم فوق السماء وفي * يمينك البحر أم في وجهك القمر
يقبل البدر ترباً أنت واطئه * فالترب عليه ذلك الاثر
(منها) نأى به الملك حتى قيل ذا ملك * دنا به الجود حتى قيل ذا بشر
في كل يوم لنا من مجده عجب * وكل ليل لنا من ذكره سهر
نظرت في نجمه فالسعد طالعه * لا ينقضي وعلى أمواله سفر
أبا الفوارس والآباء مشفقة * وهم بنوك ولا تبقي ولا تذر
وأنت في جيش رأي لا غبار له * ترمي العداة بقوس ماله وتر
سقاك الله دنيانا فاخدمها * والعدل يفعل مالا يفعل المطر
لما استقلت ستور الملك لاح لنا * ملك به الجود عين والثنا أثر
نال السماء باطراف القنا فبدت * من النصول عليها أنجم زهر

(منها)

لا يحدث النصر في اعطافهم مرحا * حتى كأنهم بالنصر ماشعروا

قلت السابق الى هذا المعنى كعب بن زهير في قصيدته النبوية (وهو قوله)

لا يفرحون اذا نالت رماحهم * قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا

(ولكن) تفضيل الفاضل والله أعلم فاضل (ومن قصيدة الفاضل قوله)

ترى غرائب من أفعال مجدهم * يردها الفكر لولم يشهد النظر

(ومثله في بديع الغريب قوله)

أهذا كفه أم غيث غوث * ولا بلغ السحاب ولا كرامه
وهذا بره أم لمع برق * ومن للبرق فينا بالاقامه
وهذا الجيش أم صرف الليالى * ولا سبقت جوار بها رجامه
وهذا الزهر أم عبد لديه * يصرف عن عزيمته زمامه
وهذا نصل غمدام هلال * اذا أمسى كنون أو قلامه
وهذا الترب أم خد لثيم * فآثار الشفاه عليه شامه
وهذا الدر منثور ولكن * أروني غير أقلامى نظامه
وهذى روضة تندى وسطرى * بها غصن وقافيتى حمامه
وهذا الكاس روق من بنانى * وذكرك كان من مسك ختامه

(ومثله فى الحسن قوله)

المضرمون لنار الحرب ليس لها * الا الرماح واضلاع العدا حطب
والشاربون كؤس الموت مترعة * وللاسنة فى حافاتها حبب

(وقال من مديح قصيدة طائية وأجاد)

أما الثريا فنعل تحت أخمصه * وكل قافية قالت لذلك طا

(ومثله فى الحسن قوله)

يقول ولو ان الليالى خصومه * ويمضى ولو ان النجوم مطالبه
وقد خفقت راياته فكأنها * أنامل فى عمر العدو تحاسبه

(ومن غريب تخمص ابن هانئ فى مدائحه قوله)

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر * وأمدكم فلق الصباح المسفر
وجنيتم ثمر الوقائع يانعا * بالنصر من ورق الحديد الاخضر
أبنى العوالى السمهرية والسيو * ف المشرفية والعديد الاكثر
من منكم الملك المطاع كأنه * تحت السوابغ تبع فى حمير

(قيل) انه لما تجاهل فى هذا البيت عن معرفته ترجل الجيش بكماله تعظيما للممدوح اذ هو ملكهم وهذه القصيدة سارت بمحاسنها الركبان منها

فى فتية صدأ الدروع عبيرهم * وخلوقهم علق النجيع الاحمر
وتظل تسبح فى الدماء قبابهم * فكأنهن سفائن فى أبحر
حى من الاعراب الا انهم * يردون ماء الامن غير مكدر
لى منهم سيف اذا جردته * يوما ضربت به رقاب الاعصر
فغمامه من رحمة وعراصه * من جنة ويمينه من كوثر

(ويعجبنى من هذا الباب قول ابن النبيه)

ملك زمام الزمان فى يده * فاختلفت كاختلاف ألوانه
بيضاء يوم انطلاق أنعمه * حمراء يوم اعتقال مرانه

(ومثله في الحسن قوله)

حملت أنامله السيوف فلم تزل * شكر المنالك سجداً أو ركعا
حلت فلا برحت مكاناً لم يزل * من در أفواه الملوك مرصعا

(ومثله قوله)

سل عن مواقف بأسه لما التقت * يوم الهياج كتائب بكتائب
لمعت أسنته على إعلامها * فكأنها شهب ذوات ذوائب
تهوى الملوك الى التثام ترابه * فثغورهم كالدر بين ترائب

(وقال وأجاد)

ملك اذا ضاق الزمان بأهله * بخلا توسع في المكارم وانفسح
تكبو السحائب اذ تجاري كفه * فالغيث في جنباتها عرق رشح
وتكاف الاسد الهصور بعدله * في القفر ان يرعى الغزال اذا سنح
كم من خطيب ذاكر غير اسمه * لما تنحنح قال منبره تنح
ذكر واسواه فنبهوا عن فضله * بيت الكريم دليله كلب نبح

(وقال) صحت له كيمياء المجد اذ سبكت * يمناه للبذل اكسيراً من الذهب

(ومن بديع شيخ شيوخ حماة هنا قوله)

اذا اعتقل السمر العوالي عاقه * بها العس عن كل الحي ولمياء
وأفنى العداضر باً وطعناً كأنما * تردده فيهم تلجلج فأفاء

(ومن لطائف ابن قلاقس هنا قوله)

ملك اذا ركع الحسام بكفه * لم يلتفت الا لرأس ساجد
شيم تقسمت المكارم فاغتدت * فرح الولي ورغم أنف الحاسد
غصب الكواكب وصفها فحده * في صورة المريخ ظرف عطارد
ذو العضب والعذب اللذين تكملا * قطع الوريد ووصل ري الوارد
ركبوا الجياد الجرد واعتقلوا القنا * فكأنهم أسد سطت بأساود

(ومن ذلك قوله)

يا فارس الاسلام حين ترجلت * فرسانه وتجادلت عن نصره
والصارم الذكر الذي اقتضت به * من خلف ستر النقع عذرة بكره

(وقال) من القوم ما غير الظبا لبيوتهم * أساس ولا غير الذوابل أركان
اذا جردوا بيض السيوف خالها * سوى أرؤس الصيد البهاليل أجفان
ولست ترى في محكم لذكر سورة * تقوم مقام الحمد والكل قرآن
فلله منهم واحد بين قومه * وهم بين أحياء القبائل وحدان

(ومن لطائف ابن سناء الملك هنا قوله)

يا فالق الصبح من سيف براحته * أنت الذي فلق الهامات بالفلق

فكم تركت بها كفا بلا عضد * وقد توسدها رأسا بلا عنق

(وقال) فأتى بأنواع فكر فيه مبتكر * لكن معاليه تأتينا بأجناس
فلو تراب مواطيه بأعيننا * وتحسد الرجل فيه قمة الراس
كأنما الكف فيه مثل مصحفه * واللثم فيها كأعشار وأخماس

(وقال من بعض مدائحه فى القاضى الفاضل)

فى الناس جود ولكن جود راحته * أربى عليهم وليس البحر كالنهر
تصنعوا وأتت طبعا مواهبه * تعطل البدو أحلى من حلى الحضر
والدهر مذ البيه كف مقتصر * لحد الدهر منه لحظ محتقر
ذاك الاجل وان يحك الورى شبها * فالمسك كالطين فى الالوان والصور
فى كفه قلم ان شئت أو قدر * يصرف الخلق بين النفع والضرر
منه الطروس خدود والسطور بها * مثل السوالف والطارات كالطرر

(ومنها) حبى صحيح وغيرى حبه كذب * انى جهينة فاسألنى عن الخبر

(وقال) تفنن فى اعطائه لعفاته * فلو سألوه المجد أعطاهم المجدا
ولا عيب أيضا فى مآثر بيته * سوى انها تروى بألسنة الاعدا
أقول لهذا الدهر قم واستطل به * فحسبك فخرا أن تكون له عبدا

(وقال) أخو فتكات لا تزال سيوفه * تخط سطورا النصر فى جبهة الكمى
فقد أرسلت حتفا الى كل كافر * كما أرسلت فتحا الى كل مسلم
وأصبح يعدى السيف تصميم عزمه * فمن ذاك سمى بالحسام المصمم
وأسهمه فى صدر كل مدرع * فما الدرع منها غير برد مسهم

(منها) رأيتك بحرا أطبق الارض مده * فلم يبق عندى رخصة فى التيمم
فخذها وقد جاء تلك من متأخر * مجيد وليس الفضل للمتقدم

(وقال) وخاض بهم فى البر بحرا من الردى * طرائقه سود وأمواجه حمر
فأقرب شئ بعد رؤيته الغنى * وأبعد شئ بعد رؤيته الفقر
ولا عيب فى انعامه غير انه * يعلم منه كيف يستعبد الحر
جرى الناس فى آثاره فتعثروا * ومن قبلهم ريح الجنائب والقطر

(ومن المدائح المخمسة لابن النبيه فى الاشرف)

امام جيشك أنى سار أربعة * نصل ونصر وآراء ورايات
وتحت غيل القنا فرسان معركة * لها ثبات وفى الهيجاء وثبات
أهلة فى سماء من مغافرها * لها الترائك أفلاك وهالات

(منها) صفائح هى اذ دب الفرند بها * صحائف كتبت فيها المنيات
ان مس شمس الضحى من لمعها رمد * كحلتها بالعجاج الاعوجيات
أين المفر لسرب الروم من أسد * ضاوله من رماح الخط غابات

دمياط طور ونار الحرب موقدة * وأنت موسى وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا * ولا تخف ما حبال القوم حيات
أصبتهم بسهام الحرب من حلب * وللمكايد من بعد اصابات
فطهر الله ذاك الثغر من قلح * أصابه وانجلت تلك الثنيات
قد من ثغر دمياط و برزخها * فتح له تفتح السبع السموات
يوم على الروم تمشي ريحه سحبا * أمطارهن مصيبات مصيبات
تخال البحر ذاك اليوم من دمهم * والموج ترقصه فيها المسرات

(ومما نسجته على هذا المنوال الذي يعجز الحريري طرحه قولي من قصيدة بديعة غريبة متمدحت بها المقر الاشرف السيفي تمر بغا الافضلي ولعمري ان رواة الركبان سارت بحديث محاسنها

ان أبرقت في سما الهيجاء صوارمه * رأيت غيث دما الابطال قد مطرا
فمن رأى منهم برقا بلوح له * يظنه سيفه الماضي قد اشتهرا
له مطالعة في الحرب حين يرى * دم العدا فوق طرس الارض قد سطرا
ان أرسل القوم انشا في رسائله * سجعات ضرب بها الهامات قد نثرا
كتابه السيف والخطي له قلم * والرسل أسهم حتف توضح الخبرا
ان كان قد نظم الاعدا مكيدتهم * فقل لهم انه من قبلهم شعرا
لانه بديع السيف لف لنا * شملا ولكن لا رقاب العدا نشرا
وخط من فوق ألواح الصدور لهم * بابا من الخوف في أحشائهم وقرا
وصار يكتب بالهندي ويعجم بالخطي فعل شجاع قد قرا ودرى
تراه بالرمح بدرا حاملا غصنا * وبالتريكة غصنا حاملا قمرا
ان حن عود اضرب مال سامعه * والخيل يرقصها ان حرك الوترا
كانما الهام احداق أضر بها * سهد وأسيافه في الحرب طيب كرى
وعندما اعتقل الخطار قيل لهم * ولوا فانا نرى خطاره خطرا
يا أيها الملك الممدوح والبطل المسعود في الحرب يا جبر المن كسرا
أذكرتنا لعلي في وقائعه * وفي الفتوحات قد أذكرتنا عمرا
بالامس في حصن سيواس تجمعت الاحزاب نحوك لما ان أتوا زمرا
فادكرونا سليمانا وقد نفروا * كالنمل من خوفهم يا آية الشعرا
جاؤا بعين ليقفوا منكم أثرا * لما تركت لهم عينا ولا أثرا
وعندما أعربوا عن رفع مبتدا * في الحرب صيرتهم بين الورى خبرا
صدمتهم بجنان لو صدمت به * صدر الصباح عقيب الليل ما سفرا
وكم علوت بنهد فوق صدر فتى * كلمته بلسان السيف مختصرا
وحين أوكبت بالشهباء جمعت السفراء شوقا عساها بالشآم ترى

وقد دخلت حماة فهي قد حميت * بابرد قلبي بعزم قط ما فترا
وقد تحسر عاصيها وخزلكم * طوعا وساق الجواري نحوكم وجرى
ومذ سعدت بحمص يوم وقعتها * جبت أعداك حتى ركبهم نفرا
تركتهم لسيوف الهند أضحية * لما غدوا لك يا ليث الوغى بقرا
وفي طواف وداع الروح يوم وغى * صيرت كل شجاع يشتم الحجرا
غزوتهم في ربيع قد تلونت السكثبان فيه ولكن ربعهم صفرا

(وقلت من قصيد)

له راحة في السلم تقطر بالندى * ونيرانها في موقف الحرب ما تصلى
امام محاربيب يبلغ ضربه * وان ركعت أسيافه تسجد القتلى
وكم عقدوا للحرب عقدا وأوثقوا * عراه فابدى نقضه عند ما حلا
وكم رمدت عين الغزالة في الوغى * فصيرمن نقع الجياد لها كحلا
وكم حلم الاقران خوفا بذكره * فأوجب من فيض الدماء لهم غسلا
أقام فروض الحرب مذ سن سيفه * قوانسهم منها الخمس لما بها صلى
وأعجب من ذا ان عدل قناته * غدا اليوم في تجريحه شاهدا عدلا
فلوا حربه لما شواهم بناره * وأكبادهم من داخل الصدر قد سلا
وكم مال للتذبيح أبيض سيفه * بأحمر من قاني دمائهم وما كلا
وكم مر عيش القوم مذ سكب الدما * وأسيافه من ذلك السكب قد حلى
أقام لنا سوق القتال مسعرا * فما ارخص الاسرى وما أكثر القتلى
وجلى ظلام النقع صبح سيوفه * وعظم قدرا في الحروب وقد جلا
لحا الله حربا لم يكن قلب جيشها * وعين شجاع لا يكون لها مقلا
له فرس كالنجم في اثر مارد * كأن هلال الافق صار لها نعلا
اذا ما علا من فوق افلاك ظهرها * تقول ان بدر التم في أفقه حلا
سرى مثلا في الشرق والغرب ذكره * وعلاه قدرا من له المثل الاعلى
فيا ملكا يهوى الحروب ولم يهم * بقد ولا خد ولا مقلة كحلا
نصبت على هام السماك مخيما * مديدا ورب العرش قد أسبغ الظلا

(ولما خذل الله عصابة الفرنج بساحل طرابلس المحروسة على يد المقر الاشرف الكافلي السيفي دمرداش الخاصكي سنة تسع وثمانمائة كتبت الى ابوابه العالية من حماة المحروسة)

قرأت نهار الحرب في سورة النصر * وأعداك تتلو في التغابن والحشر
اذا جاء نصر الله والفتح زلزلت * عداك برعد الخوف يا ملك العصر
بنو الاصفر اسودت وجوه لبوسهم * وفي أسود البحر ارتدوا بالدما الحمر
نثرت رقاب القوم مع نظم شملنا * بحق لقد ابدعت في النظم والنثر
وفي قطع كالليل لما أتوا تلت * سيوفك في ظلمائهم سورة الفجر

بسطتهم فى البحر ثم كسرتهم * نعم أنت عين الدهر فى البسط والكسر
وكم سكنتهم بالسيف فى كل ساحل * فلم يقربوا من بعدها ساحل البحر
وطارت بهم غربانهم منك خيفة * وهل لغراب قدرة بلقا النسر
ومذ عربدوا فى السكر فى حانة الوغى * أذقتهم بالحد عاقبة السكر
وكم كسروا أنيابهم فتلمظت * سيوفك مثل اللسن من داخل الثغر
وهيجتهم خوفا بصدق عزائم * كأنك فى الهيجاء نوع من السحر
وأزعجتهم لما شققت صدورهم * وأزعجت ردا لعجز منهم على الصدر
وصح الهنا من أهل مصر بكسرهم * كما استبشروا من قبلهم ساعة الكسر
وأمنتنا بالشأم من بعد خوفنا * وجاء الهنا من حيث ندرى ولا ندرى
وطيبة طاب العيش فيها لاهلها * وهب نسيم القرب من ذلك القبر
وحصن حماة أنت أنت حميته * بعزمة ليث لم يخف سطوة الدهر
رددت ملوك الارض عنه مخيفة * تقول وحق العصر انا لفى خسر
ألماعلك عاصيها ولكن لهم عصى * فسائلهم ماردّ الا من النهر
وكم صمموا فى أخذها وتجاسروا * وامنعتهم ان يقربوا طرف الجسر
وعندك لما زاد جمعهم غدت * زيادته فى الحرب كالواو فى عمرو
وكم قائل لولا أشاهد فى الوغى * فعالهما كان صدقها فكرى
تجر العدا جهرا لخفض رؤسها * سيوفك حتى خلتها أحرف الجر
وهذى قسى الحرب امسى ركوعها * لديك ولم تبرح ملازمة الوتر
وتهتزأ غصان القنا بك فرحة * فهل راجعت أيامها فى ربا الزهر
أبا لهب يكنى سنانك فى الوغى * وتبت يدا الاعداء منه الى الحشر
به ترجم الاقران قبل قرانه * فقل لبنى لهب كذا صنعة الزجر
سنان منير باح بالصبح انبدا * طويل لسان وهو مع ابه جمرى

(ومن المخترعات الغريبة أيضا قولى من قصيدة امتدحت بها مولانا السلطان الملك المؤيد سقى الله من غيث الرحمة ثراه)

يا حامى الحرمين والاقصى ومن * لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله ان الله نحوك ناظر * هذا ومالى العالمين مناظر
فرج على الملعون نظم عسكرا * وأطاعه فى النظم بحر وافر
فابنت منه زحافه فى وقفة * يامن بأحوال الوقائع شاعر
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم * دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة * فكأنها تيك السروج مقابر

(ومن غريبها أيضا قولى) .

واذا امددت يراع رمحك شاله * الاقلوب الدارعين محابر

وذمال خيلك كالعيون ومالها * الاجماجم من قتلت محاجر
وكتبت بالهندي فيهم اسطرا * وصدورهم تحت الدروع مساطر
(منها) واذا سفرت بأفق موكبك الذي * عما حواه ملك فيه مرقاصر
قلنا الاقمار السماء وقد بدت * هذا هو البدر المكمل سافر
(منها) والله بعدك لست أمدح في الورى * ملكا ولا ملكا ولا أنا شاعر
لكن ختامى ختم مدحك انه * مسك تضوع منه نشر عاطر
لازلت في مصر عزيزا حاكما * والشأم واديها بعدلك زاهر
(وكتب صاحب الاندلس الى صاحب تونس قصيدة دالية يحمس فيها واستخدمه بها على خلاص سبتة من الفرنج ومطلعها)
حماة الهدى سبقا وان بعد المدى * فقد سألتكم نصرها ملة الهدى
(وورد) قاصد صاحب تونس يسأل العبد الجواب عن هذه القصيدة (فكتبت)
أجابكم عزم سبقنا به الندى * واسيافنا والله كذبت الصدى
(ومن بديع الغريب قولى منها)
اذا ماانثنى السمهري بقده * عليهم تراه صير الجمع مفردا
وسال عذار السيف فوق خدودهم * فأظهر بعد الشيب خدا موردا
وكم زرد قد فك فوق مسيله * الى أن رأيناه عذارا مزردا
وأظهر اعرابا لنا بيمينه * بليغا فقلنا لم يكن ذا مهندا
وقد هاج بحر الآل والخيل موجه * ولكنه بالشهب قد صار مزبدا
(منها) وسم الحصى كالشمع تحت نعالها * وقد أعرضت عمن أتاها مفندا
(ومن بديع الغريب في مدائحى المؤيدية قولى)
وما تأخرت عن قوم طغوا وبغوا * الا ومنك اليهم سارت الهمم
هامت بسيفك أرواح العدا فاذا * جردته حن منهم مهجة ودم
وفارقت كل روح جسم صاحبها * كأنما سيفها من جسمه ألم
(ومن الغريب الذي يجب تأمله قول أبي الطيب المتنبي من قصيدة)
له أياد الى سابقة * اعد منها ولا اعددها
(منها في المدح المحمس الغريب)
تبكي على الانصل الغمود اذا * أنذرها أنه يجردها
لعلمه انها تصير دما * وانه في الرقاب يغمدها
(ومن بديع الغريب قوله من غيرها)
يعطيك مبتدئا فان أعجلته * يعطيك معتذرا كمن قد أجرما
نصر الفعال على المطال كأنما * خال السؤال على النوال محرما
(ومن المرقص في هذا الباب قوله)

يا ذا الذي يهب الكثير وعنده * أني عليه بأخذه أتصدق
أمطر على سحاب جودك ثرة * وانظر الي برحمة لا أغرق

(وقال من غيرها)

يفني الكلام ولا يحيط بفضلكم * أيحيط ما يفني بما لا ينفد

(ومن بديع الغريب قوله)

تخرج عن حقن الدماء كأنه * يرى قتل نفس ترك رأس على جسم

(منها وأجاد)

وهبنا بأن تعطى فلو لم تجد لنا * لخلناك قد أعطيت من قوة الوهم

(ومنها) وأطمعتني في نيل ما لا أناله * بما نلت حتى صرت أطمع في النجم

(وقال من قصيدة)

وظنوني مدحتهم قديما * وأنت بما مدحتهم مرادي

(قلت) هذا المعنى سبقه اليه أبو تمام وهو أسمح وأقعد في التركيب (وهو)

وان جرت الايام يوما بمدحة * لغيرك انسانا فأنت مرادي

(وقال أبو الطيب من قصيدة)

محبك حيثما اتجهت ركابي * وضيفك حيث كنت من البلاد

قلت هذا البيت ركبت عليه من قصيدة ابي تمام بيتا قصدرتهما في بعض ترسلاتي فسارت
بمحاسنهما الركبان وعدوهما من المرقص والمطرب (والبيت)

وما سافرت في الآفاق الا * ومن جدواك راحلتي وزادي

(و يعجبني قوله من قصيدة)

وهبك سمحت حتى لا جوادا * فكيف علوت حتى لا رفيعا

(وقال من قصيدة)

قوم بلوغ الغلام عندهم * طعن نحور الكماة لا الحلم
كأنما يولد الندى معهم * لا صغرا عاذرا ولا هرم
اذا تولوا عداوة كشفوا * وان تولوا صنيعة كتموا
تظن من فقدك اعتدادهم * انهم انعموا وما علموا

(وقال في حسن ختامها وأجاد)

أعيذكم من صروف دهركم * فانه في الكرام متهم

(وقال من غيرها وأجاد)

عمرا العدو اذا لاقاه في رهج * أقل من عمر ما يحوي اذا وهبا
وكلما لقي الدينار صاحبه * في ملكه افترقا من قبل يصطحبا

(ومن مديحها المخمس قوله وأجاد)

مبرقعي خيلهم بالبيض متخذي * هام الكماة على أرماحهم عذبا

(منها) مكارم لك فتت العالمين بها * من يستطيع لامر فائت طلبا

(وقال من قصيد)

تلذله المروءة وهي تؤذي * ومن يعشق يلذله الغرام
تعلقها هوى قيس لليلى * وواصلها فليس به سقام
يروع بركانة ويذوب ظرفا * فما تدري أشيخ أم غلام
أقامت في الرقاب له أياد * هي الاطواق والناس الحمام
اذا عد الكرام فتلك عجل * كما الانواء حين تعد عام
ولو يممنهم في الحشر تجدو * لاعطوك الذي صلوا وصاموا

(و يعجبني قوله في ختامها)

لقد حسنت بك الايام حتى * كأنك في فم الدهر ابتسام

(وقال من قصيد)

فيا عجبا مني أحاول نعته * وقد فنيت فيه القراطيس والصحف

(ولقد أجاد في حسن ختامها بقوله)

وذنبي تقصيري وما جئت مادحا * بذنبي ولكن جئت أسأل ان تعفو

(و يعجبني قوله من غيرها)

وأقسم لولا ان في كل شعرة * له ضيغما قلنا له أنت ضيغم
يجل عن التشبيه لا الكف لجة * ولا هو ضرغام ولا الرأي مخذم
سخي العطايا لو رأى نوم عينه * من اللوم آل انهما لا تنوم

(ولقد أجاد في حسن ختامها بقوله)

فعش لو فدى المملوك ربا بنفسه * من الموت لم تفقد وفي الارض مسلم

(وقال من غيرها وأجاد)

ورب عا يضاحك الغيث فيه * زهر الشكر في رياض المعالي
نفحتنا منه الصبا بنسيم * رد روحا في ميت الآمال

(وقال من غيرها)

يكاد من طاعة الحمام له * يقتل من لا دناله أجل
يكاد من صحة العزيمة ما * يفعل قبل الفعال ينفعل
تعرف في عينه حقائقه * كأنه بالذكاء مكتحل
اغر أعداؤه اذا سلموا * بالهرب استكثروا الذي فعلوا
يقبلهم وجه كل سابحة * أربعها قبل طرفها تصل
والخيل تبكي جلودها عرقا * بأدمع ما تسحها المقل

(منها وأجاد الى الغاية)

انك من معشر اذا وهبوا * ما دون أعمارهم فقد بخلوا

قلوبهم في مضاء ما امتشقوا * قاماتهم في تمام ما اعتقلوا

(و يعجبني قوله من قصيد)

وقالوا هل يبلغك الثريا * فقلت نعم اذا شاء استفالا

(وقال وأجاد)

أعطى الزمان سخاءه فسخابه * ولقد يكون به الزمان بخيلا

(منها وأجاد)

رقت مضارب فهن كأنما * يبدين من عشق الرقاب نحولا

قصرت مخافته الخطا فكأنما * ركب الكمي جواده مشكولا

(وقال من غيرها وأجاد)

خير أعضائنا الرؤس ولكن * فضلتها بقصدك الاقدام

(ولقد تلطف ماشاء حيث قال منها)

قد لعمري أقصرت عنك وللوفد ازدحام وللعطايا ازدحام

خفت ان صرت في يمينك ان تأ * خذني في هباتك الاقوام

(و يعجبني قوله من غيرها)

أفعاله نسب لولم يقل معها * جدى الخصيب عرفنا العرق بالغصن

(وقال من غيرها وأجاد)

أثني عليك ولو تشاء لقلت لي * قصرت فالامساك عني نائل

(وقال من غيرها)

ليس التعجب من مواهب ماله * بل من سلامتها الى أوقاتها

عجبا له حفظ العنان بأنمل * ماحفظها الاشياء من عاداتها

لو مر يركض في سطور كتابة * أحصى بحافر مهره ميماتها

(منها) أعيا زوالك عن محل نلته * لاتخرج الاقمار عن هالاتها

(وله من غيرها وأجاد)

ومازلت حتى قادني الشوق نحوه * يسايرني في كل ركب له ذكر

وأستكبر الاخبار قبل لقائه * فلما التقينا صغر الخبر الخبر

(منها وأجاد)

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله * ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

(وقال من غيرها وأجاد)

وحق له ان يسبق الناس جالسا * و يدرك مالم يدركوا غير طالب

ويحذى عرانين الملوك وانها * لمن قدميه في أجل المراتب

(السيفيات منها قوله من قصيدة)

أتحسب بيض الهند اصلك أصلها * وانك منها ساء ماتتوهم

اذا انحسن سميناك خلتنا سيوفنا * من التيه فى أغمادها تتبسم

(وقال من قصيد)

وكم رجال بلا أرض لكثرتهم * تركت أرضهم جمعا بلا رجل

(وقال من قصيد)

وهل يشينك وقت كنت فارسه * وكان غيرك فيه العاجز الضرع

من كان فوق محل الشمس موضعه * فليس يرفعه شئ ولا يضع

(و يعجبنى قوله من قصيد)

له من كريم الطبع فى الحرب منتض * ومن عادة الاحسان والصفح غامد

ولما رأيت الناس دون محله * تيقنت أن الدهر للناس ناقد

(ومن بديع الغريب قوله منها وأجاد)

نهبت من الاعمار مالو حويته * لهنئت الدنيا بأنك خالد

فأنت حسام الملك والله ضارب * وأنت لواء الدين والله عاقد

(وقال يخاطب سيف الدولة ارتجالا)

ان هذا الشعر فى الشعر ملك * سار فهو والشمس والدنيا فلك

عدل الرحمن فيه بيننا * فقضى باللفظ لى والحمد لك

(وقال من قصيد وأجاد)

أسير الى أقطاعه فى ثيابه * على طرفه من داره بحسامه

(وقال من غيرها وأجاد)

ألفت اليك دماء الروم طاعتها * فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

(وقال من قصيد وأجاد)

وقفت وما فى الموت شك لواقف * كأنك فى جفن الردى وهو نائم

(منها) اذا كان ماتنويه فعلا مضارعا * مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

(ومن بديع الغريب قوله فى الكافوريات)

قواصد كافور توارك غيره * ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا انسان عين زمانه * وخلت بياضا خلفها وماقيا

(منها وأجاد) اذا كسب الناس المعالى فى الندى * فانك تعطى فى نداك المعاليا

(منها وأجاد) فقد يتهيب الجيش الذى جاء غازيا * لسائلك الفرد الذى جاء عافيا

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب * يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

(وقال من غيرها وأجاد)

كأن كل سؤال فى مسامعه * قميص يوسف فى أجفان يعقوب

اذا غزته أياديه بمسئلة * فقد غزته بجيش غير مغلوب

(و يعجبنى قوله من غيرها)

الفاتل

القاتل السيف في جسم القتيل به * وللسيوف كما للناس آجال

(ومن مرقص الغريب ومطربه قوله من قصيد)

تجاوز قدر المدح حتى كأنه * بأحسن ما يثنى عليه يعاب

(و يعجبني قوله من قصيد في ابن العميد)

ما سمعنا بمن أحب العطايا * فاشتهى ان يكون فيها فؤاده

(وقال أبو الطيب في بعض قصائده)

كأن الهام في البيداء عيون * وقد طبعت سيوفك من رقاد

وقد صغت الاسنة من هموم * فما يخطرن الا في فؤاد

(قلت) كنت أظن هذا المعنى من اختراعات المتنبي وأميل كل وقت الى تأميل غريبه ثم تتبعته فوجدته قد أخذه من مواضع منها قول مهلهل

الطاعن الطعنة النجلاء تحسبها * نوما أناخ بجفن العين يغفيها

بلهذم من هموم النفس صيغته * فليس ينفك يجري في مجاريها

(و يعجبني قول ابن الساعاتي)

من معشر و يجل قدر علائه * عن ان يقال لمثله من معشر

بيض الوجوه كان زرق رماحهم * سر يحل سواد قلب العسكر

(وقال ابن عبدون وأجاد)

كان عداه في الهيجا ذنوب * وصارمه دعاء مستجاب

(ومما يجب تأمله من غريب أبي تمام قوله في مديح المعتصم من قصيدة)

ان كان بين ليالي الدهر من رحم * موصولة أو ذمام غير منقضب

فبين أيامك اللاتي نصرت بها * و بين أيام بدر أقرب النسب

(وقال من غيرها في أبي دلف)

اذا افتخرت يوما تميم بقوسها * وزادت على ما وطدت من مناقب

فأنتم بذي قار امالت سيوفكم * عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

محاسن من مجد متى تقرنوا بها * محاسن أقوام تكن كالمعايب

مكارم لجت في علو كأنها * تحاول ثأرا عند بعض الكواكب

(وقال من قصيد)

ولقد أتيتك صاديا فسكرعت من * شيم ألذ من الزلال البارد

فهدت لاسمك منزلا ومحله * في الشعر بين شوارد وشواهد

فهو المراح لكل معنى عازب * وهو العقال لكل بيت شارد

(وقال من غيرها يمدح المأمون)

في دولة لحظ الزمان شعاعها * فارتد منقلبا بعيني أرمد

من كان مولده تقدم قبلها * أو بعدها فكأنه لم يولد

الله يشهد ان هديك للرضا * فينا ويلعن كل من لم يشهد

(و يعجبني قوله منها)

مازال يمتحن العلا ويروضها * حتى أتته بكيمياء السودد

(وقال من غيرها وأجاد)

من أبيض لبياض وجهك ضامن * حيث الوجوه مشوبة بسواد

قد كان مضرب به بجالد متنه * لولم تسكنه بيوم جلاد

(وظريف قوله من قصيد)

ومن شك ان البأس والجود فيهم * كمن شك في أن الفصاحة في نجد

(وتلطف منها بقوله)

انخت الى ساحاتهم وركابهم * ركابي وأضحى في ديارهم وفدى

فلم أغش بابا انكرتني كلابه * ولم أتشبث بالوسيلة من بعد

فاصبحت لاذل السؤال أصابني * ولا قدحت في خاطري لوعة الرد

فلو كان ما يعطيه غيثا لامطرت * سحائبه من غير برق ولا رعد

يريد الناظم هنا ان عدوحه لا يتقدم وعد العطائه كما يتقدم البرق والرعد الغيث (وقال من مديح أحمد بن المعتصم)

اقدام عمرو في سماحة حاتم * في حلم أحنف في ذكاء اياس

لا تنكروا ضربي له من دونه * مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

(قلت) هذا الاعتذار من أبي تمام عن البيت الاول يعلم التأدب بسلوك الادب في مدائح الخلفاء وعظماء الملوك فسقى الله تعالى ثراه على حسن أدبه (وقال من قصيدة في مدح المعتصم)

هو البحر من أي النواحي أتيته * فلجته المعروف والجود ساحله

تعود بسط الكف حتى لو انه * ثناها لقبض لم تطعه أنامله

(والثالث تقدم لكن حلاوة هنا غير مكروه)

ولو لم يكن في كفه غير روحه * لجاد بها فليتق الله سائله

(ويعجبني قوله من قصيد)

بسط الرجاء لنا برغم نوائب * كثرت بهن مصارع الآمال

(وله من قصيد في مديح المعتصم)

قد أترعت منه الجوانح رهبة * بطلت لديها سورة الابطال

لولم يزاحفهم لزاحفهم له * ما في صدورهم من الاوجال

(منها وأجاد الى الغاية)

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا * كالحسن شيب لمغرم بدلال

(ومنها) يوم أضاء به الزمان وفتحت * فيه الاسنة زهرة الآمال

(ومنها)

(ومنها) ما كان ذالك الهول أجمع عنده * مع صبره الاطروق خيال

(وقال من غيرها وأجاد)

تخذوا الحديد من الحديد معاقلا * سكانها الارواح والاجسام

مسترسلين الى الحتوف كأنما * بين الحتوف و بينهم أرحام

(وقال من غيرها)

شافهت أسباب الغنى بحمده * حتى ظننت بانها تتكلم

(وقال من غيرها)

اذا سيفه أضحى على الهام حاكما * غدا العفو منه وهو فى السيف حاكم

(و يعجبنى قوله من غيرها)

يكاد نداه يتركه عديما * اذا عادت يداه على عديم

تراه يذب عن شرف المعالى * فتحسبه يدافع عن حريم

(ابن قلاقس)

ان ترد علم حالهم عن يقين * فالقهم يوم نائل أوقتال

تلق بيض الوجوه سود مثار النقع خضر الاكناف حمر النصال

حكموا سائليهم فى نداهم * حكم أسيافهم على الاقبال

(وقال أبو نواس فى المأمون)

اذا نحن أثنينا عليك بصالح * فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

وان جرت الالفاظ يوما بمدحة * لغيرك انسانا فأنت الذى نعنى

(قلت) هذا المعنى أهل الشيخ جمال الدين بن نباتة غريبه فى مديح الملك المؤيد صاحب حماة المحروسة فجاء ابدع وأغرب وأبلغ (حيث قال)

من مخبر الملك المؤيد اننى * لولاه ماسميت نفسى شاعرا

وحلفت لم أمدح سواه لرغبة * لكنى جربت فيه الخاطرا

(ومن غريب المدح الذى يجب تأمله لابى العلاء التنوخى)

أفاد المرهفات ضياء عزم * فسار على جواهرها صقالا

وأبصرت الذوابل منه عدلا * فأصبح فى عواملها اعتدالا

(منها) اذا خفقت لغرتها الثريا * توقت من اسنتها اغتيالا

(منها وأجاد)

اذا ما الغيم لم يمطر بلادا * فان له على يدك اتكالا

ولو ان الرياح تهب غربا * وقلت لها هلا هبت شمالا

وأقسم لو غضبت على ثبير * لازمع عن محلته ارتحالا

فان عشقت صوارمك الهوادى * فما عدمت بمن تهوى اتصالا

(منها وأجاد الى الغاية)

غـراراه لسانا مشرفي * يقول غرائب الموت ارتجالا
يذيب الرعب منه كل عضب * فلولا الغمد يمسكه لسالا

(و يعجبني قوله من غيرها)

لو اختصرتم من الاحسان زرتكم * والعذب يهجر للافراط في الخصر

(منها وأجاد)

وقاسم الجود في عال ومنخفض * كقسمة الغيث بين النبت والشجر
ولو تقدم في عصر مضى نزلت * في وصفه معجزات الآي والسور

(وقال وهو أجل من أقول له هنا وأجاد)

يقبل الرمح من حب الطعان به * كانما هو مجموع من اللعس

(منها)

قسنا الامور فلما نال رتبته * من السعادة سلمنا ولم نقس

(وقال من غيرها وأجاد)

أثني وخاف من ارتجال ثنائه * على تقييد لفظه بكتابه
كام كنظم العقد يحسن تحته * معناه حسن الماء تحت حبابه
رقت لطافته وحدة ذهنه * وحشي اللغات أوانس بخطابه
والنحل يجني المر من نور الربا * فيصير شهدا في طريق رضابه

(منها وأجاد)

يا من له قلم حكى في فعله * أيم الفلا لولا سواد لعابه
عرفت حدودك اذ نطقت نطالما * نطق القطا فأبان عن أنسابه
وهززت أعطاف الملوك بمنطق * رد المسن الى اقتبال شبابه

(و يعجبني قوله في تقريظ قصيدة)

أيدفع معجزات الرسل قوم * وفيك وفي بديهتك اعتبار
وشعرك لو مدحت به الثريا * لصار لها على الشمس افتخار
كأن بيوته الشهب السواري * فكل قصيدة فلك مدار

(ومن بديع تخمسه في المدائح قوله)

يتهللون طلاقة وكأنهم * ينهل منهم النجيع الاحمر
من كل من لولا تسعر بأسه * لاخضر في يمنى يديه الاسمر

(ومن الغريب الذي يجب تأهيله قول السري الرفاء من قصيدة في مديح سيف الدولة)

و يجهل نشره نذر الاعادي * فيبعثه جنوبا أو شمالا
ولم ينذرهم مقة ولكن * ترفع ان يصيبهم اغتيالا

(منها وأجاد)

وخيل كالوعول اذا تراءت * رأيت قرونها الاسمر الطوالا

(وقال في سيف الدولة من غيرها)

امضى من القدر المحتوم صارمه * الى النفوس وامضى منه حامله
اذا رمى بلدا منه بجحافلة * جرت أعاليه وارتجت أسافله

(وقال من غيرها)

يأسو جراح الزمان مقتدرا * وليس يأسو الزمان ما جرحا
تجري المقادير في الانام بما * أثبت في بطن مهرق ومحا
يريك ما اهتز في أنامله * مهندا بالغمام متشحا
رقت حواشي كلامه وذكت * فلو تنسمت طرسه نفحا

(وقال من غيرها)

نسب أضاء عموده في رفعة * كالصبح فيه ترفع وضياء
وشمائل شهد العدو بفضلها * والفضل ما شهدت به الاعداء
فاذا عبست فصارم ومنية * واذا ابتسمت فموعد وعطاء

(وقال من غيرها)

ذو له في مواطن الحكم كهل * وبداه في عنفوان الشباب

(منها وأجاد)

بخميس كأنما حجب الافق وقد ثار نقعه بضباب
وكأن اللواء في الجو لما * باشرته الصبا جناحا عقاب

(وقال من غيرها).

ثنى المديح اليه عطفه فثنى * أعطافه منه في وشي وديباج
أغر ما احتكمت يمناه في نشب * الا تحكم فيه الآمل الراجي

(وقال من غيرها)

في فتية رجحوا احلاما ان خطرت * سمر العوالي أضحى كلهم هوجا
اذا علا الامر من أعدائهم جعلوا * بيض السيوف على أعدائه درجا

(واخترت من يتيمة الدهر قول اسمعيل بن أحمد الشاشي)

أنا المقيم واشعاري على سفر * كادت تؤلف أعلاما على السبل
سارت شوارد أوصاف الوزير بها * سير الجنوب بصوب العارض الهطل
ما بعده اشذور القول مدخر * في مقلة الريم أعلى بغية الكحل
وما به حاجة في أن أنظمه * فالشمس تكبر عن حلي وعن حلل
لكنه ملك هامت عزائمه * بالجود فهو يروم البذل بالحيل
ما قال لا قط مذ حلت تمائمه * بخلا به فوجدنا الجود في البخل
ومن يقود الاسود السود بالوعل * ومن يصيد البزاة الشهب بالحجل
ومن يهم فلا يغزو سوى ملك * ولا يفرق غير الملك في النفل
ومن يبيت من الايام في جذل * ان لم يبت والليالي منه في وجل

(ومن غريب بديع الزمان)

أيا ملكا أدنى مناقبه العلا * وأيسر ما فيه السماحة والبذل
هو البدر الا انه البحر زاخر * سوى انه الضرغام لكنه الوبل
محاسن يبديها العيان كما ترى * وان نحن حدثنا بها دافع العقل

(ومن بديع الغريب قول ابن قلاقس فى الحافظ السلفى)

كالبحر والكاف ان أنصفت زائدة * فيه فلا تحسبنها كاف تشبيه

(قلت) قد تقدم تصدير هذا الكتاب بالاغزال المحمسة وثنينا ذلك بالمدائح التى غالبها مخمس وقد تعين ان نعززهما بثالث من الحماسة الخالصة بحيث يعزز رأس مال البارع فى صناعتى النظم والنثر وبالله المستعان (فالذى وقع عليه الاختيار من حماسة أبى تمام قول قريط بن أنيف)

قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم * طاروا اليه زرافات ووحدانا

(قلت شتان بين قوم قريط و بين قوم القائل)

فان تلك أعدائى على تناصروا * فما هو الا من تخاذل اخوانى

(وقال جعفر بن علية الحارثى)

لهم صدر سيفى يوم بطحاء سحبل * ولى منه ما ضمت عليه الانامل

(وقال أيضا)

نقاسمهم أسيافنا شر قسمة * ففينا غواشيها وفيهم صدورها

(وقال بعض بنى قيس)

اذا الكماة تنحوا ان ينالهم * حد الظباة وصلناها بأيدينا

(وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى وتروى للسموءل بن عاديا اليهودى)

تعيرنا أنا قليل عديدنا * فقلت لها ان الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا * شباب تسامى للعلى وكهول
وما ضرنا أنا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل

(منها وأجاد)

وانا لقوم ما نرى القتل سبة * اذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه * ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد السيوف نفوسنا * وليست على غير الحديد تسيل

(منها) ونشكران شئنا على الناس قولهم * ولا ينكرون القول حين نقول
اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخمدت نار لنا دون طارق * ولا ذمنا فى النازلين نزيل
وايامنا مشهورة فى عدونا * لها غرر معلومة وحجول
واسيافنا فى كل شرق ومغرب * بها من قراع الدارعين فلول

معودة ان لاتسيل نصالها * فتغمد حتى يستباح قتيل

(وقال الشميدر الحارثي)

بني عمنا لاتذكروا الشعر بعدما * دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

فلسنا كمن كنتم تصيبون سلة * فيقبل ضيما أو يحكم قاضيا

ولكن حكم السيف فينا مسلط * فنرضى اذا ما أصبح السيف راضيا

وقد ساءني ماجرت الحرب بيننا * بني عمنا لو كان أمرا مدانيا

فان قلتم انا ظلمنا فلم نكن * ظلمنا ولكنا أسأنا التقاضيا

(وقال وداك بن ثميل المازني)

اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم * بأية حرب أم بأي مكان

(وقال قيس بن زهير العبسي)

شفيت النفس من حمل بن بدر * وسيفي من حذيفة قد شفاني

فان أك قد بردت بهم غليلي * فلم أقطع بهم الا بناني

(وقال يحيى بن منصور الحنفي)

فلما نأت عنا العشيرة كلها * انخنا فحالفنا السيوف على الدهر

فما اسلمتنا عند يوم كريهة * ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

(وقال أنيف بن الحكم النبهاني من أبيات)

اذا نحن سرنا نحو شرق ومغرب * تحرك يقظان التراب ونائمه

(وقال زاهد التميمي وأجاد من أبيات الزعفران)

فطعنته والخيل في رهج الوغى * نجلاء تنضح مثل لون الجادي

فكأنما كانت مدى من حتفه * لما انثنيت له على ميعاد

(وقال بعثر بن لقيط الاسدي)

أما حكيم فالتمست دماغه * ومقيل هامته بحد المنصل

واذا حملت على الكريهة لم أقل * بعد الكريهة ليتني لم أفعل

(وقال معبد بن علقمة من أبيات)

فقل لزهير ان شتمت سراتنا * فلسنا بشتامين للمتشتم

ونحمل أيدينا ويحلم رأينا * ونشتم بالافعال لا بالتكلم

(قلت) هذا الذي وقع عليه الاختيار من حماسة أبي تمام ويقال ان أحمس بيت قالته العرب (قول عنترة)

اذ يتقون بي الاسنة لم أخم * عنها ولو اني تضايق مقدمي

(وقيل بل قول قيس بن الحطيم)

واني لدى الحرب العوان موكل * باقدام نفس ما اريد بقاءها

(وقيل بل قول عامر بن الطفيل)

أقول لنفس لا يجاد بمثلها * أقلي مراحا انني غير مدبر

(وقيل بل قول عباس بن مرداس)

أشد على الكتيبة لا أبالي * أحتفي كان فيها أم سواها

(قلت بل أحسن من الجميع قول من قال وهو أبو الطيب)

واذا لم يكن من الموت بد * فمن العجز أن تكون جبانا

(أقول ومن محسنات أبي الطيب المتنبي التي أحرز بها قصبات السبق في هذا الميدان قوله)

وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي * ارتك احمرار الموت في مدرج النمل

أمط عنك تشبيهي بما وكأنما * فما أحد فوقي وما أحد مثلي

(وقال من غيرها)

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي * وبنفسي فخرت لا بجدودي

ان أكن معجبا فعجب عجيب * لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا ترب الندى ورب القوافي * وسهام العدا وغيظ الحسود

أنا في أمة تداركها الله * غريب كصالح في ثمود

(وقال من غيرها وأجاد)

يسابق سبقي منايا العباد * اليهم كأنهما في رهان

(وقال من أبيات)

أمثلي تأخذ النكبات منه * ويجزع من ملاقات الحمام

ولو برز الزمان الي شخصا * لخضب شعر مفرقه حسامي

اذا امتلأت عيون الخيل مني * فويل في التيقظ والمنام

(وقال وأجاد الى الغاية)

جفتني كأني لست أنطق قومها * وأطعنهم والشهب في صورة الدهم

يحاذرني حتفي كأني حتفه * وتنكزني الافعى فيقتلها سمي

طوال الردينيات يقصفها دمي * وبيض السريجيات يقطعها لحمي

برتني السرى بري المدى فرددنني * أخف على المركوب من نفسي جرمي

كأني دحوت الارض من خبرتي بها * كأن بنى الاسكندر السد من عزمي

(ويعجبني قوله من غيرها)

ذل من يغبط الذليل بعيش * رب عيش أخف منه الحمام

كل حلم يأتي بغير اقتدار * حجة لاجئ اليها اللئام

من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجرح بميت ايلام

(وقال وأجاد)

واني لمن قوم كأن نفوسنا * بها أنف ان تسكن اللحم والعظما

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني * ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

(وقال من غيرها)

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ * كأنهم من طول ما التثموا مرد
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده * وضرب كأن النار من حره برد
اذا شئت حفت بي على كل سابح * رجال كأن الموت في فمها شهد

(وقال من غيرها)

اذا قدمت على الاهوال شيعني * قلب اذا شئت ان يسلاكم خانا
أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني * ولا اعاتبه صفحا واهوانا

(وقال من غيرها)

ولابد من يوم أغر محجل * يطول استماعي بعده للنوادب
يهون على مثلي اذا رام حاجة * وقوع العوالي دونها والقواضب
كثير حياة المرء مثل قليلها * يزول وباقي عيشه مثل ذاهب
اليك فاني لست ممن اذا اتقى * عضاض الافاعي نام فوق العقارب
الى لعمري قصد كل عجيبة * كأني عجيب في عيون العجائب
باي بلاد لم أجر ذوائبي * وأي مكان لم تطأه ركائبي

(وقال من غيرها)

اذا غامرت في شرف مروم * فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير * كطعم الموت في أمر عظيم
يرى الجبناء ان العجز عقل * وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكل شجاعة في المرء تغني * ولا مثل الشجاعة في الحكيم
وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه * على قدر القرائح والفهوم

(وقال من غيرها)

رماني الدهر بالارزاء حتى * فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا أصابتني سهام * تكسرت النصال على النصال
وهان فما ابالي بالرزايا * لاني ما انتفعت بان ابالي

(وقال من غيرها)

وجاهل مده في جهله ضحكي * حتى أتته يد فراسة وفم
اذا رأيت نيوب الليث بارزة * فلا تظنن ان الليث مبتسم

(منها) ومرهف سرت بين الجحفلين به * حتى خرجت وموج الموت ملتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني * والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(وقال من غيرها وأجاد)

الرأي قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهي المحل الثاني

فاذا هما اجتمعا لنفس مرة * بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه * بالرأى قبل تطاعن الاقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم * أدنى الى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت * أيدى الكماة عوالى المران

(و يعجبنى من تحمسات أبى العلاء وفخره قوله)

تعد ذنوبى عند قوم كثيرة * ولا ذنب لى الا العلا والفواضل
وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم * باخفاء شمس ضوءها متكامل
يهم الليالى بعض ما أنا مضمر * و يثقل رضوى دون ما أنا حامل
وانى وان كنت الاخير زمانه * لآت بما لم تستطعه الاوائل
وأغدو ولو أن الصباح صوارم * وأسرى ولو أن الظلام جحافل

(قلت) وتلاعب أبو العلاء بهذا المعنى فزاده حسنا حيث قال

وكأن حبك فأل حظك فى السرى * فالطم بايدى العيس وجه السبسب
واهجم على جنح الدجا ولو انه * أسد يصول من الهلال بمخلب

(وتلطف الارجانى هنا حيث قال)

سحبت ذيل الدجا حتى طرقتهم * بسحرة وقميص الليل أطمار
وزرتهم وسنان الرمح من بعد * الى بالمقلة الزرقاء نظار

(قلت) والذى أعده هنا من المرقص قول ابن خفاجة

لقد جبت دون الحى كل تنوفة * يحوم بها نسر السماء على وكر
وخضت ظلام الليل يسود فحمه * ودست عرين الليث ينظر عن جمر
وجئت ديار الحى والليل مطرق * يشمر ثوب الافق بالانجم الزهر
أشيم بها برق الحديد وربما * عثرت باطراف المثقفة السمر
فلم أتى الاصعدة فوق لامة * فقلت قضيب قد أطل على نهر
ولا شهب الاغرة فوق أشقر * فقلت حباب يستدير على خمر
فسرت وقلب البرق يخفق غيرة * هناك وعين الشمس تنظر عن شزر

(وقال الشريف البياضى وأجاد)

وانا اذا الارواح ذابت مخافة * فتحنا باشطان الرماح ركاياها
متى ما أردنا أن يراق حديدنا * خلقنا بحد المشرفية أفواها

(انتهى) ما وقع الاختيار عليه من الحماسة للعرب وغيرهم وغالب الحماسة عبارة عن الفخر بالشجاعة والفروسية واقتحام صدور المعامع فاذا كان الامر مبنيا على ذلك تعين ان نورد هنا مايلائمه من أنواع السلاح واصائل الخيل واذا كان السيف أصدق أنباء تعين تقديمه (ولله در القائل)

كأن على افرنده موج لجة * تقاصر فى حفاته وتطول

حسام

حسام غذاه الروح حتى كأنه * من الله فى قبض النفوس رسول

(وقال النامى وأجاد)

ذو مدمع من غير ما مستعبر * وتبسم من ثغره متوالى

ويريك من لألائه متوقدا * حتف المنون به على الآجال

(وقال وجيه الذروى فأغرب)

سكران من شربه خمر الدماء فان * حياه نور الطلا غنى له هزجا

(القاضى الفاضل)

تمد الى الاعداء منهاه معاصما * فترجع من ماء الكلا باساور

(وقال من غيرها)

ولرب هاتفة دعتهم للوغى * جعلوا صرير المرهفات صداها

هى فى بحار يديه أمواج ترى * ونفوس من قتلته من غرقاها

(ابن قلاقس وأجاد)

أسهرتهم وشهرتها فجموعهم * مذ احرمت فى راحتيك حرام

وكلاهما جفن منعت قراره * لكن ذا عضب وذاك منام

(ابن سناء الملك)

تنسك بالاسلام لكن رأيته * يحل له فى الشرع ان يشرب الدما

فكم سل لما سل من بطن غمده * لسان دم من ضربه خلقت فما

(مجير الدين بن تميم)

لما نبت من الصوارم أعوجا * يجرى القضاء بنهره المتموج

جبت الفقار وما حملت أوانيا * للماء من تقى بنهر الاعوج

(الشيخ جمال الدين بن نباتة)

وصارم كعباب الموج ملتطم * يكاد يغرق رائيه ويحترق

لما غدا جدولا يسقى المنون به * أضحى يشف على حافاته العلق

(الشيخ برهان الدين القيراطى)

قوم مناديلهم بيض فكم مسحت * رقاب أعدائهم تلك المناديل

(وقلت) وسيف له فى الحرب حسن تغزل * اذا مارآنى قد علوت على نهد

فكم خد خد الى وجوه قبائل * فبان احمرار الورد فى ذلك الخد

وكم مال قد فى الوغى ميل معجب * فعاجله عند التمايل بالقد

وكم أعجموا ألفاظهم ونقضوا * فكلهم ذاك المهند بالهندى

(قلت) قد أوردنا ما وقع الاختيار عليه ووجب تأهيله من غريب النظم فى السيف (وقد) تعين ايراد ما حلا فى الذوق ووجب تأهيله من غريب النظم فى الرمح (قال ابن نباتة السعدى وأجاد)

وولوا عليها يقدمون رماحنا * وتقدمها أعناقهم والمناكب

خذا قنا بأطراف القنا لظهورهم * عيونا لها وقع السيوف حواجب

(و يعجبني قول القاضي الفاضل من قصيد)

أمنصل الرمح الطويل بكوكب * من ذا يطاعن والسماء سنان

(ومثله في الحسن قول ابن سناء الملك)

ملوك يحوزون الغنائم عنوة * بسمر العوالي أو ببيض القواضب

رماح بأيديهم طوال كأنما * أرادوا بها أن تقطف درّ الكواكب

(ابن قلاقس)

وقد كحلت بأميال العوالي * أساة الحرب احداق الدروع

(القاضي الفاضل)

طواعن أسرار القلوب نواظر * كأنك قد فصلتها بنواظر

(ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب من قصيد)

وبكل أزرق ان شكت ألحاظه * موت العيون فبالعجاجة يكحل

متأود أعطافه في نشأة * مما يعل من الدماء وينهل

عجباله ان الضيع بطرفه * رمد ولا يخفى عليه مقتل

(مجير الدين بن تميم وأجاد)

لو كنت تشهدني وقد حمي الوغى * في موقف ما الموت فيه بمعزل

لترى أنابيب القناة على يدي * تجري دما من تحت ظل القسطل

(ابن شرف القيرواني وأجاد)

وقد وخطت أرماحهم مفرق الدجا * فبان بأطراف الأسنة شائبا

(قلت) برسم كافل الشأم المحروسة وهو المقر الأشرف المرحومي العلائي الطنبغا الجوباني تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه لأعيان الفضلاء بدمشق المحروسة وغيرهم من الفضلاء المتأدبين بالبلاد الشامية ان ينظموا أبياتا تكتب على أسنة الرماح وتكون عدة الأبيات أربعة فنظم المقر المرحومي القضي بن الشهيد رحمه الله تعالى روحه ونور ضريحه آمين

اذا الغبار علا في الجو عثيره * فالحلم انجم والشمس أنوار

هذا سناني نجم يستضاء به * كأنه علم في رأسه نار

والسيف ان نام ملء الجفن في علق * فانني بارز للحرب خطار

ان الرماح لأغصان وليس لها * سوى النجوم على العيدان أزهار

(ونظم الرئيس شمس الدين المزين وأجاد)

أنا أسمر والراية البيضاء لي * لا للسيوف وسل من الشجعان

لم يحل لي عيش الغداة لأنني * نوديت يوم الجمع بالمران

واذا تعانقت الكماة بجحفل * كلمتهم فيه بكل لسان

فتخالهم غنما تساق الى الردى * وهو المعظم سطوة الجوبان

(ونظم مولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي سقى الله تعالى ثراه وكان اذ ذاك في مبادى العمر والعنفوان)

النصر مقرون بضرب أسنة * لمعانها كوميض برق يشرق
سبكت لتسبك كل خصم مارد * وتطرقت لمعانديتطرق
زرق تفوق البيض في الهيجاء اذ * يحمر من دمها العدو الازرق
ينسجن يوم الحرب كل كتيبة * تحت الغبار فنصرهن محقق

(ونظم المقر المرحومي الاميني وهو اذ ذاك مباشر التوقيع بحمص المحروسة)

عروس سناني حين تجلى على العدا * وتظهر تبدى ما هم من بواطن
وقد صيغ من هم فبين صدورهم * مجال له رحب فسيح المواطن
سيلقون يوم الجمع غب الموت هم * بطعني ويوم الجمع يوم التغابن
وان شهدوا بالجود في وعدلوا * فاني قد بينت فيهم مطاعني

(وقلت في ذلك العصر المبارك)

أنا رمح وراح الافق يخشى * من سمو اليه يوم الطعان
واذا أنكر واعداه قدي * يوم حكم جرحتهم بلساني
وسناني كالبرق بل صار منه * قلب سيف البروق في خفقان
رمحه للردين ينسب لكن * صاح لما علاه بالسناني

(قلت) ومن الغريب الذي يجب تاهيله هنا من بديع النظم في القوس قول الشيخ بدر الدين ابن الصاحب رحمه الله تعالى ملغزا

لله مملوك اذا * ما قام في الشغل اعترض
لكنه في ساعة * محصل لك الغرض

وأحسن منه قول الشهاب الاعزازي

ما عجوز كبيرة بلغت عمرا طويلا وتنفيها الرجال
قد علاجسمها اصفار ولم تشك سقاما ولا عراها هزال
ولها في البنين سهم وقسم * وبنوها كبار قدر نبال

ومن الغايات التي لا تدرك لعز قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي سقى الله ثراه في الكشتوان

ما رفيق وصاحب لك تلقا * ه معينا على بلوغ المرام
هو للعين واضح وجلي * وتراه في غاية الابهام

(وقلت في القوس)

قوسي اذا جذبته يطربني * بحسن عوده وتحريك الوتر
ونجم ذاك السهم ان فوقته * يرى له في طارة البدر أثر

(قلت) وقد آن ان نطلق العنان في هذه الحلبة بما وقع لفحول الشعراء وفرسان الادب في وصف الخيول المسومة من المعاني الغريبة فسابق الفحول في هذا المضمار امرؤ القيس

حيث قال فى معلقته

وقد أغتدى والطير فى وكناتها * بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا * كجلمود صخر حطه السيل من عل

(قلت) وبالنسبة الى ذوقى ان يحيى بن مجير أحرز قصبات السبق فى مجرى هذه السوابق على فرسان الشعر من العرب ولم يترك للفحول مجالا بقوله

له مشية الخيل العتاق كأنها * نشاوى تهادت تطلب العزف والقصفا
عرائس أغناها الحجول عن الحلى * فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا
لمن يقق كالطرس تحسب أنه * وان جردوه فى ملاءته التفا
وأبلق أعطى الليل نصف اهابه * وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا * فحذاره دلى له الديل والعرفا
وأشقر مد الراح صرفا أديمه * وأصفر لم يسمح به جلده صرفا
وأشهب فضى الاديم مدنر * عليه خطوط غير مفهمة حرفا
كما خطر الزاهى بمهرق كاتب * فجر عليه ذيله وهو ما جفا
وقد كان فى البيداء يألف سربه * فربته مهرا وهى تحسبه خشفا

(ومما يجب تأهيله من غريب ابن المعتز هنا قوله)

ومحجل غير اليمين كأنه * متبختر يمشى بكم مسبل

(ومثله فى الحسن قول القاضى الفاضل)

لها غرر يستضحك النصر وجهها * فتفهم منها العين معنى البشائر

(ومن الغايات التى لا تدرك هنا قول ابن نباتة السعدى)

يختال منه على أغر محجل * ماء الدياجى قطرة من مائه
فكأنما لطم الصباح جبينه * فاقتص منه فخاض فى أحشائه

(قلت) لمح ابن حجاج هنا تلميحا أقول ان السحر نوع منه (وهو قوله)

غضبت سعاد وقد رأتنى قابضا * أيرى فقلت لها مقالة ماخر
بالله الا مالطمت جبينه * حتى يصدق فيك قول الشاعر

(نور الدين على بن سعيد المغربى فى جواد أصفر)

وعسجدى اللون أعددته * لساعة تظلم أنوارها
كأنه فى رهج شمعة * مصفرة غرته نارها

(مجير الدين بن تميم فى كميت)

وطرف يفوق البرق لونا وسرعة * وكالصخر اذ يهوى وكالماء اذ يجرى
تبدى بعرف أسود فوق أحمر * فقل فى دخان تحته لهب الجمر

(وقال وأجاد)

هنيتها يامالكى مهرة * جميلة الخلق بوصف جميل

مؤخرها والعنق قد أوقعا * قلب الاعادى فى العريض الطويل
قد ألبست من شفق حلة * تخـــــــبر ان أباها أصيل

(الشيخ جمال الدين بن نباتة فى أدهم وأجاد)

وأدهم اللون حندسى * فى جريه للورى عجائب
يقصر سعى الرياح عنه * فكل ما خلفه جنائب

(وقال فى فرس ورد)

ورد من العرب منسوب فلا قطعت * أيدى الحوادث من أنسابه شعره
اذا امتطى ظهره رامى السهام رمى * والسهم حذوا فلولا سبقه عقره
عجبت كيف يسمى سابحا وله * وثب لو البحر أرسى دونه طفره
لما ترفع عن ند يسابقـــــــه * أضحى يسابق فى ميدانه نظره

(مجير الدين بن تميم وتلطف الى الغاية)

لله طرف بعــد ما أتاوصــف * من عدوه يذر اللسان كليلا
يعــدو وألحـــاظ تثنى ناظرى * عنه بهدف جفونه مشكولا
وهو الذى ترك النسيم وقد جرى * معه يجر من الحياء ذيولا
وأعاده من فرط ما قــد ناله * مضنى على فرش الرياض عليلا

(وتلطف أيضا الصاحب فخر الدين بن مكانس بقوله مضمنا ومكتفيا)

لنا فرس نلاقى منه رفقا * كرفق للوالدين اذا علنا
ترانا حين نركبه سكارى * نميــل عــلى جوانبه كأنا

(وقلت مضمنا)

وطرف كثير البرق فى خفقانه * اذا ما جرى من تحت حافره سبك
ويعجزنا عـــن لحـــاقه فكانه * بقايا يقين كاد يذهبــه الشك

(ومما وقع من مجون الهجو فى الخيل قول لسان الدين بن الخطيب)

قال جوادى عندما * همزت همزا أعجزه
الى مــتى تهـــمزنى * ويل لــكل همزه

(ناصر الدين بن النقيب وتلطف الى الغاية بقوله)

نفقت لى رأس من الخيل كانت * تسبق البرق والرياح الزعازع
وابتــلى الله فى المشاعر أخرى * بشــقاق لها عن المشى مانع
فاذا قيــل كم بقى لك رأس * قلت رأس لــكن بغير أكارع

(وتلطف الشيخ جمال الدين بن نباتة بقوله)

لهفى على فرسى الذى * أضحى تهر المقلتين
يكبو وأملك رقه * فعثر فى الحالتــين

(ومثله فى اللطف قول شرف الدين بن الحلاوى)

جاء غلامي وشكا * أمر كميتي وبكى
وقال لي لا تشتبه * ذونك قد تشبكا
قد سقته اليوم لما * مشى ولا تحركا
فقلت من غيظي له * مجاوبا لما حكى
ابن الحلاوي أنا * فلا تكن معلكا
لو انه مسير * لما غدا مشبكا

(قلت واستطردت فحول الادب بهذه المعاني الى غايات بديعة وسبكوها في قوالب مختلفة الاغراض (كقول الشيخ جلال الدين بن الزملكاني)

وفي حلبة الخد من أدمعي * خيول تجول ولا تركب
فسبق الكميت بها بين * ولكن تقدمه الاشهب

(ومنها قول القائل)

وحياة من أمست الي حياته * أشهى لدي من اتصال حياتي
ماسافرت لحظات طرفي نحوكم * الا على خيل من العبرات

(و يعجبني قول الشيخ جمال الدين بن نباتة)

ياواصف الخيل بالكميت و بالنهد أرحني من طول وسواسي
لو كنت تحت الدجا نشاهدني * لاستحسنت مقلتاك أفراسي
لا نهد الا من صدر غانية * ولا كميتا الا من الكاس

(ونطفل الصاحب فخر الدين بن مكانس على هذه المائدة حيث قال في موشحه)

تقول لحظي من بني سنان * ينبيك عن مقاتل الفرسان
فاله به عن موقف الطعان * وان ذكرت الخيل في الميدان
فاشرب كميتا واعل فوق نهد

(ومنه قول الشيخ بدر الدين بن الدماميني)

قم بنا نركب طرف اللهو سبقا للمدام
واثن ياصاح عناني * لكميت ولجام

(وقال وأجاد)

ويوم كستة غرة الشمس بهجة * كما ذهبته بالعشي لمجتلى
ركضت به في حلبة اللهو سابقا * فيالك من يوم أغر محجل

(و يعجبني قول القائل)

ولما اجتمعنا والسلو جليسنا * على اننا نسلو الهوى ونحول
وخيل غرام قد أتتنا مغيرة * فلم ندر الا والسلو قتيل

(و بيت بديعيتي في الاستطراد)

واستطردوا خيل صبري عنهم فكبت * وقصرت كلما الينا بوصلهم

(قلت)

(قلت) عن لي وقد انتهت الغاية بعد وصف جياد الخيل الى ماوقع من مجون الهجو وقادمها ان استطرد الى ماوقع من الغريب في مدح الحمير الاهلية وذمها (قيل) كان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين (فأما) خالد فلقيه بعض الاشراف بالبصرة على حمار فقال ماهذا فقال عير يحمل الرجل و يمنعني أن أكون جبارا في الارض وان أكون من المسرفين (وأما) الفضل بن عيسى فانه سئل عن ركوب الحمار (فقال) انه أقل الدواب مؤنة وأكثرها معونة واحفظها امهوى وأقر بها امرتقى (ونظمت هذا المعنى مضمنا فقلت)

ترد بع وتم في ظهور الحمير * ولاتخش من هبطة عاليه
وكن في مكان اذا ماوقعت * تقوم ورجلاك في عافيه

(والذي) يؤيد قولي وقول الفضل بن عيسى في قوله واحفظها امهوى (قول مجير الدين بن تميم)

سمعت انك يا خلي وخالصتي * وقعت عن جمل أوسرت في عجل
وأزعج الناس لما ان وقعت وكم * قد أزعج الناس قدما وقعة الجمل

(وقال الحكيم بن دانيال مماجنا في هجوه مضمنا)

ولقد ركبت من الحمير مكمدا * بكرا مطيا للعران مصاحبا
رجلاي في جنبيه منسذ ركبته * لن يفترا نغدوت أمشي راكبا

(وقلت)

كأن حماري شد اذ رمت مشية * بأمراس كتان الى صم جندل
ومن فوقه رجلاي تمشي بسرعة * فلم يخترك الاسنة أرجل

(وللشيخ برهان الدين القيراطي)

تراه أولا في الا كل سبقا * وعند السير باقي في الاخير
وكم وضعوا اسكرجة بفيه * ومامنعته عن طحن الشعير

(وللسراج الوراق)

ومن رآني والحمار مركبي * وزرقني للروم عرق قد ضرب
قال وقد أبصر وجهي مقبلا * لا فارس الخيل ولا وجه العرب

(وقال أيضا)

قالوا وقد ضاعت جميع مصالحي * لهموم نفس ليت لا حملتها
قد كان عندك يافلان صريمة * فاجبتهم بعت الحمار وبعتها

(الحكيم بن دانيال وتلطف)

ماغابت عيناي في عطلتي * أقل من حظي ومن بختي
قد بعت عبدي وحماري معا * وصرت لا فوقي ولا تحتي

(ومثله في اللطف قول أبي الحسين الجزار)

كم من جهول رآني * أمشي لاطلب رزقا
فقال لي صرت تمشي * وكل ماش ملقى
فقلت مات حماري * تعيش أنت وتبقى

(وألطف منه قول من كتب اليه)

مات حمار الاديب قلت لهم * مضى وقد فات منه مافاتا
من مات في عزه استراح ومن * خلف مثل الاديب ماماتا

(الشيخ بدر الدين بن الصاحب)

بالله يا بدر زرني * وعد محبا سقيما
واكتم مجيئك واركب * من الظلام بهيما

(الصاحب فخر الدين بن مكانس)

لله أشكو ماجرى * وهو بشكواى عليم
ان بهيما كان لي * فضاع في الليل البهيم

(قلت) تلاعب الناس في تورية البهيم كثيرا ولكن رأيت قاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي نور الله ضريحه قد سبكها في أحسن القوالب بقوله

قلت وليلى لونه حالك * ودجنه في سيره كالسقيم
واعجبا للصبح في أشقر * ما آن ان يلحق هذا البهيم

(وقالت) العرب الحمار عار منكر الصوت لاترقا به الدماء ولاتمهر به النساء وعدوا من مساوى الآداب ان يجري ذكره في مجلس قوم أولى مروءة (ومن العرب) من لايركب الحمار ولو بلغت به الرحلة الجهد واذا انتهت الغاية الى الذم فتعين ان نورد نبذة من غريب الهجو والمرجو من كرم الله تعالى ان أورد في كتابي هذا من كل فن غريبه حتى تصدق تسميته بتأهيل الغريب (وقيل ان أهجى بيت قالته العرب قول الطرماح)

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا * ولو سلكت سبل المكارم ضلت

(وقيل بل قول حسان بن ثابت)

لاعيب في القوم من طول ومن قصر * جسم البغال واحلام العصافير

(وقيل بل قول الاعشى)

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم * وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

(وقال الاصمعي بل قول الاخطل)

قوم اذا استنبح الاضياف كلبهم * قالوا لامهم بولي على النار
فتحبس البول شحا ان تجود به * لماتبول لهم الا بمقدار

(أبو نواس وتلطف بقوله)

بما أهجوك لا أدرى * لساني فيك لايجري
اذا فكرت في عرضك أشفقت على شعرى

(وقال يهجو أشجع السلمي)

أيها المدعي سليما شفاها * لست منها ولاقلامة ظفر
انما أنت من سليم كواو * ألحقت في الهجاء ظلما بعمرو

(ويعجبني قوله من قصيد)

وله في الماء أيضاً * يمسل أبدع ظرفا

مزجه العذب بماء السبر كي يزداد ضعفا

فهو لا يسقيك منه * مثل ما يشرب صرفا

(وقال يهجو الخطيب)

خبز الخطيب معلق بالكوكب * يحمى بكل مثقف ومشطب

جعل الطعام على بنيه محرماً * قوتاً وحلله لمن لم يسغب

فاذاهمو نظروا الرغيف تطربوا * طرب الصيام الى أذان المغرب

(وقال أيضاً)

أتانا بخبز له حامض * كمثل الدراهم في خلقته

اذا ما تنفست عند الخوان * تطاير في البيت من خفته

(وظريف قوله)

وقد آليت لا أجدو دعيا * ولو بلغت مروءته السماء

(وأظرف منه قول القائل)

استبق ودأبي القصا * تل حين تأكل من طعامه

سيان كسر رغيفه * أو كسر عظم من عظامه

(ومن غريب ابن الرومي هنا قوله)

خوان عيسى من نصف ترمسة * وصحفتاه من فلقتي عدسه

من ذرة ذرة جرادقه * تخفى على العين فهي ملتمسه

لو نخلت بالحرير لانسربت * من خلل النسج غير محتبسه

اذا افترست الرغيف بان له * كان ليثا هناك مفترسه

(الشريف ابن الهبارية)

قل للوزير ولا تفزعك هيبته * وان تعاظم واستعلى بمنصبه

لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانية * فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به

(عبد الصمد بن المعذل)

أتاني بيت صديق * واثق برشفيق

ليس لي أكل سوى الحسى وشرب غير ريقي

(ويعجبني قول الحاج علي بن مقاتل في خطيب الدهشة)

ابن الظهير اضافني * لطول الحديث وشرب ماء

لا عدت اتبع أعرجا * لو كان يعرج للسماء

(جحظة البرمكي)

ثلاثة في حارة واحده * سوق المعالي بينهم كاسده

قد حفظوا القرآن من حرصهم * عليه الا سورة المائده

(وقال آخر وأجاد)

يفتر يحيي على نفسه * وليس بباق ولا خالد
ولو كان يستطيع من بخله * تنفس من منخر واحد

(وقال آخر في ابخر وأجاد)

أرسل اسحق الى قطه * بلقمة من فمه الابخر
فبادر القط الى رميها * يحسبها من بعض ما قد خرى

(أبو الحسين بن الفكيك)

ووعدتني حتى حسبتك صادقا * فجعلت من طمع اجيئ وأذهب
فاذا حضرت أنا وأنت بمجلس * قالوا مسيلمة وهذا أشعب

(وظريف قول القائل)

شعر عبد السلام فيه ردىء * ومحال وساقط وبديع
فهو مثل الزمان فيه مصيف * وخريف وشتوة وربيع

(بعضهم في شاعر ضرير)

بشر المجرمين في درك النا * ر اذا جاء مالك بالضرير
ثم مرهم بستنشدوه فان انـ * شد لم يحرقوا بنار السعير
وليكن ما يقولها نصف بيت * فلئن تم جاء بالزمهرير

(أبو محمد السلمي في طفيلي)

لو طبخت قدر بمطمورة * بالشأم أو أقصى بلاد الثغور
وأنت بالصين لوافيتها * يا عالم الغيب بما في القدور

(الصابئ وأجاد)

أيها النابح الذي يتصدى * بقبيح من قوله لجوابي
لا تؤمل انى أقول لك اخسأ * لست أخسو بها لكل الكلاب

(عبد المحسن الصوري)

زففت الى نبهان من عفو فكرتي * عروسا غدا بطن الكتاب لها خدرا
فقبلها عشرا وهام بحبها * فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

(وقال أيضا وأجاد)

واخ مسه نزولي بقرح * مثل ما مسني من الجوع قرح
بت ضيفا له كما حكم الدهـ * ر وفي حكمه على الحر فتح
قال لي اذ نزلت وهو من السكـ * رة بالهم طافح ليس يصحو
لم تغربت قلت قال رسول الله * والقول منه نصح ونجح
سافروا تغنموا فقال وقد قا * ل تمام الحديث صوموا تصحوا

(ومن لطائف ابن حجاج قوله)

وذى همة فى حضيض الكنيف * وقرنين فى فلك المشترى
دخلت عليه انتصاف النهار * على غفلة حين لم يشعر
وبين يديه رغيفان مع * سكرجة كان فيا مرى
فلما قعدت فساقوه * فلم تخط عطسته منخرى
وأقبل يضرط فى اثرها * فقلت أقوم والاخرى

(وقال أيضا)

لى صديق جنى على مرارا فاكثرا
ثم لما عتبته * غسل البول بالخرا

(الصاحب بن عباد)

انظر الى وجه أبى زيد * أوحش من حبس ومن قيد
وحوشه ترتع فى ثوبه * وظفره يركب للصيد

(أبو أحمد الكاتب فى ابنه)

انى وأحمد بعد ما جربته * وبلوت فى خلواته أخلاقه
كمهيد شك فى خراقد شمه * وأراد تحقيق اليقين فذاقه

(الهجاء وتلطف) يكذب الكذبة جهلا * ثم ينساها قريبا
كن ذكورا يا أبا جعـ * ـفر اذا كنت كذوبا

(وقال أيضا)

يا سائلى عن أحمد عهدى به * رطب الجنان وكفه كالجلمد
كالاقحوان غداة غب سمائه * جفت أعاليه وأسفله ندى

(أبو حفص المطوعى)

انظر الى وجه صديق لنا * كيف محا الشرك به النقشا
قد كتب الدهر على خده * بالشعر والليل اذا يغشى

(ابن لنك فى أبى رياش)

قل للوضيع أبى رياش لا تبل * تـه كل تيه لك بالولاية والعمل
ما ازددت حين وليت الاخسة * والكلب أنجس ما يكون اذا اغتسل

(بعض المغاربة فى طبيب)

قل للوبا أنت وابن زهر * قد جزتما الحد والنهايه
ترفقا بالورى قليلا * فى واحد منكما كفايه

(آخر فى المعنى)

ان أبا الخير على نقصه * يخف فى كفته الفاضل
عليه المسكين من شؤمه * فى بحر هلك ماله ساحل

ثلاثة تدخل فى دفعة * طلعته والنعش والغاسل

(ابن منير فى المعنى)

تطبب برأى الصبى والمره * ولا تقربن بنى سكره
ففى كل دار لهم مأتم * وفى كل أرض لهم مقبره

(وقال آخر)

أقول لنعمان وقد ساق طبه * نفوسا نفيسات الى باطن الارض
أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا * حنانيك بعض الشر أهون من بعض

(وقال آخر)

ومطرب سوء بلينا به * ترغمه آخذ بالنفس
يقول اقترح سيدى ماتريد * فقلت اقترحت عليك الخرس

(جحظة البرمكى) ومغن بارد النغمة مختل اليدين
مارآه أحد فى * دار قوم مرتين

(آخر) كنت فى مجلس فقال مغن * كم ترى بيننا وبين الشتاء
فشربت البساط منى اليه * قلت هذا المقدار قبل الغناء
واذا ماهممت ان تتغنى * آذن الصيف كله بانقضاء

(وأغرب منه قول الآخر)

انك ان اصغيت يوما الى * ألحانه تلك المقادير
خلت فى الخلق أمر آجالها * يعرك اذناب السنانير

(واغرب منه قول الآخر)

انك لوتسمع ألحانه * تلك اللواتى ليس يعذوها
خلت من داخل حلقومه * موسوسا يخنق معتوها

(وقال آخر)

قلت اذغنى عراقا * ليتنا فى اصفهان

(وقال المصيصى الخياط)

واذا تربع لاتربع بعدها * وغدا يحرك عوده متقاعسا
فكأن جرذان المدينة كلها * فى عوده يقرضن خبزا يابسا

(وقال آخر فى مغن بالرباب)

لاتبعثوا بسوى المهذب جعفر * فالشيخ فى كل الامور مهذب
طورا يغنى بالرباب وتارة * تأتى على يده الرباب وزينب

(شمس الدين محمد الواسطى فى مجوع واداد وزامرا)

شبهت ذا العواد والزامر اذ * ضاقت علينا بهما المناهج
بعقرب يضرب وهو ساكت * وأرقم ينفخ وهو خارج

(الصنوبري يهجو زامرة سوداء)

فكأنما المزمار في اشداقها * غرمول عير في حياء أتان
وترى أناملها على مزمارها * كخنافس دبت على ثعبان

(وقال السراج الوراق فيها)

ولرب زامرة تهيج بزمرها * ريح البطون فليتها لم تزمر
شبهت أنملها على ضرباتها * وقبيح مبسمها الشنيع الابخر
بخنافس قصدت كنيفا واغتدت * تسعى اليه على خيار الشنبر

(ويعجبني من هجو أبي نواس قوله)

فولا لابراهيم قولا جهرا * غلبتني زندقة وكفرا
ان قلت ماتشرب قال خمرا * أوقلت ماتنكح قال دبرا
أوقلت ماتترك قال برا * أوقلت ماتقول قال شرا

(وقال) ألوم عباسا على فعله * كأن عباسا من الناس
وانما العباس في قومه * كالثوم بين الورد والآس

(وقال) أمات الله من جوع رقاشا * فلولا الجوع ماماتت رقاش
ولو أشممت موتاهم رغيفا * وقد سكنوا قبورهم لعاشوا

(ومن غريب هجو المتنبي قوله في كافور)

أمينا واخلافا وغدرا وخسة * وجبنا أشخصا لحت لي أم مخازيا
تظن ابتساماتي رجاء وغبطة * وما أنا الأضاحك من رجائيا
وتعجبني رجلاك في النعل انني * رأيتك ذا نعل اذا كنت حافيا
وانك لاتدري ألونك أسود * من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
ويذكرني تخييط كعبك شقه * ومشيك في ثوب من الزيت عاريا
ولولا فضول الناس جئتك مادحا * بما كنت في سري به لك هاجيا
فاصبحت مسرورا بما أنا منشد * وان كان بالانشاد هجوك غاليا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة * ليضحك ربات الحداد البواكيا

(قلت) ماوقفت في هذا الباب على اغرب من هذه المعاني ولا أبدع (وقال من غيرها)

من أية الطرق يأتي نحوك الكرم * أين المحاجم يا كافور والجلم
لاشيء أقبح من فحل له ذكر * تقوده أمة ليست لها رحم

(وقال من غيرها)

أما في هذه الدنيا كريم * تزول به عن القلب الهموم
أما في هذه الدنيا مكان * يسر باهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبدا * علينا والموالي والصميم
وما أدري أذا داء حديث * أصاب الناس أم داء قديم

حصلت بارض مصر على عبيد * كأن الحر بينهم يتيم
كأن الاسود اللابى فيهم * غراب حوله رخم وبوم
أخذت بمدحه فرأيت لهوا * مقالى للاحيمق يا حليم
ولما ان هجوت رأيت عيا * مقالى لابن آوى يا لئيم
فهل من عاذر فى ذا وهذا * فمدفوع الى السقم السقيم
اذا أتت الاساءة من وضيع * ولم ألم المسىء فمن ألوم

(وقال من قصيدة مطولة كلها غرر)

يا ساقيى أخمر فى كؤوسكما * أم فى كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا مالى لا تغيرنى * هذى المدام ولا هذى الاغاريد
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها * انى بما أنا باك منه محسود
انى نزلت بكذابين ضيفهم * عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدى وجودهم * من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم * الا وفى كفه من نتنها عود
من كل رخو وكاء البطن منفتق * لا فى الرجال ولا النسوان معدود
أكلما اغتال عبد السوء سيده * أو خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى امام الآبقين بها * فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها * فقد بشمن وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحر صالح بأخ * لو انه فى ثياب الحر مولود
لا تشترى العبد الا والعصا معه * ان العبيد لانجاس مناكيد
ما كنت أحسبنى أحيا الى زمن * يسىء بى فيه كلب وهو محمود
ولا توهمت ان الناس قد فقدوا * وان مثل أبى البيضاء موجود
جوعان يأكل من زادى ويمسكنى * كى يقال عظيم القدر مقصود
من علم الاسود المخصى مكرمة * أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم اذنه فى يد النخاس دامية * أم قدره وهو بالفلسين مردود
وذاك ان فحول البيض عاجزة * عن الجميل فكيف الخصية السود

(وسأله اشراف الكوفة ان يهجو ضبة بن يزيد فقال ابياتا منها)

وما عليك من العا * ر ان أمك قحبه
وما يشق على الكلب ان يكون ابن كلبه
ما ضرها من أتاها * وانما ضر صلبه
ولم ينكها ولكن * عجانها ناك زبه
يلوم ضبة قوم * ولا يلومون قلبه
وقلبه يتشهى * ويلزم الجسم ذنبه

لو أبصر الجذع ايرا * أحب فى الجذع صلبه
يا أطيب الناس نفسا * والين الناس ركبه
وأخبث الناس أصلا * فى أخبث الارض تربه
وارخص الناس أما * تبيع ألفا بحبه
كل الايور سهام * لمريم وهى جعبه

(منها)

وكنت تفخر تيها * فصرت تضرط رهبه
وان بعدنا قليلا * حملت رمحا وحربه
ان أوحشتك المعالى * فانها دار غربه
وآنستك المخازى * فانها لك نسبه
وان عرفت مرادى * تكشفت عنك كربه
وان جهلت مرادى * فانه بك أشبه

(ومن المبالغة فى الهجو قول القائل)

على حالة لو ان فى القوم حاتما * على جوده لضن بالماء حاتم

(قلت) هذا البيت من شواهد التسهيل وجرحاتم بدل من الضمير (ومثله فى المبالغة قول القائل)

قوم اذا صفع النعال قفيهم * شكت النعال باى ذنب تصفع

(ومن المبالغات البديعة قول أبى نواس فى هجو الدنيا)

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى ثياب صديق

(قال) المأمون لو وصفت الدنيا نفسها بشئ لما عدت قول أبى نواس (وقال آخر فى هجو أصحابه وأجاد)

واخوان تخذتهم دروعا * فكانوها ولكن للاعادى
وخلتهم سهاما صائبات * فكانوها ولكن فى فؤادى
وقالوا قد صفت منا قلوب * لقد صدقوا ولكن من ودادى

(وقال آخر وأجاد)

وكنت أخى باخاء الزمان * فلما انقضى صرت حربا عوانا
وكنت أعدك للنائبات * فها أنا اطلب منك الامانا

(وقال المعتمد بن عباد)

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم * وطول اختبارى صاحبا بعد صاحب
فلم ترنى الايام خلا تسرنى * مباديه الاساءنى فى العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملمة * من الدهر الا كان احدى النوائب

(قيل) ان الشيخ صدر الدين بن الوكيل رحمه الله تعالى كان فى أواخر الصحبة يستحيل على أصحابه فنظم فيه بعض أهل العصر (يقول)

وداد ابن الوكيل له شبيه * بلبابدين جلق فى المسالك

فاوله حلى ثم طيب * وآخره زجاج مع لوالث
(وهذا يشبه قول الآخر فى شريف)
يامشبه الكشك أجدادا مطهرة * ويستحيل الى داء وتخليط
ماأنت الا كباناس فاوله * عذب وآخره يدعى بقلوط
(قال) جالينوس الكشك له أبوان كريمان ولكنهما انجبا لئيما (ومن اللطائف البديعة قول محاسن الشواء فى هجو صديق له)
لنا صديق له خلال * تعرب عن أصله الاخس
أضحت له مثل حيث كف * وددت لو انها كأس
(ومن لطائف الهجوات قول الفارسى)
ان شئت ان تعرف عن محنة * دار التى تعزى لعبدونه
فامش فان ابرك أبصرته * قام فان الباب من دونه
(ومن المبالغة فى الهجو قول ابن الهبارية)
ياواسطيين تقوا انني * بهجوكم بين الورى مولع
مافيكم كلكم واحد * يعطى ولا واحدة تمنع
(وقال أبو الطيب فى ذم الزمان)
وما الدهر أهل ان تؤمل عنده * حياة وان تشتاق فيه الى النسل
(ولمح أبو العلاء هذا المعنى فقال)
بنت من الدنيا ولا بنت لى * فيها ولا عرس ولا أخت
(وقال صالح بن صالح وأجاد الى الغاية)
وما الدهر فى حال السكون بساكن * ولكنه مستجمع لو ثوب
(وقال أبو العلاء المعرى)
جربت دهرى وأهليه فما تركت * لى التجارب فى ود امرئ غرضا
(ومن بديع الهجو وغريبه قول عبد الحكم خطيب مصر فى العماد بن جبريل عند كسر يده)
ان العماد بن جبريل أخى علم * له يدا صبحت مذمومة الاثر
تأخر القطع عنها وهى سارقة * فجاءها الكسر يستقصى عن الخبر
(محمد بن زيد الواسطى فى نفطويه النحوى)
من سره أن لا يرى فاسقا * فليجتهد أن لا يرى نفطويه
أحرقه الله بنصف اسمه * وصير الباقى صراخا عليه
(اسامة بن منقذ فى ابن طليب المصرى عند حريق داره)
انظر الى الايام كيف تسوقنا * قسرا الى الاقدار بالاقدار
ما اوقد ابن طليب قط بداره * نارا وكان حريقها بالنار

(ومما)

(ومما) يناسب هذه الواقعة ان الوجيه بن صورة المصرى كان له بمصر دار موصوفة بالحسن ماحترقت فقال (نشو الملك المعروف بابن المنجم)

أقول وقد عاينت دار ابن صورة * وللنار فيها مارج يتضرم
كذا كل مال أصله من نهاوش * فعما قليل فى نهابر يعدم
وما هو الا كافر طال عمره * فجاءته لما استبطأته جهنم

(والبيت) الثانى مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم من أصاب مالا من نهاوش أذهبه الله فى نهابر والنهاوش الحرام والنهابر المهالك (والشئ بالشئ يذكر فنظم أبو الحسين الجزار فى بعض أدباء مصر وكان شيخا كبير العمر عليه جرب فالتطخ بالكبريت بيتين وهما)

أيها السيد الاديب دعاء * من محب خال من التنكيت
أنت شيخ وقد قربت من النا * ر فكيف ادهنت بالكبريت

(وقال فى زوجة أبيه)

تزوج الشيخ أبى شيخة * ليس لها عقل ولا ذهن
لو برزت صورتها فى الدجا * ما جسرت تبصرها الجن
كأنها فى فرشها رمة * وشعرها من حولها قطن
وقائل قال ما سنها * فقلت ما فى فمها سن

(وقال فيها وقد مات أبوه)

أذابت كلى الشيخ تلك العجوز * وأردت بأنفاسها المرديه
وقد كان أوصى لها بالصداق * لما فى مصيبته تعزيه
لانى ما خلت ان القتيـل يوصى لقاتله بالديه

(السراج الوراق)

قيل لى عندما هجوت قطيما * بقواف عن ثلبه لا تنام
ما الذى بينه وبين القوافى * قلت يا قوم نقطة والسلام

(وقال فى هجو بخيل وأجاد)

وضنين بماله ظن أنى * جئته قاصدا فأعرض عنى
قلت هبنى أسأت فاعف فنادى * زدت عندى ذنبا بقولك هبنى

(ويعجبنى قول ابن قلاقس من قصيد)

أسكرتهم بكؤس المدح مترعة * ولم أنل منهم الا العرابيدا
سمعت بالجود مفقودا فهل أحد * يقول لى قد وجدت الجود موجودا

(مسلم بن الوليد وأجاد)

أما الهجاء فدق عرضك دونه * والمدح عنك اذا علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك انه * شئ عززت به وأنت ذليل

(آخر وأجاد)

لئن كانت الدنيا أفادتك ثروة * فأصبحت منها بعد عسر أخا يسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا * من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

(آخر) لا تهولنك السوابغ والبيض لمن تحتها قلوب العذارى

(آخر) لعمر أبيك ما نسب المعلى * الى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت * وصوح نبتها رعى الهشيم

(آخر) وما ينفع الاصل من هاشم * اذا كانت النفس من باهله

(آخر) ولولا الضرورة لم آته * وعند الضرورة تأتى الكنيفا

(ابن الرومى وأجاد)

معشر اشبهوا القرود ولكن * خالفوها في خفة الارواح

(اعرابى وأجاد في بخيل اسمه صباح)

قد قلت لما رأيت الموت يطلبنى * ياليتنى درهم في كف صباح

(وظريف قول القائل في الفضل)

ما رأينا جبلا كالفضل يمشى في الفضاء
نظر العين اليه * يكحل العين بداء
رب قد أعطيتناه * وهو من شر عطاء
عاريا رب فخذه * في قميص ورداء

(أبو تمام وأجاد)

رجاأن تخجيه خساسة قدره * ولم يدر ان الليث يفترس الكلبا

(وقال من غيرها وأجاد)

يا أكرم الناس وعدا حشوه خلف * وأكثر الناس قولا كله كذب

(وقال من غيرها)

امرأته نفذت عليه أمورها * حتى ظننا انه امرأتها
متناوم ان زارها اخوانها * متيقظ ان زارها اخواتها

(ومن بديع الاستطرادات في الهجو قول البحترى من قصيد في وصف فرس)

كالهيكل المبنى الا انه * في الحسن جاء كصورة في هيكل
ملك العيون فان بدا أعطينه * نظر المحب الى الحبيب المقبل
ما ان يعاف قذى ولو أوردته * يوما خلائق حمدويه الاحول

(ومن قول أحمد البلادرى في رثاء أبي تمام)

أمسى حبيب رهن قبر موحش * لم تدفع الاقدار عنه بكيد
لم ينجه لما تناهى عمره * أدب ولم يسلم بقوة أيد
قد كنت أرجو أن تنالك رحمة * لكن خشيت قرابة ابن حميد

(ومنه قول الحسن على اللقمى وأجاد)

جاسرت أجيالا كان فخورها * وجنات نجم ذى الحياء البارد
والشوك يفعل فى ثيابى مثلما * فعل الهجاء بعرض عبد الواحد

(ومنه قول أبى محمد الزيلدم وهو من الغايات)

وليل كوجه البرقعيدى ظلمة * وبرد اغانيه وطول قرونه
قطعت ونومى عن جفونى مشرد * كعقل سليمان بن فهد ودينه
بذى ألق فيه اعوجاج كانه * أبو جابر فى خبطه وجنونه
الى ان بدا ضوء الصباح كانه * سنا وجه قرواش وضوء جبينه

(انظر) أيها المتأمل الى قوة استطراده من وصف حاله مع الليل الى هجاء الثلاثة ومدح قرواش سبحان المانح (ومنه)

اذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه * فليس به بأس وان كان من جرم

(ومنه)

وشادن بالدلال عاتبنى * ومنيتى من تدلل العاتب
فكان ردى عليه من خجلى * أبرد من شعر خالد الكاتب

(ومنه قول ابن المعتز)

ولقد شربت مدامة كرخية * مع ماجد طلق اليدين حميد
علت بماء بارد فكانما * علت ببرد قصيدة ابن حميد

(قلت) والغريب فى هذا الباب الاستطراد من الهجو الى الهجو وهو كقول جرير فى هجو أم الفرزدق وهو نوع من بديع يدل على قوة الناظم وسعة جولانه

لها برص بأسفل اسكتيها * كعنفقة الفرزدق حين شابا

(ومنه قول السرى الرفاء)

لنا روضة بالدار صيغ لزهرها * قلائد من حلى الندى وشنوف
يمر لنا فيها اذا ما تبسمت * نسيم كعقل الخالدى ضعيف

(قلت) وأظرف ما رأيت من هذا النوع قول أبى جلنك الحلبى (حكى) انه كتب رقعة الى بعض الحكام (وقيل) انه قاضى القضاة كمال الدين بن الزملكانى يسأله فيها شيئا فوقع له بخبز قيل ان قدره رطلان فتوجه ابن جلنك يوما الى بستان يرتاض فيه فقيل انه بستان قاضى القضاة المشار اليه (فكتب على بعض حيطانه)

لله بستان حللنا دوحه * فى جنة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبه سنانيرا رأت * قاضى القضاة فنفشت أذنابها

(قيل) ان الشيخ بدر الدين بن مالك أملى عليهما كراسة فى البديع أود الوقوف عليها (ومن) استطرادات ابن حجاج فى الهجو على طريقته التى لم ينسج على منوالها غيره فان الشيخ جمال الدين بن نباتة قال فى خطبة كتابه المسمى بتلطيف المزاج من شعر ابن حجاج (وبعد) فانى رأيت نتائج أفكار الشعراء ذرية بعضها من بعض وأنم أشعارهم تبعث جميعها فى صعيد واحد من الارض الا أشعار الاديب الفريد أبى عبد الله الحسين بن الحجاج رحمه الله تعالى فانها

أمه غريبة تبعث وحدها وذرية عجيبة تبلغ باتفاق اللهو واللعب رشدها ولم يحط خاطر أحد بمثلها خبرا ولا استطاع على معارضته شهدها صبرا (انتهى) قول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى واستطرادا بن الحجاج الموعود بذكره (قوله يخاطب ممدوحه)

تفديك أمي وأبي * وابني وان كان صبي
يامن اليه حيثما * وجهته منقلبي
يامن مديح غيره * عندي عزيز المطلب
لحيته من يشنا الذي * حال رضا أو غضب
من عين من يطلبها * بالليل في استي تختبي
وأمه أم الشكو * لذي في استها والريب
ذات حر اوسع من * شارع باب اللعب
وشعرة غليظة * ذات نبات أشيب
قد شاب منها بعضها * وبعضها لم يشب
تنتف منها طاقة * بشدة وتعب
لما شككت انها * من لحية ابن الحلبي

(ومثله قوله من قصيد)

حتى متى أفديك ياستي * بندف قطن استك برفشتي
قالت بهذا الايرواستعبرت * وكان قد نام على تختي
قلت نعم هذا على مابه * قد ضرط الاتن لمن أنت
هذا اذا قام استوى طوله * بطول ساقيك اذا قمت
فلو رأيتيه على بيضه * مثل أبي منصور في الدست
خريت بالطول على عارضي * صاحب ديواني أو بلت

(ومثله قوله من قصيدة)

فقلت اعجابا بها * أحسنت لي متعت بك
أحسنت يا أوسع من * فتوح مولانا الملك

(ومن لطائف الهجويات الخارجة عن الفحش قول أبي نواس)

قال لي يوما سليما * ن وبعض القول أشنع
قال صفني وعليا * أينا أتقى وأرفع
قلت اني ان أقل ما * فيكما بالحق تجزع
قال كلا قلت مهلا * قال قل لي قلت فاسمع
قال صفه قلت يعطي * قال صفني قلت تمنع

(جعفر بن شمس الخلافة وأجاد)

مدحتك ألسنة الأنام مخافة * وتشاهرت لك بالثناء الاحسن

أترى الزمان مؤخرا في مدتي * حتى أعيش الى انطلاق الالسن

(وقال بعض المتأخرين في هجو زكي الدين ابن أبي الاصبع وأنا أستغفر الله من ايراده)

عبد العظيم الزكي بن أبي الا صبع رب القريض والخطب
يزعم اني بالهجو اثلبه * تغضبا منه ساعة الغضب
لكنني والطلاق يلزمني * ماملت فيه يوما الى الكذب
نكت امه واختيه وخالته * ونكت قدما أخاه وهو صبي
ولست فيما أتيت مبتدعا * قد كان هذا في سالف الحقب
نكت أبي أمه وجدته * وعمتيه لله در أبي
ونحن في بيته على دعة * النيك ما بيننا الى الركب

(ومن غريب الهجو والتشبيه العقم قول القائل في أحدب)

قصرت أخادعه وغاب قذاله * فكأنه مترقب ان يصفعا
وكأنه قد ذاق أول صفعة * وأحس ثانية لها فتجمعا

(بدر الدين حسن بن النقيب)

قالوا رأينا العلق ينفق مسرفا * والعلق لا شئ لديه ولا معه
فأجبتهم انفاقه من جحره * قالوا صدقت لذاك ينفق من سعه

(ومنه قوله)

ومنكرش أضحى يحاول سفله * لعساه لا يشكى اليه ويشكر
ويقص لحيته فان ناديته * لباك وهو محلق ومقصر

(القاضي السعيد بن سناء الملك)

وخلصني من يدي عشقه * ظلام على خده حندسة
كنست فؤادي من حبه * ولحيته كانت المكنسه

(ابن عنين وأجاد)

شكا ابن المؤيد من عزله * وذم الزمان وأبدى السفه
فقلت له لا تذم الزمان * فتظلم أيامه المنصفه
ولا تعجبن اذا ما صرفت * فلا عدل فيك ولا معرفه

(ومثله قول القائل)

ورقيع أراد أن يعرف النحـــــو يرى العار لا المستقى
قال لي است تعرف النحو مثلي * قلت سلني عنه أجب في الوقت
قال ما المبتدا وما الخبر المجـــرور بين قلت ذقنك في استي

(وقال ابن الرومي)

ان تطل لحية عليك وتعرض * فالمخالي مخلوقة للحمير
علق الله في عذاريك مخلا * ولكنها بغير شعير

لو رأى مثلها النبي لاجرى * في لحى الناس سنة التقصير

(و يعجبني قول القائل)

اذا عرضت للفتى لحية * وطالت وصارت الى سرته

فنقصان عقل الفتى عندنا * بمقدار مازاد في لحيته

(الشيخ برهان الدين القيراطي)

أصبحت يا ابن الصائغ الحنفي في * فعل القبائح أوحد الازمان

في مصر رأي أبي حنيفة تدعي * جهلا وأنت معرة النعمان

(ولله در القائل في ابليس)

عجبت من ابليس في نخوته * وخبث ما أظهر من نيته

تاه على آدم في سجدة * وصار قوادا لذريته

(قلت) في هذا القدر كفاية و يتعين تقصير لسان القلم عن التطاول الى ثلب اعراض هذه الامة المرحومة وقد علم الله تعالى ان العبد لم يقصد فيما أورده ثلبا بل جل القصد اثبات ما وقع من الغريب في كل فن من فنون الادب وان كانت غرر المدائح قد تقدمت وجبتها ظلمات الهجو وهنا نحب أن نبرز ماسهونا عن ابرازه من معان أشرقت في أفق كل فكر نير تجلو بها ظلمات تلك الظلمات (نحن المنقول) عن القاسم المكنى بأبي دلف انه جمع بين طرفي الكرم والشجاعة ولي دمشق في خلافة المعتصم (قيل) انه لحق قوما من الاكراد قطعوا الطريق فطعن فارسا فنفذت الطعنة الى فارس آخر رديفه فقتلهما (فقال بكر بن النطاح)

قالوا وينظم فارسين بطعنة * يوم الهياج ولا تراه كليلا

لا تعجبوا فلو ان طول قناته * ميل اذا نظم الفوارس ميلا

(وقيل فيه أيضا)

تمشي المنايا الى غيري فاكرهها * فكيف أمشي اليها بارز الكتف

ظننت أن نزال القرن من خلقي * او ان قلبي في جنبي أبي دلف

(وقال فيه أبو تمام)

يا طالبا للكيمياء وعلمها * مدح ابن عيسى الكيمياء الاعظم

لو لم يكن في الارض الادرهم * ومدحته لاتاك ذا الدرهم

(ودخل بعض الشعراء فأنشده)

أبا دلف ان المكارم لم تزل * مغلغلة تشكو الى الله حلها

فبشرها منه بميلاد قاسم * فارسل جبريلا اليها فحلها

(وأمر له) بمال فقال الخازن لم يكن هذا القدر بيت المال فأمر له بضعفه فقال هذا غير ممكن فأمر له بضعفه فلما حمل اليه المال (قال أبو دلف)

أتعجب ان رأيت علي دينا * وان ذهب الطريف مع التلاد

وما وجبت على زكاة مال * وهل تجب الزكاة على جواد

(ونقل) قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في تاريخه ان يحيى البلاذري المؤرخ قال كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء فقال لست أقبل الا ممن يقول مثل قول البحتري في المتوكل

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما * في وسعه لسعى اليك المنبر

(قال) البلاذري فرجعت الى داري وأتيته وقلت قد قلت فيك أحسن مما قاله البحتري (فقال هات فأنشدته)

ولو ان برد المصطفى اذ لبسته * يظن لظن البرد انك صاحبه

وقال وقد أعطيته ولبسته * نعم هذه اعطافه ومناكبه

(فقال) له المستعين ارجع الى منزلك وافعل ما آمرك به فرجع فبعث اليه بسبعة آلاف دينار وقال اذخر هذه للحوادث ولك الجراية والكفاية مادمت حيا (قلت ومن المدائح الرائقة في حال الخشمة)

أهدى لمجلسه الكريم وانما * أهدى له ماحزت من نعمائه

كالبحر يمطره السحاب وماله * فضل عليه لانه من مائه

(ومثله قول بعضهم في يحيي بن خالد بن برمك)

سألت الندى هل أنت حر فقال لا * ولكنني عبد ليحيي بن خالد

فقلت شراء قال لا بل وراثة * توارثني من والد بعد والد

(وأما حاتم فقد استغنى عن المدح بقوله)

أوقد فان الليل ليل قر * والريح يا موقد ريح صر

عسى يرى نارك من يمر * ان جلبت ضيفا فأنت حر

(حكى) صاحب العقد ان اعرابيا سأل الحكم بن حنطب فأعطاه خمسمائة دينار فبكى الاعرابي فقال له لعلك استقللت ما أعطيناك فقال لا والله ولكني أبكي لما تأكل الارض منك (ثم أنشده)

فكأن آدم حين حان وفاته * أوصاك وهو يجود بالحوباء

ببنيه ان ترعاهم فرعيتهم * وكفيت آدم عيلة الابناء

(قال) بعض طلبة المبرد خرجت من مجلس المبرد يوما فمررت بخربة فاذا شيخ قد خرج منها وفي يده حجر فهم ان يرميني به فتسترت بالمحبرة والدفتر فقال من أين أقبلت قلت من مجلس المبرد قال بل البادر ثم قال ما الذي أنشدكم اليوم (قلت أنشدنا)

أعار الغيث نائله * اذا ما ماؤه نفدا

وان أسد شكا جبنا * أعار فؤاده الاسدا

(فقال) أخطأ قائل هذا الشعر قلت كيف قال ألا تعلم انه اذا أعار الغيث نائله بقي بلا نائل واذا أعار الاسد فؤاده بقي بلا فؤاد فقلت كيف كان يقول (فأنشد)

علم الغيث الندى من يده * مذ رآه علم البأس الاسد

فاذا الغيث مقر بالندى * واذا الليث مقر بالجلد

(قال) فكتبتهما وانصرفت ثم بعد أيام قليلة خرج علي وكاد يرميني فتسترت منه فضحك وقال مرحبا بالشيخ فقلت ويلك قال من مجلس المبرد قلت نعم قال ما أنشدكم اليوم (قلت أنشدنا)

ان السماحة والمروءة والندى * قبر بمرو على الطريق الواضح
فاذا مررت بقبره فاعقرله * كوم الجياد وكل طرف سابح

(فقال) أخطأ قائل هذا الشعر قلت كيف قال ويحك لو نحر ابل خراسان لما أثر فى حقه قلت فكيف كان يقول (فأنشد)

احملانى فان يكن لكما عقر الى جنب قبره فاعقرانى
وانضحا من دمى عليه فقد كا * ن دمى من نداه لو تعلمان

(فلما) عدت الى المبرد قصصت عليه القصة فقال أتعرفه قلت لا قال ذاك الشخاذ الكاتب تأخذه السوداء فى أيام الباذنجان (أبو نواس وأجاد الى الغاية)

قد قلت للعباس معتذرا * من ضعف شكريه ومعترفا
أنت امرؤ أوليتنى نعما * أوهت قوى شكرى فقد ضعفا
لا تسدين الىّ عارفة * حتى أقوم بشكر ما سلفا

(السرى الرفاء وأجاد)

ولى فى واحتيك غدير نعمى * صفا فثناه فاطرد الحباب
فظل لا يمازجه هجير * وشمس لا يكدرها ضباب
وأيام حسن لدىّ حتى * تساوى الشيب فيها والشباب

(غيره وأجاد)

كم أبا جعفر وكم لك عندى * من يد أطلقت يدى ولسانى
ظاهر حسنها علىّ وجاءت * تتهادى فى حلة الكتمان

(غيره وأجاد)

زاد معروفك عندى عظما * انه عندك مستور ضعيف

(السرى الموصلى وأجاد)

ألبستنى نعما رأيت بها الدجا * صبحا وكنت أرى الصباح بهيما
فغدوت يحسدنى الصديق وقبلها * قد كان يلقانى العدو رحيما

(البحترى وأجاد)

لطفت رأيك فى برى وتكرمتى * ان الكريم على العلياء يحتال

(وقال وأجاد أيضا)

أعدت يداه يدى فشرد جوده * بخلى فأفقرنى كما أغنانى
ووثقت بالخلف الجميل معجلا * منه فأعطيت الذى أعطانى

(ابن الرومى)

ان كان اورق أقوام فانكم * مفضلون بتنويرٍ واثمار
كانما الناس فى الدنيا بظلكم * قد خيموا بين جنات وأنهار

(البحترى وأجاد)

أراك يعيني المكتسي رونق الغنى * بآلائك اللاتي يعددها الشكر
ويعجبني فقري اليك ولم يكن * ليعجبني لولا محبتك الفقر

(وله) لقيت به عضب الزمان فغله * وقد يثلم العضب المهند بالعضب

(وله وأجاد) ويرجعني اليك وان تناءت * دياري عنك تجربة الرجال

(غيره وأجاد).

ملوك يعدون الرماح محاسرا * اذا ارعزعوها والدروع غلائلا

(أبوتمام) قوم ترى أرماحهم يوم الوغى * مشغوفة بمواطن الكتمان

(المتنبي يدعو لممدوحه وأجاد)

ولا زالت بيوتك مشرقات * ولا دانيت يا شمس الغروبا
لاصبح آمنا فيك الرزايا * كما أنا آمن فيك العيوبا

(وله) وهذا دعاء لو سكت كفيته * لانى سألت الله فيك وقد فعل

(ابن الرومي وأجاد)

أعاذك انس المجد من كل وحشة * فانك في هذا الانام غريب
وتاب اليك الدهر من كل سيء * وجاءك يسترضيك وهو منيب

(غيره) لا زالت الدنيا له منزلا * يأوى به والدهر له عمرا

(غيره) أرانى الله وجهك كل يوم * صباحا للتيمن والسرور
وأمتع ناظرى بصحيفتيه * لاقرأ الحسن من تلك السطور

(خلف الكاتب)

ولا نحن الى الف ولا وطن * اذا سات ولا نأسو على أحد

(البحترى) بقاؤك فينا نعمة الله عندنا * فنحن بأوفى شكره نستديمها

(غيره وأجاد) ولا زال يلقاك الحسود وطرفه * عليل وفي طي الضمير غليل

(ويعجبني من التغالي في حشمة المدائح قول القائل)

واسكنه السماء لها بروج الذى فيها له الاربوع
فان له مجرتها طريق * وبين يديه أنجمها شموع
وألوية الفضائل خافقات * تحملها له البرق اللموع
وما نجم الثريا غير نعل * ومن خيط الصباح له شسوع
يقومها الظلام اذا تمشى * لان له الدجا عبد مطيع

(ومن زخارف المتأخرين قول الشيخ سراج الدين الوراق)

اشتهى أن أراك في كل وقت * والليالى تشاء مالا أشاء
والقوافي اليك حنت حنيني * فتأمل فهمزها ورقاء
ولها لذة بتكرار مدحي * لك حتى ابيح لى الابطاء

(ومن اللطائف قوله من أبيات)

ومضاف للشعراني ورا * ق وناهيك مفخر الاملياء
ورفراؤ بنوها على الفتح لحن لي منه بكسر الراء
و عيننا الولا بها علم الدين وجدوي عينه البيضاء
كان هذا السراج أعوزه الزيت وأودى به الى الانطفاء

(وقال من قصيدة وأجاد)

قدمت اذار معا في جمادى * وقلب الشئ شأن الاولياء
ولم نرقبل مولانا وايا * تقدم قبل وسمى السماء

(وقال يمدح ضياء الدين القشاني)

أمولانا ضياء الدين دم لي * وعش فبقاء مولانا بقائي
فلولا أنت ما اغنيت شيأ * ومايغنى السراج بلا ضياء

(وقال من مدح قصيدة)

وأقررت بالعين عيني التى * أتاها بذالك بلا حاجب
واصبحت أحتاج في صرفه * الى كاتب والى حاسب
يقول وقد جئته صيرف * لقد جئت بالعجب العاجب
وقفت على مطلب قلت لا * فقال مدحت أبا طالب

(وقال في من أهدى له تفصيلة)

دامت عطايا الامير سابقة * من كل راج وآمل أمله
ولا عدمنا حياته أبدا * ولا تفاصيله ولا جمله

(السلامي في عضد الدولة وأجاد)

يشبهه المداح في البأس والندى * بمن لو رآه كان أصغر خادم
ففي جيشه خمسون ألفا كعنتر * وأمضى وفي خزانه ألف حاتم

(ومن زخارف أبي الحسين الجزار قوله من قصيد)

فكم رامت السحب تحكي نداه * فلاح من البرق فيه الخجل

(ومن مرقصه قوله)

يعطى عطاء محسن * يا بيه عذر مذنب

(وقال) تركت حسودي مغضبا بصنائع * منت بها لا قدر الله أن يرضى
وأوليتني ما لست أشكر بعضه * على ان شكري في لم قد طبق الارضا

(ومن غريب القاضي السعيد بن سناء الملك قوله من قصيد)

عذرت عاذلي مدحي في مناقبه * اذ كان يدخل بين المسك والعبق

(وقال من غيرها)

ولقد سموت وما سمت بواهب * جدات مواهب كفه ان تشكرا

(ومنها وهي في مديح الفاضل)

جعلت براعته الكلام للفظه * عبدا والكنا نراه محررا
وسقى الندى من راحتيه براعة * فلذاك أزهر بالبيان وأثمرا

(وقال من غيرها وأجاد)

يقول له ان البسيطة داره * وان نجوم الافق فيها اصحابه

(منها في الفاضل أيضا)

و يفرس ألباب الرجال كلامه * لماهو الا الليث والطرس غابه

(وقال من غيرها وأجاد)

تخر له الاملاك ذلا وانما * تعز اذا خرت لديه من الذل
وأنفسهم عارية منه عندهم * متى ما اراد استرجعتها ايدا القتل
أعاديه من عماله في بلادهم * يصرفهم بين الولاية والعزل

(منها) اذا كنت من قتلاك تملأ سبلها * فكيف يسير الجيش منها بلا سبل
وما الفتك الجرد قط وانها * لتلحق من عاديته وهي في الشكل

(وقال) ودّ العدا أن يكونوا من رعيته * ليأخذوا الامن تعويضا من الحذر

(وقال من غيرها في مديح الفاضل)

انى رأيت الشمس ثم رأيتها * ماذا على اذا هويت الاحسنا
وسألت من أى المعادن ثغرها * فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
أبصرت جوهر ثغرها وكلامه * فعلمت حقا ان هذا من هنا
ذاك الكلام من الكمال بموقع * لا يدرك الساعي اليه سوى العنا
يدنو من الافهام الا انها * تلقاه أبعد ما يكون اذا دنا

(وقال فيه من غيرها وأجاد)

وقصر البحر عنه وهو مكتئب * أما تراه بكفى موجه اللطما
وواتت السحب منه جارته باكية * أما ترى الدمع من أجفانها انسجما
قضى له الله منذ أجرى له قلما * بالسعد منه وقد أجرى به القلما
فخرا لدهر غدا عبد الرحيم به * بالامر والنهي يبدى الحكم والحكما
كساه ربك نورا من جلالته * يلقى الحسود فيكسو ناظريه عمى
يغضى حياء ويغضى من مهابته * لما يكلم اجلالا اذا ابتسما

(منها) يا أيها الفاضل الصديق منطقه * انى عتبتك والمقصود قد فهما
أعدت للعبد لما جئت عائده * روحا وأهلكت من حساده أمما
تركتهم لى حسادا على سقمى * وكم تمنوا لى الادواء والسقما
نقلت ما بي اليهم ثم قلت لهم * لا تسلموا ان هذا العبد قد سلما
ان كان يملك من ينتاب ناديه * بخلا فانك قد أهلكتني كرما

(وقال من غيرها فيه وأجاد)

كأنما الكف منه مثل مصحفه * واللثم فيها كأعشار وأخماس
اذا أردت ترى الاقدار جارية * فانظر له قلما من فوق قرطاس
يسامر الفكر معنى ما يخيطبه * يا حسنه سمرا فى ليل أنفاس

(وقال فيه من غيرها وأجاد)

تصنعوا وأنت طبعا مواهبه * تعطل البدو أحلى من حلى الحضر
والدهر مدّ اليه كف مفتقر * لمدّ الدهر منه لحظ محتقر
ذاك الاجل وان تحكى الورى شبها * فانه المسك فى الالوان والصور
فى كفه قلم ان شئت أوقدر * يصرف الخلق بين النفع والضرر
هذى المكارم لا قعبان من لبن * فقع لجنبك يا شانيه أو فطر
اكفف ايا ديك عنى اننى رجل * أخاف منها على نفسى من البطر
حبى صحيح وغيرى حبه كذب * انى جهينة فاسألنى عن الخبر
وخاطرى ان يوفق مع بلادته * فالماء ينبع أحيانا من الحجر

(وقال من مديح الفاضل)

لولا اعتقادى للشريعة مخلصا * ماقلت ان كلامه مخلوق

(وقال من مدح الملك العزيز)

واذا وصلت الى السحائب قبله * فاعلم بأنك ما نقعت بها الصدى

(ومن غريب شعره الفاضل نور الله ضريحه)

اذا جادقلت الدهر فيها مخلد * وان جدقلت المرء ليس مخلدا

(وقال من غيرها ورتبته أجل من أن يقال له أجاد)

واذا رشت بالايادى جناحى * لمعالى العلاء مما أصيد

(وتلاعب بالمعنى فقال)

يا مالكى أنبت ريشى بالندى * لكننى مامار بى الطيران

(وقال سقى الله من غيث الرحمة ثراه)

ركبنا ربا حا من كرائم خيله * نؤم سحابا من سماء سماحه
فقل لليالى الخطب طولى او اقصرى * فانا على وعد السرى من صباحه

(وقال) نظروا الخيول فأنبتت نظراتهم * غررا عليها قدوسمن جباها
ولربما تقعة دعتهم للوغى * جعلوا صليل المرهفات صداها

(وقال من غيرها)

يا من اذا ما المال جاز بأرضه * يصفر حوف فراقه ان يذهبا

(وقال سقى الله ثراه)

سأصف أصناف القوافى بمدحه * فان القوافى فى علاه غيارى

(وقال) هذى البدايات قد نلت السماء بها * فما تظن العدا عند النهايات

الله جارك والآجال كاشرة * من القواضب عن مثل الثنيات
وقد تهادت سيوف الهند اذ خضبت * كالشرب حين تهادت بالزجاجات
(وقال) يمشون من أضيافهم وسيوفهم * ووحوشهم والطير بين عيال
(وقال) لم يبق في أيامه من فتنة * للناس الا فتنة بجمال
تسمى الرماح قنا فأما بعدما * صارت بكفك فالرماح عوال
(وقال سقى الله ثراه)
قالوا حوى قلبي في عين مدحكم * لا والذي علم الانسان بالقلم
وما خلوت بذكراكم وكان معي * ثان يثلث ذكراكم سوى الكرم
(وقال سقى الله ثراه)
غنينا عن التشبيب قدام مدحه * فاذهل وصف الليث من يصف الرشا
(وقال) الكتب تشكره عنا ولا عجب * ما تشكر السحب الا بالبساتين
(وقال) وجوه رياسة لهم وحوه * وسر الجود في تلك الاسره
تفانوا في سبيل المجد لكن * لهم ذكر أطال الله عمره
(وقال) أسرعت في جود فلست بمبطئ * وصدقت في شكر فلست بمبطل
ومدحت أهل البيت منكم بالذي * شهد الرجال بأن ذلك البيت لي
وهي السعادة في السماك فلو نشا * لطعنت منها رامحا بالاعزل
(وقال) فقل لطغاة الكفر يعوا سيوفكم * وصوغوا بأثمان لهن خلاخلا
(وقال) يقبل الارض ثغر السحب عندهم * والبرق فطرته والانجم الشنب
مكارم مذ طمى في الارض زاخرها * على الورى أقلعت من خوفها السحب
البرق في وجنتيها لمعه خجل * والرعد في حافتيها صوته صخب
ليس السحاب الذي أمطاره نطف * مثل السحاب الذي أمطاره ذهب
(وقال) أسيدنا ان جئت في الدهر آخرا * فقد جاء عيد الفطر في آخر الشهر
وتم لي التمثيل فيما ذكرته * فقد جاء عيد النحر في آخر العشر
(ومن غريب الشيخ جمال الدين بن نباتة هنا قوله)
لنا ملك قد دام عمنا هباته * فنثر العطا منه ونظم الثنا منا
يذكرنا أخبار معن بجوده * فننشي له لفظا وينشي لنا معنا
(وقال) لا عدمنا الابن الاثير براعا * جاريا للعفاة بالارزاق
كلما ماس في المهارق كالغصن رأينا الندى على الاوراق
(وقال يهني محتسبا)
تهن بها حسبة أدركت * بأيام فضلك ما ترتقب
فانك من أسرة تصطفي * وترزق من حيث لا تحتسب
(وقال رحمه الله وأجاد الى الغاية)

يارب امدد بالغنى يد سيدى * فى يومه يهب الجزيل وفى غده
فالبحر يسعى خادما فى بابه * والسحب جارية تصب على يده

(وقال أيضا وأجاد)

قد نالك يا ابن المحسنى مجودا * بأقلامه أو جائدا بمكارمه
بخاتم عند الجود فى بطن كفه * ويا قوت عند الخط فى نص خاتمه

(وكتب الى القاضى شمس الدين الهنبى وأجاد)

شكر الله أياديك التى * أنعشت حالى بشمس الهبات
أنت بالمعروف قد أحييتنى * وكذا الشمس حياة للنبات

(ومن غريب الشيخ زين الدين بن الوردى فى مديح شيخه شيخ الاسلام قاضى القضاة شرف الدين بن البارزى)

جنبتنى وأخى تكاليف القضا * وكفيتنا مرضين مختلفين
يا محى عالم دهرنا أحييتنا * فلك التصرف فى دم الاخوين

(ومنه قوله)

يا آل بيت النبى من بذلت * فى حبكم روحه فما غبنا
من جاء من بيته يسائلكم * قولوا له البيت والحديث لنا

(للشيخ برهان الدين القيراطى)

أوصافكم تسرى أحاديثها * مسرى نجوم الزهر فى الافق
كما أحاديث الندى فيكم * تسندها الركبان من طرق

(الشيخ ابراهيم المعمار)

أيا بدر المحاسن حزت جودا * وفضلا شاع بين العالمين
وكنت من الكرام فحزت حظا * فصرت من الكرام الكاتبين

(وقال)

لابن فضل الله فضل * عمر الفضل ووفى
كيف لا وهو على * علم السر وأخفى

(الصاحب فخر الدين بن مكانس)

جناب فخر الدين كهف الورى * دامت له النعماء لا تنقضى
فهو الشريف الحسن المرتضى * وخلقه ذاك الشريف الرضى

(وقال يمدح الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه)

يا ابن عم الرسول ان أناسا * قد تولوك بالسعادة فازوا
أنت للعلم فى الحقيقة باب * يا اماما وما سواك مجاز

(الشيخ بدر الدين الدمامينى فى الشهاب الفارقى وأجاد)

قل للذى أضحى يعظم حاتما * ويقول ليس لجوده من لاحق
ان قسته بسماح أهل زماننا * أخطا قياسك مع وجود الفارقى

(الشيخ

(الشيخ بدر الدين البشتكى وأجاد)

وقاس الورى بالنيل نائلك الذى * حلا وصفا والنيل يبدو مرنقا

فقلت وهل يقاس من خلقه الوفا * بمن بالوفا فى العام يوما تخلقا

(قلت) ومن غريب الاتفاق البديعى ان كسر النيل المبارك يكون فى شهر مسرى و بعد مسرى بايام يكون الكسر النيروزى فاتفق انى تمثلت لدى المواقف الشريفة المؤيدية يوم كسر النيل المبارك وقد بلغ المسامع الشريفة فى ذلك اليوم المبارك ان نوروز وصل الى غزة محاربا

(فانشدت مرتجلا ومورياً بحكاية الحال)

أيا ملكا بالله صار مؤيدا * ومنتصبا فى ملكه نصب تمييز

كسرت بمسرى نيل مصر وتنقضى * وحقك بعد الكسر أيام نوروز

(وكتبت الى الامير مرجان الخازندار وقد رسم بانعام من عنده اتقاضى ذلك)

خازن دار المؤيد انتظمت * له بيوت العلى باركان

تلقاه عند العطاء مبتسما * فانظر الى لؤلؤ ومرجان

(وكتبت الى قاضى القضاة شمس الدين الاخنائى)

أيا سيد قاضى القضاة بحكم * ليالى سطورى أقمرت فى سما طرسى

وبشرت قلبى بالمعالى لانني * وصلت باقوالى الى مطلع الشمس

(وكتبت الى المقر المرحومى الشهابى الصفدى)

كتابة سر الشام جاءت مطيعة * اليك على رغم الذى لك يحسد

ونجل ابن فضل الله أحمد ان يكن * تولى حميدا أنت والله أحمد

(وكتبت الى الشيخ شرف الدين الانطاكى شيخ الشام المحروس)

يا شرف الدين الذى بذكره * تشرفت بين الورى أشعارى

لكم تفاصيل علوم نسجها * محبر وهو طراز الزارى

فقل لمن رام يحوك مثلها * ما أنت هذا الطرح يا ابيارى

(باب المراثى)

قال عبدة بن الطبيب

لما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

(وقال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا)

لقد لامنى عند القبور على البكا * رفيقى لتذراف الدموع السوافك

وقال اتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت له ان الاسى يبعث الاسى * دعونى فهذا كله قبر مالك

(وقال رجل من خثعم وأجاد)

خلت الديار فسدت غير مسود * ومن الشقاء تفردى بالسودد

(وقال محمد بن بشر الخارجى)

نعم الفتى فجعت به اخوانه * يوم البقيع حوادث الايام
سهل الفناء اذا حللت ببابه * طلق اليدين مؤدب الخدام
واذا رأيت صديقه وشقيقه * لم تدر أيهما اخو الارحام

(وقال الاشجع بن عمرو السلمي)

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق * ولا مغرب الا له فيه مادح
وما كنت أدري ما فواضل كفه * على الناس حتى غيبته الصفائح
فاصبح في لحد من الارض ميتا * وكانت به حيا تضيق الصحاصح
سأبكيك ما فاضت دموعي فان تغض * فحسبك مني ما تكن الجوانح
فما أنا من رزء وان جل جازع * ولا بسرور بعد موتك فارح
كأن لم يمت حي سواك ولم تقم * على أحد الا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثي وذكرها * لقد حسنت من قبل فيك المدائح

(قلت) حزن هذا العربي على من رثاه استعبد له رقة ليس لها في سوق الرقيق نظير (يحيى بن زياد الحارثي)

دفعنا بك الايام حتى اذا أتت * تريدك لم نسطع لها عنك مدفعا

(ابن المقفع)

رزئنا أبا عمرو ولا حي مثله * فلله ريب الحادثات بمن تقع
فان تك قد فارقتنا وتركتنا * ذوي خلة ما في السداد لها طمع
فقد جر نفعا فقدنا لك اننا * أمنا على كل الرزايا من الجزع

(الشمردل بن شريك)

ولولا الاسى ما عشت في الناس ساعة * ولكن اذا ما شئت جاوبني مثلي

(وقال آخر) الا فليمت من شاء بعدك انما * عليك من الاقدار كان حذارنا

(وقال آخر) اذا ما امرؤ أثنى بآلاء ميت * فلا يبعد الله الوليد بن أدهما
فما كان مفراحا اذا الخير مسه * ولا كان منانا اذا هو أنعما
ونادى مناد أول الليل باسمه * اذا جحر الليل البخيل المذمما
لعمرك ما وارى التراب فعاله * ولكنه وارى ثيابا واعظما

(الحسن بن مطير الاسدي)

ألما على معن وقولا لقبره * سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة * من الارض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده * وقد كان منه البر والبحر مترعا
كانا خلقنا للنوى وكانما * حرام على الايام ان نتجمعا

(وقال أشجع بن عمرو السلمي وأجاد)

أنعى فتى الجود الى الجود * ما مثل من أنعى بموجود

أذهبي فتى مص الثرى بعده * بقيــة الماء من العود
وانثــلم المجــد به ثلمة * جانبها ليس بمســدود
فالآن تخشى عثرات الندى * وصولة البخل على الجود

(التيمي في منصور بن زياد وأجاد الى الغاية)

اوفى عليك للهفة من خائف * يبغى جوارك حين ليس مجير
أما القبور فانهن أوانس * بجوار قبرك والديار قبور
عمت فواضــله فعم مصابه * فالناس فيــه كلهــم مأجور
يثنى عليــك لسان من لم توله * خــيرا لانك بالثناء جــدير
ردت صــنائعه اليه حياته * فــكأنها من نشرها منشور
والناس مأتمهم عليه واحد * في كل دار رنة وزفــير
عجبا لاربع أذرع في خمسة * في جوفها جبــل اشم كبــير

(النابغة الجعدي)

فتى كان فيه مايسر صديقه * على ان فيه مايسوء الاعاديا
فتى كملت أخــلاقه غير انه * جواد فما يبقى من المال باقيا

(منصور النميري)

فان تك أفنته الليالي وأوشكت * فان له ذكرا سيفني اللياليا

(دريد بن الصمة يرثي أخاه)

وقالوا ألا تبكي أخاك وقد أرى * مكان البكا لكن جبلت على الصبر
أرادوا ليخفوا قبره عن عــدوه * فطيب تراب القــبر دل على القــبر

(آخر) اذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا * أجاب البكا طوعا ولم يجب الصــبر
فان ينقطع منــك الرجاء فانه * سيبقى عليــك الحزن ما بقي الدهر

(ابن المعتز) قد استوى الناس ومات الكمال * وقال صرف الدهر أين الرجال
هــذا أبو القاسم في نعشــه * قوموا انظروا كيف تزول الجبال

(ومن الغايات في هذا الباب قصيدة القاضي وهو أبو يعــلى في مخلص الدولة بن منقذ وقد اخترت منها) لقد دفن الاقوام اروع لم تكن * بمــدفونة طول الزمان فضائله
يمــر على الوادي فتثني رماله * عليه وبالنادي فتبكي أرامله
سرى نعشه فوق الرقاب وطالما * سرى جوده فوق الركاب ونائله
أفاض عيون الناس حتى كأنما * عيونهــم مما تفيض أناملــه
فيا عــين سحي لا تشحي بسائل * على ماجد لم يعرف الشح سائله
مجالسه في روضة ظلها الندى * ولكنه في المجدمات مساجــله
جرت تحته العلياء ملء فروجها * الى غاية طالت على من يطاوله
صفوح عن الجاني وصفحة سيفه * اذا هي لم تقتــله فالصفح قاتله

فلا رحلت عنه نوازل رحمة * ضحاه بها موصولة وأصائله
وروى ثراه منهل العفو في غد * فقد دروت العافين أمس مناهله

(واخترت من قصيدة مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة رحمه الله تعالى قوله)

مضى معن بن زائدة وأبقى * مكارم لن تبيد ولن تنالا
فان يعلو البلاد به خشوع * فقد كانت تطول به اختيالا
وكان الناس كلهم لمعن * الى ان زار حفرته عيالا

(وقال فيه الحسن بن مطير وهي من أبيات الحماسة)

ألما على معن وقولا لقبره * سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن كيف واريت جوده * وقد كان منه البر والبحر مترعا
ويا قبر معن أنت أول حفرة * من الارض خطت للمكارم مضجعا
كأنا خلقنا للنوى وكأنما * حرام على الايام أن نتجمعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت * ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
ولما مضى معن مضى الجود وانقضى * وأصبح عرنين المكارم أجدعا

(البحتري يرثي كافي الكفاة)

مضى من اذا ما أعوز البذل والحيا * أصبنا جميعا من يديه وفيه
ثوى الجود والكافي معا في حفيرة * ليأنس كل منهما بأخيه

(آخر يرثي القاضي الباقلاني)

انظر الى جبل تمشي الرجال به * وانظر الى القبر ما يحوي من الصلف
وانظر الى صارم الاسلام مغتمدا * وانظر الى درة الاسلام في الصدف

(ابن العلاف يرثي المبرد وأجاد)

ذهب المبرد وانقضت أيامه * وليذهبن اثر المبرد ثعلب
فتزودوا من ثعلب فبكاس ما * شرب المبرد عن قليل يشرب
وأرى لكم ان تكتبوا أنفاسه * ان كانت الانفاس مما تكتب

(جحظة البرمكي يرثي ابن دريد)

فقدت لابن دريد كل فائدة * لما غدا ثالث الاحجار والترب
وكنت أبكي لفقد الجود منفردا * فصرت أبكي لفقد الجود والادب

(آخر وأجاد)

والصبر يحمد في المواطن كلها * الا عليك فانه مذموم

(قلت) ومما يشعر بقرينة الذوق ان الناظم النحل يريد الرثاء من براعة استهلاله من غير تصريح قال التهامي في قصيدته التي سارت بها الركبان في رثاء ولده (وهي)

حكم المنية في البرية جار * ما هذه الدنيا بدار قرار
ومكلف الايام ضد طباعها * متطلب في الماء جذوة نار

طبعت على كدر وأنت تريدها * صفوا من الاقذاء والاكدار

واذا رجوت المستحيل فانما * تبني الرجاء على شفير هار

فالعيش نوم والمنية يقظة * والمرء بينهما خيال سار

ما أعلم أحداً استهل في المراثي بأحسن من هذه البراعات البديعة (منها) يشير الى موت ولده وهو من المعاني المستغربة

جاورت أعدائي وجاور ربه * شتان بين جواره وجواري

(وقصيدة أبي تمام أيضا في أبي نصر بن حميد من المختارات في هذا الباب وقد اخترت منها)

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر * فليس لعين لم تفض ماءها عذر

وما كان الا مال من قل ماله * وذخرا لمن امسى وليس له ذخر

وما كان يدري مجتدي جود كفه * اذا ما استهلت انه خلق العسر

فتى دهره شطران فيما ينوبه * ففي بأسه شطر وفي جوده شطر

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة * تقوم مقام النصر اذ فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه * من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

غدا غدوة والحمد نسج رداه * فلم ينصرف الا واكفانه الاجر

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى * لها الليل الا وهي من سندس خضر

كأن بني نبهان يوم وفاته * نجوم سماء خر من بينها البدر

وأنى لهم صبر عليه وما مضى * الى الطعن حتى استشهدا هو والصبر

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة * ولكن كبرا أن يقال به كبر

فتى سلبته الخيل وهو حمى لها * وبزته نار الحرب وهو لها جمر

اذا شجرات العرف جذت أصولها * ففي أي عود يوجد الورق النضر

وكيف احتمالي للسحاب صنيعة * باسقائها قبرا وفي لحده البحر

مضى طاهر الاثواب لم تبق روضة * غداة ثوى الا اشتهت انها قبر

عليك سلام الله وقفا فانني * رأيت الكريم الحر ليس له عمر

(ومن شعر أبي نواس يرثي الامين وأجاد)

وكنت عليه أحذر الموت وحده * فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

(مثله قول ابراهيم الصولي يرثي ابنه)

أنت السواد لمقلة * تبكي عليك وناظر

من شاء بعدك فليمت * فعليك كنت أحاذر

(ومثله قول مطيع بن اياس)

فاذهب بمن شئت اذ ذهبت به * ما بعد يحيى في الرزء من ألم

(مسلم) بن الوليد في يزيد بن مزيد وقيل ان البيت الثاني أبلغ شيء قيل في المراثي البديعة

سلكت بك العرب السبيل الى العلى * حتى اذا سبق الردى بك حاروا

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة * أثنى عليها السهل والاوعار

(حكى) عن الشهاب محمود سقى الله من غيث الرحمة ثراه انه دخل على قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان نور الله ضريحه يعوده فى المرض الذى توفى فيه الى رحمة الله تعالى فأنشده رثاء فى نقيب الاشراف ببغداد (وهو)

قد قلت للملك المولى غسله * هلا اطاع وكنت من نصحائه
جنبه ماءك ثم غسله بما * أذرت عيون المجد عند بكائه
وأزل مجاميع الحنوط ونحها * عنه وحنطه بطيب ثنائه
ومر الملائكة الكرام بحمله * شرفا ألست تراهم بازائه
لاتوه أعناق الرجال بحمله * يكفى الذى حملوه من نعمائه

(قال) الشهاب محمود فلما خرجت من عنده اختلج فى صدرى انه أحق الناس بهذا الرثاء البديع فاتفق انه توفى الى رحمة الله تعالى فى ذلك الاسبوع (قلت) ولكن بالنسبة الى ما ألهمنى الله من الذوق ان هذا الرثاء نسيج وحده وواسطة عقد لم ينسج متأدب على منواله ولا سمحت قريحة بمثاله وأنا بالاشواق الى معرفة الناظم رحمه الله تعالى (قلت) ومن المراثى التى لم ينسج أيضا على منوالها رثاء أبى الحسن محمد بن عمر بن يعقوب الانبارى فى أبى طاهر محمد بن محمد بن بقية الملقب نصير الدولة وزير عز الدولة بن بويه لما قتل عز الدولة وملك عضد الدولة بغداد فصلبه (فقال ابن الانبارى)

علو فى الحياة وفى الممات * لحق أنت احدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا * وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا * وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء * كمدكها اليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الارض عن ان * يضم علاك من بعد الممات
اصاروا الجو قبرك واستنابوا * عن الاكفان ثوب السافيات
لعظمك فى النفوس تبيت ترعى * بحراس وحفاظ ثقات
وتشعل عندك النيران ليلا * كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبل زيد * علاها فى السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيها تأس * تباعد عنك تعيير العداة
ولم أر قبل جذعك قط جذعا * تمكن من عناق المكرمات
أسأت الى النوائب فاستثارت * فانت قتيل ثار النائبات
وكنت تجير من صرف الليالى * فعاد مطالبا لك بالترات
ولو انى قدرت على قيام * بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الارض من نظم القوافى * ونحت بها خلاف النائحات
ولكنى أصبر عنك نفسى * مخافة ان أعد من الجناة
ومالك تربة فأقول تسقى * لانك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى * برحمات غواد رائحات

(ولم يزل) ابن بقية مصلوبا الى ان توفي عضد الدولة فانزل عن الخشبة ودفن في موضعه (فقال فيه ابن الانبارى صاحب المرثية المذكورة)

لم يلحقوا بك عارا اذ صلبت لهم * لكنهم غلطوا فاسترجعوا ندما
وأيقنوا انهم في فعلهم غلطوا * وأيقنوا أنهم نصبوا من سودد علما
فاسترجعوك وواروا منك طود علا * بدفنه دفنوا الافضال والكرما
لئن بليت لما يبلى نداك ولا * ينسى وكم هالك ينسى اذا قدما
تقاسم الناس حسن الذكر فيك كما * تركت مالك بين الناس مقتسما

(قال) الحافظ ابن عساكر لما صنع ابن الانبارى المرثية الاولى كتبها ورماها في شوارع بغداد فتداولها الناس الى ان وصل الخبر الى عضد الدولة (فلما) أنشدت بين يديه تمنى ان يكون هو المصلوب دونه (فقال) علي بهذا الرجل وطلبه سنة كاملة واتصل الخبر بالصاحب ابن عباد وهو بالرى فكتب له الامان (فلما) سمع ابن الانبارى بذلك قصد حضرته فقال له أنت القائل هذه الابيات قال نعم قال أنشدنيها من فيك (فلما أنشد)

ولم أر قبل جذعك قط جذعا * تمكن من عناق المكرمات

(قام) اليه الصاحب وعانقه وقبل فاه وانفذه الى عضد الدولة (فلما) مثل بين يديه قال له ما الذى حملك على مرثية عدوى فقال حقوق سلفت وأياد مضت فجاش الحزن في قلبي فرثيته فقال بحضرك شئ في الشمع والشموع تزهر بين يديه (فأنشد ارتجالا)

كأن الشموع وقد أظهرت * من النار في كل رأس سنانا
أصابع أعدائك الخائفين * تضرع تطلب منك الامانا

(فلما) سمعها خلع عليه وأعطاه فرسا وبدرة انتهى كلام الحافظ ابن عساكر (قلت) قوله في الابيات

ونلت مطية من قبل زيد * علاها في السنين الماضيات

(هذا) زيد هو أبو الحسين زيد بن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهم وكان قد ظهر في أيام هشام بن عبد الملك ودعا الى نفسه فبعث اليه يوسف بن عمر الثقفى والى العراقين يومئذ جيشا فرماه رجل منهم بسهم فأصابه فمات وصلب بأرض الكوفة ونقل رأسه الى البلاد وهو صاحب المشهد الذى بين مصر وبركة قارون بالقرب من جامع طولون يقال ان رأسه مدفون به والله تعالى أعلم (وقد) أجمع الناس ان هذه القصيدة غريبة في بابها (ومن الغريب أيضا في مصلوب)

كأنه عاشق قد مد ساعده * يوم الفراق الى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته * مواصل لتمطيه من الكسل

(ومن غريب ما قيل في مصلوب)

ومد على صليب الصلب منه * يمينا لا تطول الى الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب * دعاه الى الغواية والضلال

(قلت) ومن الغريب في هذا الباب نوع الافتنان وهو الجمع بين الرثاء والمدح في البيت الواحد (لان) ذلك انه لما مات القادر بأمر الله جلس ابنه القائم بأمر الله فأول من بايعه

الشريف أبو القاسم المرتضى (وأنشده)

فان مامضى جبل وانقضى * فمنك لنا جبل قد رسا
وان ما فجعنا ببدر التمام * فقد بقيت منه شمس الضحى
فكم حزن فى محل السرور * وكم ضحك فى خلال البكا

(ولما) مات الرشيد والفضل مستقر على وزارته كتب اليه أبونواس يعزيه فى الرشيد ويهنئه بولاية الامين

تعز أبا العباس عن خير هالك * باكرم حى كان أو هو كائن
حوادث أيام تدور صروفها * لهن مساو مرة ومحاسن
وفى الحى بالميت الذى غيب الثرى * فلا أنت مغبون ولا الموت غابن

(ولما) مات أبو الامير جلال الدولة بن مرداس صاحب حلب وهو جلال الدين محمود بن نصر واستقر ولده جلال الدين المشار اليه أنشده ابن جيوش قصيدة (اخترت منها)

صبرنا على حكم الزمان الذى سطا * على انه لولاك لم يكن الصبر
غزانا ببؤسى لا يماثلها الاسى * تقارن نعمى لا يقوم لها الشكر
وانجز لى رب السموات وعده الكريم بان العسر يتبعه اليسر

(والذى) أقوله ان الشيخ جمال الدين بن نباتة سقى الله تعالى من غيث الرحمة ثراه هو نبات هذا البستان وفارس هذا الميدان وان كان متأخرا فقد أحرز قصبات السبق على من تقدمه من الفحول فى هذه الحلبة بقوله معزيا فى وفاة الملك المؤيد صاحب حماة المحروسة ومهنئا بولاية ولده الملك الافضل

هناء محا ذاك العزاء المقدما * فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع * شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
ترد مجارى الدمع والبشر واضح * كوابل غيث فى ضحى الشمس قد همى

(واخترت من قصيدته التى رثى بها الملك المؤيد قوله)

ما للندى لا يلبى صوت داعيه * أظن ان ابن شادى قام ناعيه
ما للرجاء قد اسودت مذاهبه * ما للزمان قد اسودت نواحيه
وا روعتا لصباح من رزيته * أظن ان صباح الحشر ثانيه
واحسرتاه لنظمى فى مدائحه * كيف استحال لنظمى فى مراثيه
أبكيه بالدر من جفنى ومن كلمى * والبحر أحسن ما بالدر أبكيه
أروى بدمعى ثرى ملك له شيم * قد كان يذكرها الصادى فترويه
أذيل ماء جفونى بعده أسفا * لماء وجهى الذى قد كان يحميه
ليت الحمام حبا لا يام موهبة * فكان يفنى بنى الدنيا ويبقيه
اعزز على بان التى عوارفه * ملء الزمان وانى لا ألاقيه
أعزز على بان تبلى شمائله * تحت التراب وما تبلى أياديه
لهفى وهل نافعى لهفى على ملك * بات الغمام على الآفاق يبكيه

لهفى

اهفى عليه الجود كان يحبه * فيه الملام كأن اللوم يغريه
ما حلف ابن على من ذخائره * الا ثنا أضحت الدنيا تواليه
كان المديح له عرس بدولته * فأحسن الله للشعر العزا فيه
أفى المؤيد تبر الدمع من بصرى * وتلك عادته فى التبر يفنيه
هذى المنازل والدنيا معطلة * كأنها اللفظ خال من معانيه
مهنأ بجنان الخلد يدخلها * ونحن نصلى بنار من تنائيه

(وقال فيه) الا فى سبيل الله نصل عزائم * وعلم غدا فى باطن الترب مغمدا
على الرغم مما ان خبا منه رونق * وجاوبنا من حول تربته الصدى

(وقال فى ولده الافضل)

مضى الأفضل المرجو للفضل والندى * وصحت على رغم العفاة وفاته
وماما ت اذ ماتت بحزن نساؤه * وماتت بأحزان البلاد حماته

(ومثله على طريق التورية قول الصاحب بن عباد فى رثاء كثير بن أحمد الوزير)

يقولون قد أودى كثير بن أحمد * وذلك رزء فى الانام جليل
فقلت دعونى والعلا نبكه معا * لمثل كثير فى الزمان قليل

(ومثله قول الشيخ جمال الدين بن نباتة فى ولده)

يالهف قلبى على عبد الرحيم ويا * حزنى عليه ويا شجوى ويا دائى
فى شهر كانون واراه الحمام لقد * أحرقتنى بالنار يا كانون احشائى

(وقال فى رثاء طفل له) بدا وفى حاله توارى * فيالها طلعة شريفه
جوهرة ما عملت الا * دموع عينى لها عقيقه

(ومثله فى رثاء ولد له لم يكمل له الحول)

يا راحلا من بعد ما أقبلت * مخايل للخير مرجوه
لم تستكمل حولا وأورثتنى * ضعفا فلا حول ولا قوه

(ومثله قوله) قالوا فلان قد جفت افكاره * نظم القريض فما يكاد يجيبه
هيهات نظم الشعر منه بعدما * سكن التراب وليده وحبيبه

(ومثله قولى فى رثاء مولانا المقر الاشرف القاضوى الناصرى محمد بن البارزى الجهنى الشافعى صاحب ديوان الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية نور الله تعالى ضريحه)

لفقدك يا ابن البارزى تهدمت * بيوت المعالى ما لها من مشيد
وما خلب الاكباد حزن مبرح * كحزن أبى بكر لفقد محمد

(باب الفخر)

(قال الاصمعى أفخر بيت قالته العرب قول امرئ القيس)

ما ينكر الناس منا حين نملكهم * كانوا عبيدا وكنا نحن أربابا

(وقال الاحوص) انى اذا خفى الكرام وجدتنى * كالشمس لا تخفى بكل مكان
(وقال امرؤ القيس) وشمائلى ما قد علمت وما * نبحت كلابك طارقا مثلى

(عنترة) واذا شربت فانني مستهلك * مالي وعرضي وافر لم يكلم

واذا صحوت فما أقصر عن ندى * وكما علمت شمائلي وتكرمي

(ويعجبني في الفخر قول القائل)

اذا نحن سرنا بين شرق ومغرب * تحرك يقظان التراب ونائمه

(الطرماح) لقد زادني حبا لنفسي انني * بغيض الى كل امرئ غير طائل

واني شقي باللئام ولن ترى * شقيا بهم الا كريم الشمائل

(أبو هفان وأجاد)

أبونا أب لو كان للناس كلهم * أبا واحدا أغناهم بالمناقب

(الامير أبو فراس)

تهون علينا في المعالي نفوسنا * ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر

(بعض آل حمدان وأجاد)

أعمام مايدريك ما أعمالنا * والخيل تحت النقع كالاشباح

تطفو على لجج الدماء كأنها * صور الفوارس في كؤس الراح

(المتوكل الليثي)

لسنا وان أحسابنا كرمت * يوما على الاحساب نتكل

نبني كما كانت أوائلنا * تبني ونفعل مثل مافعلوا

(اسحق بن ابراهيم الموصلي)

عطست بانفي شامخا وتناولت * يداي الثريا قاعدا غير قائم

(القاضي الجرجاني)

يقولون لي فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن جانب الذل أحجما

اذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى * ولكن نفس الحر تحتمل الظما

(وغاية الغايات في هذا الباب قول عبد المطلب)

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة * ولو تسلت أسلناها على الاسل

لا ينزل المجد الا في منازلنا * كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

(قلت) قد عن لي ان أحبس عنان القلم عن الاستطراد في ميادين الفخر واقتصر هنا على قصيدة القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك فانها وان تأخر عصر ناظمها فقد سبقت الى كل غايه ولم ترفع لعرابة عند مجدها رايه (وهي)

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى * وغيري يهوى ان يكون مخلدا

ولكنني لا أرهب الدهر ان سطا * ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا

ولو مد نحوي حادث الدهر طرفه * لحدثت نفسي ان أمد له يدا

توقد عزمي يترك الماء جمرة * وحلية حلمي تترك السيف مبردا

وفرط احتقاري للأنام لانني * أرى كل عار من حلى سؤددي سدى

وأظمأ ان أبدى لي الماء منة * ولو كان لي نهر المجرة موردا

ولو

ولو كان ادراك الهدى بتذلل * رأيت الهدى ان لا اميل الى الهدى
وقدما بغيري أصبح الدهر أشيبا * وبي بل بفضلي أصبح الدهر أمردا
وانك عبدي يا زمان وانني * على الكره مني ان أرى لك سيدا
وما أنا راض انني واطئ الثرى * ولي همة لا ترتضي الافق مقعدا
ولو علمت زهر النجوم مكانتي * لخرت جميعا نحو وجهي سجدا
أرى الخلق دوني اذ أراني فوقهم * ذكاء وعلما واعتلاء وسوددا
وبذل نوال زاد حتى لقد غدا * من الغيظ منه ساكن البحر مزبدا
ولي قلم في أنمل قد هززته * فما ضرني ان لا أهز المهندا
اذا صال فوق الطرس وقع صريره * فان صليل المشرفي له صدى

﴿باب الغزل﴾

(قلت) هذا النوع أعني الغزل ملأ بكثرته الدواوين والمجاميع وأفعم أفواه الرواة وضاق عنه فضاء الاحصاء ورأيت لطف هذا التأليف وحشمته لم يحمل ثقل عقادة تركيب ولا سفالة لفظ ولا حوشي لغة فتمثلت هنا (بقول القائل)

ميلوا الى سهل الكلام فانه * من خاف مال الى الطريق الاوعر

(وما) خفي ان المتأخر يحتاج الى صحة ذوق وصفاء ذهن ودقيق فهم وصحة تمييز وحسن هذا الذوق انما هو أمر الهامي ليس مما يكتسب ولكن يختص من صدر من أديب به فتأدب فاذا اختار شيأ أورده نزه الناس في حدائق وروده وكان نعم الواسطة فيما أحكمه من نظم عقوده

لما كل دار أقفرت دارة الحمى * ولا كل بيضاء الترائب زينب

(وجل) القصد هنا تأهيل الغريب وتقديم ما علا نسبه في النسيب

من كل معنى يكاد الميت يفهمه * حسنا ويعبده القرطاس والقلم

(ومذهبي) في هذا التأليف اني اذا تخيرت بيتا سبق ناظمه الى معناه فلوجهين (أحدهما) وهو الاقوى انه رشحه وأزال عقادته وسبكه في أحسن من قالبه الاول واحكم ترتيبه (والثاني) هو والله أعلم ان تكون الواردة قد اتفقت لهما كما جرى لامرئ القيس ولطرفة بن العبد في البيت الذي في معلقتيهما (وهو قول امرئ القيس)

وقوفا بها صحبي على مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجمل

(وقال طرفة)

وقوفا بها صحبي على مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجلد

(فلما) تنافسا في ذلك أحضر طرفة بن العبد خطوط أهل بلده في أي يوم نظم البيت فكان اليوم الذي نظما فيه واحدا (وقد) يقع مثل ذلك في البيت الواحد والوجه الاول سماه علماء البديع حسن الاتباع وقالوا هو ان يأتي الناظم بمعنى اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه بحيث يختصه بوجه من الزيادة التي توجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدم باختصار حشو أو ضرورة وزن أو عذوبة لفظ أو تمكين قافية أو تتميم نقص أو تحليه من البديع توجب الاستحقاق

(وقد) نعين ان نقيم لهذه الدعوة شاهدا نثبت به عند قضاة الادب الحجة (قال جرير)

اذا غضبت عليك بنو تميم * حسبت الناس كلهم غضابا

(وقال أبو نواس)

وليس لله بمستنكر * ان يجمع العالم في واحد

فزاد أبو نواس على جرير زيادات حسنة منها قصر الوزن وحسن السبك واخراج كلامه من الظن الى اليقين وأيضا ان ذكر العالم أعم من ذكر الناس في بيت جرير

(يقول مصححه من على مولاه اعتمد أحمد البيوسي بن المرحوم حسن عبد الصمد)

ان أعلى ما تزينت به كتب الأدباء وأغلى ما جرت به جياد البراعة في مضمار الالباء حمد من جعل الفصحاء بمجال المجد وجعل مراتب البلغاء في فلك السعد والصلاة والسلام على من أصبح به برد البلاغة موشى وبديع الكلام بحلى فصاحته مغشى وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه (وبعد) فقد تم طبع هذا الجزء الشريف المشتمل على حلو النوادر ولذيذ الكلام اللطيف أسفر عن كتاب ثمرات الاوراق الذى حلا فى الاذواق السامية وراق تتشنف المسامع بدرر فرائده وتحتلى الافكار بغرر فوائده وتنجذب اليه خواطر الجهابذه وتنشرح به صدور التلامذه يفوق بحسنه كل مؤلف ويروق برونقه على كل مصنف فان استوفيت اقتطاف ثمرات هذه المعاني فتنزه طرفك فى ذيله الاول والثانى تنكشف عنك الغمه وتستفيد فوائد جمه وما أحلى ما ختمت به من كتاب تأهيل الغريب الآتى من كل فن مطرب عجيب ما رأيت أكمل منه فى فصاحة الالفاظ وتمكن القوافى ولا أكثر تناسبا على كثرة ما فى الاشعار من التباين والتنافى ولا أملك للقلوب والاسماع ولا أجمع للاغراب والابداع يزداد حسنا على التكرير والترديد ويطرب عند قراءته المبتدئ والمعيد فيالله اى حوى هذا السفر نفائس كتب أربعه بلطائف الادب ومحاسنه مترعه يتنافس فى اقتنائها المحصلون ويتباهى بتحصيل فوائدها الراغبون ترتع النبلاء فى بساتين رياضها وترتوى من زلال غدرانها وحياضها ولا غرو فان جامع حوزتها من تفتخر به الامصار وتبتهج به الاقطار فضله غير منكور ومهارة علمه أمرها مشهور الامام العالم الهمام علامة الاعلام حجة العرب وترجمان الادب قاضى قضاة البلاغة فيما جل وخفى تقى الدين أبو بكر بن حجة الحنفى منشئ دواوين الانشاء بممالك الاسلام بوأه الله دار السلام بسلام وكان طبعه الناضر ووضعه الانيق الظاهر بالمطبعة الوهبية العامره التى هى بالمحاسن ظاهره وقد طلع بدر تمامه وفاح مسك ختامه فى أواسط جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ ثلثمائة وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف صلى الله عليه وعلى كل منتم اليه